
www.kotobarabia.com
www.kotobarabia.com
الشوارع الخلفية
عبد الرحمن الشرقاوي

الشوارع الخلفية

عبد الرحمن الشرقاوي

لكل منا شيء يحتفظ به، ويكتمه عن الآخرين، ولا يحب أن يعرفه أحد غيره.. شيء ما خاص جدا.. ربما كان سـره أو حقيقته.

ونحن نمضي في حياتنا حريصين في الغالـب علـى أن نكون صادقين، فلا نخدع على الإطلاق، ونطلب الشيء نفسه من الذين يتعاملون معنا...

ثم.. حين يخيل إلينا أننا أصـبحنا واضـحين، وأن كـل ما أمامنا مستقيم ومبين ومفهوم، إذ بنا ندرك بغتـة أن فـي الأعماق منا أشياء غامضة عديدة: حكايا لم ينفذ إليها شعاع، ولم تضئ بعد.. شوارع خلفية في نفوسنا هي عـالم بأسـره غريب عنا، يعيش فيه حلم صغير جامح لم يتحقـق.. نـزوة ارتكبناها في وقت ما.. أحقاد مبهمة.. أطمـاع.. انفعـالات مكبوتة أو أي شيء آخر لا نتبينه نحن، ولكنه يحكم كثيـرا من عواطفنا وتصرفاتنا، دون أن ندري!

والذي يحسب منا أنه يقرأ صاحبه كأنما هو كتاب مفتوح، يكتشف فجأة – من خلال كلمة أو ضحكة أو ربما دمعـة – أن في صاحبه أشياء لا تزال مجهولة، تعيش وتنمو خفيـة.. وهذا يحدث حتى بين الأزواج الذين تختلط منهم العواطـف والتنهدات والأبدان والأنفاس وحبات العرق لسنوات طوال.. ويحدث أيضا مع أطفالنا.. أبنائنا وإخواننا الصغار.. وطالما انتبهنا فإذا نحن أمام حقائق مذهلة تتفجر بها الأجساد الغضة التي عرفناها وشهدنا تدرجها في العمر يوما بعد يوم...

ذلك أننا لا نصنع من نفوسنا في الواقع غير الشكل الـذي نختاره ونحبه ونحرص على أن نظهره، ويظل منا بعد ذلـك ما لا حيلة فيه.. ولا خيار!

وفي حياتنا، حتى في حياة كل يوم، تنتشر الظلال لبعض الوقت وعندما تسود الظلال في حياتنا، تضـطرب الأشـياء الثابتة وتتميع الحدود.. ولا حدود في الظلال!

إذ ذاك يختلط الأبطال بالمزيفين، ويتوجس الذين يملكون الكلمة الصادقة قبل أن ينطقوا بها، لأن صدى كلمتهم يخلـع كثيرا من القلوب.. ويرتفع كلام له رنين خـادع، وينحنـي بعض الناس احتراما للخليعات – فالليل يستر مباذلهن – بينما

يرجمون فتاة شريفة طاهرة بعد أول خطيئـة.. ذلـك أنهـا ارتكبتها في النهار فعرفوا خطيئتها!.. ومثل هذا يحدث أيضا مع الرجال!..

وفي مثل هذه اللحظات تستخفي الحقائق وتشوه البسـالة وتصبح الفضيلة عـاجزة بلهـاء، تـنطمس همهمتهـا فـي الضحكات العابثة، ويمحي الخـط الفاصـل بـين الحماقـة والكبرياء، بين الحب والرغبة، بـين الشـعوذة والجسـارة، وتتسلل العواطف المحتدمة التناقض لتحجب الطريـق أمـام بعض العيون، ويتخبط كثيرون في الطريق إلى المجهـول.. ويبقى بعض الناس – على الرغم من كـل ذلـك – مـدركا لمسئولية الكلمة التي يحملها، محتفظا بالشجاعة الكافية لكـي يلقي بكلمته في وجه الخطر نفسه مهما تكن النتيجة..

يظل بعض الناس قادرا على التمييز ومعرفة الاتجاه وسط الزحام المتموج فترتفع من بين تـراب الانهيـار، مواقـف مضيئة... كأنما هي المنارات الراسخة تصفع بنورها وجـه العواصف والظلمات، وتبعث أمل الخلاص في قلوب الـذين يكابدون صراع الخفاء..!

عبد الرحمن الشرقاوي

الشوارع الخلفية

(١)

"شكري عبد العال" هو أحد هؤلاء الناس الذين لم يفقـدوا الثقة يوما، ولم تغب الابتسام أبدا عن وجهه النحيل الأسـمر المليء بالغضون منذ قال كلمته ذات مرة في وجـه رئيسـه الضابط الإنجليزي، وتحرك، فضـربه بالكرسـي... مـن يومها – إلى هذا اليوم من أكتوبر سنة ١٩٣٥ – وهو علـى المعاش... جمدت به الحياة عند رتبة اليوزباشي فأقـام فـي بيته بشارع عزيز، مهيبا صامدا، يحـتفظ بارتفـاع قامتـه الطويلة المديدة، وبالضوء الخـارق المنبعـث مـن عينيـه الواسعتين، وبرأس لا ينحنـي، وبصـوت مـازال واضـح النبرات، قويا عريضا خشنا.

"وشكري عبد العال" هو صاحب أول بيـت فـي شـارع "عزيز" يشعر منذ بنى بيته أنه مسئول عن كل الذين جـاءوا إلى الشارع من بعد وبنوا فيه... والحقيقة أن كل من جـاءوا إلى الشارع لقوا من مساعدته ما لم يتوقعوا... وهـو يقـدم

خدماته للآخرين، كأنما هو ينهض بمسئولية حبيبة يجد لـذة خفية رائعة في النهوض بها.

على أنه لم يكن يريد أن يعيش في هذا الركن المنـزوي من بركة الفيل...

وكان يحلم من قبل، أن يبني بيتا بحديقة صـغيرة، فـي الحلمية الجديدة أو الروضة أو العباسية كما صـنع ضـباط آخرون.. ولكن والد زوجته الباشـكاتب بـدائرة "البـرنس عزيز"، اكتشف من بين أملاك البرنس قطعة أرض واسـعة مليئة بالرمل والنخل وراء الطريق الرئيسي الذي يصل بـين السيدة زينب والحلمية الجديدة، فأقنع المسئولين في الـدائرة بإحياء هذه الأرض، وبدأت الدائرة تضع أساس عمارة على شقتين في أول الأرض من ناحية الشارع الرئيسي الموصـل بين السيدة والحلمية... وراق المكان للباشكاتب فاشترى قطعة أرض بجوار عمارة الدائرة وأهداها لابنته الوحيـدة زوجـة "شكري"، وقبل أن تفرغ الدائرة من بناء عمارتهـا، خلـص "شكري" من بناء بيت بطابقين، وهيأ حوله حديقـة صـغيرة وغرس أشجار اللبلاب والياسمين والفل حول سورها، ولكن امرأته رأت زواحف في الحديقة فرفضت أن تسكن الطـابق

الأول، وأخافتها وحشة الليل في المكان، وحلا فـي عينهـا الطابق الثاني، وحلا في عين "شكري" أيضا فسكن فيه وأجر الطابق الأول...

وعندما مات الباشكاتب صهر "شكري عبد العال" عـرف هو من الباشكاتب الجديد أن بقية ثمن الأرض لم تدفع بعـد، ورفض عرضا بالتنازل قدمه الباشكاتب الجديد، وبنـى مـن مال زوجته دورا ثالثا تسكنه الآن "سعادة هانم".. وهي أرملة موظف كبير جاءت يوما بابنها وبنتها تبحث فـي الشـارع الجديد عن مسكن معقول.

وجاء موظفون من الدائرة يعاينون الأرض، وطاب لهـم سعرها، فاشترى "داود أفندي" الكاتب بالدائرة، بالاشتراك مع حماته قطعة كبيرة تواجه عمارة الدائرة، ولكنه لم يستطع أن يبنيها كلها، فأقام بيتا صغيرا من طابق واحد سكن فيه هـو وزوجته وأولاده وحماته وترك بقيـة الأرض حتـى يـأتي الفرج، وعرض عليه زميله "أمين أفندي" الكتاب بالدائرة أن يشتري جزءا منها فرفض، ورفض كثيرا من العروض بعـد ذلك، لأنه لم يتفق هو وحماته أبدا على أي سعر يعـرض...

وأخيرا أقسم ألا يبيع الأرض، وأن ينتظر التسـاهيل ليبنـي عليها عمارة أحسن من عمارة الدائرة...

وعاد أمين أفندي بعد سنوات بزوجـة صـغيرة حسـناء ليبحث عن أرض في الشارع، فلم يجد غيـر قطعـة أرض صغيرة في آخر المنطقة من ناحية حارة ضيقة توصل إلـى درب الجماميز، فاشتراها أمين أفندي، وفرحت بها زوجتـه التي لفتت الأنظار بجمالها وصغر سـنها.. وزحـف علـى المساحة المقررة لعرض الشارع وبنى أمام بيـت "شـكري عبد العال" تماما بيتا على شقتين كعمارة الدائرة، ولم يستطع أن يرتفع بالبناء غير طابقين اثنين سكن هو في شـقة مـن الطابق الثاني وأجر الشقق الثلاث الأخرى..

وكان "شكري" كلما فتح شباكه، ووجد رأسه يكـاد يطـل على غرفة نوم المالك الجديد، همس لنفسه:

- ا يلعنك يا أمين ويلعن طمعك.. وا خسـارة فيـك مراتك ميمي... دي لسه صغيرة واللي قدها بيلعبوا النطة في الشارع... حايعلمها الطمع وفراغة العين!

على أن البيوت لم تكد تقوم حتى ثـارت مشـكلة اسـم الشارع الجديد... وفكرت الدائرة أن تسميه حـارة "إبـراهيم

باشا الكبير" على اسم الدرب المجاور الـذي يوصـل بـين المكان الجديد ودرب الجماميز... وشاع الاسم فعـلا بعـض الشيء...

وصرخت "ميمي" زوجة "أمين أفندي" في وجهـه عنـدما انتهى من بناء البيت:

- هو أنا وش حواري؟!... ما كله من طمعك... أنت ضيقت الشارع وخليته زي الزقاق.. والنبي ما أقعد هنا أبدا.. دا أنا بيت بابا المِلْك في أحسنها شـارع في المنصورة... جاي تبني لي في حارة؟!

وبكت زوجة "داود أفندي" الكاتب بدائرة "البرنس عزيـز" وذهبت إلى قريبها الباشكاتب الجديد تشكو إليـه مـن حكـم الدائرة عليها – هي التركية حفيدة الباشوات – أن يكون بيتها في حارة!

ولكن "شكري عبد العال" أحضر لوحتين مـن الصـفيح الأزرق، وكلف أحد الخطاطين أن يكتب عليهما اسم شـارع "عزيز"، وعلق واحدة منهما على أول بيت في الشارع مـن ناحية الطريق الرئيسي وهو بيت "داود أفنـدي"، والأخـرى على بيت "أمين" الذي يقع في أول الشـارع مـن الناحيـة

الأخرى... ومضى أهل الشارع يدعون له بالهيبة والسـتر، وأخذ هو يروح ويجيء حتى ترك للشارع اسمه: كما هـو: شارع عزيز!..

ولم يكد اسم الشارع يستقر، وأقدام "شكري عبـد العـال" ترسخ فيه حتى أحيل على الاستيداع...

***

وهو الآن، ومنذ عشرة أعوام يعيش على معاشه وعلـى أجرة الطابقين الأول والثالث..

وحكاية خروجه من الجيش يعرفها أهل الشارع جميعـا، هو نفسه حكاها مرات بلا تفاصيل... حكاها في كل مناسـبة تتطلب تضحية... ولكن كل واحد في الشارع يرويها بطريقته الخاصة.

بعض طلبة الشارع حين يقفون على الناصية بعد العصر، يذكرونها كلما مرت "درية" بنت "شكري عبد العال" عائدة من المدرسة السنية الثانوية بنفس خطوات أبيها الثابتة، وبـنفس القامة الشامخة والوجه المستطيل الأسمر الصـافي الرائـق الابتسامة... وطلبة الشارع يذكرون هـذه الحكايـة بصـفة

خاصة في هذه الأيام من أواخر سبتمبر سنة ١٩٣٥، وكأنها تحرك صمت حياتهم.

وهم يحكون الحكاية بتفاصيل متغايرة في كل مرة، ولكن بإكبار وفرح متجدد وإعجاب لا يفقـد حرارتـه، وإحسـاس فخور بالمقدرة على أن يواجه رجال آخرون من مصر كـل إنجليز الدنيا..!

وطلبة الشارع يذكرون فيما بينهم دائما ما يصـنعه العـم "شكري أفندي" حين يرى واحدا منهم يسير منحنيا أو يـتكلم بصوت واطئ. إذ يزمجر فيه والبريق يسـطع مـن عينيـه المبتسمتين:

- شد نفسك وافتح صدرك.. ارفع رأسك كده واتكلـم برجولة. البلد عاوزة رءوسكم مرتفعة وأصـواتكم عالية...

وكان الطلبة كلما رأوا عربة فاخرة تدخل الشارع برجـل فخيم ضخم يزور "شكري عبد العال"، همـس واحـد مـنهم لأخيه وهو يداري وجهه من التراب الذي تثيره العربة فـي العيون:

- وا كان عم شكري يقدر يكون زيه وأعلى منه كمان، ولكنه رفض الذل... ده بعض زملائه بقوا لواءات وخدوا الباشوية.

وفي الحق أن "شكري عبد العال" كان يحس في أغوار نفسه بأنه أقوى من كل أصدقائه المتناثرين في الوظائف العالية... كانوا يرتقون في مناصبهم عاما بعد عام طوال السنوات العشر التي يقضيها هو في المعاش، ولكنهم كانوا يعانون أمامه – خصوصا بعد كل ترقية – نوعا غريبا من الخجل المبهم، ويحبون أن يحتفظوا باحترامه وحسن ظنه فيهم، ويحرصون على زيارته في بيته ويقضون له ما يطلبه لأهل شارعه.

و "شكري أفندي" ينفق معظم وقته منذ أحيل إلى المعاش مشغولا بخدمة أهل شارعه... فهو الذي حصل على معاش للست "سعاد" بعد أن مات زوجها الموظف الكبير وترك لها ولدا وبنتا، وداخت سنتين وراء المعاش، تدافع الطمع فيها حتى من عيون بعض زملاء زوجها، ثم خفض لها – بعد ذلك – أجرة الشقة التي تسكنها في بيته وصبر على الأجرة حتى حصلت على المعاش..

أهل الشارع يعرفون أنه عمل هـذا الـحـين قصـدته الأرملة الطيبة، فحمى الشابة الحلوة من عثرات الزمان..

و "شكري أفندي" هو الذي ساعد "أمين أفنـدي" صـاحب البيت المقابل لبيته عندما تحرش به التنظيم لأنه دخل بالبناء في المساحة المخصصة للشارع، فأمرتـه الـدائرة أن يهـد ما بناه ويعيد البناء من جديد... وكان "أمين" وقتهـا يسـتعد لبناء الدور الثاني... واستنجد بشكري فتوسط عند باشـكاتب الدائرة وعند موظف كبير في التنظيم حتى سوي الموضـوع وضمن شكري للدائرة أن يدفع أمين – عندما يتيسر الحال – ثمن الأرض التي جار عليها بغير حق..

"شكري" هو الذي قدم هذه الخدمة الكبيرة لأمين.. ولو أن أمين أفندي هذا لا يعجبه، فهو يترك زوجته "البنت ميمـي" تقف في الشرفة بقميص يكشـف عـن ذراعيهـا ونحرهـا ولا تختشي.. "والحمار" يقف جنبها أحيانا وحولـه جيـران. طلبة عزاب يكلمهم ويترك "ميمي" تتدخل في الكلام!.. جحش حقيقي أمين أفندي هذا!.. "ميمي"؟! هذا الاسم لا يصـح أن ينطق به أحد غير زوجها.. هو اسم لغرفة النوم فقط.. ومع ذلك فكل سكان شارع "عزيز" لا يعرفون غيره، ومنهم مـن

ينطقه بلا خجل ولا كلفه!! "ميمي"؟!؟.. ما اسمها الحقيقـي؟!
أهي أمينة؟! يمكن أن تكون "ميرفت" فهي بيضـاء ممتلئـة
عريضة الجبهة واسعة العينين عالية الأنف، دسمة الشـفتين
في وجهها طابع الحسن.. شكل التركيات! ولكن ربما كـان
اسمها منيرة أو نعيمة فشعرها أسود فاحم وعيناها سـوداوان
وقامتها فارعة، عالية الصدر والعجز كبنات العرب.. علـى
كل حال مهما يكن اسمها وأصلها وفصلها فليس هـذا هـو
المهم.. المهم أن "شكري" لا يكاد يفتح شباكه أو يقـف فـي
الشرفة حتى يجد عينه عليها وهي في داخل مسكنها.. لعنـة
ا على "أمين" الذي أعماه الطمع في أرض الشارع! لـو أن
"شكري" مد يده من الشرفة لسلم على من يمد يده من شـرفة
بيت "أمين"، ومع ذلك فشبابيك أمين دائما مفتوحة وامرأتـه
"ميمي" تروح وتجئ داخل البيت في أيام الصيف بملابسـها
الداخلية..!! على كل حال الناس أحرار في بيوتهم، ولكـن..
للوقوف في الشرفة أصول.. فالشـرفة كالشـارع تمامـا..
"ميمي" هي المسئولة عن وقفتها في الشرفة فـي عصـاري
الصيف ونحرها الأبيض مكشوف حتـى الصـدر الفـاتن،
وذراعاها المستديرتان عاريتان تماما.. هـذا شـيء يغـيظ

"شكري" دائما.. لو أنها كانت زوجته – أو ابنتـه – لكسـر رأسها ما دام زوجها "أمين أفندي" هـذا لا يفهـم ولا يشـم ولا يعرف العيب ولا الأصول.. هذا الحال المائل هو الـذي جعل "شكري" لا يدخل بيت "أمين" بعـد زيـارة الترحيـب التقليدية التي قام بها منذ سنوات، ولكن مشـاكل الـزوجين كانت تفرض نفسها عليه، فيعجب "للولد أمين" هذا الذي يقني كتكوتة صغيرة تزوجها وهي قطة مغمضة لا تتجاوز الرابعة عشرة، وهي الآن تبلغ العشرين بالكـاد، جميلـة، طيعـة، بعمره.. ومع ذلك فلا يعرف كيف "يحشمها" مع أنـه أكبـر منها بعشرين عاما على الأقل، طويل عريض فحل!..

على كل حال يا "شكري".. في خلقه شئون!..

ولكن "ميمي" طرقت بابه ذات صباح بعد أن ذهبت ابنتـه "درية" التلميذة بالسنية الثانوية إلى مدرستها، ولم يكـن فـي البيت غيره هو وابنته الكبرى "سميرة". مصـيبة!.. أتراهـا تزور "سميرة".. إنهما في سن متقاربـة.. ولكـن.. أتقـوم "سميرة" بزيارات من وراء ظهره؟!.. "سميرة" البنت الهادئة التي ورثت أمها في كل شيء: الوداعة والطاعة المستسلمة،

ووجهها البديع، وصوتها الذي لا يرتفع، ونظرتها المنكسرة، ومسئولياتها العديدة!!.. أتقوم "سميرة" بما يغضبه؟!

ولكن "سميرة" دخلت عليـه وأخبرتـه وهـي لا تخفـي اشمئزازها، أن حرم الجار الذي يسمى "أمين أفندي" جـاءت وعلى وجهها أقة بودرة وأحمر على الصباح، وأنها لم تجـئ لتعزي في الذكرى للمرحومة كما تصورت "سميرة" ولكنهـا جاءت تريد "عمها شكري بيه"!!

واختلج "شكري" وهو يسمع كلام ابنته.. هو أيضا لم يتنبه بعد، إلى أن اليوم هو الذكرى الخامسة لوفاة زوجته.. وهـو منذ ماتت زوجته يكتفي بزيارة قبرها في الأعياد ويتجنب أن يقيم مأتما جديدا يوم الذكرى كي لا يجدد أحزان ابنته.. ولكن "سميرة" تذكر حدادها دائما.. تماما كما كانت أمها المرحومة! وهي لم تخلع بعد ثوب الحداد الذي ارتدته منذ خمسة أعـوام وهي في أول شبابها..

ونظر إليها بعمق، وتنهد..

وقام يسأل عن الزائرة أين هي – كأنما ينتزع "سميرة" من ذكرياتها – واستمرت "سميرة" تقول بنفس لهجتهـا المثقلـة بالحزن والسخط المكتوم:

- أهي في أودة الجلوس.. اتفضل لها حضرتك أنت.. أنا مش داخله لها..

ومن خلال لهجـة "سـميرة"، أدرك "شـكري" أن ابنتـه لا علاقة لها بميمي فأحس باطمئنان داخلي..

ودخل غرفة الجلوس المزدحمة بمقاعد ذات مساند عاليـة من الخشب الغامق المخطط تكسوها القطيفة الحمراء الناسلة، فوجد "ميمي" منغرسة على كنبة وعيناها في الصور المعلقـة على الجدران: صور له هو وأصدقائه منذ أكثر من عشـرة أعوام.. ثم قرار إحالته إلى المعاش في إطار مذهب.. وعلى جدار آخر تنفرد صورة وحيدة تحددها خطوط سوداء لفتـى في الرابعة عشرة يتهدل عليها شريط أسود أطفـأ التـراب لمعانه..

وحين رأته "ميمي" أمامها في الغرفة وقفت وهي تسـترد نظرتها التي كانـت تتعلـق – فـي إعجـاب – بصـورة فوتوغرافية ملونة قديمة له بالبدلة العسكرية والسـيف علـى جانبه وهو يبتسم بثقة...

ووضع يده في يدها مرحبا وضغط بقوة فتركـت يـدها الطرية في يده، وطابت له نعومتها الدافئة الرخصة كأنها بلا

عظم، ولكنه سحب يده بسرعة وعصبية، وأشار إليها فقعدت هي كما كانت على الكنبة، وقعد هو على الكرسي المقابل في أقصى الغرفة يحاول أن يغض نظراته، متضايقا لأنها تحـط رجلا على رجل وهي قاعدة أمامه.. كان الفستان الحريـري المشجر القصير يلف جسدها المكسم، ويبرز تقاطيعه ويحدد نهديها، وما فوق الركبة بقليل ببطن فخذها مكشـوف أمـام عينيه، ملفوف.. دسم أبيض.. ووجههـا الممتلـئ الشـفاف بغمازات الصدغين، وانسدال الفستان من تحـت خصـرها الممشوق، وعيناها الواسعتان السوداوان، وصدرها المكـور الذي يبدو راسخا متماسكًا.. كان كل ذلك يقطع الطريق على عيني "شكري" وهو يحاول جاهدا أن يلـم نظراتـه تحـت جفنيه... إيه!... بطنها ضامرة بطريقة لافتة... لا يمكـن أن تكون هذه هي بطن امرأة حملت وولدت ثـلاث مـرات!... وطافت برأسه ذكرى عابرة من زوجته المرحومة! وتنهد... ثم رفع رأسه أخيرا وهزها في حيرة وضـيق وهـو يسـأل "ميمي" في عجلة عما جاء بها.. كأنما يريد أن يخلص...!

وشكت له "ميمي" من سوء الحال... واضطربت بعـض الشيء وهي تقول له إنهم فصلوا زوجها "أمين" مـن دائـرة

"البرنس عزيز".. ومضت ترجوه بصوت هادئ خاشـع أن يتوسط لإعادة زوجها الذي فصله "أدهم بيه" الباشكاتب الجديد المتصابي واتهمه بالاختلاس من أموال الدائرة.. وذلك كلـه لأنها هي صدته مرات عندما غمز لها بعينيه.. وقطع الخجل كلماتها فتوقفت تبلع ريقها.. ثم تهدج صوتها وهـي تنـدب بختها، وتؤكد أن زوجها شـريف وحنبلـي وخائـب خيبـة لا توصف، وآخرتها أن يرمى به في الشارع هو والعيـال.. وكان صوتها يتكسر بمرارة وتفلت منه نبرة حادة ولكنه لـم يفقد حلاوته أبدا ولا قدرته على النفاذ إلى الأعماق!

واهتز "شكري أفندي" وتأثر.. وبسط نفسه لها، إنها تناديه "عم شكري بيه".. وتكرر هذا النداء.. لا أحد فـي الشـارع يقول له شكري بك.. لا أحد في الشارع يتكلم هكذا بكل هذا الأدب والفهم والذكاء وصفاء الطبع.. وتعجب أن تكون هذه البنت التي تختلج أمامه الآن وديعة طيبة كقطة رومية مبتلـة الشعر، هي نفس المرأة التي ترج البيت وتهد الـدنيا علـى زوجها الولد "أمين"؟!

وعندما نكست "ميمي" رأسها وهي تكتم نشيجها في فـزع من المصير، أحس "شكري" كأن شيئا رهيبا يمـتص دمـه،

وارتعش هو نفسه وفي أذنيه شيء يبعث الأسى كرجع نواح قديم، وقام وانحنى على "ميمي" مهدئا ويده على كتفها مقسما لها أنه سيسعى بكل جهده ليعين "أمين" في وظيفـة جديـدة أحسن من وظيفة الدائرة وبمرتب أعلى، ما دامـت الـدائرة متوحشة ترمي موظفيها هكذا في الشارع بلا رحمة!

وعندما خرجت "ميمي" كان "شكري" يفكر في حال "أمين" المطرود من الشغل وأولاده الثلاثة الصغار بلا حيلة، بينمـا كانت ابنته "سميرة" ترفع يديها وتلوح بهما وتلـوي شـفتيها وتهز كتفها وهي تغلق الباب وراء "ميمي" في سخرية تختلط بالإشفاق والغيظ!

وعاد "شكري" ينظر إلى ابنته "سميرة" في ثوبها الأسود.. وارتدى ملابسه وخرج مسرعا إلى المقابر يزور قبر زوجته وابنه، وحيدا كما تعود في أيام الذكرى!..

ولكنه لم ينس "أمين".. وبدأ السعي ليلحقه بوظيفـة فـور العودة من زيارة المقابر.. وأخذ وعدا بتعيينه..

وبعد أيام نجح في إلحاقه بوظيفة في وزارة الأوقاف بذات المرتب الذي كان يتقاضاه في دائرة البرنس عزيز..

وزاره "أمين" ليشكره بعد ذلك معتذرا لأن امرأته "ميمي" هي التي بدأت الزيارة وحدها، أما هو فكان مترددا خجـلان من أن يكلف "شكري أفندي" بالتوسط في تعيينـه.. لـولا أن "ميمي" تعتبر عمها "شكري بك" أبا لها!.. وتضايق "شكري" من كلام "أمين" ورأى في سلوك "ميمي" شيئًا متفوقـا علـى زوجها وعلى كل من في الشارع!.. إنها هي وحـدها فـي شارع عزيز تضع بعد اسمه لقب "بك" بنت حسنة التربيـة.. تعرف الأصول!! من الذي رمى هذا المرأة الأنيقة المفعمـة المتدفقة بالبغل "أمين".. من لمها عليه!.. من قال لك يا بنـي إنني مثل أبوها؟! أنا مع ذلك لست أكبر منك بأكثر من عشرة أعوام.. يا حمار!

ولكن من يصدق أن "ميمي" هذه الهادئة المستكينة الباكية تقذف أحيانا في وجه زوجها بأي شيء تلقاه، وتظل تصخب بكلمات غليظة قبيحة!؟.. ومع ذلك فلا أحد في الشـارع لـه مثل ذوقها ورقتها، ولكن أمين الذي يكبرها بأعوام لم يكـن يستحقها.. أخذها صغيرة لا تعرف الدنيا، تضطرب ويحمـر وجهها إن كلمها رجل غريب، فعلمهـا الغبـي أن تكشـف نحرها، وطير عنها برقع الحياء، وجرأها الحيوان علـى أن

تشتمه وعلى أن تقف في الشرفة بقميص النوم وتتحدث مـع جيران شبان فحول.. طلبة فلاحين!!

لا أحد يشبه "ميمي" هذه في رقتها وذوقها وجمالها، لا في الشارع ولا خارج الشارع.. لا يذكر "شكري" أنـه عـرف امرأة بهذا الصفاء والفتنة والعنفوان أيضا، إلا امرأة إنجليزية في السودان.. لها ذات الرقة والحس المرهف والإقبال علـى الحياة، وذات الجرأة على زوجهـا الضـابط الإنجليـزي.. يا سبحان ا !! حتى عيونها وخفة حركتهـا وهلـة وجههـا بطابع الحسن.. تماما تماما مثل "ميمـي"! ولكـن الضـابط الإنجليزي كان معروفا بشذوذه!.. صحيح لا شـيء جميـل فيكم يا إنجليز غير تلك المرأة.. وعلى رأي المثـل: العـين ما رأت من الغرب أي شيء يسر القلب.. إلا امـرأة ذلـك الضابط! إيه!! ياما كان الإخوان الضباط المصريون يفعلون مع الإنجليزيات في السـودان!! بعضـهم اعتبرهـا مهمـة وطنية.. حتى اكتشف أن رفيقته الإنجليزية.. جاسوسة!!

أيام.. "ميمي" على كل حال يا "شكري بك" هي أكثر مـن عرفت جمالا ورقة وفي دمها يجري سـحر آخـر، وهـي أعذبهن صوتا.. وأشرف!

على أن "ميمي" فوجئت من عمها "شكري بك" بما جعلهـا لا تفكر بعد في زيارته!.. كان ذلك منـذ أسـبوع واحـد.. والصباح يمس بحرارة شمسه كل شيء.. ورآها من شـباكه ترتدي ملابسها وشباكها مفتوح بلا حرج، ثم تابعتها نظراته دون أن يشعر، وهي تخرج من شقتها، ورآها تعبر الشـارع بسرعة إلى بيته، وبدنها يتأود بخفة والفستان يكاد يأكل منه، وكأنما اكتشف فجأة أنه بدن رائع، أروع من كل ما عـرف وما تخيل.. ولمح نهديها يوشكان أن يخترقا الفسـتان وهـي مفتوحة الصدر للحياة، فتية متدفقة..

وكان وحده في البيت، فابنتـه "دريـة" فـي المدرسـة، و "سميرة" طلعت إلى الدور الثالث تزور "سعاد هانم" الأرملة التي بعثت تطلبها...

وقدر "شكري" أن "ميمي" ربما كانت رائحة تزور "سـعاد هانم" فهي مريضة!.. ولكنه فوجئ بدقات خافتة علـى بـاب شقته..

وأدركت "ميمي" منذ فتح لها "شكري" أنه غير عادي..

وحين قعدت رأت نظراته قلقة حائرة، وكأنه يحـاول أن يهرب بعينيه إلى الصورة المعلقة وراءهـا علـى الحـائط،

وأحست بنظراته تنتقل مسرعة مضطربة بين الصور وبـين وجهها وصدرها وكل بدنها.. وشعرت بخجل وهي تقتـنص نظراته المشرعة على بدنها، فاهتزت تصلح الفستان الأزرق المكسم من على منبت نهديها ووضعت كفها تتجسس مفـرق نهديها بلا شعور كأنها تداري ما زاغت عليه عين "شـكري بك"..

ثم طلبت منه أن يوصي على زوجها، فأحد رؤسائه فـي وزارة الأوقاف يضايقه، أو.. فيتكرم بالسعي لنقله إلى وزارة الحربية ليكون تحت رعاية أصدقاء "شكري بك".

صوتها ذو البحة النفاذة! وصدرها الشهي! وهذا الفسـتان الأزرق القصير الضيق المحكم الذي يقدم كل ما خفـي مـن كنوز جسدها بشكل زاعق! وهذه النظـرة المذعنـة المليئـة بالقلق والطلب كأنما تستفز رجولته ليحميها بكل طاقته وكـل ذراعيه وكل قوة جسده!

واختلجت عيناه حين وقعت نظراته آخر الأمر في عينيها الواسعتين السوداوين، وفتحة أنفها الجميل ترتعش!

وابتسمت "ميمي" وانفرجت شفتاها بلا مناسبة ورنت منها ضحكة...

وفجأة صاح "شكري" كأنما يحاول أن يغمر شيئا ما من نفسه في ضجيج صوته المرتفع:

- ا ؟!.. ما جوزك بيشتغل في أمان ا بقى له مدة!.. ا ! الولد ده ما يعتمد على نفسه بقى.. ا .!! غريبة!. وأنا أعمل لكم إيه يعني؟؟ مش خلاص بيشتغل ويقبض وفاتح بيته.. حربية إيه اللي أشغله فيها!

وازداد صوته ارتفاعا وهو يغمض عينيه:

- ثم أنا مش فاضي كل يوم والتاني تنطي لي هنا بالشكل ده كمان.. أنا ما أقدرش أعمل حاجة لجوزك خلاص.. اللي عليه عملته! مش كل شوية ألاقيكي ساحبة لي مين وجاية.. والا.. جاية لوحدك؟!. دا.. ده عيب!.. عيب كده! كفاية كده!!. كفاية خالص.

ثم التفت إلى الباب المفتوح ووجهه محتقن، وفي خياله تضطرب صور لابنته "سميرة"، و "درية" والمرحومة زوجته التي أصبحت الآن ترابا تحت تراب!!

ولم تغضب "ميمي" من لهجته ومن صراخه، ومن تحركه العصبي في كرسيه كأنه يصرفها، ولم تغضب من إشـارته لها ألا تزوره بعد ذلك لا هي ولا زوجها.. وإنمـا خرجـت متعجبة تخفي ابتسامتها وهي تراه خلفها كطفل وحيد يصرخ في الظلام..!

إنه خائف!..

خائف منها وهي التي تكون في سن ابنته "سميرة"!..

إنه خائف.. هذا الرجل الذي لم يلتفت إلـى امـرأة فـي الشارع منذ ماتت عنه زوجته والذي يخافه كل أهل الشـارع حتى النساء في البيوت، وحتى التلاميذ الذين يقفـون علـى الناصية يتهامسون عليها ويتعرضون لها بالسخرية ويتحدونها ولا يخافون من أحد ويهتفـون بسـقوط النظـام ورؤسـاء الحكومات وملك انجلترا!

عم "شكري بيه" خائف!.. هـو الـذي ضـرب رئيسـه الإنجليزي بالكرسي.. إنه خائف منها هي! وهي تشعر تماما بما كان يضطرم في أعماقه، وما زالت تشعر بلهب نظراتـه التي كانت تعريها وتسري بكل النار على خطـوط بـدنها.. ونهديها! لو أنه كان غازلها الآن بالذات لما صدته، ولتركت

نفسها له على الرغم من أنها لم تشعر بمثل هذا مع أحد مـن قبل بل ظلت تصد كل الرجال، ولكنه هو بالذات يملك شـيئا يختلف عن الآخرين، شيئا يروي ويشبع على الرغم من أنـه في الخمسين، والشعرات البيضاء تمـلأ شـاربه القصـير.. ولكنه خائف منها هي التي رهبته دائما منـذ جـاءت إلـى الشارع زوجة في السادسة عشرة، وعاشت ترهبه وتحترمه، ولم تجرؤ على دخول بيته إلا منذ حين، عندما ساءت الحال بعد فصل زوجها.. وحتى بعد أن تعددت زياراتها له لم تفقد أمامه إحساسها بالوجل.. كانت كلماته التي ينطقهـا بعنايـة، وصوته الخشن الذي تشيع في مظهره الجاف رقة وحـرارة، وشكله الطويل المهيب، ونظراته الساطعة الوضـيئة التـي صعب عليها أن تواجهها أول الأمر، ووجهه الأسمر بشـفتيه الغليظتين في صرامة، وأنفه الكبير الشامخ، وحرصه علـى ألا يغازلها كما تعودت من الرجال.. كان هذا كله يثبت هيبته في قلبها.

وعندما زارته مع زوجها بعد التعيين ليشـكراه، شـعرت بتهيب زوجها أيضا منه هو!.. ولكنه هو خائف منها.. هي!

وعلى كل حال فهي لم تعد تفكر في أن تزوره..

وهو كلما تذكر آخر زيارة لها يزفر من السخط، ويعجب كيف واتتها الجرأة على الدخول إلى شقته بفسـتان كالـذي جاءت به وهي تعلم أنه وحيد.. قال لها إنه وحده في الشـقة عندما فتح لها الباب، ومع ذلك فلم تتردد في الدخول وكأنهـا لم تسمعه.. وهذا لم يكن يليق بسمعتها ولا بسـمعته.. مـاذا يقول الناس في الشارع لو عرفوا أنها كانت عنده وحيدين في مسكنه؟!

إن "شكري عبد العال" لا يفعل أبدا ما يثير شك أحد، وهو منذ ماتت زوجته، مقتصر، في حاله.. لم يعرف عنـه فـي الشارع أن عينه زاغت إلى امرأة، وهو حتى فـي المـرات القليلة التي يعود فيها متأخرا بعد سهرة مع أصـدقائه كـان يحتاط لكل احتمال.. فيدخل الشارع في صمت الليل ويتفرس الطريق جيدا بعينيه بعد أن يملأ فمه بحبات النعناع ليخفـي رائحة الخمر.. لا أحد في الشارع شم منه رائحـة الخمـر، ولا أحد يعرف أنه أحيانا يشرب مع أصدقائه، وينجلي وهـو يسمع الأغاني القديمة ويطرب للرقص..

وهو دائما مهيب ثابت الخطوات: العصا في اليد، وأحيانا منشة من ذيل فرس أبيض بمقبض عاجي أنيق فيـه وجـه

إخناتون، والكرافتة السوداء أبدا نظيفة يسند عقدتها بمشـبك ذهبي للياقة، وفي خنصر يده اليسرى خاتم فضي بفص مـن الجعران الأخضر منقوش عليه بالهيروغليفيـة، وفـي اليـد الأخرى خاتم من مكة بفص بلوري أزرق يتأمل منه صـور الكعبة ويعرضها مزهوا على من يريد..

وهو أنيق على الرغم من كل شيء، في الشتاء يلبس بدلة غامقة من طراز قديم تلمع من كثرة الكي ولكنهـا نظيفـة، ولبسه في الصيف أبيض في أبيض حتى الحـذاء.. وعلـى الرغم من أنه في الخمسين فوجهه منبسط بلا تجاعيد، وشعر رأسه الحليق لا تبين منه شعرة بيضاء، ولا شيء فيه يحمل علامة السن غير شاربه القصير.

وهو لم يفعل طوال حياته شيئا يندم عليه.. هكذا كان يقول دائما.. وهو على حق.. ولكم قدم من تضحيات!!

ففي سنة ١٩١٩ رفض أن يضرب المظاهرات وكان في رتبة الصاغ فعاقبوه وخفضوه إلى رتبة اليوزباشي ونقلوه إلى السودان، وفاتوه بعد ذلك في كل ترقية وسبقه زملاؤه، ولقي نفسه بعد عودته من السودان – في سنة ١٩٢٥ – ما يـزال في رتبة اليوزباشي يسبقه كل زملائه برتبتين علـى الأقـل

ويرأسه ضباط كانوا في المدارس الابتدائية عندما كان هو ضابطا في الجيش.. واشتعلت المظاهرات في كل المدن الكبرى إذ ذاك، فطلبوا منه أن يقود حملة لسحق المتظاهرين.. ولكنه رفض!

***

إنه لا ينسى أبدا ذلك اليوم من ربيع سنة ١٩٢٥، كان سادس يوم لوفاة ابنه الذي استشهد في مظاهرة المدرسة الخديوية قبل أن يكمل أعوامه الأربعة عشر وهو يقرع طريق الحياة بأقدام نشطة فرحة، والرجولة المبكرة تتسلل إلى كيانه المتحفز المنطلق.. واستدعي "شكري عبد العال" إلى وزارة الحربية فانتزع نفسه من دموعه وذهب، وقابله هناك ضابط مصري يعمل مديرا لمكتب ضابط إنجليزي كبير، ويحمل على كتفه رتبة أعلى من رتبة "شكري" وإن كان مرءوسا له منذ سنوات.. وواساه الضابط المصري بسرعة وبطريقة آلية ثم طلب منه أن يقود حملة تسافر على الفور إلى طنطا للقضاء على إضراباتها التي أوشكت أن تتحول إلى ثورة كاملة..

كان "شكري" إذ ذاك يتهاوى في أعمـاق نفسـه وتكـاد ضلوعه تتزايل تحت فداحة كارثته.. ولكنه مع ذلك كان يبدو متماسكا: الرأس مرفوع كعادته، وقامتـه مشـدودة.. وهـو ما زال يستطيع أن يتكلم، ويرى، ويسمع، ويفكر، وينفعـل، ويتنفس!

وعندما عرضت عليه مهمة السفر إلى طنطـا حـاول أن يعتذر، ولكن الضابط المصري أكد لـه الأهميـة الخاصـة للعملية العسكرية ونصحه أن يقبلها، وسيجد عزاء في السفر وتغيير الجو والبعد عن مهمة كهذه، لأن اعتـذاره سـيئول بشكل خاص وسيؤذيه في مستقبله، وكفى ما ناله فيما سبق!!

ساعتها وقف "شكري عبد العال" يصرخ في وجه الضابط المصري كأنما هو يطلق احتجاجا فاجعا في وجه مأساته:

- افهموا يا ناس.. أنا عمري ما ضربت مظـاهرات وعمري ما حاضرب مظـاهرات.. أنـا عمـري ما قتلت مصري! هو يعني الواحد منكم لازم يموت له ابن في مظـاهرة علشـان يفهـم يعنـي إيـه ما يضربشي المظاهرات بالرصاص!؟..

ثم سقط منهارا على الكرسي وأجهش بالبكاء وهو يقـول في صوت كالنواح:

- ومع ذلك ابني أنا مات في مظـاهرة.. أنـا اللـي عمري ما قتلت حد.. ابني الوحيد!! واللي بيـدبحوا أولاد الناس بيعيش لهم أولادهم ويكبروا ويفرحـوا بيهم!.. ليه يا ناس؟. ليه بس؟. ليه بس يـا رب؟! اللهم لا اعتراض يا رب! بقى كده يا رب!؟

وساد الصمت إذ ذاك في مكتـب الضـابط المصـري.. صمت رهيب تقطعه شهقات ذبيحة من عويل مكظوم.

واهتز بدن "شكري" لحظة ودموعه تسيل.. وبعـد قليـل شرب جرعة من كوب ماء..

ثم جاء من يدعو اليوزباشي "شكري عبد العال" لمقابلـة الضابط الإنجليزي..

ولم يكد "شكري" يدخل حتى ارتفعت الأصوات واختلطت في الداخل.. واجتمع ضباط مصريون وموظفون وراء بـاب حجرة الضابط الإنجليزي وزحموا حجرة مدير مكتبه، تتلاقى أبصارهم على الدهشة من زئير "شكري" الذي يغمر صراخ الضابط الإنجليزي واستغاثاته، وحين اقتحموا البـاب لقـوا

الرجل الإنجليزي يحاول أن يفلت ويـداه تـدفعان الهـواء، محاصرا في ركن الغرفة، يعوي، والدم يسيل مـن جبهتـه، و "شكري" يمسك كرسيا يضرب به رأس الرجـل، وقدمـه ترفسه في بطنه..

لم يشعر "شكري" بالراحة طوال سنوات عمله بالجيش كما شعر وهو يرى الضابط الإنجليزي يهوي في ركـن الغرفـة وهم يحملونه ويتصايحون على بعضهم البعض فـي طلـب الطبيب، والنذير بخراب البيوت بعـد أن ضـرب الضـابط الإنجليزي!!

وتنهد "شكري" بارتياح.. كأنما غمرت نفسه – لأول مرة منذ مات ابنه – نسمة عزاء!

وعندما صدر قرار إبعاده من الخدمة بعد ساعة واحدة من الحادث، هز كتفيه، وابتسم، وتسلم القرار وجعله في إطـار مذهب ووضعه في أبرز مكان من حجرة الجلوس في بيتـه، وتعود أن يسمي هذا القرار "وسام البطولة والشرف"..

وشعر أيامها بفضل امرأته.. هونت عليه الحياة، ولم تعد تبكي أمامه مصرع ولدها الوحيد، وطوت نفسها على الثكـل الذي هدها، وحاولت أن تكلم شكري عن المستقبل بعد إحالته

على الاستيداع.. وعلى الرغم من أنه كـان يسـمع صـدى النواح في كلماتها المشجعة عن المستقبل، ويـرى انعكـاس اللهب في البريق المواسي من عينيها، فإنه لم يسـتطع هـو الآخر أن يبكي أمامها.. وعندما حدثته عـن أسـرة عامـل جاءت تطلب استئجار الدور الأول، وأبدت ارتياحها لزوجـة العامل وحكت له عن تفتح قلبها لطيبة هـذه المـرأة التـي لا تنجب، وهي بعد ذلك قادرة على الابتسام، وفي قلبها مكان للضحك.. عندما وافق "شكري" على أن يؤجر الشـقة لهـذه الأسرة ما دامت امرأته تجد الراحة في هذا الجـوار، وكـتم ضيقة ونفوره من أن يؤجر شقة في بيته لعامل!.. لم يكن هذا يليق في رأيه.. ولكن ما دامت امرأته تحب، فهو لا يستطيع الآن أن يرفض لها أية رغبة مهما تراءت له حمقاء!..

وهكذا سكن الأسطى "عبد المعبود" في الدور الأرضـي، وأطل عليه "شكري" فرآه منذ أول ساعة استقر فيها يستروح الفل والياسمين ويمسك خرطوم الماء فيسقي أشجار الحديقـة الصغيرة بعناية ولذة.. وحكى "عبد المعبود" له عن كل شيء ليكون الرجل على بينة.. فاعترف له بأنه مطـارد.. كـان عاملا في المطبعة الأميرية واشترك فـي مظـاهرات سـنة

١٩٣٠ وقاد إضرابا خطيرا، ففصل من المطبعـة وحـبس احتياطيا.. ثم خرج من السجن فأنشأ مطبعة صغيرة في درب الجماميز أطلق عليها "مطبعة الحرية والاسـتقلال" وعـاش يعمل فيها وحده، ويكسب منها ما يكفل حياة من الستر له هو وزوجته التي حار فيها الأطباء ولم تنجب!.

وراقت صراحة "عبد المعبود" وبساطته لشكري، وأعجبه أنه هو الآخر رفع رأسه في وجه الإنجليز ذات يوم ولم يبال بعد بما يكون.. ووجد "شكري" نفسه يحكي لعبد المعبود عن تاريخه مع الإنجليز، ويناقشه في السياسة باحترام لآرائه..

وبدأ "عبد المعبود" عهده في البيت بأن قدم إلى "شـكري أفندي" هدية من المطبعة. علبة صغيرة من الكرتون بها مائة بطاقة زيارة كتب عليها بخط بارز لامع "الضـابط شـكري عبد العال – شارع عزيز – بركة الفيل"، وتعود من حين إلى آخر أن يقدم هدايا من دفاتر ورق الكتابة على رأسـها اسـم "شكري عبد العال" يكتبه خطاطون يختارهم "عبد المعبـود" بعناية، ويتفننون في أنواع الخط..

ولزمت امرأته شقة "شكري عبد العال" تواسـي زوجتـه وتسليها عن مصابها وتحكي عن مصائب أخـرى احتملتهـا

أمهات من قبل وعشن بعد ذلك وبردت قلـوبهن وأعطـين الصبر.. وحرص "عبد المعبود" على أن يزور "شكري" كـل يوم يسأله إن كان يستطيع أن يؤدي عنه أي عمل أو يقوم له بأية خدمة..

ويوما بعد يوم أحس شكري في أغوار قلبه بحب يتزايـد للساكن الجديد الذي تلتمع في عينيه دائمـا نظـرات واثقـة مشفقة، ويشيع في صوته الخفيض الصلب حنـان أخـوي.. وشعر أن "عبد المعبود" هذا العامل القديم، صاحب المطبعـة الصغيرة التي يعمل فيها وحده يمكـن أن يكـون صـديقه، وأدرك أنه ظلمه ذات يوم وتعالى عليه بغيـر حـق عنـدما هجس في ذهنه خاطر بأنه ليس من اللائق أن يؤجر له..!

وبالاندفاع الذي يؤججه الندم، بدأ يزور "عبد المعبود" في شقته بالطابق الأرضي، ويراقب بإعجاب رعايتـه لأشـجار الفل، ويشرب من يده، ويقيم عنـده سـاعات، والطمأنينـة الصافية تغمر قلبه.. وأعجبته "أنيسة" امرأة "عبـد المعبـود" بهدوئها وحشمتها، على الرغم من جمالها الملحوظ وحيائهـا الشديد وطاقة الأمومة التي تتفجر منها، حتى لكأنه هو بكـل سنه، طفل يتمنى لو يستدفئ في حضنها.. وأعجبته بساطتها

وصراحتها وعدم إحساسها بجمالها، وطريقة اندفاعها البسيط في الكلام ببقايا لهجة ريفية، وحكمة ربما لم تكن هي نفسـها تدرك عمقها.. وذات مرة شعر بـوخز شـديد لأن نظراتـه ارتمت على بدنها الفتي المتفجر، تفحصه كبدن أنثى تسـتكن فيه طاقة خارقة من الفتوة والمتاع!.. فخطف بصـره عنهـا متحرجا، واضطرب.. ومضى يستعيذ من همزات الشياطين، ويحدث عبد المعبود عن أنيسة كنعمة اختصه بها ا !!

ومضت الأيام تؤلف بين "عبد المعبود" و"شكري" حتى لم يعد "شكري" يجد حرجا في أن يحدث "عبد المعبـود" عـن أشياء كثيرة من حياته الخاصة!.. وكلمه عن لهفته الشـديدة إلى الولد، رغم تحذير الأطباء لزوجته من الحمـل بعـد أن سقطت!! ولقي "عبد المعبود" نفسـه هـو الآخـر يعتـرف لـ "شكري" برغبته في الخلف ثم اعتياده الحياة بـلا ولـد، وحرصه على ألا يذل زوجته بضرة، وربمـا كانـت هـي بلا ذنب!..

وشارع "عزيز" يزدحم بالبيوت الجديدة، وبركـة الفيـل تعمر، و "شكري أفندي" يتعرف إلى الملاك والسكان الجـدد ولكنه لا يجد بينهم أبدا رجلا مثل "عبد المعبـود"، ناضـجا

واثقا بالحياة، لا يعذبه قلقله، ويستطيع دائمـا أن يتصـرف بحرية – أمام قدره – على الرغم من كل شيء..

وفي لحظات الأزمة والضيق، لم تسترح نفس "شـكري" إلى رجل واحد في الشارع مثلما استراحت إلى هذا العامـل المتوسط الطول، الممتلئ، العـريض الصـدر، ذي الأقـدام الراسخة في الأرض، والخطوات القوية السـريعة، والوجـه المستدير الطيب بعينيه الضيقتين اللامعتين في ذكاء، وفمـه الواسع المنفرج الشفتين، وأنفه المكور، والجبـين المرتفـع بحاجبين مرفوعين كأنما يرسمان دهشة خفية مـن الـدنيا.. وجه بريء هادئ متعب، يبدو التعب دائما على غضونه رغم إشراقه.. ويوحى بأن صاحبه عاش في الـدنيا أكثـر مـن أعوامه الخمسة والأربعين!

وعندما فجع "شكري" في زوجته بعد قتل ولده بسنوات، لم يجد غير "عبد المعبود" يحتضنه ويلقي رأسه علـى منكبـه العريض ويبكي.. يبكي بلا انقطاع وفـي ضـعف وانهيـار ووحدة.. أشد من وحدة بنت صغيرة غريبة فقدت أمها فجـأة في مدينة كبيرة مروعة!!

وعاش الرجل بعد هذا.. عاش "شكري عبد العال" بجرح هائل يشق صدره، وضلوع تلتئم – في بطء معذب – علـى فراغ.. كلما مر يوم أحس بآلام جديدة.

ولكنه عاش! وظل يتنفس الهواء ويملك العين التي تنظـر والأذن التي تسمع والقلب الذي ينبض، ويحس بالجوع فيأكل العيش أياما أخرى.

وبقيت "سميرة" في البيت وهي في نحو الرابعـة عشـرة ولبست السواد منذ ذلك الحين.. ودرجت حتى أصبحت ست بيت حقا، يمتص اليتم نضارتها، وترعـى حاجـات أبيهـا ومطالبه، وتقوم على أختها الصغيرة "درية" التـي أصـبحت الآن في السابعة عشرة. وتعودت سميرة أن تنهض قبل أختها في الصباح فتعد طعـام الفطـور، وترتـب لهـا فراشـها وملابسها.. وترقبها وهي تذاكر دروسها وتسهر معها تمدها بالشاي أو القهوة في ليالي الاستعداد للامتحان، وتقلق معهـا في انتظار النتيجة، وتغضب على نفسـها فتضـحكها حـين تشرد، وتسـمع منهـا حكايـات طويلـة عـن المدرسـين والمدرسات، وتحفظ أسماء مدرسـيها، وتعـرف سـخريات البنات ببعضهن البعض، وتذكر نـوادر مـدرس الرياضـة

المعروف بين بنات المدرسة باسم "شخلع أفندي" وتستطيع أن تقلد الناظرة وتسترسل معها في التعليقات الهامسة على "سعد" ابن "داود أفندي" التلميذ بالمدرسة الخديوية – وهـي تسـبقه بسنة دراسية – حين يجيء ليطلب كتابا فيمسـح أنفـه منـذ يخرج من بيته حتى يدق باب الشقة، ويقـف علـى البـاب متلعثما محمر الوجه يعبث بحب الشباب في صدغه، ويبحث في صوته عن نبرة غليظة ذات رنين.. كالممثلين!

"سميرة" الآن تعرف أسماء كل المدرسـات والمدرسـين الذين تعاقبوا على "درية"، وأسماء بعض تلاميـذ المدرسـة الإسماعيلية الذين يطاردونها أحيانا وهي رائحة أو عائدة من المدرسة، وهي تقول على المدرسة الإسماعيلية – كأختها – "إسماعيلية جراج" وتعرف إعجابها بخفة دم "عبـد العزيـز خليفة" طالب كلية الطب الذي يسكن أمامهم في بيت "ميمي"، ويتردد على أبيها أحيانا ويستلطف أبوها قعدتـه، وتشـارك "درية" دائما في ضحكها مع "عبده" خادم "عبد العزيز" الـذي يجاهد ليتعلم القراءة والكتابة ويظن أن الـزمن رمـاه فـي الشارع ونسيه ويتمنى أن يعود إلى بلاده يزرع ويريح نفسـه من وجع الدماغ في المدينة التي يبيعون فيها كل شيء.. حتى

الماء والنور، والقراءة والكتابة! و "سميرة" تعـرف تـاريخ نابليون لكثرة ما سمعت أختها تقرأ عنه ولكثرة ما كلمتها عن حياته ومأساته!.. وهي مع ذلك تقوم على شئون أبيها بدقـة كبيرة وتتلقى دعواته كل صـباح ومسـاء، وتـتقن طـبخ الأصناف الريفية التي تعلمتها من "أنيسة" امرأة "عبد المعبود" التي لا تفارقها منذ ماتت أمها، والأصـناف التركيـة التـي عرفتها من الأرملة "سعاد هانم" التي تعودت أن تقف معهـا في المطبخ..

وخلال هذه الأعوام الخمسة التي عاشتها "سـميرة" سـت بيت بعد أمها، لم يفكر أبوها في أن يجيء للبيت بسيدة جديدة بعد المرحومة!.. ولم تفكر هي أبدا في أن أباهـا يمكـن أن يتزوج.. وفي الحق إنها ما كانت تسـتطيع أن تتصـور أن امرأة أخرى يمكن أن تأخذ مكانها هي في البيت، وترقد فـي نفس الغرفة التي رأت أمها تحمل منها في خشـب ملفـوف أصم على أعناق رجال غرباء تعلو العمائم المتسخة وجوههم الجامدة المتحجرة بينما أبوها يتشبث بـالنعش فـي صـراخ ممزق!! أيمكن أن تأتي امرأة غريبة في هذا البيت؟!.. مـرة سألت "درية" أختها "سميرة" ألا يمكـن أن يتـزوج أبوهمـا

وتجيء امرأة أب تمشي حيث ملأت أمهما البيت بـدموعها وطيبتها وضحكاتها الخافتة.. فصرخت "سميرة" فـي وجـه أختها برعب، ثم دمعت عيناها.. وأجهشت "درية"، وارتمـت على صدر أختها، وتعانقت الأختان وارتفع بكاؤهما.. ونزلت "سعاد هانم" مسرعة لتسكتهما.. فلم تفلـح وتعـالى نشـيج اليتيمتين، وطلعت امرأة "عبد المعبود" مسـرعة.. وظلـت تعانق البنتين وتبكي هي أيضا.. ثم انتزعتهما مـن بعضـها البعض في حزم مفاجئ، وأخذت كل واحدة منهما من يـدها وغسلت لها وجهها وهي تلعن نفسها لأنها انشغلت في بيتهـا بعمل وصفة للحمل وتركت البنتين وحدهما، مع أنهـا رأت أباهما ينزل من البيت بعد العصر.. وقالت لهما بتأكيد قاطع: إن أباهما لا يفكر في الزواج ولا في النساء.. ولو كانت لديه فكرة كهذه لعرف "عبد المعبود".. وطلبت منهمـا ألا يظلمـا الرجل ويجلبا الحزن لنفسيهما فالحزن يقتل الشـباب.. ثـم أضافت وهي تتحسس جسد "سميرة" محاولة إضـحاكها، أن البكاء يذبلها وهي الآن في عز شبابها لا ينقصها إلا بعـض السمنة فيجري وراءها أولاد الملوك والوزراء ليخطبوها هي وأختها "درية" أيضا.. وأقسمت أن تعد لهما هدية منها "حلـة

مفتقة" تأكلان خيرها على الريق.. واحمـر وجـه سـميرة وابتسمت وهي تتنهد، وضحكت "درية"، ولم تضحك "سـعاد هانم" واضطربت بعض الشيء، وبعد قليل خرجت إلى شقتها بلا كلمة فشعرت البنتان بانقباض مبهم!

على أن وجود امرأة أب شيء غير محتمل.. فشكري لـم يفكر أبدا في هذا كما قالت امرأة "عبـد المعبـود".. ولـيس الزواج هو الذي يشغله.. لا أمس ولا اليوم بعد خمس سنوات من ترمله!.. إن حالته المالية هي التي تشغله بحـق.. كـل ما يفكر فيه هو أن يجعل لبنتيه مظهر بنات زملائـه الـذين ما زالوا في وظائفهم يقبضون المرتبات العالية، ومنهم مـن أصبح في رتبة اللواء يحمل الباشوية!! أمـا هـو "شـكري أفندي" اليوزباشي المتقاعد بمعاشه الضئيل، فمن ذا يلتفت إليه ليطلب مصاهرته..؟!

كبرت البنتان الآن.. وهما تميزان اللبس الجيد من القماش الرخيص وربما كانت الحسرة تسعى إلى قلب كـل واحـدة منهما في صمت لأن مظهرها ليس كما تحب.. و "سـميرة" تكبر والسهرات تمضي، وهي ليست تلميذة تشغلها مدرستها والامتحانات!.. "سميرة" وحيدة تفكر دائما في أحزانها، وفي

أمها وأخيها ولطالما وقفت تبكي تحت صورة أخيها مع أنهـا كانت طفلة عندما مات.. فإن لم تتزوج فسيغيض شـبابها.. إنها في العشرين والبنات في مثل سنها، أمهات.. تزوجن من زمن وخلفن مرة وخلفتين وثلاثا.. ولكن من هو الذي يتقـدم ليصاهر يوزباشي في المعاش لا يملك إلا بيتا فـي شـارع خلفي ببركة الفيل؟ من يمكن أن يتقـدم الآن إلـى "سـميرة" الهادئة الطيبة الخلق؟ بالكثير رجل مثل "أمين أفندي"!! "أمين أفندي"؟!.. خسارة فيه زوجته "ميمي".. قمر تزوجـت مـن غراب؟!.. لو كان أبوها في وظيفة كبيرة لتزوجها ابن وزير أو شاب وطني ناجح.. ولكن مقصوفة الرقبة انغرست فـي شارع "عزيز"..!

على أن "شكري" مشغول القلب في هذه السـاعة بالـذات بهذه الورقة التي جاءته.. وهو منذ تسلمها يعاني قلقا غامضا غريبا وتختلط في نفسه الانفعالات.. إنهم يسـتدعونه إلـى وزارة الحربية... والاستدعاء سري وعاجل جـدا... وهـذه ثاني مرة يستدعونه منذ أحيل إلى التقاعد.. في المرة السابقة كانوا يريدونه في وزارة الداخلية عندما اشتدت مظـاهرات سنة ١٩٣٠ وأوشكت أن تجتثهم مـن جـذورهم وشـتمهم

واستنكر أن يدعى لأمر كهـذا.. وكـرر أنـه لـن يطلـق الرصاص على صدور المصريين.. ولكنهم يسـتدعونه الآن في وزارة الحربية.. يا ترى ماذا يريدون منـه اليـوم فـي وزارة الحربية؟.. لا مظاهرات الآن.. الجو مشحون حقا في هذه الأيام من أواخر سبتمبر، ومتوتر.. ولكن لا مظـاهرات بعد، فالجامعة لم تفتح، والمدارس الثانوية لا تستطيع أن تبدأ المظاهرات!.. وحتى إن كانت هناك مظاهرات فهم يعرفون مبدأه.

آه.. ربما كانوا يعلنون التعبئة، فالحرب دائرة بين إيطاليا والحبشة والقوات الإيطالية المعتدية تتقدم في جبال الحبشـة "والرأس كاسا" يسلم لهـم مفـاتيح بـلاده ويعـدهم بـرأس الإمبراطور. ولكن هل يدخل الجـيش المصـري ليسـاعد الحبشة؟.. الجيرة لهـا حقـوق والمتطوعـون المصـريون يتقدمون بالمئات لإنقاذ الحبشـة. ولكـن إذا دخـل الجـيش المصري هذه الحرب، فهو لا يفعل ذلك لأن حكومة وطنيـة فهمت هذه الضرورة، بل لأن حكومة إنجلتـرا هـي التـي تريد.. الحرب في هذه الأدغال شيء يعرفه "شكري" وهـو يعرف كيف يمـوت الرجـال هنـاك معـذبين فـي فـزع

وبلا عزاء.. إذا كانت إنجلترا تريد أن تساعد الحبشة فلمـاذا لا تتصرف هي بشجاعة، وترسل عساكر إنجلترا!؟.. لمـاذا تضع مصر في مأزق، وتجعلها تشك فيما تحب؟!

ليست حرية الحبشة هي ما يـؤرق الإنجليـز، وإلا لمـا سرقوا حرية السودان وظلوا على رقاب البشر هنـاك علـى الرغم من الوعود، ودماء الشهداء!! المسألة يا شكري كلهـا خوف من إيطاليا.. ولهذا يثيرون عليها عصبة الأمـم، لـو طالت إنجلترا الحبشة لما سكتت! كلهم لصوص يتشـاجرون على الغنائم.. علينا نحن! ونحن عندهم غنـائم وأسـلاب!! ولكن كم من رجالنا المسئولين يفهمون؟.. هـؤلاء الرجـال معظمهم ربي في أحضـان الإنجليـز.. والـذين يكرهـون الإنجليز منهم يظنون – لغفلتهم – أن إيطاليا هي المنقذ.. أن الدوتشي موسوليني هو المخلص! إنه هو أيضا يشهر السيف ويركب الفرس، ويسمى نفسه حامي الإسـلام!.. أيريـد أن يكون سيف ا المسلول؟.. فليتعظوا بما يحدث في الحبشـة وليبيا.. ليذكروا "عمر المختار" الزعيم الليبي الذي انتزع من أهله، وألقي بـه مـن الطـائرة!.. متوحشـون!!.. كلهـم متوحشون.

يا أكتوبر سنة ١٩٣٥ أنت تزحف بخطاك علينا فماذا وراءك؟!.. ما الحكاية يا شكري؟!.. لماذا يستدعونك هكذا إلى الوزارة بطلب سري عاجل جدا.. أهي الثورة في فلسطين؟!.. ولكن أيبلغ الفجر بالإنجليز إلى هذا الحد؟ يجندون جيشا مصريا ويستدعون الضباط المتقاعدين ليضربوا عرب فلسطين بعرب من مصر؟!.. لا لا.. مستحيل.. الإنجليز أكثر دهاء وخبثا من أن يصنعوا شيئا كهذا.. فهم يعملون أنه حين يلتقي الجيشان فسيقفان في صف واحد لتسديد رصاصهم إلى الإنجليز؟!.. لا!! ولكن لم لا؟! إنهم ضربوا ثورة مصر في سنة ١٩١٩ بجيش هندي، وقلب كل مصري يخفق بالمودة حين يرى وجها من الهند!.. ومع ذلك فالأمر يختلف عن عرب فلسطين بشكل ما.. هناك شيء ما، ربما كان هو اختلاف اللسان، لا يجعل تدفق العواطف يتخذ مجراه.. أو ربما كان هناك شيء آخر.. على أية حال فالمسألة ليست واحدة!.. ومع ذلك فالإنجليز ندموا لأنهم ضربوا ثورة مصر بجيش من الهند.. فالثورة ضدهم اشتعلت هناك أيضا ورفع السلاح عليهم رجال خدعوا من قبل وتحركوا تحت العلم البريطاني ليضربوا إخوة لهم من ثوار

مصر.. ولكن الإنجليز لا يتعلمون! وا إنها هي التعبئة ضد فلسطين!؟.. إذا كان الإنجليز يعبئون رجالا من مصر ضـد مصر، فلماذا لا يعبئون جيش مصر ضد ثورة فلسـطين؟.. كل بشاعة في العالم يمكن أن يقترفها هؤلاء الإنجليز، ومـا داموا هم الذين ما زالوا يحكمون، فكل جنـون.. ممكـن!!.. ربما كانت هي التعبئة ضد مصر. ربمـا كـانوا يسـتعدون لاستئناف الدراسة في الجامعة، فأكتوبر يقبل مسرعا!!

ماذا؟! لا داعي للذهاب.. أتذهب يا شـكري إلـى وزارة الحربية وتتعب قلبك وتعود كما رحت ولا تكسب غير وجع الدماغ وربما أمسكت بخناق مـن يعـرض عليـك مهمـة كهذه؟!..

ولكن مهما تكن الفوضى التي تسود حياتنا يا شكري فـلا يمكن أن تكون المهمة هي حشد جيش مصر لضرب الثائرين في فلسطين، ولا أظنهم يستدعونك لمواجهـة المظـاهرات المحتملة فكلهم يعرفون رأيك.. حتى سكرتير الوزارة الـذي استدعاك، هو الآخر يعرف، وأظنه شهد موقفك القـديم مـع الضابط الإنجليزي الذي ضربته!!

ما هي الحكاية إذن؟! وكيل الوزارة صديق قديم وإن كنت لا تراه إلا قليلا، وهو رجل نظيف مستقيم فاذهب إليـه الآن في بيته في الروضة واسأله عن الحكاية فهو يعـرف سـبب الاستدعاء بلا شك.. ولكن!.. كم الساعة الآن؟! ياه.. العاشرة والثلث!! والنور ما زال في حجرة البنـات؟!.. فلننتظـر.. ولنذهب في الصباح.. غدا نعرف كل شيء من سكرتير عام الوزارة الذي وقع الاستدعاء.. ضابط رباه الإنجليز وجعلوه ينط على أكتاف الكل!! الصباح رباح.. وسنرى إن عشنا.

وطلب شكري ابنته سميرة وهو يتثاءب وطلب منها قبـل أن تنام أن تلمع نجوم البدلة العسكرية الشتوية وزرائرها، ثم قام لينام، وقبلته سميرة وأطفأت نور حجرته.. وذهبت تلمـع الزراير بعناية، وقلبت "درية" كتاب تاريخ غيـر مدرسـي، وتركته مفتوحا على صورة نابليون التي كانت تنظر إليها في إعجاب وهي تقرأ قصة حياته وفتوحاته مستثارة القلب مثقلة بمشاعر غامضة حزينة مضطربة..

وقفزت إلى جوار أختها "سميرة" تسألها بلهفة:

- إيه إيه الحكاية؟!. بابا من ساعة ما رجع من بـره واستلم الجواب اللي جابه العسكري، وهو قاعد في

أودته سرحان كده ليه؟.. إيه اللي خـلاه عـاوزك تلمعي النجوم وزراير البدلة دي؟! دا طول عمرهم ما اتلمعوش.. إيه والنبي يا سميرة؟ هيه!

وأجابتها "سميرة" دون أن ترفع رأسها عـن بدلـة أبيهـا وقطعة من القماش في يدها تحك بها الزراير:

- أنا عارفة!.. نامي.. نامي أنت..

وعادت "درية" تحاول أن تتـابع القـراءة عـن بطلهـا نابليون.. ولكنها أغلقت الكتاب وقعدت على حافـة السـرير تنظر إلى أختها بينما عكفت "سميرة" على عملها باسـتغراق كبير وجد واهتمام وهي تتذكر شغفها القديم عندما كانت طفلة بالنظر إلى المرحومة أمها وهي تلمع زراير "بدلة" أبيها!..

وظلت سميرة تدعك النحاس وتتأمل التماعه علـى بدلـة أبيها، ورأسها يزخر بالأحلام..!

(٢)

جاء الشتاء قبل الأوان.. الغيـوم تتجمـع فـي السـماء، والضباب يكسو القباب والمآذن وأسطح البيـوت، ويسـتلقي معلقا في الفضاء على مقربة من أرض الشوارع، ولا أثـر بعد للشمس في هذا الصباح من أوائل أكتوبر، مع أن الساعة جاوزت السابعة.. ستمطر اليوم أيضا بلا شك، وعندما تمطر يصبح شارع عزيز مجموعة من البرك الصغيرة والأوحال.

وتحرك شكري من كرسيه الذي يقعد عليه منذ أوى إلـى حجرته بعد أن تناول طعام فطـوره مـع ابنتيـه "سـميرة" و "درية".. ولم يعد يرقب السماء.

وألقى نظرة متصفحة في الجريدة الملقاة على حجر جلبابه الكستور العريض الخطوط وقرأ بعض العنـاوين بسـرعة ودقق نظره في صفحة الوفيات ثم رمـى الجريـدة، وشـد الطاقية البيضاء العالية فأحكمها على رأسه. ودخلت "دريـة" بثوبها المدرسي الكحلي فقبلت يده، ودعا لها بالستر والنجاح، وأخرج حافظة نقوده من جيب جلبابه ببطء ودس فـي يـد

"درية" قطعة فضية بقرشين هي مصروفها اليـومي، وقـال مبتسما ونظرته تضيء:

- من أول الشهر الجديـد حاتخـدي عـلاوة.. حـايبقى مصروفك جنيه في الشهر.. جنيه كامل.. ياللا انبسـطي يـا قطقوطة!

وخرجت "درية" مبتسمة، فعاد يلـتقط جريدتـه، وينظـر فيها!.. ما زالت الحرب تشتد في الحبشة، والطليان يتقدمون، وعصبة الأمم لا تفعل شيئا كافيا لتمنع حملات الإبادة هناك.. بلد بحالها تسقط في قبضة الاحتلال الأجنبي و "موسـوليني" يهدد العالم ويصرخ في وجهه، إن كلمة السلام ترن كالعملة الزائفة، والإنجليز والفرنسيون يشتمونه ولكنهم يصنعون مثله في بلاد أخرى استقرت أقدامهم على أنفاسها.. ماذا أيضا؟!.. الحرب الأهلية في الصين تشـتد واليابـان تتـربص علـى الأبواب!.. وفي "فلسطين" ثورة كاملة، والجنـود الإنجليـز يقتلون الأطفال والنساء، ويحمون التجار اليهود والمغـامرين الذين جاءوا يغتصبون البساتين والحقول من أهلها العـرب، وفي كل يوم يقهر عربي فلسطيني على بيع جزء من أرض الوطن.

وزفر "شكري عبد العال" وهو يقلب الجريدة، وينهض من كرسيه واتجه إلى نافذته، ومن وراء زجاجهـا لاحـت لـه "ميمي" تروح وتجيء في بيتها بقميص خفيـف مكشـوف! ألا تشعر الملعونة بـالبرد؟! قامـت تجـري مـن الصـبح كالمهرة!!

وكانت ابنته "سميرة" وقتها تقف في الصالة تدير مفتـاح الراديو بضيق وقلة حيلة، وهي تتسمع جاهدة لصوت ينبعث بالقرآن حزينا جليلا خافتا من خلال خشخشة لم تفلـح فـي علاجها، لا هي ولا "سعاد هانم" التي تركت الراديو يائسـة منه، وانشغلت بتلميع تاج نحاس علـى البدلـة العسـكرية، ورأسها مائل باهتمام لتلقط الصوت الغائب وراء الخشخشة.

وارتفع صوت "سميرة":

- الراديو ما بقاش نافع خالص يا بابا.. مش عارفين نسمع الشيخ رفعت!

ورد عليها أبوها وهو في حجرته:

- نغيره.. حاضر يا بنتي! ونجيب راديو جديد علـى أول الشهر إن شاء ا .

وتمتمت "سعاد هانم" في تنهـد خفيـف وعيناهـا علـى "سميرة":

- هوه يا بنتي باباكي كان لحق يقبض مرتب الوظيفة الجديدة؟.. دا يا دوبك مستلم بقى له كام يوم!..

ولم تسترح "سميرة" لكلمات "سعاد هانم".. ورمقتها بنظرة سريعة كأنها تقول لها: "وما لك أنت"!

وفي الحق أن "سميرة" منذ أعيد أبوها إلى الجـيش ردت إليه رتبة الصاغ، لم تعد تستريح لزيارات "سـعاد هـانم".. كانت قديما تشعر بلذة وحب وهي تتلقى مسـاعدات "سـعاد هانم" ولكن "سميرة" الآن تضيق بكثرة زيارات "سعاد هـانم" وبحرصها على هذه الزيارة عندما يكون أبوها في البيت...

و "سميرة" في هذه الأيام الأخيرة ترى فـي كثيـر مـن تصرفات "سعاد هانم" تدخلا فيما لا يعنيها.. مالها هي ولبدلة أبيها الآن تلمع لها الزراير كل صباح؟!.. إن أحدا لم يفعـل هذا إلا أمها المرحومة! الزوجة وحدها هي التي تصنع مثـل هذه الأشياء للرجل!!

وحين فرغت سعاد هانم من تلميـع الزراريـر والتـاجين أعطت الجاكتة لسميرة بعناية، فأخذتها "سميرة" منها بسرعة كأنما تخطفها ونظرة تضرر تلوح من عينيها!

ودخلت سميرة بالجاكتة على أبيها فوجدتـه أمـام مـرآة الدولاب يربط الكرافتة وهو بالقميص والبنطلـون الكـاكي، والجلباب ملقى على السرير، وألبسته الجاكتة ووقفت تمسـح ظهره بالفرشاة وهو يلقى نظرات رضا مزهوة على التاجين اللامعين ويشد أطراف الجاكتة بإحكام.. وترك المرآة، وعاد يبحث في جلبابه المرمي على الفراش وأخذ ينقل ما في جيب الجلباب إلى جيوب الجاكتة وسميرة تساعده وهو يهمهم لنفسه متنهدا وكأنه لا يشعر بوجود سميرة:

- فرحان بالتاج؟ ما انت لبسته مرة من أكتـر مـن خمستاشر سنة.. التاج ده كان حقه مقص يزينه والا أقله نجمتين تلاتة يسندوه دا أقل واحد من دفعتـك بقى قائمقام يا سي شكري وانت فرحان لي برتبـة صاغ؟.. لكن يا سـيدي أهـم وعـدوك تتسـاوى بزملائك.. يعني بالميت توصل قائمقام بلاش طمع

في أميرالاي والا لواء.. يا سلام عليك لمـا تبقـى لواء يا شكري باشا عبد العال.. اللواء شكري.

وقاطعته سميرة بفرح وأمل:

- بكره تبقى لوا يا بابا وتاخد الباشوية.

وبوغت "شكري" ثم نظر إليها بحنان بالغ، بينما انسحبت هي في خجل حين أدركت أن أباها كان يناجي نفسـه وهـو لا يعرف أنها ما زالت في الحجرة..

وعندما خرجت سميرة لم تجد "سعاد هانم" في الصـالة... بقيت وحدها لحظة تحاول أن تسمع صوت الشـيخ "رفعـت" وأنفاسها تتردد في أنفها الدقيق، وفي أعماقها شعور ممـض بأن أحدا لا يرغب في وجودها هنا الآن.. الرجل يكلم ابنتـه ويحلم معها.. ثم.. لماذا تخطف منها "سميرة" حاجـة أبيهـا بهذه الطريقة المهينة؟ لماذا هذه النظرات الغريبة؟ كأن شـيئا منها يقف في حلق "سميرة"!..

وتحت وطأة الزراية والوحدة المفاجئة والشـعور بأنهـا زائدة في المكان انطلقت إلى شقتها مسـرعة تكـاد تجـري وفيض من الدموع ينفجر من أعماقها ويزحف حتـى لـيملأ منها الصدر، فتكاد تختنق به..

وعندما خرج "شكري" من غرفته، والعصا القصيرة تحت ذراعه، التفت يبحث عن "سعاد هانم" في الصالة، فلم يجدها.. وقبل ابنته "سميرة" وهو يفتح الباب.. ثم توقف يسألها:

- ا ؟! هيه سعاد هانم فين أمال؟ مش كانت تنتظـر معاكي شوية؟ مش عوايدها يعني أنها تسيبك وتطلع قبل أنا ما أنزل!

واستمر قبل أن تجيبه سميرة:

- وا كتر خيرها.. سايبه بيتها وجايـة تسـاعدك.. ا يكون في عونها!.. لازم طلعت لأن أولادها لسه ما نزلـوش للمدارس.

وهم بالخروج من باب الشقة ولكن "سميرة" فاجأته بصوت مشحون ارتفع أكثر من اللازم:

- لا يا بابا وانت الصادق يا بابا... هيه نزلت ولادها بدري! من يوم حضرتك ما رجعت الشـغل وهـي بتنزل ولادها بدري وتيجي هنا على طول... مـن يوم أنت ما رجعت الشغل..

ولم تكمل.. واحتبس صوتها في حلقها!

ودهش "شكري" من لهجة ابنته... لم يسمعها من قبل تكلمه بهذه الطريقة التي تخفي بها وراء الانكسار، مرارة غريبة، وخوفا يخالجه نوع من التحدي... والتفت إليها وهو يقف في الباب المفتوح متضايقا من لهجتها:

- عجيبة!.. أنت أمرك غريب قوي! جرى إيه يا بنتي؟! بتتكلمي كده ليه؟! ومال صوتك عالي كده؟ أنت زعلانة لأني رجعت الشغل والا إيه؟

ولم تجب "سميرة" وخيل إليها أن أباها – الواقف مشدوها – لا يفهم ما تريد، ولم تشأ أن تضايقه وهو وخارج إلى عمله، وتذكرت أن المرحومة أمها كانت تبتسم دائما في الصباح قبل خروجه، ولا ترفع صوتها أبدا طول الوقت ما دام هو في البيت، حتى عندما مات ابنها الوحيد كانت تمسك عن النواح قبل أن يدخل بمجرد أن تشعر بأقدامه على السلم!

وتقدمت "سميرة" إلى أبيها تسلم عليه مرة أخرى، وهي تغتصب ابتسامة وتبلع ريقها:

- أنا يا بابا؟!!. إزاي يا بابا؟!... ربنا يمتعك بوظيفتك وتعوض اللي فاتك، وتسبق اللي سبقوك، ربنا يريح بالك ويطول عمرك وينولك مقصودك!

نفس طريقة أمها في الكلام: الصوت المـذعن الحنـون المفعم، والكلمات الطيبة المبشرة التي يتفتح لها القلب وتغمر النفس بالثقة!

وخرج مشدودا تلمع الزراير في بدلته ببريـق خـاطف، والتاج يتألق على كل من كتفيه العريضتين.

***

ومضى يطرق بخطواته الثابتـة أرض شـارع "عزيـز" متجها إلى مكتبه الجديد في وزارة الحربية كما تعـود منـذ أيام...

وكما تعود منذ أيام، عاد سؤال معذب يلـح عليـه وهـو يحاول أن يطرده، ولكن السؤال وقف أمامه كحائط يسد عليه الطريق: أمخطئ هو أم مصيب فـي قبـول العـودة إلـى الجيش؟!! لماذا تحدثه ابنته عن العودة إلى الشغل بمثل هـذه الطريقة؟!.. أتراها تكابد نوعا من خيبة الأمل في أبيها!؟..

وهز "شكري" رأسه مستنكرا وتنهد في بطء! واكفهر وجهه فجأة... وفكر أن يعود إلى البيت ليستل من أعماق ابنته كـل ما تفكر فيه... ولكنه لم يكد يتوقف، حتـى امـتلأت أذنـاه بصوت أجش منغم غليظ، يردد بيتا مـن الشـعر بطريقـة حزينة، وتلاذذ:

ترخيما احذف آخر المنادى   كيا سعا فيمن دعا سعادا

والتفت وراءه.. ورجع خطوات.. ووقف أمام بيته يتأمـل مصدر الصوت.

ما هذا؟ من هذا؟.. إنه ساكن إحدى شقتي الدور الأرضي في بيت أمين أفندي!.. هو "الشيخ عبد الحي" يقعد، ومرفقـه على حافة الشباك، ورأسه يخفق بين الورق والشارع، وعيناه تتطلعان إلى الطابق الثالث من بيت شكري حيث تسكن سعاد هانم!... ونبرات صوته تتعالى وهو يتلمظ بالكلمات:

- ترخيما احذف آخر المنادى يا سـيدي.. ترخيمـا احذف إيه؟! احذف آخر المنادى.. كيا سعا فـيمن دعا.. مين يا سيدي؟! فيمن دعا سعادا... كيا سـعا فيمن دعا سعادا... سعادا يا سيدي... كيا سعا فيمن دعا سعادا..!

ورفع "شكري" عينيه إلى بيته من ورائه بحركة سـريعة لا يعرف سببها، فوجد "سعاد هانم" تقف في شرفتها بثوبهـا الأسود المحتشم الذي يلف جسدها النحيل، وهي تنكس وجهها المستدير ذا الأنف الدقيق والشـفتين الـرقيقتين، وعيناهـا الواسعتان السوداوان تنظران في الفضاء، وهي تتنهد كأنمـا فرغت لتوها من البكاء!!.. ما وقفتها في الشرفة فـي هـذا البرد؟! لماذا تقف هكذا والشيخ "عبد الحي" يغني باسمها!؟.

وسعل "شكري" بغيظ، وألقى السلام علـى عبـد الحـي، فهرول إلى الشباك يرد السلام ويدعو "شـكري أفنـدي" أن يتفضل بشرب الشاي عنده، ولكن "شكري" لم يجبه، ومشـى في طريقه بخطوات متباطئة، فأغلق "عبـد الحـي" شـباكه، وسكت حسه... و "سعاد" ما زالت واقفة في شرفتها، تائهـة النظرات في الصباح المغلف بالغيوم!

وفجأة... انفجرت من أعماق "شكري" ضحكة كتمها بـين شفتيه. ا يلعنك يا شيخ "عبد الحـي"! تغـازل بـالنحوي! وبالشعر الأزهري؟! تغازل بألفية ابن مالك؟! ولكن العيـب ليس منك! العيب من الذي جاء بك إلى هنـا وأسـكنك فـي الشارع في وسط العائلات، وأنت طالب عازب يعيش وحده!

العيب من الذي أجر لك! خيبة ا عليك يا "أمين"! تبني بيتـا وأنت لا تعرف أصول البيوت، وتتزوج فتاة صغيرة تحـب الجري واللعب وأنت تعود من الشغل فتنحط في البيت بـلا حركة وتنام كالبغل، ثم تخرج تهز كرشك وتتركها وحدها..! وبعدها تؤجر بيتك للعزاب، وحين تقع على عائلة توحـد ا في بيتك، نكتشف فيما بعد أنها عائلة تعيش على عرق بنـت تغني وترقص وتميل وتفعل مالا يعلمه إلا ا ! عائلة "رجاء صدقي" لا أحد يستحق السلام في بيتك كله يا "أمـين" غيـر أولاد "الحاج خليفة"... أولاد مؤدبون، أبوهم رجـل صـالح، عمدة بلد من الغربية، أدبهم ورباهم على احتـرام الجيـران ورعاية حرمة الجيرة، وعلمهم وصية النبي بسـابع جـار! ولكن كلهم عزاب.. ستفسدهم يا "أمين"..! شرفتك إلى جوار شرفتهم تماما، فإذا وقفوا في شرفتهم لا تتركهم فـي حـالهم وإنما تحلو لك ساعتها شرفتك فتدخل أنت تسـحبك "ميمـي" وتبادرهم بالكلام، وبصفة خاصة إذا وقـف "عبـد العزيـز" طالب الطب... وكلمة من هنا وكلمة من هناك، فإذا ميمـي هي الأخرى تتكلم وتضحك معهم، ويهتز صدرها الرجـراج البديع تحت القميص الحريري المكشوف! كله مـن الحمـار

"أمين".!! وحتى أسرار حجرة النوم! ا يلعنك ألـف لعنـة يا "أمين"؟.. الشباك الداخلي لحجرة نومك يطل على منـور يطل عليه شباك مقابل من شقة أولاد الحاج خليفة... يا أمين اقفل شباكك واستر نفسك في الصيف، فأنت تلقي بأسـرارك مع امرأتك على الأولاد من هذا الشباك!... مصـيبة وا ... إنهم يرونها أحيانا في فراش الزوجية؟

لو أن والدهم "الشيخ خليفة" عمدة بلـده الطيـب الوقـور عرف الحكاية أو لمح امرأتك مرة وهي راقـدة، فسـيجعل عيش أولاده كالقطران!... مصيبتك ثقيلـة يـا "أمـين"!!.. ومصيبة "ميمي" بك يا ولد هي أثقل المصائب!

ولكن المصيبة الكبرى حقا هي في هذا "الشيخ عبد الحي" الذي يدخل في البدلة كأنها جبة وقفطان ويكبس الطربـوش على رأسه كأنه عمامة، مع أنه تلميذ بـدار العلـوم تـرك الأزهر منذ أعوام.. أينتظر هذا "الشيخ عبد الحي" في بيتـه كل يوم حتى يخرج رجال الشارع، فيقعد هكذا يعاكس نساء البيوت الفاضلات بالشعر والنحو، وربما بالآيـات القرآنيـة أيضا؟ الشارع لملم..!.. أشياء كثيرة فيه يجب أن تصـلح..

كان من الأفضل أن أبني في الحلميـة الجديـدة، ولكـن... القصد.. رحم ا من كان السبب!!

على كل حال عندما ترجع مـن الـوزارة يـا "شـكري" ستعرف كيف تربي هؤلاء الفجر.. يجب أن يفهم "أمين" كيف يختار السكان. ستزور "أمين" في بيته، ولو أن رؤية "ميمي" ليست بالشيء المريح... "ميمي" وا إن زوجها لا يسـتحقها ولا يصلح خادما لها.. كنت مبالغا يا شكري حين طردتها من بيتك قديما.. أنت طردتها فعلا فلم تقل لك كلمة تضايقك..!.

***

وخرج شكري من شارع "عزيز" وعلى حذائـه الملمـع تراب وطين.. فما زال في أرض الشارع بلل من مطر قليل سقط أول أمس.

وفكر "شكري" في أن هذا الشـارع يجـب أن يرصـف أو تغطى أرضه على الأقل بقطع الحجارة الصغيرة. حجارة! لا. إنه ليس حارة بل شارع... وإن كان طمع دائرة البـرنس في أن تبيع كل متر من الأرض لم يسمح للشارع بأن يتسع، ولكن ألعن ما في الشارع هي هذه الأرض الفضاء إلى جوار منزل "دواد أفندي"، يرمي فيها الكل فضلات بيته، ويستعملها

الصغار والكلاب، وتهب منها في ظهـر الصـيف رائحـة تخنق.. كثيرون يريدون أن يشتروا هذه القطعة من الأرض ليقوم عليها بيت، ولكن "داود أفندي" في طوع حماتـه التـي تشاركه ملكيتها، وهي مازالت ترفض البيع، وتحلم بأن تقـيم عليها عمارة تستغلها، و "داود أفندي" لا حيلة له مع حماته!

العجيب حقا أن يكون لرجل مثل "داود" هـذا ولـد مثـل "سعد"، نابه ذكي عاقل قوي الشخصية!

لا يمكن أن يتصور أحد أن يترك ابنـه يكمـل تعليمـه، وعندما حصل الولد على شهادة الابتدائية بتفوق كبير، رفض "داود" أن يدخله المدرسة الثانوية واقتنع بأن يلحقه بوظيفـة معه في الدائرة.. مسكين "داود أفندي" هـذا، قليـل الحيلـة دائما.. نصحه بعض جيرانه في الشارع وأحد زملائـه فـي الدائرة أن يوفر على نفسه عناء الصرف على ابنه، ويلحقـه بوظيفة أو يدخله مدرسة متوسطة ليختصر الطريق، فراقـت له الفكرة، واستكثر أن يعلم ابنه وهو نفسه لم يحصل علـى الابتدائية، حتى ضرب الولد حين بكـى وتشـبث بـدخول المدرسة الثانوية وهاج في حماته وزوجته "عديلة هانم"..

لـولاك يـا "شـكري" لمـا دخـل "سـعد" المدرسـة الخديوية...صعب عليك حال الولد، وهزتك دمـوع "عديلـة هانم" التي جاءتك تستنجد بك على زوجها وتقسـم أن تبيـع الجلد والسقط لتعلم ابنها وتدفع له مصاريف المدرسة! ولكن الثمانين في المائة التي حصل عليهـا "سـعد" ضـمنت لـه المجانية.. أخذته أنت من يده دون أن يعلم أبـوه ودرت بـه على أصحابك وعلى ناظر المدرسة الخديوية حتى حصل لك صديقك وكيـل وزارة "الحربيـة" علـى أمـر مـن وزارة "المعارف" بإدخاله المدرسة الخديوية مجانا... وعندها فقـط أشرق وجه "داود أفندي" بالفرحة، وطابت له المفاجأة.

ولكن الولد مطرود من المدرسة منذ يومين... طلب منـه الناظر ألا يعود إلى المدرسة إلا مع ولي أمره.. وأبوه يزعق فيه أنه لن ينفع، ويمسك شاربه الأشيب ويقسم لعديلة هانم أن يحلقه إن أفلح ابنها "سعد".. وعلى كل حال فالرجل لم يحصل على إذن من الباشكاتب أن يتخلف ساعتين أو ثلاثا عن عمله ليذهب إلى مدرسة ابنه، وهو لا يحب أن يرجو "أدهم بـك" الباشكاتب الجديد المتعجرف، وإن كان قريبا لعديلـة هـانم،

فداود ما يزال كلما جاءت سيرة "أدهم بـك" يتحسـر علـى الباشكاتب القديم المرحوم صهر "شكري"..

ولكن الناظر مصمم على ألا يعود "سعد" إلـى المدرسـة إلا مع أبيه... هذا الناظر تربية إنجليز. كان الأول في دفعـة المعلمين العليا سنة ١٩٢٠، وأخذه الإنجليـز إلـى بلادهـم ووضعوا له "بيبة" في فمه وزوجة إنجليزية في ذراعه، وعاد بعد أربعة أعوام يلوي لسانه ويرطن ويعيش مـع الإنجليـز ويقفز في الدرجات حتى أصبح ناظر أكبر مدرسة ثانوية في مصر، متخطيا زملاءه وربما مدرسيه بعشرين عامـا علـى الأقل.. والإنجليز يكتبون عنه دائما في الجرائـد المصـرية التابعة لهم ويركبونه على الأكتاف ويدفعون به إلى الإذاعـة ليلقي الأحاديث عن التربية، ويصفونه دائما بالعبقرية!! أهـو عبقري؟! بردعة الإنجليز!!.

***

ولكن لماذا لم تجئ "عديلة هانم" بعد لتستنجد بك يا شكري بعد طرد ابنها كما حدث من قبـل حـين أرادت أن تدخلـه المدرسة الثانوية؟ لماذا لم يحدثك "سعد" بنفسه؟ لـم تعـرف

الحكاية إلا من "عبده". خادم أولاد الحاج خليفة!. لكأن طلبـة الشارع لا ينظرون إليك كما كانوا من قبل!.

ماذا حدث لشكري عبد العال.. لم يعد سعد مثلا يتقدم منه مرحبا منحينا كلما رآه، فيشد "شكري" على يده بقـوة كأنمـا يمتحن فتوته فإذا لم يتألم "سعد" من فـرك يـده ابتسـم لـه "شكري" وطلب منه أن يكون قويا بطلا، ويعمل حسابه على دخول المدرسة الحربية، ولا يسمح لأحد أن يهينه!

لم يعد شيء من هذا يحدث على الإطلاق، ولم يعد طلبـة الشارع يقبلون عليه بالمرة!.

أيكون هؤلاء الطلبة الذين لم يعرفوا ضرورة الحياة بعد، غاضبين منه لأنه قبل العودة إلى الجـيش؟ أكانـت حالتـه القديمة التي تحمل لهم فكرة التضحية هي وحدها التي تثيـر فيهم الإعجاب، وتملأ قلوبهم باحترامه، وتجعـل منـه فـي خيالهم شيئا رائعا خرافيا كالأسطورة! أكانوا يحبونه لأن فيه معنى من قوة الشهيد؟ وهم يرونه الآن ضـعيفا لا يحتمـل لمجرد أن عاد إلى الجيش! ولكن ماذا يعرفـون هـم مـن الحياة؟! غدا عندما يتساوى بزملائـه ويرقـى إلـى رتبـة الأميرالاي أو اللواء سيظفر باحترام آخر لم يعرفه من قبل!

إن أبوابا كثيرة لم تكن لتفتح أمـام "شـكري عبـد العـال" اليوزباشي بالمعاش، سـتفتح غـدا للأميـرالاي "شـكري عبد العال" وينحني له الذين يقعدون – في غطرستهم – خلف هذه الأبواب. ولكن أتراه عاد إلى الجيش تحت سلطان هـذا الحلم!؟ من أجل هذا الزهو عاد إلى الجيش أم هو التعب من حالته؟ طلبة الشارع معذورون إذن ومن حقهم أن يحتقـروه، وأن يبصقوا عليه إذا شاءوا؟

لا!! مستحيل.. لم يضعف هو أبدا ولم تكن تراوده هـذه الأفكار عندما كان يناقش صديقه وكيل وزارة الحربية فـي أمر عودته... كان صديقه يؤكد له أن الجميع يعرفونه، وأنهم لم يفكروا في إعادته شفقة عليه، ولكن خطأ قـديم يريـدون إصلاحه لأنهم لن يجدوا رجلا في الجيش كله في مثل أمانته واستقامته وفهمه للواجب العسكري!

هذا صحيح.. هذه هي المسألة تماما! الذين فصلوه نـدموا بعد ذلك، وعلى أية حال فالحالـة تتغيـر. تغيـرت خـلال السنوات العشر التي قضاها متقاعدا، لم يعد الإنجليز وحدهم أصحاب السلطة، ليسوا هم كل شيء في حكومـة مصـر، والشهداء لم يموتوا إذن بلا طائـل!! ابنـه لـم يمـت بـلا

جدوى!!... و.. ولكن أتراك تعزي نفسك يا "شـكري" بهـذا الكلام لأنك قبلت العودة إلى الجيش تحت ضـغط الحاجـة المالية؟ عجبا.! من قال إنك عدت تحـت هـذا الضـغط؟! لا تخدع نفسك!. كنت تعاني من مظهر ابنتك، وتعاني مـن عجزك عن أن تشتري لنفسك القماش الذي تحبه، وكنت تفكر دائما في مستقبل البنتين، وكنت تهمس لنفسك كأنما تؤنبهـا: "من يمكن أن يخطب ابنة يوزباشي في المعاش؟ لـيس هـو نفس النوع الذي يتقدم لابنة أميرالاي أو لواء في الخدمـة"! وكانت تعذبك أحيانا فكرة أن ابنتك "سـميرة" تخطـو إلـى العشرين، ولم يخطبها أحد رغم أنها جميلـة، وسـت بيـت ممتازة! لا تخدع نفسك يا "شكري" فأنت فكرت في أن تتزوج أحيانا، ولكن الذي جعلك تعدل ليس هو خوفك على شـعور ابنتك فقط – فهذا يمكن أن يسـوى – ولكـن خوفـك مـن مصاريف جديدة لا يحتملها إيرادك. ألم يطف بك شيء مـن هذا وأنت تصغي في صمت إلـى صـديقك وكيـل وزارة الحربية، وتستعيده التأكيدات أنهم لن يطالبوك بضـرب أيـة مظاهرة تقوم، ثم تستعيده مرات، كأنما تحرس فـي أعمـاق نفسك احتجاجك على ترحيبك الخفي، وتسترضي كبرياءك؟!!

لا!!

فلماذا إذن تعذب نفسك كل هذا العذاب؟! أنت بالفعل كنت تريد أن تستوثق أنك تعود إلى الجيش على أسـاس احتـرام آرائك وأسلوبك في العمل، وكنـت غليظـا مـع سـكرتير الوزارة، تدفع المناقشة معه إلى طريق شائكة، وإلـى قطـع الأمل في العودة.. ولكن الرجل صبر عليك وعاملك كزميـل قديم يسبقه في التخرج، وأقسم لك إنهم يقدرونك ويحترمـون موقفك ويعرفون مبادئك وأنك لن تكلف بأي عمل لا ترضاه، وأنك تعود اليوم بكل عزتك لتعمل كما تشـاء، ولـن تجـد متاعب بعد!!

أنت لم تتهاون في شيء.. وليست هـي أحلامـك التـي جعلتك تقبل، ولا الحاجـة الماليـة، وأنـت مسـتعد دائمـا للجوع!!.. أنت قوي يا "شكري" لأنك تسـتطيع أن تجـوع، ولأنك بلا أطماع، ولأنك لا تهادن، ولأنك لا تحمل في قلبك حقدا على أحد.. حتى برادع الإنجليز كنت في غضبك منهم تحمل لهم مع الاحتقار نوعا من الرثاء، وتتجه بكل سـخطك إلى الذين أفسدوهم وجعلوا منهم خرقا مرقعة!!.. ومع ذلـك فلم يكن هناك شيء يضطرك لأن تقبل، فأنت لم تجع، ولـم

تشك بنتاك من نقص الغطاء في ليالي الشتاء، ولـم تتمـزق ملابس إحداهما! كان المعاش وإيراد البيت يكفيـان دائمـا.. وحتى لو حدث شيء من هذا، لما هادنت!!.

لا تعذب نفسك هكذا يا "شكري".. فرجل يحمل على كتفيه كارثة ثكل الابن الوحيد، وفقد الزوجة، لا يستطيع قلبـه أن يحتمل بعد مثل هذه الأزمات!!.. الناس تموت بالسكتة القلبية في هذه الأيام لأقل من هذا فادع ا أن يحييك لابنتيك!!.

وتحسس "شكري" صدره، وأنفاسه تضيق، وظـل يسـير وسط زحام مضطرب من ضجة الترام والعربات، وتخطـى في سيره ميدان السيدة زينب وهو لا يشعر!..

ورفع رأسه، وتماسك حتى لا تفر من عينه دمعة تألقـت فيها بغتة!

وعندما وصل إلى مكتبه في الوزارة، وقعد يشرب قهـوة الصباح دخل عليه العسكري الواقف على بابه، فحياه وقـال وهو ينزل يده عن جبينه، ويقف مستقيما:

- فيه واحد أفندي منتظر سعادتك بره!

ورفع شكري رأسه عن المكتب متسائلا بعصبية:

- مين ده؟! اسمه إيه؟ مش تعرف اسمه الأول.

فرد العسكري ووجهه مرفوع في جد بالغ:

- هو صغار كده وحليوه.. و.. ولابس بدله!

ونظر شكري طويلا إلى العسكري الواقف أمامـه قـائلا بصرامة:

- روح اسأله الأول اسمه إيه! وإيه سبب المقابلة. هنـا مكتب مش قهوة!

وهمهم لنفسه والعسكري يخرج:

- في كل جيوش العالم العساكر متعلمين. إلا عنـدنا.. نظام إنجليزي! واحد حليوه وصغار ولابس بدلة قال؟ كلام زي كلام العساكر اللي بيطلعوهم في تيـاترات روض الفرج!

وعاد العسكري بعد قليل فعظم بالسلام، ثـم تقـدم إلـى المكتب ومعه بطاقة زيارة.

وأمسك "شكري" بالبطاقة.. وهو يقرأ ببطء:

- سعد داود طالب بالخديوية الثانوية.

ووضع البطاقة على المكتب قائلا ووجهه ينبسط:

- قل له يتفضل!

ثم أكمل لنفسه:

- دا الأسطى عبد المعبود مغرق الشارع بـالكروت... حتى الأولاد!

ودخل "سعد داود" مترددا متهيبا فاستقبله "شكري" بترحاب كبير، وقال للعسكري:

- روح البوفيه هات بنفسك فنجان شاي باللبن.

ثم التفت إلى "سعد" بحنان، والطمأنينة تزحف إلى صوته:

- والا تشرب كاكاو يا ابني..

وعاد ينظر إلى العسكري قائلا بنشاط:

- لا لا.. هات له واحد سحلب.. روح هاته بنفسك.

ورفع "سعد" رأسه واختلجت نظرة حياء تحـت رموشـه الطويلة، واحمر وجهه الأبيض، وتحسس بطرف إصبعه حب الشباب في صدغه.. ثم قال بصوت خفيض وهو يتنحنح:

- مرسي قوي يا عمي.. بس أنا كنت جاي..

وجلجل صوت "شكري" وهو يبتسم:

- ارفع صوتك كده يا سعد وارفع رأسك.. أنا عـاوزك تبقى بطل.. قوامك الجميل الطويل ده قـوام فـارس يا ابني.

وضحك "سعد" وأشرق وجهه، وسطعت في عينيه نظرات ثابتة.

وبدأ سعد يقول:

- أصل أنا اتخانقـت مـع المسـتر فيـرنس مـدرس الإنجليزي، والناظر قال لي هات ولي أمرك وتعال..

فاعترضه "شكري":

- عارف.. أنا عارف!

وصمت قليلا ثم اتخذ صوته نبرة خطيرة، وكل انتباهـه يتركز في نظرة على وجه "سعد":

- لكن أنت ليه ساكت لحد النهارده؟ أنت ليه يـا ابنـي تتجنبني! إزاي أعرف الحكاية دي من غيرك؟ أنـت مش بقى لك يومين على الأقل مطرود من المدرسة؟

واضطرب "سعد"، ولم يستطع أن يقول شـيئا، وانحنـى رأسه وكتفاه قليلا.

ولاحظ شكري اضطراب "سعد"، وأخذ يتأمل حيرته، ثـم سأله كأنه يساعده على اجتياز الموقف:

- لكن إيه السبب يا ابني؟ مال خوجة الإنجليزي ومالك؟ دا انتو ما بقالكوش أسبوع داخلين المدارس.

وانطلق "سعد" يقول:

- ما فيش حاجة وا يا عمي. هو راجـل متغطـرس ومضطهدني من السنة اللي فاتت والتلامذة بيضحكوا عليه، احتك بتلميذ عندنا اسمه "عطا ا " عامل زعيم وقال له: يا ولد، يعني قال له يا Boy "بوي".. "عطا ا " قال له انت اللي بوي وستين بوي كمان.. الفصل كله ضحك.. طلع في دماغ المستر فيرنس إنـي أنـا اللي حرضت التلامذة عليه! وشه احمر، وقعد يبحلق في الفصل ويلف فيه، لقاني قدامه أطول واحـد فـي الفصل والحقيقة اني كنت باضحك ساعة مـا لقيتـه قدامي بمنظره الغريب.. قام موقفني وقعد يشـتمني، وجه عاوز يضربني بالمؤشر. أول ما رفع المؤشـر أنا مسكته وكسرته في وشه.. طلع جري ع الناظر.. فالناظر طردني وصمم اني ما ادخلش المدرسة إلا إذا

جبت ولي أمري، وخصم من الفصـل كلـه خمـس درجات من السلوك!

وعندما انتهى "سعد"، هز "شكري أفندي" رأسـه رضـا، وقال:

- أنا مبسوط منك جدا. كده كده! أنت ولد تمام!.. أيـوه خليك بطل! أيوه.. وبورك في الشباب الطامحين على رأي المرحوم شوقي بيه أمير الشعراء.

- ثم رفع سماعة التليفـون وأدار القـرص، وارتفـع صوته:

- مين؟ حضرة الباشكاتب؟ صباح الخير يا أدهم بيه... الصاغ شكري عبد العـال بيصـبح. ا يحفظـك.. يا سيدي أنا لي رجاء عندك. عاوزك تسـمح لـداود أفندي بإجازة ساعتين تلاتة يروح المدرسة الخديويـة علشان ابنه.. الولد مطرود من يومين تلاتة.. بكره!؟ متشكر. قل له انت يا أدهم بيه أحسن هوه مكسـوف يطلب منك.. السلام عليكم!.

والتفت "شكري أفندي" إلى "سعد" فوجده مـأخوذا بعـض الشيء متضايقا.

وأدرك "شكري" أن كلمة الولد، ربما كانـت هـي التـي ضايقته فقال له متبسطا:

- خلاص يا "سعد أفندي" بكره يا ابني أبوك راح ياخدك ويقابل الناظر قبل ما يروح الدايره.

ووقف "سعد" يسلم على "شكري أفندي" بقوة. وخرج يفتح صدره.

وبقي "الصاغ شكري" على مكتبه يتنفس براحة وطمأنينة، ورضي عن نفسه، وتذكر فجأة أن "سعد" لم ينتظـر حتـى يجيء السحاب، فناداه ولكن سعد كان ينطلق مسرعا إلى باب الوزارة!!

وهمس شكري لنفسه مبتسما: إيه!.. شباب..!

(٣)

استدعى "شكري عبد العال" العسكري الواقف على الباب فدخل يضرب الأرض بقدمه ويقرع أحد حذاءيه بالآخر ويخطف سلام التعظيم العسكري..

وناوله شكري أوراقا مطوية قائلا:

- الورق ده تسلمه بنفسك لمكتب سعادة وكيل الوزارة وترجع حالا. الك عشر دقائق. الساعة دلوقت تسعة وربع. تسعة ونص إلا خمسة تكون رجعت.. تمام؟!

وأخذ العسكري الورقة قائلا:

- تمام يا أفندم..

الأمور تجري بأسرع مما تصورت يا "شكري".. كلها أيام وتسوى حالتك وتصبح الأميرالاي "شكري عبد العال بك"... استعد يا "أسطى عبد المعبود" لطبع كارت جديد!... كانت المسألة بسيطة جدا. ثلاثة طلبات لمعالي الوزير: كل رتبة بطلب! لم تكن التماسات بل كانت طلبات. مجرد طلبات لرد

حق مسلوب.. فأنا لا ألتمس.. كان يجب أن أكتفـي بطلـب واحد، ولكن وكيل الوزارة استطاع أن يقنعني بأهمية كتابـة ثلاثة طلبات مستقلة لتسهيل الإجراءات، في كل طلب تفصيل المدة التي كان ينبغي أن أمنح فيها الرتبة. لو انتهت المسألة بالحصول على رتبة القائمقام فلا بأس! كله خير فليبدءوا هذه الأيام برتبة البكباشي!! وعلى كل حال فأنا لم أذهب بنفسـي لأقدم الطلبات، ولا تسمح لي كبريائي أن أقف ببـاب وكيـل الوزارة، ولو أنه صديق! أنا الآن في الخدمة، وهـو وكيـل وزارة، ولئن طلبت مقابلته فيجب أن أنتظر دوري. ومكـاني في الدور بحكم الرتبة التـي أحملهـا متـأخر جـدا. إيـه يا "شكري"! ماذا تريد إذا كان مدير مكتب الوكيل ضابطا في رتبة البكباشي!! حسنا فعلت!!

وعاد العسكري بعد قليل يقف أمام "شكري عبد العال":

- جناب البكباشي مدير مكتب سـعادة الوكيـل اسـتلم الورق بنفسه يا أفندم وبيصبح على سعادتك!!.. و... والـ..

- وقاطعه "شكري" مبتسما وهو ينظر إلى ساعته:

- برافو عليك عسكري نشيط. أديت المهمة في أقل من الوقت المقرر. عسكري تمام.

واستمر العسكري متشجعا:

- والأفندي اللي جه إمبـارح عـاوز يقابـل سـعادتك يا أفندم.. الشاب اللي اسمه "سعد" أفندي.

وهمهم "شكري" وهو ينظر إلى العسكري مداعبا:

- "سعد"؟! الشاب الحليوة اللي لابس بدلة!.

وابتسم العسكري بطيبة...

وأحس "شكري" بفرح خفي لأن "سعد" جـاء إليـه مـرة أخرى... لم تكن زيارة الأمس مصادفة! إنه إذن لم يفقد شيئا في قلوب طلبة الشارع، مازالوا كما كانوا يلوذون به، وحتى لو عرفوا أنه قدم التماسات لتسوية حالته، فإن مكانتـه فـي أعماقهم أن تمس:

وقال "شكري" للعسكري:

- خليه يتفضل وهات له شاي باللبن.

ودخل "سعد" فاستقبله "شكري" واقفا.

كان "سعد" مضطربا مصفر الوجـه ونظراتـه تحملـق مستغيثة في وجه "شكري" وسأله:

- مالك يا ابنـي؟! خيـرا.. مـش أبـوك راح معـاك المدرسة؟

فقاطعه "سعد" وصوته يتهدج.. صوت تخـتلط بخشـونته الجديدة بقايا نعومة الصبا، ويرعشه الذعر:

- الحقني يا عم شكري أفندي. كرامتي! أنا حاتنحر! أنا سأنتحر!.. الناظر عاوز أبويا يضربني علقـة قـدام التلامذة كلهم، وإلا ما أدخلشي المدرسـة! كرامتـي يا عم شكري أفندي! إزاي يمـدوني فـي الطـابور الصبح وأنضرب أنا؟ إيه الإذلال الفظيع ده؟ أنا أنتحر أحسن!..

واستغرق في بكاء لم يستطع أبدا أن يقاومه.

وابتسم "شكري" وهو ينظر إلى "سعد" بإشـفاق يخالطـه الإعجاب. وقام يطبطب على كتفه، وطلب له كوب ماء وهو يقول متبسطًا:

- بس يا "سعد" بس يا ابني! تنتحر إزاي؟... يـا سـعد أنت عبيط؟ تبقى هي الدنيا أظلمت خلاص قدام شاب

زيك سنه لسه خمستاشـر والا ستاشـر لا لا.. أنـا ما أحبش أسمع منك كلام زي ده! أنت دلوقت رجل.. اشرب اشرب يا ابنـي.. وروح أنـت علـى بيتـك واتركني أنا أتصرف... أنا حاعرف شغلي مع الناظر بتاعكم ده، ومع أبوك... الناظر القديم بتاعكم كان زي السكرة ورجل عظيم لكن بقى الناظر اللـي جـالكم السنة دي... ده مصيبة...

ورفع بيده رأس "سعد"، وأعطاه كوب الماء، بينما عاد هو يقعد إلى مكتبه مصفقا بيديه في عجب وهو يقول:

- لكن المهم هو أبوك... أبوك ده أمره غريـب جـدا! إزاي يوافق على حاجة زي كده؟ تنضرب في طابور دخول المدرسة؟! طب مدرس الإنجليزي مش عاوزك ترفع راسك وده طبيعي، وناظركم من برادع الإنجليز وأمره معروف. ولكن أبوك؟ إزاي يعمل كده؟ طيـب روح البيت أنت واوعى تتكلم معاه! أصل أبوك ده...

وتوقف "شكري أفندي" قليلا كأنه يمنع كلمة على طـرف لسانه، ويبحث بدلا منها عن كلمة أخرى.. ثم أكمل:

- أصل أبوك ده... أنا عارفه.. رجل مغفل!

ورفع "سعد" رأسه، وارتسمت على وجهه دهشـة خفيفـة يخالجها نوع من الارتياح الخبيث، وشاعت الابتسـامة فـي وجهه المبلل بالدموع.. ومسح دموعه بمنديل حريري ناصع البياض فاح منه عطر خفيف، وأخذ يشرب الشاي.

والتفت إليه "شكري" قائلا:

- اسمع يا ابني.... الريحة اللي فـي المنـديل ريحـة نسائية... بلاش تخلي الست والدتك تحط لك ريحه في المنديل... الرجل لا يتعطر!

وبوغت "سعد" بعض الشيء!! وشعر بالخجل!... نعم أمه هي التي اشترت له هذا المنديل، ووضعت فيه نقطـة مـن عطرها هذا الصباح!..

وعندما وقف سعد لينصرف قال له "شكري" كأنه يتـذكر شيئًا:

- اسمع يا ابني. أقول لك؟ أنا رايح معـاك دلوقـت.. يا للا بنا على خيرة ا . يا ريتـك قلـت لـي قبـل ما تروح المدرسة أنت ووالدك؟

وخرج "شكري" ممسكا بيد "سعد"، وهو يتلقى عددا مـن التحيات العسكرية من أول باب مكتبه حتى الباب الخـارجي للوزارة.

وانطلق إلى الشارع المؤدي إلى السـيدة زينـب نشـط الحركة صارم الوجه، وإلى جواره سعد يمشي في صـمت: طويلا تكاد كتفه تمس كتف "شكري"، أكثر طولا مما تحتمل سنواته الخمس عشرة.. وأخذ سعد يتخلف قليلا أثناء السـير كأنه خجل من السير جنبا إلى جنـب مـع العـم "شـكري عبد العال".

كانت الشمس ترسل أشعتها الفاترة في الصباح، وزرقـة السماء تختفي وراء تموجات السحاب الأبيض، ثـم تبـين، وشكري يدخل في زحام ميـدان السـيدة زينـب وعصـاه الصغيرة تحت كتفه، وبعض نظرات تسـتلقي علـى بدلتـه العسكرية الأنيقة. نظرات من بعض الرجال، والنساء أيضا.. فيهن مثل "سعاد هانم". آه يا "شكري" ماذا يذكرك بهـا الآن؟ وهل هذا وقته؟ ماذا يظن الولد الذي يمشي بجانبك السـاعة، ممتلئا بك، مضطربا لأن كتفه تمس كتفـك أحيانـًـا؟ لـو أن "سعد" عرف أنك الآن تفكر في "سعاد هانم" وتـرى أمامـك

طيفا من هذه الأرملة الحلوة الطيبة الوحيـدة الشـهية؟! ا
يجازيها خيرا هذه المسكينة التي نذرت شبابها لابنتها وابنهـا
ورفضت الزواج من ناس أكابر كثيرين وصـانت سـمعتها
ونفسها من أولاد الحرام. إنها تتعب نفسـها فـي مسـاعدة
"سميرة" وهي التي كوت بنفسها هذه البدلة لك..؟

وتحسس "شكري" صدر جاكتته بسرعة، وشد أطرافهـا،
وأمامه صورة "سعاد هانم" بعينيهـا الواسـعتين الحـزينتين
وبدنها الرقيق وصوتها الذي يستثير دائما شفقته. لكم تضحي
من أجل ابنتها وابنها هذه المسكينة الحسناء الشـابة، مثلـك
تماما يا "شكري": تقاوم الطبيعة والغريزة وكل شـيء لكـي
لا تكسر خاطر الأولاد... وآخرتهـا يـأتي فحـل كالشـيخ
"عبد الحي" ويقول لها: "كيا سعا فيمن دعا سعادا" ولكن ليس
الشيخ "عبد الحي" هو ما يخيفك، فهـذا الكـلام هـو آخـر
ما عنده... ليس الخوف منك يا "عبد الحـي" وإنمـا مـن...
لا لا... "عبد العزيز" ابن الحاج خليفة ولد طيب وهو لا يفعل
شيئا بشعا كهذا. وهو وإن كان يتردد على "سعاد هانم" حـين
تمرض ليفحصها فإنما يفعل ذلك كطبيب، وكلها شهر والتاني
ويتخرج من كلية الطب ويصبح طبيبا بحق وحقيـق. لا لا..

"عبد العزيز" لا يمكن أن يستمتع بجسد لم يكن ليراه إلا ليفحصه كطبيب! هو نفسه قال لك هذا يا شكري، وهو صادق. لا لا.. ربما كان "عبد العزيز" مشغولا بالست "ميمي". وا إنها لا تستحق زوجها.. ولكن الحقيقة أن "عبد العزيز" يحب الضحك لا أكثر، وهو يعرف حرمة الجار، وأبوه "الحاج خليفة" عمدة بلده، عادل مستقيم يخاف ا ويحبه الناس هناك. ومن أحبه ا أحبه الناس يا "شكري" وأولاده هنا نقلوا عنه صلاحه وتقاه. إنهم أولاد مؤدبون فيهم حياء ولا يشربون القهوة أمام أبيهم. لا يمكن أن يصنع أحد أولاد الحاج "خليفة" شيئا كهذا مع أهل شارعه.. أنا أعرف الرجل وأعرف أولاده كلهم منذ زمن.. وكلهم أنضج من سنهم.. عندهم أخلاق، ولهم حدود لا يتجاوزونها مهما يضحكوا.. أنا أعرفهم منذ أرسلهم أبوهم إلى القاهرة يتعلمون فيها ويقيمون مع أخيهم الأكبر "أحمد" المهندس المتزوج... كانوا هم أول من يستأجر الطابق الأرضي الذي يسكنه الآن الأسطى "عبد المعبود" وكانوا أحسن الجيران.. ولكن أخاهم المهندس أراد أن يسكن قريبا من محل عمله لأنه يتردد على المكتب في الصباح وبعد الظهر، فذهبوا يسكنون في

الناصرية قريبا من وزارة الأشغال، وزارهم أبوهم ذات ليلة فوجدهم متجمعين في شباك يبصون على رجال ونساء كانوا يضحكون ويشربون، وامرأة تغني وترقص عارية البطن والفخذين وتتخلع وهي تغني. "بعد العشا يحلى الهزار والفرفشة".. فهاج "الحاج خليفة" في ابنه المهندس وزوجته وضرب أولاده الصغار، وخرج غاضبا وأقسم ألا يدخل لهم بيتا حتى يتركوا هذا الحي كله.. وبات في فندق بالعتبة الخضراء وهو يلعنهم لأنهم تركوا شارع "عزيز" بجيرانه المحتشمين وراحوا يجاورون الفواحش! وكبر هذا كله على الأولاد فباتوا متنكدين، وقاموا من الفجر يبحثون عن شقة في شارع "عزيز" استرضاء لأبيهم الذي أحب الشارع. وكان حظهم طيبا.. فوجدوا الطابق الثالث مبنيا، واستأجروا الشقة التي تسكنها الآن "سعاد هانم" ولكنهم لم يقيموا طويلا إذ نقل أخوهم المهندس إلى الصعيد فسافر هو وزوجته وبقي إخوته وحدهم... وفهم الأولاد أن "شكري عبد العال" لا يؤجر إلا لعائلة... وبحثوا في الشارع نفسه، ولكن بلا جدوى فانتقلوا إلى شارع آخر في بركة الفيل.. ولكن والدهم ألح عليهم أن يعودوا إلى شارع "عزيز"، فهو مطمئن يا "شكري"

إلى أنك ترعى أولاده ما داموا تحت عينك، حتى ولـو لـم يسكنوا عندك!... و "الحاج خليفة" قال لـك مـرة إن الأولاد يستحون من أصدقاء آبائهم كما يستحون من آبائهم تمامـا... وهكذا عادوا إلى الشارع مرة ثالثة وسكنوا شقتهم هذه فـي بيت "أمين" و "ميمي".. على أن "الحاج خليفة" لم يكن منقطعا عن زيارة الشارع عندما تركه أولاده، بل كان كلما جاء يطل على أولاده الذين يتعلمون في القاهرة، حضر لزيـارة أهـل الشارع مصطحبا معه "عبد العزيز"... هيه...! الأيام تجري يا "شكري".. كان "عبد العزيز" أول ما جاءوا إلى الشـارع، ولدا صغيرا يلبس البنطلون القصير ويلعب مع ابنك.. وهـو الآن دكتور.. أهل الشارع يسمونه الدكتور "عبـد العزيـز". وهو الآن صديقك، تحبه كأنما هو أخ صغير أو ابنك، وليس أعز علينا من صديق رأينا شعاع الطفولة في عينيه ذات مرة وشاهدناه ينمو أمامنا يوما بعد يوم!..

وفي "عبد العزيز" شيء غريب، فعلـى الـرغم مـن أن "عبد المعبود" هو أقرب أهل الشارع إليك إلا أنك يا "شكري" لا تسمح لنفسك أن تبدو أمام واحد من أهل الشارع كما تبدو أمام "عبد العزيز"، حتى "عبد المعبود"! فمع كل ارتباطك بعبد

المعبود فهناك أشياء في نفسـك لا تحـب أن يعرفهـا هـو ولا تمسها أنت أبدا... ولكن "عبد العزيز" شيء آخر.. كأنـه صديق قديم في مثل سنك، من هذا النوع الذي عشـت معـه شبابك الأول...

أنت تحدثه بصراحة وتقول له أي كلام يجيء في ذهنـك وتكلمه عن النساء والفحولة، وكم حكيت له عن ذكرياتك في السودان مع الإنجليزيات، ولم تجد حرجا في ذلـك.. كانـت امرأتك لا تعرف، وكان حسبها أن تعود إليها آخـر الأمـر سليما في أمان ا ، فتسكن إلى بيتك وأولادك!.. "عبد العزيز" وحده يعرف منك كل مغامراتك قبل الـزواج فـي مقـاهي الأزبكية ومخابئ الحريم في بعض البيوت القديمة بالحلميـة الجديدة والمنيرة... يعرف حتى الأسماء، وأسرار كثير مـن البيوت الكبيرة في مصر. وهو الرجل الوحيد – بـين كـل أصدقائك – الذي يعرف تقـديرك لسـعاد وإعجابـك بهـا وبحشمتها وتحفظها، هي الشابة الوحيدة العطشى في الخامسة والثلاثين!... وهو الوحيد الذي حدثته مـرة عـن "ميمـي"، ورأيك في أن زوجها لا يمكن أن يملأ عينها.. لكم تحب أنت في عبد العزيز دهشته الحلوة الصافية حين يسـمع منـك..

تتبعه الشغوف لحكاياتك، وصوته المرتفع الضاحك وهو يعلق على أي شيء.. كل شيء يمكن أن يحولـه إلـى ضـحك! ما ألطفه وهو يحتد أحيانًا، عندما لا يكون الأمر محتاجا إلى الحدة، ثم يقول أي كلام ويضحك.. مرة كان يتحـدث عـن أحلامه في أن يحصل على دكتوراه في الجراحة من الخارج ويصبح جراحا كبيرا مثل علي إبراهيم، فتدخل أخوه الـذي يصغره "عبد اللطيف" الطالب بكلية الحقوق – وأخذ يناقشـه وأوشك أن يقنعه بأن مـن الخيـر لـه أن يتخصـص فـي الأمراض الباطنية، فصرخ فيـه "عبـد العزيـز": "اسـكت يا أخي.. أمراض باطنية إيه.. وجع بطنـك" كلمـا رأيـت "عبد اللطيف" يا شكري تذكرت هذا وضحكت!.. ومع ذلـك فعندما يكون الموضوع جدا، يتخذ عبد العزيز سـمتا آخـر ويكد ذهنه ويقول كلاما صائبا في الغالب.. إنه حكيم علـى نضارة سنه، خفيف، طيب الروح.. لا يمكن أن تظفر "درية" أو "سميرة" بزوج أحسن من "عبد العزيز".. لو أن الولد عاش لك يا شكري لكان في سن "عبد العزيز"، ولتخرج معه بعـد شهرين في كلية الطب، ولكان طويلا ضاحكا ذكيـا مهـذبا متأنقا مثل "عبد العزيز" تماما. لو أنه عاش لتعاملـت معـه

بطريقة أخرى غير التي يتعامل بها الآباء.. نعم يا شكري.. ولحمل لك شعورا آخر غير الخوف، ربما حمل نفس شعور عبد العزيز لك: الحب والاحترام والثقة.

لو أنه كان الآن بجانبي لسند ظهري، وكان عزوتـي!.. آه.. يا "شكري"!!.. ولقلت له كل أسراري وتركته يستشيرني هو أيضا في كل شيء – كما يفعل معـي عبـد العزيـز – ولفتحت صدري لأحلامه كما أصنع مع "عبد العزيز"! ولفهم الولد كثيرا من الأشياء التي تعذبني.. الرجل وحده هو الذي يستطيع أن يدرك ألم الرجل ووحدته، وكآبة الفراش البـارد! كان يمكن أن يعرض هو من تلقـاء نفسـه فكـرة الـزواج ولا يرى في ذلك إهدارا لذكرى المرحومة أمه، بـدلا مـن العيشة النكدة راهبا في شباب العمر!.. نعم أنا في الخمسين، ولكنني لم أشعر بهذه السن أبدا، وما زلت أكابد من حيويـة شبابي.. البنت لا تفهم هذا كما يفهمه الولد، ولا يجوز أيضا أن تفكر فيه!

ليس غير الرجل كما تقول يا "شكري" هو الذي يسـتطيع أن يقدر مشاعر الرجل وضعفه، وهذا الفـراغ فـي نفسـه، والشوق إلى امرأة تشاركه النهار والليل!.

أما البنت فتقلب الأمر إلى مأتم جديد على الأم الراحلـة، يتجدد، كلما رأت امرأة أخرى في فراش الأم.. أنا أعـرف لماذا بدأت "سميرة" تضايق "سعاد هانم".. إنـه الخـوف!.. مسكينة!.. لو أنها تزوجت لعرفت، فأصبح الأمر أهون!

***

وزفر "شكري" فجأة.. والتفت إليه "سعد" الذي كان يمشي صامتا هو الآخر، يتأمل وجه "شكري".. هذا الوجه هو نفس الوجه الذي تحمله "درية".. في وجهها صفاء غريب وشـيء آخر فاتن يختلط بالهيبة التي ورثتها عن وجه أبيها.. حتـى الأنف، له نفس الشموخ..!

وفوجئ "سعد" عندما أمسك "شكري" بيده مترفقا وكأنمـا خشي أن يكون "شكري أفندي" لاحظ نظراته إليه، وأفكـاره وأحس بحياء وندم.. ولكن "شكري" قال له متبسطا وهو يشد على ذراعه بحنان:

- إيه يا بطل؟ بتفكر في المدرسة والا إيه؟!.. إن شـاء ا حا تدخل بكرامتك.

كانت المدرسة الخديوية بأسوارها العالية تلوح لهما وهما يسيران في درب الجماميز.

وسمع "سعد" رنين جرس المدرسة يدق مؤذنـا بانتهـاء حصة واختلج قليلا.. انتهـى الـدرس الثالـث الآن: درس التاريخ! فرغ "ميخائيل أفندي" الآن من سيرة "جـان دارك"، لكم هو مؤلم أن أحرم من دروسه.. همتك وبركاتك يا "عـم شكري أفندي"!!

واقتحم "شكري" باب المدرسة فحياه البواب باحترام كبير. وحين اعترض على "سعد" أشار له "شكري" أن يتركه، وتقدم يتبعه "سعد" إلى غرفة الناظر.

لم يفارق "شكري" أبدا شعوره المرهق بالانقباض والحزن والرغبة في الثأر كلما دخل المدرسة الخديوية، وعلى الرغم من أنه دخلها مرات بعد وفاة ابنه ليقدم فيها أوراق سعد، فما زالت مشاعره تضطرم وهو يقترب من المدرسة، ومن فوقه الغيوم تحجب شعاع الشمس وزرقة السماء.

ونكس رأسه قليلا وتنهد ولكنه سرعان ما اسـتعاد نفسـه وهو يطلع السلالم إلى غرفة الناظر في الدور الثـاني يكـاد يقفز الدرجات في نشاط.. جهد "سعد" ليلاحقه.

وظهر الضيق على وجه "شكري عبد العـال" والسـاعي الواقف أمام حجرة الناظر يعود إليه قائلا:

- دقيقة واحدة، بس لما يرد على التليفون.

ومشى بعصبية في الردهة الواسعة أمام بـاب النـاظر، ووقف "سعد" ينظر إلى الممر المؤدي إلى الفصـول، ورأى "ميخائيل أفندي" مدرس التاريخ يقبل مسرعا فأسـرع إليـه "سعد" يحييه، وعرفه "شكري عبد العـال" وفـتح "ميخائيـل أفندي" باب حجرة الناظر بلا استئذان والسـاعي يحـاول أن يعترض في تحرج.

ولوح ميخائيل بيده مبتسما وهو ينظر إلى سعد:

- شد حيلك... إحنا كلنا بنساعدك، الشيخ علي مـدرس العربي وأنا وغيرنا كثير.

واختفى ميخائيل في حجرة النـاظر و "شـكري" يشـيعه بنظرة إكبار مهمهما:

- دا باين عليه شاب وطني؟ آهو كده يجب أن يكون كل المدرسين! العلم لازم يعلم الوطنية.

ثم رمق باب الناظر المغلق، وبان الشر في عينيه، ولكـن الجرس دق، ودخل السـاعي وعـاد يقـول لـ ـ "شـكري عبد العال":

- اتفضل.

واعترض بيده على "سعد" وهو يحاول أن يتبعه.

وتقدم "شكري أفندي" ليدخل متباطئا وهو يهمهم ساخطًا:

- خلاص يا سـيدي.. جبـت لنـا الإذن بـالمثول!!.. اشمعنى الناظر اللي فات ما كانشي عنده البروتوكول ده كله؟!..

ولكنه لم يكد يقترب من الباب والسـاعي يقـف ممسـكا بمصراعه المفتوح حتى سمع صوتا مألوفا ينادي من آخـر الردهة:

- ا !. عم شكري؟! طب استنى استنى.

وتحـرك "شـكري" مسـتغربا، والتفـت وراءه، فوجـد "عبد العزيز" وترك باب الناظر المفتوح يرتد ويغلق وذهـب إلى "عبد العزيز" مرحبا:

- إيه اللي جابك هنا يا دكتور؟

فقال "عبد العزيز" بضيق:

- سي زفت.. سي شوقي أخويا.. الناظر باعت جـواب عاوز ولي أمره. أعمل إيه؟ أجرجر لـه أبـوه مـن البلد؟!.

وابتسم "شكري" قائلا:

- ماله شوقي؟ انطرد كمان؟ يا أخي كنت ابعت أخـوك عبد اللطيف أحسن.. اسمه قانوني، ورجـل ناضـج والا دي حكاية أمراض باطنية رخرة؟ حـاتقول لـي وجع بطنه!

وتدخل "سعد":

- لا.. كل تلامذة الفصل الناظر طلب أولياء أمورهم.. بعد ما خصم خمس درجات في السلوك من كل واحد.

بينما اتجه "عبد العزيز" إلى "شكري أفندي" يرد عليه:

- ابعت عبد اللطيف للناظر عشان يقعد يتناقش معاه في السياسية؟؟ إذا كان لسه في سنة ثانية حقوق وعامـل لي محامي وكل ما يسمع حضرتك تقول عليه ناضج تكبر في دماغه وهات يا فلسفة عليه.

ورنت ضحكة "شكري".. ووقف "سعد" حائرا متخوفا من ارتفاع صوت "عبد العزيز"!! فالناظر لا يحـب أن يرتفـع صوت أمام بابه.. والضحك أيضا؟ سيعتبر هذا كلـه إهانـة له.. يا دكتور "عبد العزيز" ليس هذا وقته، وأنت "يـا عـم شكري" أنت لم تقل لي كلمة طول الطريق، ولـم أرك أبـدا

تضحك بهذه الطريقة، لماذا لا يحلو لك الضحك إلا أمام باب حجرة الناظر؟

وعاد الساعي يتلمس مكانا بين "شكري" و "عبد العزيز"، ويطلب من "شكري" أن يتفضل فحضرة الناظر ينتظره من عدة دقائق ووقته ضيق.

ولم يتحرك "شكري".

وقال "عبد العزيز" للساعي:

- ابقى قل لحضرة الناظر إن ولي أمر التلميذ شوقي خليفة واقف بره.

- فقال له الساعي:

- حضرتك؟ والده؟

وأجاب "عبد العزيز":

- بقى انت بنظرك كده تشوف إن أنا الحق أخاف شحط زي ده يا عم أبو سريع؟ أنت مش عارف شوقي خليفة؟ دا أطول مني انت نسيتني؟ مش فاكرني؟ أنا عبد العزيز خليفة. طبعا نسيتني؟ أنت زي ما أنت

ما تغيرشي فيك حاجة أبدا. كنت وأنا تلميذ هنا كـل ما آجي أطلب مقابلة الناظر تقول لي اسمك إيه؟

وتدخل "سعد":

- الدكتور عبد العزيز خليفة ولي أمر شـوقي خليفـة يا عم أبو سريع.. أخوه.

وقال الساعي وهو يحاول أن يتذكر "عبد العزيز" مدققا في وجهه:

- أصل حضرة الناظر محتم انه يقابل أبهات التلامـذة بس. وعلى كل حال أنا أكلمه لك. آه إزيك يـا سـي عبد العزيز: أيوه! افتكرت أنت بقيت دكتور بقى! ياما بيفوت علينا.

وأسرع يجيب جرس النـاظر، ويفـتح البـاب لشـكري عبد العال ودفع "سعد" بيده ليمنعه من الدخول وراءه.

وتقدم "شكري" إلى الباب وهو يقول للدكتور عبد العزيـز ضاحكا كأنه يتعمد أن يترك الناظر ينتظر دخوله مدة أطول:

- لكن أنت لسه بتنهج كده ليه يا دكتـور مـن طلـوع السلم؟ يا خسارة على الشباب!

ورد عبد العزيز مبتسما:

- طب بس اتفضل ادخل.. ما هو زمانكم كانوا..

ولم يكمل "عبد العزيز"، إذ دخل "شكري" وعاد الساعي يقول لسعد وهو يشير له بيده أن يصبر:

- أنا منعتك لكن دي الأوامر! دلوقت حضرة الناظر يطلبك أقوم أدخلك على طول. ما تزعلش. دي أصول. كل شيء بالأصول والأصيل ما يزعلش من الأصول.

ووقف سعد يتطلع في اضطراب ملحوظ إلى الباب المغلق على الناظر وشكري.. وسأل في قلق:

- مين جوه تاني؟

فأجابه أبو سريع:

- مافيش. الشيخ علي قاعد من الصبح، وميخائيل أفندي داخل قدامك.

والتفت "عبد العزيز" إلى سعد قائلا بخفة:

- لكن يا واد "يا سعد" أبوك فين؟ ما لقتش غير عمـك شكري أفندي يتفاوض لك على رجوعـك. دلوقـت يضرب لك الناظر بالكرسي.

وتهيب "سعد" من ارتفاع صوت "عبد العزيز" بكلام مثـل هذا.

ثم دق جرس حجرة الناظر مرة أخرى فـدخل السـاعي وعاد يقول للفراش وهو يقف بعيدا:

- ابعت اتنين قهوة مضبوط لسعادة البيه الناظر...

وأخذ "سعد" من يده قائلا:

- اتفضل ادخل.. سعادة البيه النـاظر غزالتـه رايقـه النهارده!

وتحرك "سعد" وأصلح رباط رقبته، ووقف يمسـح أنفـه ووجهه بمنديله أمام الباب، تنحنح، ودخل.

فاعترضه الساعي.

- زرر الجاكتة يا أفندي.

وعندما أغلق الباب وراءه قال "عبد العزيز" للساعي:

- يا عم أبو سريع أنا مش فاضـي.. قلـت لحضـرة الناظر؟!

فأشار له "أبو سريع" بيده مهدئا وهو يبتعد به:

- الحلم سيد الأخلاق. ساعة اللي جوه ما يطلـع أنـت تدخل. أنا ما أقدرش أدخل ولي أمر على ولي أمـر ولا تلميذ على تلميذ. لكن قل لي.. أنت بقى يعني بقى يعني بقيت دكتور: دكتور إيه بقى؟

فقال "عبد العزيز" ضاحكا:

- دكتور أمراض باطنية؟ يعجبك! والا دكتور جراحـة أحسن؟؟

وارتفع صوت مفاجئ من داخل غرفـة النـاظر، فقـال الساعي متوجسا:

- ا !؟ البيه الناظر بيزعق! ا ! يا اخوانـا ده كانـت غزالته رايقه لسه من دقيقة.. ما كنا مفرفشين!

ثم تبين "عبد العزيز" صوت "شكري عبد العـال" يرتفـع فهمهم لنفسه وهو يفكر بجد:

- ربنا يستر!

وابتعد...

وبعد قليل اندفع "شكري" من الحجرة غاضبا.

إنه لم يكد يقعد في حجرة الناظر!. ما هي الحكاية؟

وسحب شكري يد "عبد العزيز" وخرج به مسرعا، ومـن ورائهما "سعد" وهو يقول في غضب:

- تعال يا عبد العزيز.. الرجل ده لا يستحق أنك تقابله!

واندفع في صمت وهو يجر عبد العزيز من يده..

***

وفي شارع درب الجماميز.. اختفى سعد، وتابع شـكري الصامت، وحاول "عبد العزيز" أن يعرف شيئا من شـكري ولكنه لم يستطع... لم يكن مستعدا لأية همسة!

وحاول عبد العزيز أن يقول كلاما يضحكان منه.. وسأل شكري كان الناظر يستحق الضرب بالكرسي، مثل الضـابط الإنجليزي ولكن شكري كان يغلق فمه ويطبق شفتيه وعلـى وجهه صرامة وعيناه تبرقان.

وقال عبد العزيز لشكري أخيرا:

- طيب أرجع أنا أشوف حكاية شوقي أخويا.. أشـوف بس الناظر عاوز إيه.

فأجابه شكري بضيق:

- لا. ده راجل مش تمام... لا يستحق أن تـروح لـه يا أخي! ا !..

وهمس "عبد العزيز":

- طب بلاش النهارده... أروح الكلية بقى.

وظل يمشي صامتا...

ومر الاثنان على مطبعة الأسطى "عبد المعبود" في نهاية شارع درب الجماميز من ناحية السيدة زينب، فلم ينتبه لهـا شكري، وقال "عبد العزيز" محاولا أن يغير حالة "شكري":

- تيجي نشرب شاي عند عبد المعبود؟

ولكن شكري اعتذر بطقطقة من شـفته... ولـم يـتكلم.. وظلت أنفاسه تتردد في منخريه وعضلات وجهه تـتقاص، وهو يضغط على شفته كأنه يكتم صارخا يوشك أن ينفجر.. وهمهم:

- بقى ده كلام يقوله لي الناظر؟!.. أنا يقال لـي إنـي باضرب الطلبة الوطنيين.. أنا يقال لي مـا تعملشـي بطل!!

ثم التفت إلى "عبد العزيز" ونظر طويلا في عينيه قبل أن يقول:

- اسمع يا عبد العزيـز... أنـا عـايزك تقـول لـي بصراحة.. قل لي رأيك بكل صراحة.. أنا باستحلفك بعزة ا يا ابني انك تكون صريح معايا.

وتوقف شكري وهو يبلع ريقه..

وبوغت "عبد العزيز" من لهجته ورقة صوته وشكله وهو يتكلم، فقال بحذر ورعاية:

- إيه؟! حصل إيه بس؟ حضرتك تعـرف طبعـا إنـي صريح جدا معاك؟ إيه؟! خيرا! إيه الموضوع!

وأخذ شكري نفسا عميقا وزفر ببطء كأنـه يـزيح عـن صدره أشياء تحبس تحتها الكلمات..

وبدأ يقول بصوت متقطع تتزايد رهبته:

- هل أنا غلطت يا ابني لما قبلت الرجوع إلى الجيش؟! جاوبني بصراحة.. بكل صراحة! سيبنا مـن كـلام الناظر! أنا عارف انه بردعة من بـرادع الإنجليـز، لكن هل أنا غلطت في رجوعي؟ أنا لم أساوم. أنا لـم أقبل أي شرط للرجوع، بل بالعكس أنا اشـترطت أن يكون رجوعي غير مربوط باسـتعداد لضـرب أي مظاهرات يمكن أن تقوم. كلهم في الجـيش عـارفين اني أنا لا يمكن أن أضرب أي شاب مصري بيهتـف بالاستقلال والحرية، وكلهم عارفين مواقفي وعارفين أني رفضت أن أرجع سنة ٣٠ رغم الأزمة وسـوء الحال وإغراء المرتب. أنا رجعت صـحيح دلـوقتي ولكن مش لأني فقير.. أو لأني ندمت على ما فاتني.. أو.. لأني خايف على مستقبل أولادي!.. أنـا حقيقـة مش فاهم هم أرجعوني ليه، لكن.. أنا متأكد اني لـم أتنازل عن مبادئي أبدا أبدا. يمكن أدركوا خطأهم بعد مرور العشر سنين دول... وعلى كـل حـال.. فيـه غيري من إخواننا المتقاعدين رجع زيي!.. أنا.. مش

مستريح.. وحاسس ان فيه ناس بتنظر بريبة لمسـألة رجوعي للجيش... مش كده!؟ إيه يا عبد العزيز؟!

***

وبهت "عبد العزيز" وهو يسمع هذه الكلمات التي رنت في أعماقه رنينا حزينا ولم يشعر بأنهما توقفـا علـى محطـة الأتوبيس ولا بأن الأتوبيس جاء يتدافع إليه المتزاحمون.. ولم يعد يحس بضجيج ميدان السيدة زينب من حوله، وأخذ ينظر إلى الرجل الواقف أمامه ولفح النار على وجهه، ومن فوقـه سماء تتلبد بغيوم خابية الضوء داكنة كأنها مأسـاة! وقـال: "عبد العزيز" في حيرة وتأثر وتحرج ورعاية:

- إيه بس مناسبة ده كله يا عم شكري بيه؟! هو الناظر قال لك إيه؟!.. أنا مش فاهم إيه الحكاية. مين ده اللي ينظر لك بريبة. بالعكس، كل الناس بتقدرك وتحترمك وعارفه مواقفك وبتشوف إنك واحـد مـن ضـحايا الإنجليز رد إليه جزء من حقوقه..

وقاطعه "شكري":

- أنا شايف كل الموظفين اللي فصـلوا فـي سـنة ١٩ وما بعدها كلهم يا عبد العزيز رجعوا لوظائفهم فـي

السنوات اللي فاتت.. ما فيش غير عدد قليل جدا وأنا كنت من العدد القليل.. يقوم ييجي واحد صنيعة من صنائع الإنجليز زي الناظر ده يعرض بي ويقول لي ما تعملاش بطل علينا.. ويقول لي.. تصور.. إنه كان طالب وطني سنة ١٩ أنا كنت ضابط في جيش بيضرب الطلبة!!

وظل صوته يحاول أن يرتفع فتخنقه النبرات الحزينة..

وضج "عبد العزيز":

- ده كلام فارغ، ده كلام يضحك!.. ده تشويه رخيص يا شكري بيه! تشويه لا يقدر عليه إلا نوع من.. من.. من الرجال البغايا.. وأنت كمان ما فيش داعي تعذب نفسك بأوهام زي دي.. طيب لو كانت المسألة زي ما أنت متصور ما كنت رجعت سنة ٣٠ والا سنة ٣٣.. لا... بقى أنت يا شكري بيه أنت بجلالة قدرك يهزك كلام زي ده!؟.. طبعا أنت بطل عليه وعلى أسلافه كما!

وانبسطت أسارير شكري وهو يقول: لا.. ما أنا سلخته. وفضحته!

واستمر عبد العزيز يقول متشجعا وهو يرى وجه شكري يعود إلى حالته العادية:

- طب أنا حاقول لك خبر سار: بقى تعرف ان الأسطى عبد المعبود كان عاوز يفاجئك بزفة يوم مـا لبسـت بدلة صاغ؟ وكان عاوز يحط زينات علـى البيـت؟ والمطبعة. و.. ولكن أنا قلت له يستنى لمـا تصـلح حالتك كويس وتأخد كل حقوقك.. يعني اعمل حسابك يوم ما حتاخد قائمقام والا أميرالاي.. حاتخش الشارع بالطبل الكبير.. بزفة زي العرسان!

وابتسم شكري وعبد العزيز يستمر:

- يا سلام! وا حقنا نزفك بقه وأنت عريس!

وضحك شكري.. وملأ صدره بهواء الضـحى النظيـف وانتعش وأدار كل وجهه وهو يقول:

- عبد المعبود ده.. ده رجل تمام.. فاهم الدنيا كـويس يا عبد العزيز وعايش سلطان زمانه.. نفسه يعيش في أفراح على طول... ربنا يديه ويفرحه يا سيدي!..

وابتسم الاثنان.

وألقى عبد العزيز نظرة سريعة على ساعة يده، وصفر وهو يتحرك إلى الأتوبيس عارضا على شكري الركوب قبله:

- اتفضل!... أنا رايح الكلية بقى... ولما أرجع أبقى أفوت على المدرسة قبل ما تطلع أشوف الناظر عاوز إيه كمان من سي شوقي.

وهز شكري رأسه مبتسما قائلا لعبد العزيز:

- بتركب من السيدة زينب للقصر العيني؟ بتركب المسافة دي طب دا أنا يا للي أخلفك وقدك مرتين باروح مشاوير لحد الروضة ماشي؟ المشي صحة يا عبد العزيز! يا خسارة على شباب الزمن ده!

وضحك، وعبد العزيز يحشر نفسه على سلم الأتوبيس ملوحا له:

- طيب حكاية الشباب نشوفها بعدين يا عم شكري بيه!..

وانطلق الأتوبيس وشكري يتابع مسيره إلى وزارة الحربية.. طيب النفس بكلمات عبد العزيز.. إنه هو الآخر

يقول عم "شكري بك.." لأول مرة يقول له "شـكري بـك"..
أتكون ميمي هي التي علمته!!؟

(٤)

يوم آخر يا "سعد" تقعده في البيت، ولا فائدة... لا أمل لك أن ترجع إلى المدرسة إلا إذا ضربك أبوك في الطابور أمام كل المدرسة! الساعة الآن العاشرة، وهم في حصة الإنشـاء بلا ريب.. "الشيخ علي" يشرح الآن عناصـر الموضـوع.. لا بد أنه آسف لغيابك يتلمس كلمات معينة بالذات ردا علـى أسئلتك، ولا أحد يسعفه بها غيرك!!.. في موضوع الإنشـاء السابق أعطاك تسع درجات من عشر، ولكنه هددك بالصفر إن كتبت كما يكتب "طه حسين" (.. "الشيخ علي" لا يعتـرف بهذه الطريقة في الكتابة.. وهو يشبك يديـه ويهـز جسـمه الطويل منفعلا وهو يقول: اكتب يا ولدي كما يكتب الجـاحظ أو عبد الحميد الكاتب أو ابن العميد لا كما يكتب طه حسين، وإذا شئت أن تحتـذي بواحـد مـن المعاصـرين فعليـك بالمنفلوطي أو بالرافعي أو الزيات! كله إلا طه حسين!

ولكنك يا "سعد" لن تكف عن التشبه بطـه حسـين، فـلا كلمات تهز نفسك مثلما كلمات هذا الرجل الذي وقف مرة في

وجه صدقي وحكومته، وكتب "أوديـب" و "الأيـام" و "فـي الشعر الجاهلي". كتاب "في الشعر الجاهلي" مازال يغضـب الشيوخ! صبحك ا بالخير يا "شيخ علي". أنت دائما تجدني أقلد أحدا! كنت تزعق في وأنا في السنة الأولـى، وتقـول: "لا تقلد فاطمة رشدي يا ولدي! يا فطيمة رشدي".. لكن رنين صوتها في الشعر يا "شيخ علي" لا مثيل له! كلما حاولنـا أن نقرأ شعر شوقي في رواياته يا "شيخ علي" زحف إلينا رنين بديع من صوت "فاطمة رشدي" على كل حال لم يعد صوتي الآن بعد أن خشن يستطيع أن يحمل أية نبرة من إلقاء فاطمة رشدي.. كنت أستطيع هذا بسهولة منذ عامين، وكان جورج أبيض مدرب التمثيل وقتها يعجب لتشابه صـوتينا!.. آه لـو أستطيع الآن أن أمثل مشهدا من "أوديب" بنفس الطريقة التي أبكانا بها جورج أبيض وأبكي ميخائيل أفندي مراقب الفرقـة (.. ذلك المشهد الذي ينوح فيه أوديب حين يكتشف أنه تزوج أمه واستولدها البنين والبنات!.. ما أروع أن يكون الإنسـان ممثلا)..!

ولكن باب المدرسة مغلق في وجهي! ومازال مغلقا علـى الرغم من شفاعة "الشيخ علي" و "ميخائيل أفندي"..

شكرا يا "شيخ علي". فأنت و "ميخائيل أفنـدي" تشـفعتما طويلا لدى الناظر.. شهدتما لي خير شهادة عنده، وأوشـك الناظر أن يقتنع، وأخذ يشتمني في ثورة تتزايد لتهـدأ بعـد ذلك، ويصفح... نحن نعرفه... ونعرف ثورته ونـرى فيهـا بادرة خير: فهو يثور ويشتم حين يقرر أن يصـفح. ولكـن ما يخيفنا فيه هو هدوءه. فهو ينزل أشد العقاب بالتلاميذ وهو هادئ!..

غير أن العم "شكري" لم يفهم هذا. سكت قلـيلا والنـاظر يشتمني وهو يتأمل إذعاني أمامه ثم نطق هو عني. ويا ليتـه ما نطق! اعتبر شتيمة الناظر لي أمامه إهانة له هو، وصرخ في وجه الناظر ولوح بيده متسائلا كيف يسمح ضمير المربي بإهانة تلميذ مجتهد وإذلاله لمجرد أن مدرسا إنجليزيـا أراد هذا؟!. وزاد الطين بلة، وثالثة الأثافي كما يقول "الشيخ علي" مدرس العربي - ولكن ما الأثافي هذه؟! - المهـم أن العـم "شكري" طينها وقال للناظر في وجهه: إنه ينصر "الخواجـة" الإنجليزي على التلاميذ المصريين، لأن الإنجليز هم أخـوال أولاده، وهو يتكلم الإنجليزية في بيتـه، ويعبـر بهـا عـن

عواطفه، وهي لغته حتى في الفراش.. وهـو مـن بـرادع الإنجليز!!

إذ ذاك ساد صمت متوتر ودق قلبك يا "سعد" وخجلت مما تسمع، واحمر وجه الناظر واصفر، وارتعشت نظارته فـوق أنفه المقوس ونزع "البيب" من فمه ورماهـا علـى مكتبـه، ووضع طربوشه على رأسه المفروق الشعر، ثم وقف معلنـا انتهاء المقابلة، ونظر إلى العم "شكري عبد العال" مؤكدا لـه أنه وطني أكثر منه، وأنه لا يساوم في وطنيته مثل "شكري" نفسه، وأنه اشترك في ثورة سنة ١٩١٩ عندما كان طالبا في المعلمين العليا، بينما كان "شكري" هذا وأمثاله من الضـباط يضربون الطلبة بالرصاص! وقبل أن يسمع ردا أقسم أنه لن يقبل عودة "سعد داود" إلى المدرسة إلا إذا جاء أبوه المـدعو "داود أفندي" بنفسه إلى المدرسـة، وضـرب الولـد أمـام التلاميذ!!..

وخرج "شكري عبد العـال" واجمـا كالمـأخوذ، وبقـي "ميخائيل أفندي" يقلب كفيه متعجبا و "الشـيخ علـي" يـزيح عمامته ويحك منبت الشعر في رأسه!! وعدت يا "سعد" إلـى

البيت كما خرجت منه وقال عنك الناظر: "الولـد".. وكأننـا لا رحنا ولا جينا..!

كذا يا "عم شكري"! تمام كما قال الدكتور عبـد العزيـز، كان يمكن أن تضرب الناظر بالكرسي!.. ولكنـه أسـكتك، ورأيت أنا وجهك يغيض وهو يقول لك: إنه لا يسـاوم فـي وطنيته مثلك!! يا عم "شكري" ما أضنى فؤادك؟! إذا كانـت الدنيا كلها برادع وصنائع إنجليز، فما ذنبـي أنـا؟! لمـاذا تحرمني من المدرسة؟! لماذا لا تتشطر على نفسك يا عـم!؟ لماذا قبلت أنت أن تعود إلى الجيش؟!... أنت تحرمني مـن أحلى ساعات النهـار: دروس "الشـيخ علـي" و "ميخائيـل أفندي".. اجتماع جمعية الخطابة في فسحة الغـداء، وفرقـة التمثيل بعد انتهاء اليوم الدراسي!.. البروفـات تجـري الآن بنشاط.. وبهذه الطريقة لن أمثل! ا يسامحك يا عم "شكري أفندي".

ها نحن نرجع إلى البيت ونقعد فيه كالبنت البـائرة؟. آه.. باب البيت مفتوح!.. ادخل على مهل يا "سعد".. كل شيء هنا على رجل!... الحمد يا "سعد" أن أمك لم تشعر بعودتـك خائبا من المدرسة، فهي مشغولة بتنظيف البيت. فاليوم هـو

اليوم الذي خصصته أمك من بـين أيـام الأسـبوع لتتلقـى الزيارات.. هو اليوم الذي تسميه أمك يوم المقابلة.. والصالة كلها مقلوبة.. ما هذا؟. البنت "ألطاف" في الممر الداخلي أمام غرفة نوم أبيك منحنية على الأرض في قميص نـوم قـديم مكشوف، من قمصان أمك، تلبسه البنت على اللحم، ويـداها وقدماها في الماء تمسح البلاط.. كيف تحتمل هذا المـاء؟!.. الجو بارد جدا في هذا الصباح من أكتوبر.. ومع ذلك فهـي تضع يديها في الجردل، ويسيح الماء تحت قدميها العاريتين، ولحمها يبين من تحت القميص الذي تحدد شفافيته كل جـزء من بدنها.

ألا تشعر المسكينة بالبرد؟!..

اقعد هنا يا "سعد" في الصالة على الكنبـة الإسـتانبولي، ولا داعي لأن تدخل الآن لأمك وجدتك، وتخوض في الممر الداخلي الممتلئ بماء المسح، وتتنقل بحـذائك فـي الغـرف المنظمة وتستفز ثورة أمك!.. اقعد هنا في الصـالة، فأمـك متحفزة، ولا لزوم لمشاجرة جديدة على الصـبح!... يكفـي ما حدث مع أبيك قبل أن تخرج اليوم! إن هذا كله سـخيف، ولكنه يحدث دائما بين أبيك وأمك فـي صـباح كـل يـوم

مقابلة... أبوك لا يحب يوم المقابلة، هذا، ولكنـه لا يصـنع شيئا لتغيير ما يكره!. إنه يستطيع أن يأمر أمك بإلغاء هـذا التقليد ما دام هو يضيق به، بدلا من المشاجرات التي تستفتح يوم المقابلة!...

***

وفي أيام المقابلة هذه، تعود سعد أن يسـمع أبـاه وأمـه يتبادلان الشتائم، ويتصايحان حول التكاليف ويتشاجران على عشرين قرشا وعشرة قروش. وخيل إليه في الأوقات أنهمـا سينفصلان إلى الأبد ولكنه كان يراهما – على الرغم من كل شيء – ينامان دائما في حجرة واحدة، ثم يصـبحان فتقـول عنه "الأفندي" ويقول عنها "الست".

***

ولكن أمه الآن تزعق في الداخل وهي تتكلم عن رجـل، وتسميه "المغفل"!.. من الرجل؟! ياه.! إنها تعني أباه.

لكم يحز هذا في نفس "سعد" ويملأ أعماقه بكراهية مبهمة لكل شيء.. ولكنك أنت المسئول يا "سعد"!.. ما كان يصـح أن تعيد كلمة "شكري عبد العال" عن أبيك في شماتة خفيـة. ما كان يجوز لك أن تشعر بفرح ماكر خبيث، حيـث يقـول

عن والدك: إنه مغفل!.. إنه مهما يكن، فهو والدك! صحيح أنه لا يعرف مكانتك في المدرسة... واحترام الطلبة لك، وهو لا يقدر فداحة أن يضربك أمام الناظر... ولكنه أبوك يا سعد، وإن كان يغلظ لك أحيانا، ويراك أمامه طفلا، وينذرك بالخيبة وضياع المستقبل، ويملأ نفسك باليأس! إنه أبوك الذي يجب أن تحترمه، وإنه كان ما يكاد يراك تذاكر، حتى ينظر في كتابك ويقول باستخفاف: إنهم على أيامهم كانوا في المدرسة الابتدائية يدرسون أكثر من هذا وباللغة الإنجليزية نفسها.

***

وقديما كان سعد يحسب أباه أعظم رجل في مصر.. ويتصور أنه يملك ما لا نهاية له من المال، وكل شارع عزيز، ويستطيع أن يفعل أي شيء في الدنيا.. وحين كان أبوه يأخذه من يده إلى مكتبه بدائرة البرنس عزيز، كان سعد يرى السعاة في ملابسهم الرسمية – كالعسكر – يقومون لأبيه ويسمعون كلامه، والدنيا كلها تقوم له وتقعد، وهو يتحرك ويروح ويجيء بخفة ويقرأ دوسيهات ضخمة.. وكان "سعد" يظن أن والده هو الذي يملك هذه الدائرة، ولكنه أدرك يوما

بعد يوم أن داود أفندي ليس إلا كاتبا صغيرا تـزوج بنـت رئيس له في الدائرة من عائلة تركية قديمة حكم أفراد منهـا في بعض الوقت، ولم يعد الآخرون يملكـون غيـر الزهـو بالاسم القديم، وأدرك "سعد" أيضا أن كل أقاربه الذين يراهم في البيت هم أقارب أمه، وأن أقـارب أبيـه لا يـزورونهم إلا في النادر.. وحتى بعد زيارتهم النادرة كانت أمه تصرخ في وجه أبيه: أن البيت اتسخ وامتلأ بالحشرات من رائحـة الفلاحين.. وهي على كل حال لم تكن تستقبلهم أبدا في حجرة الجلوس، ذات الكراسي الوثيرة المذهبة، والسجادة الزرقـاء السخية الوبر، واللوحات وقطع التحـف الفـاخرة – التـي يتهامس الشارع بأنها كلها من ممتلكات الدائرة.. كانت حجرة الجلوس حرما مقدسا، تدافع عنها أمه وتحتفظ هي بمفتاحهـا ولا تفتحها أبدا إلا يوم المقابلة، أو لبعض أقاربها هي.

لكم يتمنى "سعد" لو كان مثل "شوقي خليفة" زميلـه فـي الخديوية وجاره في الشارع.. لو كان له أخوه مثلـه يعـيش معهم، كما يعيش شوقي مع أخويه "عبد اللطيف خليفة" طالب الحقوق، والدكتور "عبد العزيز" طالب الطب: هؤلاء الـذين تسميهم بعض نساء الشارع "التلامذة الفلاحين".. ومع ذلـك

فحين تأتي سيرتهم في أيام المقابلة يبرق في عيـون بعـض النساء – حتى أمه – إعجاب بهم جميعـا وبصـفة خاصـة "بالدكتور عبد العزيز"، وتقارن النسوة أحيانا بـين الإخـوة الثلاثة. أيهم أجمل، وأيهم أخف دما!

لكم يتمنى هو أن يكون واحدا من أولاد الحـاج خليفـة، عمدة بلده، الطويل العريض المهيب المحترم، الـذي يـرج الدنيا عندما يزور أولاده في الشارع، ويدخل البيت فلا يرتفع صوت حتى من الشقق المجاورة!

إن "شوقي" صديقه، أقرب الأصدقاء إلى نفسه، ولا أحـد مثله يعرف عنه كل شيء.. على أنه لم يسـتطع أن يرفـع رأسه في الأسبوع الماضي في وجه شـوقي، عنـدما كـان شوقي يغمز له على بعض تلاميذ في المدرسة بيض الوجوه يعتزلون وحدهم في ملعب التـنس وقـت الغـداء يـأكلون الساندوتشات والشيكولاتة من البوفيه، ويرفضـون دخـول المطعم مع غيرهم من طلبة المدرسة!!.. إن "شوقي" يسميهم أولاد جواري الخديوي وخونة عرابي! وشوقي لا يعرف أن أم سعد تفخر دائما بأن جدتها كانت جارية في قصر الخديوي قبل أن تتزوج!..، وما زالت أمه وجدته تفخران بـأن لهمـا

إيرادا من وقف الجواري!!.. و "شوقي" لا يعرف أن أم سعد تمدح الناس بأنهم بيض! كل مزايا الرجال والنسـاء عنـدها أنهم بيض. وهي لا تشتم أخته الكبرى "ميرفـت" إلا بأنهـا زرقاء اللون، كالفلاحين!.

لكم تمني "سعد" أن يتباهى هو الآخر بأصله الفلاحي مثل "شوقي خليفة" أو بأصله العربي كتلاميذ آخرين!!. ما أسـعد شوقي خليفة!! إنه يتحدث دائما باحترام كبير عن أمه وأبيه، وبثقة رائعة في أن أمه قديسة بطلة، وأن أباه موفور المكانة، رجلا في بيته وبلده. وهذه الثقة تعطيه الحق دائمـا فـي أن يعرض بالتركيات، كأنه لا يعرفون أن أم "سعد" تستعلي دائما على الأخريات بأن أصلها تركي!!.

ولكن سعد نفسه يعرف أشياء كثيرة. وهو ما زال يـذكر في أحد أيام المقابلة حديثا غريبا دار بين صديقات أمه تبادلن فيه بعض كلمات تركية، فهم "سعد" أنهن يخفين بهـا كلامـا فاحشا.. لأنهن كن يتحدثن عن الفرق بين الزوج المصـري والتركي..!!

كان سعد وقتها صغيرا في العاشرة، وأصغر من أن يفهم مثل هذا الكلام، ولكنه مع ذلك أوشك أن يبكي، لأنه سمع أمه

تعرض بأبيه وتقول عنه: إنه رجل كامل ولكنـه.. جافـ، لا يعرف كيف يعامل الست!.. منذ سمع هذا وأيام المقابلـة تثير في أغواره شعورا غريبا!

ولكنه اليوم يتجاوز الخامسة عشرة، وما زالت أيام المقابلة تثير فيه نفس الشعور الغريب القديم، وإن كانت تلهب رغبته في اقتحام مغامرات مجهولة غامضة..

إنه في كل ليلة مقابلة، يعاني اختلاط شيء كالاشـمئزاز بخفقات غريبة تكاد تفتح قلبه لاستقبال بهجة الحياة!..

وفي أيام المقابلة هذه ألف رؤية قريبته "شـويكار هـانم" التي سمعها مرة تشكو مـن المصـري والتركـي، وتعلـن استخفافها بكل الرجال.. وهي امرأة تسكن في بيـت أنيـق بحديقة كبيرة في الحلمية الجديدة، صغيرة السن رائقة الوجه حلوة جذابة، لها أنف طويل جميل، واسع الفتحتـين يعطـي وجهها شخصية متميزة.. وفي عينيها لهب!..

و "شويكار هانم" هذه تواظب على كل مقابلة، وأمه تفرح بها فهي من الفرع الغني في أسرتها، وجدته تتحدث بإشـفاق عنها هي الصغيرة، بنت الخامسة والثلاثين التي لم تر راحة البال أبدا، رغم أنها جربت حظهـا فـي الـزواج مـرتين،

وما زالت تعاني البخت المائل مع زوج كبير المكانـة فـي الستين، زائغ العينين!!.. على أن "سعد" كان يعجب من قدرة هذه السيدة شويكار قريبة أمه على الكلام في أي شيء.. وهو أحيانا يشعر لرؤيتها بسخونة مفاجئة تسري في كل أوصاله، حين تقف في دلال وغندرة لتقيس طولها إلى طوله بكل بدنها الفارع الملفوف البض، والصدر الممتلئ، والنظرات الوضيئة في عينيها، والفم الذي يلمع الأحمر عليه دائمـا، والرعشـة الخفيفة على فتحتي أنفها البديع!.. إنها تمسك بيده، وتتحسس خده وشعره أمام أمه، وتداعبه كما كانت تفعل معـه وهـو طفل، وتقول له إنها ستختاره زوجا، ثم تقبله أمام الجميـع، كأن السنوات الخمس عشرة التي غيرت صوته، وجعلته الآن أطول منها لم تصنع في الداخل من جسمه شيئا!.. وعنـدما تهيب منها مرة، قالت له ضاحكة وهي تشتمه: إنـه أصـغر بعامين من ابنها البكر، الذي أخذه أبوه إلى إستانبول بعـد أن طلقها، ولم تعد تراه..

كان هذا أحيانا يملؤه بالحيرة والحزن، ويلقي على سخونة بدنه ترابا باردا من الندم.

أتجيء "شويكار هانم" في مقابلة الليلة!؟.. طبعا!.. مهما يكن أصغر من ابنها فهو يرتعد عندما يحس بملمس شفتيها على خده، وبملمس صدرها المترع بالمتاع على كتفيه!! ولكنها.. عيب عليك!..

***

وها هي البنت "ألطاف" تزحف على قدميها ورجليها لتمسح الصالة.. يا بنت داري صدرك المفتوح، وأنت منحنية.. كل شيء يبين حتى البطن!.. ولكن هذا لا يصح منك يا "سعد"!.. أغمض عينيك يا أخي أو قم إلى حجرتك.. إيه!.. المهم هي مقابلة الليلة.. المهم في مقابلة الليلة أن تجيء "ميمي هانم".. آه لو كان "أمين أفندي" رآها وهي ترقص وضحكاتها ترن!.. ومع ذلك.. فأين هي من "رجاء صدقي".. ربما كانت "ميمي هانم" أجمل مائة مرة، ولكن لا شيء مثل صوت "رجاء صدقي" وهي تمثل.. هذه البنت التي تسكن مع أهلها في الطابق الأرضي من بيت "ميمي" تواجه شقتها شقة الشيخ "عبد الحي".. لا شيء في كل الشارع يمكن أن يثير فيك من الانفعالات يا "سعد" مثل ما يثيره صوت "رجاء" وهي تمثل أو تغني على أنغام

البيانو!.. في إحدى المقابلات السابقة قعدت أختـك تعـزف على البيانو و "ميمي" ترقص، ثم قامت "شويكار" تعزف دورا قديما وغنت "رجاء".. إن شيئا مـن صـوتها ينسـكب فـي العروق عندما تغني. ولكنها تحلم بأن تمثل.. وفـي مقابلـة الأسبوع الماضي، رقصت طويلا.. ثم راق لهـا أن تمثـل مشهدا من مجنون ليلى.. ووقفت ببدنها الرشـيق الصـغير، وأطبقت عينيها الواسعتين، كأنها تخرج مـن جـو الحجـرة وشارع عزيز، إلى تيه الصحراء.. وكتمت سـعالها الـذي يفاجئها أحيانا، وبدأت تمثل مشهد اللقاء بين ليلى وقيس، بعد زواج ليلى، وكانت تقلد "فاطمة رشدي".. عنـدما أمسـكت رجاء بيدك يا "سعد" ارتعشت أنت فجأة، وأمك تنظـر إليـك بإعجاب، وخيل إليك أن النظرات المشرعة من عيون النساء حولك تكاد تخترق لحمك.. وعندما صرخت "رجاء صـدقي" بكلمات ليلى: "نحن الحرائر إن مال الزمان بنا، لم نشـك إلا إلى الرحمن بلونا!"، لم تكن هي وقتها تقلد أحدا.. هي نفسها التي تصرخ بكل بدنها وحيرتها ولهفتها!!.. ورأيـت تـألق الدموع في عينيها، وصفرة ذليلة منكسرة تغمر كل وجههـا الأسمر البديع المنكس تحت أضواء النجفة الفاخرة!..

وعندما انتهى المشهد قبلتك أمك.. وقبلتك "شويكار هانم"، وقعدت "رجاء" في مقعدها منزوية صفراء، تلهث، وعيناهـا الواسعتان بشكل غير مألوف تلقيان نظرات خابية كأنها تنظر في أعماقها!.. أتراها تجيء الليلة؟!.. امسحي البلاط جيـدا يا "ألطاف" فلا بد أن تجيء "رجاء" الليلة.. الليلة سنمثل هـذا المشهد من جديد، وسأنطلق أنا في آخره مقلدا أحمد علام في دور قيس. وهو ينفجر: "دعيني، بلاد ا واسعة، غدا أبـدل أحبابا وأوطانا!..".

ومع ذلك فهذا كله ليس هو المهم الآن.. المهم يا شيخ هو أن تعود إلى المدرسة، إلى الفصل الذي فقدته، إلـى فرقـة التمثيل، إلى جمعية الخطابة.. إلى اللحظات الحالمة الخارقة في فناء المدرسة أمام شجرة عتيقة تتأمل المبنى القديم الـذي شهد منذ مائة عام عهدا بأسره من الدسائس والدماء، عنـدما كانت المدرسة قصرا لأحد أعوان الوالي!.. سـيعود أبـوك يا "سعد" عند الظهر، ويعرف حكاية "شكري عبد العال" مـع الناظر، وآخر قرار للناظر!..

ولكن.. كله إلا هذا!!

كله إلا أن يمسكه الفراشون، ويمدوه، ويضربه أبوه أمـام كل المدرسة!!.. لن يسمح بهذا أبدا..

ولئن حدث هذا.. إن الموت لأهون من أن يواجه بعـدها أحدا من الطلبة!..

ولكنه لن يسمح بأن يحدث هذا، حتى لو حكمت أن يخرج من المدرسة الخديوية ويذاكر في البيت، أو يـدخل مدرسـة أهلية.. أمه تنفع هنا حقا.. فمنذ عام واحـد، فـي الصـيف الماضي بالتحديد، عندما بدأ صوته يخشن وشبت قامته حتى أصبح أطول من أبيه، رفع صوته على أمـه، فجـاء أبـوه غاضبا وضربه بالكف على صدغه، ولكن أمه رفعـت أبـاه عنه بعنف متسائلة إن كان "داود" نفسـه يسـتحمل ضـربة كهذه.. وتشاجر أبوه وأمه، وتدخلت جدته من أجله، وأحـس من خلال غضب أمه وخوفها عليه أنها مستعدة لأن تهـرس أباه من أجله!.. ثم جدته! إنها ما زالت تحتضنه كلما أسـاء إليه أبوه، أو أمه، وتصرخ "ما حـدش لـه دعـوة بيـه.. دا الحيلة.. دا ديك البرابر، حتة ولد واحد على أربع بنـات تقوموا تذلوه كده؟!"..

أمك الآن مشغولة بتنظيف الحجرات الداخليـة.. ولكنهـا قادمة إلى الصالة بلا شك، فأرض الصـالة تهتـز قلـيلا.. صوتها يسبقها من الداخل، موجهـة كلامهـا إلـى الخـادم "ألطاف" التي ما زالت تمسح بلاط الصالة:

- انتي لسه في الصالة.. أنا فاكراكي خـدتيها دوريـن تلاته.. امسحي كمان دور.. دوسي قوي يـا بنـت.. ارجعي من الأول تاني.. خدي تحت الكنبة كـويس.. تقلي إيدك.. إيه يا ختي ده!.. اخلصي وتعـالي لنـا هنا!..

وردت عليها "ألطاف" وهي منحنية:

- مش يا ستي على ما خدت الطرقة والحمام والمطبخ.. دا أنا لسه داخلة الصالة.. لسه حتى ما كملـتش أول دور..

ولم تدخل أمه إلى الصالة.. عادت تخبط وترقع في حجرة داخلية.. وفتح "سعد" عينيه على "ألطاف" التي كانت تنحنـي أمامه بالقميص الشفاف الأخضر، ونهداها يتهدلان، منكشـفة الفخذين، وقدماها في الماء! أهو قاعد هكذا منذ مـدة، ولـم

يشعر بوجودها؟.. عجبا!.. هذا البدن المنكفئ أمامـه بكـل دسامته وسمرته الساخنة!!..

ولمحته "ألطاف" – ورأسها بين فخـذيها – يلقـي علـى جسدها نظرات ثابتة، ويتأمل بطن فخذيها، ونهديها المتدليين، وفمه مفتوح ووجهه كله محتقن بالدم، وملامحه تجيش..

وابتسمت "ألطاف" خفية، واستدارت وهي تمسح الـبلاط ببطء شديد، حتى أصبحت أمام الكنبة، ثـم رفعـت رأسـها، واستندت إلى ركبتيها، ويدها على فتحـة القمـيص تـداري انكشاف نهديها ويدها الأخرى تحرك الممسحة.. وقالت بوجه جاد وهي تغضي عينيها:

- تسمح يا سيدي؟ عاوزه آخد تحت الكنبة..

ووقعت عيناه مرة أخرى علـى لحمهـا تحـت القمـيص الشفاف.. وأحس بها على مرمى يده.. لو أنه يمد يده!.

وعادت هي تزحف تحت قدميه أمام الكنبة، تمسح بـبطء، وعيناه على ظهرها وعجزها وفخذيها، وكـل بدنـه يرتعـد باللهيب، وأنفاسه تتابع.. أكان هو منذ عامين أو ثلاثة ينام فـي حضن "ألطاف" حين كانت أمه تخرج في الليـل؟ لمـاذا لـم

يكتشف إذ ذاك كل ما في حضنها!؟.. لمـاذا لا يحـدث هـذا الآن؟؟.. ليته يحدث!.

واضطربت في رأسه الأفكار، وتـراءت أمامـه صـورة "شويكار" بكتفيها العاريتين وشفتيها.. وكـل أناقتهـا، وأنفهـا المرتعش الفتحتين، وملمس نهديها، مختلطة بصـدر "ميمـي" العامر، وعيني "سعاد هانم" العميقتين، وقوام "درية" الفـارع، وهذا اللحم الأسمر العاري.. لحم "ألطاف"!..

وقام إلى حجرته على الفور، وصور عارية لأجساد أنثوية بنهودها وأفخاذها وأردافها، تضطرب أمام عينيـه متشـابكة بأطياف وجوه نساء يعرفهن!.. ولهث بشدة، وفي أذنه تـدوي من الخفاء أصوات نسائية مختلفة.. وأغلق الباب علـى نفسـه بالمفتاح دفعة واحدة، وتتابعت لهثاته وارتفعـت دقـات قلبـه بنبض كالطبول.

***

وبعد قليل سمع "سعد" صوت أمه تتحدث مـع سـيدة فـي الصالة، تقرأ لها خطوط الفنجان وهما تضحكان، بينما استلقى هو على سريره منقبض الصدر، وندم رهيب يضـغط علـى نفسه.

وسمع همسات من "ألطاف" ثم زعيق أمه:

- طيب مش تقولي ان سيدك سعد هنا؟!.. ا ؟! جه مـن إمتى؟.. هو شكري بيه ما عرفش يرجعـه المدرسـة والا إيه؟..

صحيح!.. لماذا لم تقولي لأمي أيتها اللعينة "ألطاف"؟ ولماذا تركتني أحملق فيك، وبدنك يتلوى أمامي بأكثر إثارة من البدن العاري!.. الملعونة!..

وارتفع صوت أمه:..

- تعال يا "سوسو"..

وضايقته كلمة "سوسو" كما لم تضايقه من قبل.. وقام من فوق السرير، واتجه إلى الباب وأدار مفتاحه فـي صـمت، مصمما على أن يصرخ في وجه أمه أن تكف إلى الأبد عن هذا النداء، فهو ليس أحد الأولاد البيض من سلالة الجواري وخونة عرابي، الذين يشمئز منهم هو نفسه!. وتذكر ساعتها مغامرات حكاها له "شوقي" مع بنات في بلده.. وأحس بغتـة باشمئزاز من نفسه وبالهوان، وبأنه ووحيد، أقل درجة مـن "شوقي" ومن تلاميذ آخرين قاموا بمغامراتهم مع النساء فـي دروب الأزبكية.. حيث لم يجرؤ هو بعد!

وعندما فتح الباب، شعر بسأم يمسك غضـبه، وبشـيء كالانهيار!

وتقدم فاترا إلى الصالة، وهو لا يزال ببدلته، فوجد "سعاد هانم" تجلس مع جدته وأمـه علـى الكنبـة الإسـطانبولي، و "ألطاف" تلم كنكة القهـوة والفنـاجين ووابـور السـبرتو وتضعها على الصينية وتنصرف. ولم يجرؤ على أن يرفـع رأسه في وجه أحد، وبصفة خاصة "ألطاف"!

ودهمه الخجل وهو يتقدم ليسلم على "سعاد هانم".

واضطرب قليلا وأحنى رأسه، ومال بصدره، ووخـزات غريبة تلسعه، ونادته جدته مشجعة مزهوة وهو يتقدم مترددا إلى "سعاد هانم" بينما كانت أمه تقول في استخفاف:

- دلوقت أبوه ييجي يعمل لنا غارة! صبحنا بغارة على المقابلة، وحانتمسى بغارة على بسـلامته!! والنبـي يا أختي ده شكري بيه ده راجل بيفهم الناس صحيح.. صدق فيما قال.. مسمي داود أفندي المغفل!..

وقامت "سعاد هانم" تسلم على "سعد" وكلمات أمه تزلزله، بينما كانت جدته تقول لها بتأنيب:

- عيب يا عديلة! عيب تقولي كده على الأفندي بتاعك.. سيدك وتاج راسك..

وانفجرت عديلة تقول، وسعد يقعد على الكرسي:

- دهده يانينة!؟.. يعني أفندينا!؟ أصله بسلامته صاحب حماته؟ عاملين حزب عليـه هيـه وهـو والمغفـل الصغير.. وأنا والبنات حزب لوحدينا!

فقالت سعاد هانم ضاحكة:

- يعني سعد وباباه وتيزه سـعديين، وانتـي والبنـات عدليين؟.. لو كنت سميتيه عدلي كنتي ضمنتيه معاك يا عديلة هانم.

وضحكت عديلة هانم وهي تقول:

- هو أبوه رضي.. دا فضح الدنيا علشان يسميه "سعد" وكان عاوز يسميه سعد زغلول كمـان.. لا رضـي باسم عدلي ولا باسم شوكت أهم بقـى هـم حـزب الفلاحين.. واحنا حزب الأتراك والباشـوات.. تنيـه راحت مع الفلاحين! يا أختي على أقل شيء يعملـوا غلبه! قطيعة! دلوقتي تشوفي ياما حايعمل لفندي لمـا بيجي يلاقي "سعد" ما رجعش المدرسة!!

وكتمت ضحكاتها لتكمل.

- والنبي ده على رأي أدهم بيه قريبنا: عمر مـا اسـم لبس واحد زي اسم المغفل ما هـو لابـس بسـلامته داود!

ولم يضحك "سعد" طوال هذا الحديث.. وأحـس بـالكلام ثقيلا رخيصا.

وظل صامتا يسمع وهو يعاني ألما سخيفا مهينا، كأن يـدا أقوى منه تمسك به من خناقه، وتغرس رأسه في طين منـتن وتلوي له أنفه..

ولكنه انفجر بغتة وهو يضرب الكرسي في الأرض:

- اسمعي.. أنا لا أسمح لك انك تقـولي علـى أبويـا أو عليه كلام زي ده! يعني إيه مغفل!.. إيـه اللـي مغفل.. مغفل؟؟!. يعني إيه الكلام ده؟!.. هـو انتـي بتستغفليه؟.. كنتي استغفلتيه حضرتك؟

وبهت الجميع..

وشهقت أمه عديلة هانم وحملقت بذهول.. ولم تقدر علـى الكلام.. وحاولت أن تسترجع نفسها شيئا فشـيئا، وأنفاسـها

تتردد في أنفها الدقيق وفمها محكم الإغلاق، وكـل أعماقهـا تختلج.

ووقفت وتقدمت خطوة فوجدت "سـعد" أمامهـا يـرفس الكرسي برجله، مفتوح الصدر، أطول منها، ويده تـرتعش، وفي وجهه صفرة الموتى كأنما فارقه كل دمه!..

وساد الصمت، وسعاد هانم تقف إلى جوار عديلة هـانم، وتنظر إلى سعد بطوله وعرضه في غيظ يخالطه الإكبـار.. إن رأسها لا يكاد يبلغ كتفه، وهو حاسم قـوي!.. يجـب أن يكون الرجل هكذا.. ولكن.. أيمكن أن يتجرأ ابنها بعد عامين أو ثلاثة، حين يصبح في سن "سعد" فيكلمها بهذه الطريقـة، ويقف أمامها بمثل هذا التحدي يرمقها بعين لا تطرف!!.. إنه ليس "سوسو" هذا الذي يقف الآن ويزعق بل رجـل آخـر، رجل كامل يمكن أن يرفع الكرسي ويضرب به أي إنسان.. حتى أمه!!..

وظلت عديلة هانم واقفة تنتفض، وفي صدرها يضـطرم الحنق والخوف والخجل.. ماذا يعني "سعد" بقوله إنها تستغفل أباه!؟ لو أنها وقفت هكذا صامتة أمام الولد، فمن الممكـن أن يتقدم هو فيضربها!..

وانفجرت فيه وهي تندفع إليه بكل يأس امرأة تقاوم وحدها زحف تيار مخيف:

- أنت بتقول إيه يا ولد؟!

بينما حاولت جدته أن تقف قائلة بصوت مضطرب متوجس:

- جرى إيه يا "سوسو"؟!. اقعد، يا حبيبي، اقعد واخزي الشيطان.

ولكنه تقدم إلى أمه أكثر فأكثر، وهو يفقد السيطرة على نفسه كلما تقدم وصوته يرعد في رنة ذبيحة يائسة:

- اوعي تقولي لي يا "ولد" اوعي حد تاني يقول يا "سوسو" أنا اسمي سعد.. سعد! اوعي تقربي ناحيتي!. اوعي تمدي إيدك علي أنا بقول لك أهه!.

ورنت كفها على صدغه فجأة.. وارتمت عليه بكل ثقلها تمسكه من شعره الطويل وتضربه على وجهه وكتفه وتصرخ، وهو واقف أمامها متهدل اليدين، وعيناه مغمضتان، وهو يضغط على أسنانه بعنف، وشعور بالمهانة والزراية يكاد يسحقه!.

وعندما أفلحت سعاد هانم و "ألطاف" وجدته في إبعاد أمه عنه، ظل هو واقفا لا يعرف ماذا يفعل..!

وضرب الباب وراءه بشدة، وصراخ أمه وبكاؤها يمـلأ أذنيه..

وحين استقبل هواء الطريق البارد، لعب لسانه فـي فمـه المغلق، وبلع ريقه، وهز رأسه وتنهد!..

ومشى.. وظل يمشي إلى غير غاية، وهو يتماسك لكـي لا يبكى والأفكار المضطربة تدوي في رأسه!..

لا مقام في هذا البيت!.. إلى أين؟..

بلاد ا واسعة!!

(٥)

أقسم "داود أفندي" إنه لن يتدخل في أي شأن من شـئون "سعد" ولن يهتم إن راح أو جاء، إن أفلح أو خاب! وما دامت أمه هي التي تحكمه وتدللـه، فهي حرة!

وكان داود أفندي محقا، لأن ابنه خرج بعد أن ضـربته أمه منذ الصباح ولم يعد إلا بعد العصر.. وحـاول هـو أن يضربه عندما عاد، ولكن "عديلة هانم" هددت بأن تترك البيت ينهد على من فيه إن مد "داود" يده على سعد!..

وفي الصباح التالي لم يكلم "داود" ابنه، وخـرج دون أن يعطيه مصروفه اليومي، وأقسم إن أعطتـه أمـه أو جدتـه مصروفا أن يترك لهم البيت هو الآخر ولا يعود أبدا!..

ومع أن "عديلة هانم" حمت "سعد" من ضرب أبيه، إلا أنها لم تستطع أن تكلمه، وعندما حاول أن يكلمها هو، ثارت في وجهه وطردته من حجرتها قائلة:

- أنا ما عنديش ولاد يرفعوا صوتهم في وشي ويقلـوا أدبهم عليه.. أنت لا أنت ابني ولا أنا أعرفك!..

وأغاظت "عديلة هانم" لابنتها "ميرفت" حين توسطت لسعد وتركتها تخرج باكية إلى مدرستها "سان فان سان دي بول".

أمك تصنع معك هذا في صباح اليـوم، مـع أنهـا ليلـة الأمس – اليوم الذي ضـربتك فيـه، وبكـت وأوشـكت أن تخنقك – ليلة الأمس، بالذات كانت تضحك مع صـديقاتها.. قالت إنها ستلغي المقابلة، وأرسلت "ألطاف" بالفعل إلى "سعاد هانم" و "ميمي" و "ورجاء صدقي" الممثلة، ولكـن قريبتهـا شويكار جاءت فقعدت معها تتكلم ببساطة وقامت إلى البيانو، ورنت ضحكاتها ونسيت عذابك، ونسيت الضربة التي سحقت بها كبرياءك!

كنت مخطئا لأنك حاولت أن تعتذر إليها هذا الصباح. كما أنك أخطأت لأنك حاولت أن تعتذر بالأمس.. ولكنها جـدتك هي التي ضغطت عليك الآن! على كل حال.. لن أقعد هنـا هذا الصباح.. نعم بلاد الله واسعة!

وعلى طول الطريق ثقل عليه الإحسـاس بـأن كرامتـه أهينت. إنهم في البيت لا يعرفون من هو، ومازالوا يعاملونه

كما لو كان طفلا صغيرا أبوه يشتمه أحيانا، وأمـه تصـفعه أمام ألطاف وأمام سعاد هانم!

وشعر باشمئزاز بالغ وهو يفكر في طريقة الحيـاة التـي تعيش بها أمه وأبوه، وأمام عينيه تتخايل صور مخيفة رهيبة يلتقط منها ابتسامة أمه ونظرة عينيها إلى أقـارب يجيئـون البيت.. نظرات وابتسامات لم يشاهد أمه تمنحها لأبيه أبدا.. لكم تبدو أمه صغيرة خفيفة وهي تتحدث مع قريبها "أدهم بك" باشكاتب الدائرة المصبوغ الشعر، الزائغ النظرات!.. "أدهـم بك"!.. إنها تستحق القتل هـذه المـرأة!!.. ولكنهـا أمـك يا سعد"!..

وأبوك مغفل حقيقي!

لا.. لا.. الرجل مسكين، لا يرتاح لوجـود" أدهـم بـك" ويزجر أمك أحيانا، كأنه يطردها من أمامه.. ومع ذلك فأبوك ضعيف هزيل ما بيده حيلة!.. كان يجب ألا توجد يا سعد!.. كان يجب أن يكون لنا خيار في الأب الـذي نحمـل أسـمه ودمه، والأم التي نعيش ونموت ونحن لا نملك لها غير الحب والاحترام!.. كل هذا مخيف.. وزري.

كان يجب ألا توجد يـا "سـعد"!.. وخلاصـك الآن: أن تنتحر!

لماذا عدت إلى البيت بالأمس.. ضربتك أمك في الصباح، وانقضت عليك في وحشية، وكان يمكن أن تقتلك، ودفعـت جدتك – وهي أمها – بلا مبالاة حـين حاولـت أن تحميـك منها.. ولكنها مع ذلك ما هانت عليك، وظللت طول النهـار تفكر فيها وتبكي، وحين قررت ألا تعود بالأمس إلى البيـت رن في أعماقك صدى فاجع من بكائها وتزلزلـت وتـذكرت جدتك وأخواتك وأباك.. وطافت بك صورهم جميعـا وهـم يبكون!.. وسالت في أعماقك الدموع.. وقادك إلـى البيـت رجع البكاء يئن في صدرك!.. ومع ذلك فلم تقدر أمك هـذا! لم تلتفت إليك.. حتى.. لم تنادك لتسلم على "شـويكار" كمـا تعودت.. ومنعت أخواتك من أن يكلموك.. وشتمت "ميرفت" أختك الكبرى، وبقيت وحدك طوال الليل.. وفـي الصـباح خرج الصغار إلى المدرسـة دون أن يمسـك أحـد بكلمـة أو ابتسامة.. كأنك الوباء.. معزول وحيد محاصر في بيـت بارد، كالشيء الكريه!!.

ولقي نفسه يستلقي على مقعد بجوار قصر النيل، وعيناه تنظران في النهر العميق، والماء يجري ولا يكاد يجري، داكنا، كالحياة!.

وحجب عنه منظر الماء مرور فتاة في ذراع فتى..

ولمح ظهرها.. إنها في مريلة مدرسية.. الكارثة!.. إنها في مريلة "سان فان سان دي بول"، ولها نفس الشعر والمشية والقامة.. أهي أخته الكبرى (ميرفت) أتكون هي ميرفت أخته!. ومن هذا؟. أهو الدكتور عبد العزيز.. لو أنها كانت أخته فلا بد من قتلها هي والذي معها، حتى لو كان هو عبد العزيز.. المسألة هينة جدا.. تخنقها حتى تموت في يدك، وترمي به هو إلى الماء، فيغطس، ولا يطفو أبدا!

ولحق بهما مسرعا حتى حاذاهما فوقف أمامهما يحملق في وجهيهما برعب!..

وعاد يمشي ببطء، متزايلا..

أخته الآن في المدرسة، وهي لا تفعل أشياء كهذه.. لماذا يظلمها، ويظن بها السوء؟!

إنها ليست كأمها! إنها ليست كأمه!..

ولكن ما لها أمها؟..

وارتمى على مقعد آخر، ولم يستطع أن يقاوم الـدموع!.. هذه النظرات التي توجهها أمه إلـى بعـض أقاربهـا مـن الرجال!.. لا. لا!.. لا يجب أن يفكر في هذا.. ومـع ذلـك فأمه حين تخلو إلى جدته كلما انصرف "أدهم بـك"، تطلـق ضحكاتها وهي تتشمم العطر الذي خلفه، وتتغـامز سـاخرة على آثار البودرة في ذقنه، والصبغة الزاعقـة فـي رأسـه وشاربه المنمق! وهذا كله يؤكد أنهـا تحمـل لـه عكـس ما يتصور!..

لا.. لا يجب أن يفكر في أمه على هذا النحـو، ويعـيش باتهام غامض مسلط عليها أبدا! إنه لا يريد أن يفكـر فـي هذا.. ولكن شيئا واحدا فقط يعذبه، ويكاد يملأ فكره بأن كـل شيء كاذب وحقير!..

حدث هذا منذ ثلاث سنوات، و "أدهم بك" ذلـك الرجـل الذي فرضت عليه أمه أن يناديه "عمي" موجود في البيـت.. كان ذلك في مهبط المغرب من يوم الجمعة، وكانت أمه تلبس فستانا جديدا يكشف نحرها كله، وتتحدث برشـاقة وتتحايـل على أبيه ليشتري صالونا جديدا يليق بهما.. وكانت تضـحك وتكاد تقفز ويدها تمس حرير الفستان على ردفها وتصعد إلى

الخصر والصدر، وهي تميل برأسها وتسحب أنفاسـها مـن أنفها الدقيق الصغير وتزم شفتيها بتأنق! وأخذ أبـوه يتأمـل نحرها المكشوف ويراقب خفية نظرات "أدهم بك" إليها، ولم يناقشها في شراء صالون، وإنما فاجأهـا بترديـد موعظـة سمعها في خطبة الجمعة عن تبرج النساء وإبداء زينتهن لغير بعولتهن، ثم طالبها أن تضع شالا على كتفيها لتداري لحمها عن العيون.. وألا تلبس هذا الفستان مرة أخرى علـى أيـة حال!.. ولكنها سخرت منه قائلة:

- ما تبقاش فلاح وفقي!..

ثم ضربته على كتفه ضاحكة، فضحك "أدهم بك" وحـده، ثم ضحكت هي وأخذت تتثنى برأسها وجسدها، وكل نظراتها على أدهم بك!.. لكم تمنى سعد إذ ذاك أن يقوم أبوه فيصـفع الرجل ويطرده ويمزق فستان أمه ويغلق عليها إلى الأبد!!

ولكن الذي حدث هو أنه تركها تخرج مع "أدهم بك" فـي عربته الجديدة لزيارة قريبة مريضة!!.. صـحيح أن جدتـه خرجت معهما ولكن سعد لا ينسى أبـدا شـعوره الخـانق بالهزيمة والهوان في تلك اللحظة.

وبعد أيام من تلك الحكاية، جاء رجال إلى بيتهم يحملـون "طاقم" الصالون الفاخر بسجادته وتحفـه ونجفتـه.. وبـدأت الهمسات تملأ الشارع: أن داود أفندي حمل لبيته صالونا من صالونات البرنس بمساعدة "أدهم بـك" الباشـكاتب قريـب امرأته!!..

لماذا كانت هذه هي أمه، وهذا هو أبوه؟!

ما أسعدك يا "شوقي خليفة" بأبيك وأمك وبإحساسك المتعبد نحوهما!.. عندما كنتما معا تشاهدان رواية "بيومي أفنـدي" خرجت أنت يا "سعد" ممزق القلب مختنقا بلوعة مبهمة كئيبة، أما شوقي خليفة فانفجر ساخرا بعد صمت طويل: "يا أخـي يوسف وهبي ده بيخلي كل واحد يشك في أمه!. بعد روايـة زي دي كل واحد لازم يشك في أمه!".. صحيح.. أنـت يـا سعد تقارن بين بيومي أفندي وبين أبيك..! كانت زوجته هي الأخرى تسميه المغفل! وأبوك أسوأ.. فهـو هزيـل نحيـل خفيض الصوت، لا يهتم بملبسه، يبدو دائما بجوار زوجتـه كشيء ثانوي!!

كيف يمكن أن يعيش الإنسان أياما أخرى في مثـل هـذا العالم؟!.

ووضع سعد رأسه في يديه وهو جالس في مقعـده علـى النيل.. وفجأة شعر بيد تهزه بعنف، وصوت ساخر يقول:

- هيه الحتة ادتك ميعاد وما جاتش! طيـب يـا ابنـي ما تعيطشي.. قم ذاكر أحسن لك بدل ما تيجي آخـر السنة وتنتحر!

ونظر إلى محدثه، فوجده ينصرف مناديا:

- تروق دمك بشوية ترمس!... اللذيذ!

بينما ارتفع النفير من ثكنات قصر النيل، والتفت "سـعد" إلى العلم الإنجليزي يرفرف على الثكنات، والجنود الإنجليز يروحون ويجيئون في الداخل وبعضهم يسرع مـن شـاطئ النيل مودعا الفتاة التي يصحبها ويركض إلى الثكنات...

فتيات مصريات مع إنجليز؟! فتيات كالورد!.. وا إنـك لبطل صحيح يا عم "شكري"... المسألة وصلت إلى نسـائنا أيضا لعنة ا على النساء جميعا!...

كل شيء هنا إنجليزي!... العلم على الثكنـات، والأسـد فوق الكوبري!...

ووقف سعد وهو يقاوم إحساسه بأن ينـزل إلـى النيـل، ويركب قاربا صغيرا، ويترك نفسـه مـع الأمـواج إلـى ما لا نهاية..

ولكنه انتزع قدميه، ومشى خطوات في طريق العودة...

إلى أين يعود الآن؟...

واستدار فجأة وانطلق إلى النيل، وألصق نفسه بالحـاجز الحجري ومال يتأمل النهر، ينساب من تحـت عينيـه فـي موجات صغيرة وعلى صفحته عشـرات الـزوارق ينـادي أصحابها على من يريد التنزه.. ومن بعيد تجري على الموج أشرعة بيضاء بشبان مثله وفتيات، والشمس الفـاترة يبـدد شعاعها السحابات المتناثرة، والسماء زرقاء عميقة، تـنعكس كل ألوانها على صفحة النهر... والماء يدفع بعضه بعضا في خفه واتساق وينساب في انطلاق لا يفنى.. لا! لم يكن ساكنا هذا الماء أبدا، ولم يكن داكنا أسود كما رآه منذ سـاعة.. لا! في لونه خضرة يختلط صفاؤها بالزرقة! ما أجمل هذا اللون لعيني فتاة! ولكن لا أحد يتمتع بهذا النيل مثل الذين يسـكنون في الثكنات!...

وبحث في جيبه عن نقود ليستأجر زورقا، ولكنه لم يجـد معه شيئا.. أنت لم تأخذ مصروفا اليوم!.. أنسيت!

وتنهد، وأخذ يملأ صدره بالهواء الرطيب، وكأنه يعتصر كل ما في الفضاء الشاسع، ويسكبه في الأعماق من صدره.. ولاحت له الأشجار من بعيد فارعة تنتصب فـي كبريـاء، وتخيل الجزيرة على الشاطئ الآخـر، كأنمـا هـو مسـاند خضراء، يستلقي عليها الأفق في استرخاء وطمأنينة.. وبدأت الحسرة التي انعقدت على قلبه تتزايل شيئا، فشيئا، ونظراتـه تتعلق بالأفق الريان والماء والشجر، والطيور البيضاء عبـر النيل تملأ السكينة من حوله بالرفيف والشدو الخافت!.. ولـم يعد يفكر في شيء..

ودهمه شوق مفاجئ إلى أصحابه فـي المدرسـة.. آه... بقيت حصة واحدة ويخرجون.. وبعدها تبدأ فرقـة التمثيـل عملها... ترى ماذا صنعت جماعـة الخطابـة فـي فسـحة الغداء!؟

وانطلق سعد مسرعا.. إلى المدرسة!

سينتظر هناك، فربما أفلح في دخول المدرسة بعد نهايـة الحصة الأخيرة.. ربما غفل عنـه البـواب، واسـتطاع أن يفلت.. إلى المسرح!

ولكن شيئا غامضا عاد يزحف إلى صدره ويكاد يخنقه... كيف يواجه الطلبة الذين سـيخرجون الآن؟؟ كيـف يواجـه شوقي خليفة، وصديقه عبد الرافع رئيس جماعة الخطابـة؟! بأي وجه!؟.. بهذا الوجه الذي خبطته عليه أمه بالكف صباح الأمس؟!..

مازال كل شيء في وجهه يصيح بأنه مهـان مهـان!!.. ضرب على صدغه ومع ذلك عاد إلى البيت، وفي البيت لـم يجد أحدا يهتم به غير جدته.. لكم يقطع في قلبـه أن أختـه "ميرفت" ترددت في أن تكلمه أول الأمر! لكم تصعب عليـه نظرات أخواته البنات الصغيرات إليه باستنكار وتخوف.

لا... لا...

لن أذهب إلى المدرسة!!... كيف أقابل الذين يحترمـونني ويتصورون أن مكانتي أعلى من صفعة أم... أنا لا أريد أن أرى أحدا.. حتى ضوء النهار!..

الطريق إلى شـارع درب الجمـاميز مشـحون بالـذين يعرفونني.. هناك أولا عبد المعبود الذي يجلس فـي مـدخل مطبعته، ويرى في الغالب كل من يمر...

وفي مواجهة المدرسة يجلس الشيخ "حمزة دبوس" تـاجر الكتب القديمة يقرأ من داخل دكانه في كتب صفراء، ويتأمل المارين... وسيناديك يا "سعد" لو أنه لمحك!!...

فلتبعد عن هذا المكان كله تماما، وعن ميدان السيدة أيضا، فبعد قليل تخرج المدرسة السنية، وربما رأتك دريـة بنـت شكري عبد العال لا بد أنها تعرف مـا حـدث بـالأمس.. الشارع كله يعرف بلا شك.. من يدري!؟ "ألطاف" لا تمسك لسانها في فمها!..

مع ذلك، فأنت بلا غداء، وما في جيبـك شـيء يكفـي الطعام.. لا.. لن أعود إلى البيت لآكل!..

أنت بالأمس قضيت النهار كله خارج البيت، ولـم تعـد إلا بعد العصر ولكن أمك حين رأتك تدخل من الباب، كتمت قلقها الذي لاحظته، وتظاهرت بأنها غير مهتمة، وتجاهلـت دخولك، كأنها تثأر منك على اللهفة التي عانتها إلى عودتك.. ليتك ما عدت أمس!!.. هي حرة.. لن أعود لها اليوم!..

أأعود الآن إلى عم "شكري عبد العال" أشكو له من كـل ما حدث!؟.. ولكن ماذا يستطيع هو أن يفعل!؟.. لماذا تحترم أمك رأي شكري عبد العال، أكثر مما تحترم رأي زوجهـا داود؟! أنت اسمك سعد داود، لا سعد شكري عبد العال، على كل حال أنا لا أريد أن أرى الشارع.. سأمضي بعيدا.. بعيدا إلى المقطم.. إلى جبل المقطم أتسلق الصخور التي لم تطأها قدم، وأرى القاهرة كلها تحت قدمي، وأمشي في المتاهـات التي ضل فيها الحاكم بأمر ا ذات يوم وهو على حماره!!..

وهناك قريبا من قلعة صلاح الدين، حيث وقفـت مصـر تحمي أرض العرب من أطماع الصليبيين!!.. لـيس أنـبض بالروعة من هذه الأسوار المطلة من قلعة صلاح الدين!.

وابتسم "سعد" وخفق قلبه وهو يتـذكر هـذا التـاريخ...، وتذكر مسرحية شاهدها لفرقة جورج أبيض تصور مأسـاة الحاكم بأمر ا .. ومسرحية أخرى عن صلاح الدين!.. لـم يكن للتاريخ أبدا مثل هذا الرنين الفاجع!

لا أحد غير ميخائيل استطاع أن يعطي التـاريخ رهبتـه الخاصة!! لا أحد قبلك يا "ميخائيل أفندي" جعل الأحلام تنبثق منا ونحن نسمع دروس التاريخ!... يا ترى ماذا تصـنع الآن

يا ميخائيل أفندي!؟... أظنك في هذه الأيـام تـدرس ثـورة كروميل!.

ووجد سعد نفسه يجتاز جامع طولون والخضيري متجهـا إلى المقطم... هنا، في هذه الشوارع بالذات، رفع المصريون ذات مرة راية الحرية في وجه الغزاة الفرنسـيين، وسـحقوا أحلام نابليون بونابرت!... رجال عاديون – مثل والـدك – يا "سعد"، عاشوا ذات يوم وراء هذه الجدران العتيقة بأبوابها الخشبية، وطردوا الترك والفرنسيين والإنجليز وأقاموا إرادة الشعب!.

ما أشد حنينك إلى المدرسة!!..

العصر يملأ الدنيا بالشحوب، ولئن ذهبت إلى المقطـم إن الليل سيدهمك هناك.. هناك حمى الليل عشرات المغـامرات الكبرى والدسائس الهائلة عبر التاريخ، ولكنه اليـوم يحمـي اللصوص والخطافين!... كان يجب أن تبدأ رحلـة المقطـم بالنهار كما تعودت أن تفعل مع شوقي خليفـة فـي صـباح بعض أيام الجمع من العام الماضي!..

لا... لا.. فلأعد إلى وسط البلد، فلأخـض فـي الزحـام المضيء النابض بالنساء الجميلات والرجال!

إلى عماد الدين عن طريـق الناصـرية.. مـازال فـي الناصرية ريح عربية تهب من القدم، تحمل التراب الذي ملأه المماليك ذات يوم بالدماء والخطر...

وتنتهي البيوت القديمة في شارع الناصرية وتبـدأ حيـاة جديدة أخرى في شارع عماد الدين، حياة حافلـة بـذكريات الفنانين العظام والصعاليك، وخفقات أحلام ضائعة، وأمجـاد صنعتها تيجان الورق والسيوف الخشبية والقدرة على امتلاك عواطف المتفرجين!.. هناك في مقهى صغير عزيـز عيـد بلحيته الطويلة وهيبته، يتحرك بعصبية، ويفتش بعيني صقر عن موهبة جديدة.. حلم رجاء صدقي أن يعثر عليها عزيـز عيد!.. ولكن الرجل لم يعد يملك فرقته.. كل شيء يتحـول وينهار في شارع عماد الدين، وبدلا من جلال المسارح الذي يملأ القلب بالوجل ونبالة الحياة، تزحف الصالات والسـينما والفرق الاستعراضية!!.. مسرح برتنانيا كالمعبـد الخـرب، ومسرح رمسيس انتهى، ولم يعد له هنـاك وجـود.. حتـى المسرح الصغير الذي عمل عليه جورج أبيض وبكيت أنـت يا "سعد" فيه مع ماكبث والملك لير وعطيل وأوديب والحاكم بأمر ا ، واشتغلت عليه مع شوقي خليفة وبعـض أعضـاء

فرقة التمثيل في أدوار القواد والجنود وعرفت عليه الرعـدة الحلوة الخصبة.. حتى هذا المسرح أصبح دارا للسينما..!

وهم يقولون إن الفرقة القومية تتكون الآن لتحل مكان هذه الفرق جميعا.. حسنا.. لن يعود أبطال المسـرح، فيتسـكعوا على المقاهي... لن تفجع مرة أخـرى لمنظـر ممثـل دور هاملت وهو يقترض ثمن علبة سجائر أو ساندوتش الطعمية، وممثلة دور "دوناسول" في مسرحية "هرناني" تدخن النرجيلة وتضحك بخلاعة آه يا سعد!.. في شارع عماد الـدين هـذا رأيت الكثير أنت وشوقي خليفة، عندما كنتما تجيئان في العام الماضي وتدخلان مع كبار الممثلين من نفس الباب الخلفـي لمسرح جورج أبيض... وتشاركانه على المسرح، وتحملان الحراب!! كان هذا يعطيكما إحساسا بالامتياز على غيركمـا من أعضاء فرقة التمثيل! وفي هذا المكان تعرفتمـا بـبعض أعضاء فرقة التمثيل بالمدرسة السعيدية والتوفيقية والمدارس الأخرى التي يدرس لها جورج أبيض.

أين شوقي خليفة الآن!.. خرجت المدرسة منذ مدة، وحتى التمثيل لا بد أنها فرغت من البروفات، فالمغرب يهبط..

وظل سعد يدور في شارع عماد الدين وحمرة الأصـيل تختفي وراء البيوت العالية وتنعكس على زجاج نوافذ الأدوار العليا بوهج أحمر خاطف!.. وغمزت له امرأة في الشـارع فارتجف، ووثبت ذهنه إلى "ألطاف" وهـي تمسـح، الـبلاط بالأمس، ولهثاته خلف الباب المغلق.. ولكن من تكون هـذه المرأة.. أهي محترفة أم راقصة؟.. لا.. إنها ممثلة صـغيرة كان يمكن أن تلمع في فرقة جورج أبيض!. كانت تطمع في أن تمثل في مسرحية هملت دور حبيبته أوفيليا البريئة الرقية كالندى..!.. يا سلام!.. كيف تعيش هي الآن!.

وتابع سيره محمر الوجه في نفس الطريق الذي جاء منه إلى الناصرية، والمصابيح تضـاء.. وفـي زحـام "شـارع الناصرية" الذي يتدفق بعشرات النساء والرجال إلـى قلـب المدينة، لمح فتاة نحيلة في فسـتان صـوفي أحمـر تتـأود مسرعة، متجهة إلى شارع عماد الدين، ورآها تلقـي عليـه نظرات ثابتة..

كان هو على الرصيف الآخر يسير في اتجاه عكسي ولم يستطع أن يتبينها في ظلال المغرب علـى شـعاع الضـوء الباهت المنبعث من فوانيس الشـارع.. ووجـدها تختـرق

الشارع إليه. وحين واجهها، توقف مبتسما.. مهمهما: "رجاء صدقي"!

وانطلقت أساريره وهو يستقبلها متسائلا:

- على فين يا رجاء؟

وأجابته بسرعة وخفة:

- على فين؟.. انت اللي فين؟ الشـارع كلـه مقلـوب عليك.. مامتـك أغمـى عليهـا مـرات وفـاكراك انتحرت!.. دول بلغـوا عنـك الإسـعاف وأقسـام البوليس.. روح اجري جاتك نيلة!

ودهش سعد، وشرد قليلا، وعاد يسألها كأنه لم يسمعها:

- انت رايحة فين دلوقتي؟

فقالت بضيق:

- فرقة علي الكسار! أنا اشتغلت في فرقة الكسار.. أنـا ما أحبش اشتغل كوميدي، لكن إذا كانوا فـي الفرقـة الحكومية الجديدة مـش راضـيين ياخـدوني حتـى ولا كمبارس!؟؟

وقال سعد دون أن يفلح في إخفاء دهشته:

- الكسار؟!..

ولاحظت عليه الاستنكار في وجهه ونبرة صوته.. فارتفع صوتها متحديا. كأنها تنتشل نفسها من متاعبها:

- أيوه الكسار!! وماله؟.. أنا برضه ممثلة يا أخي.. مش عاجبك؟!. ما بقى لي خمسـة أيـام باشـتغل عنـد الكسار.. جري إيه يعني؟ اسمع يا "سعد" لمـا أقـول لك.. ما كلهـم طلعـوا مـن تحـت إيـد الكسـار والريحاني..!.. حاجة حقيرة قوي اني اشـتغل عنـد الكسار.. أنا برضه ممثلة مـش رقاصـة! إذا كنـت أروح لمدير الفرقة الحكومية اشتكي له يقـوم يـديني نصائح في الصبر والتضحية ونكران الذات.. طـب شغلني بقى بالنصائح دي!!..

ودهش "سعد" من حدتها.. وتحرج والناس يمـرون بـه، وبعضهم ينظر في دهشة، فقال لينهي حديثه:

- مبروك يا ستي. الكسار الكسار.. إن شـاء ا تبقـي بريمادونا.

وحاول أن يتحرك ولكنها اعترضته ولوت وجهها ويديها:

- اسمع بقى لما أقولك.. ابقى قل للست والدتك بـلاش الحاجات اللي بتعملها دي.. كلنا ولاد تسعة! والا إحنا مش قد المقام!؟ أنا!! أبقى بريمادونـه أسـياد البلـد حايجروا ورايا ويفتحوا لي سراياتهم، وأنا اللي أقول لأ.. أنا باقول لك يعني! أنا أحسن من أي سـت فـي الشارع وبكره حابقى أحسن وأحسن! بكـره تشـوف رجاء صدقي دي حاتبقى إيه، واللي بيتكبروا عليهـا دلوقت حايشرفهم انهم كانوا يعرفوها!.. أنا باقولـك أهه.. فهم الست والدتك يعني.. أنـا يعنـي فاهمـة كويس.

ولم يفهم منها "سعد" وحملق فيها مسـتغربا.. فاسـتمرت تقول:

- إيه؟ مانتش فاهم!؟.. هيه والدتك بتعمل الحاجات دي على مين!!.. قال إيه لغت المقابلة.. إمبارح تبعت لي تقول كده، وبعدين وأنا نازلة التياترو ألاقي الصالون بتاعكم مزهزه والبيانو شغال والضحك بيرن والمقابلة على الآخر.. أنا سامعه ضحك شويكار بودني.

فقاطعها سعد باعتذار صادق:

- لا.. لا.. دي هي لغت المقابلة صحيح.. أصل اللـي حصل.. أصل الحكاية.. شوفي.. حقيقي هـي لغـت المقابلة بجد. لكن شويكار هانم جت برضه.. ماكنشي فيه حد غيرها!.. أصل.

ولكن رجاء لم تسمعه واستمرت تقول بنفس الحدة:

- لا أصل ولا فصل يا سي سعد.. إذا كانت هي مـش عاوزاني أدخل البيت أنا برضه مش عايزة.. أنا مـن نفسي ما كنتش جايه.. فاهم؟!.. بلغها كده.. أوروفوار بقى! هيه طالعة فيها على إيه؟.. أنا ممثلة عند الكسار لكن أحسن من كل الستات اللي بيدخلوا عندها وأحسن من شويكار هانم دي ميت مرة.. علشان ما اجـوزت لها مرة واحد باشا غني. أهو رماها وخد منها ابنها.. وآهي متجوزة دلوقتي لكـن هيـه عارفـة تصـون جوزها؟! تفتكر يعني؟ أنا يعني مش عاوزة أتكلم.. أنا أشرف منها ألف مرة.. أنا عارفاها كويس وفيه واحدة صاحبتي بتسهر عندها ساعات.. قال ترمينا وتـدعي شويكار قال!.. أوروفوار بقى وبلاش نقول!.. خلـي

الناس مستورة يا سي سعد!. آهي أيام بنقضيها في الدنيا..

ولم تترك له فرصة للرد، وإنما انصرفت في لهوجة وغابت في زحام شارع الناصرية..

وشعر "سعد" بضيق من الطريقة التي تتكلم بها عن أمه، وعن "شويكار"!.. ماله هو وكل هذا؟!.

ولكن.. ماذا تقول رجاء؟!.. أمه أغمي عليها؟!.. ومع ذلك فرجاء لم ترحمها!.

لماذا يغمى عليها؟.. لماذا يقف الشارع كله على رجل يبحث عنه. إنه حاول ليلة الأمس وهذا الصباح أن يعتذر لأمه فصدته وكأنما وجدتها فرصة للتنكيل به، فلماذا تقلب عليه الدنيا الآن.. ما الذي جعلها تخاف عليه الانتحار!؟.. كيف شعرت أنه كان يفكر في هذا نفسه، اليوم أمام النيل!.. مع ذلك فهي لا تعرف هذا الإحساس بالخراب والضياع والوحدة الذي ظل يعانيه بالأمس وطوال اليوم، متجولا في القاهرة بلا مليم، ولا طعام، ولا أمل، ولا حل!..

واندفع "سعد" والجوع يقرصه في معدته، وقدمه تثقل من التعب.

لو قابلته أمه بغلاظة وإهمال كما فعلت بالأمس فسيخرج من بيته على الفور ولن يعود أبدا.. لا بد أن جدته تبكي الآن، وأخته "ميرفت". وأبوه، هو أيضا يتعذب بلا شك، والصغار!..

ودخل شارع عزيز من ناحية درب الجماميز، وظلال المغرب تغمر كل شيء، والصغار يلمون أنفسهم ويعودون إلى بيوتهم، وفي الشرفات والشبابيك تطل رءوس كثيرة على الرغم من برودة الجو.. وحنق قلب "سعد".. ولم يكد يهل على الشارع حتى اندفع "شوقي" زاعقا كأنه عثر على شيء شائع.

- أهه!! إيه ده يا سعد؟ جرى إيه يا أخي؟ كنت فين!؟

وفاضت نفسه وهو يسلم على "شوقي"، و "شوقي" يمسك به ويتأمله، كأنه يريد أن يتأكد أنه سليم لم يصبه سوء على الإطلاق!..

وتطلعت عينا سعد مشرقتين بالدموع إلى النوافذ والشرفات ووجد فيها رءوسا لم يتبينها، ولكنه تبين على مقربة منه منظر "عبد العزيز" يقف في شرفته إلى جوار أخيه "عبد اللطيف"، وفي الشرفة المجاورة يقف" أمين أفندي"

وإلى جواره "ميمي" في فستان من الصوف الغامق لا يبـدو لونه في عتمة المغرب، وعلى الناحية المقابلة وقف "شـكري عبد العال" في شباك بيته ووقفت "سعاد هانم" في شرفتها.

وتضاربت أصوات شكري وعبد العزيز تنهر "سعد" فـي اضطراب:

- إيه ده ياواد يا سعد؟! إيه الغياب ده كله؟ إحنا فاضيين لك نسيب شغلنا ونقعد ندور عليـك فـي الإسـعاف وأقسام البوليس.. إيه الدلع الفارغ ده!؟..

وانطلق صوت "ميمي هانم" حادا بين الأصوات:

- إيه ده يا واد أنت؟.. إيه يا أخي الخيبة دي.. إيه اللي مامته تضربه ياخذ بعضه ويجري من البيت ويسيبها على نارها ولا يقول هو رايح فين!؟.. قطيعة تقطـع خلاف الصبيان.. والنبي انت لو ابني لأربطـك فـي عمود السرير واقعد أضربك بالشبشب لحد ما تعرف ان ا حق!.. ما تنطـق.. كنـت فـين؟.. الغرابـة يا أختي عليه نقرة في التلامة!!.. يو.. جاتك نيلة!

وفوجئ سعد بهذا كله واغتاظ..

لماذا يقف الشارع كله على رجل هكذا، وكل واحد يتشطر عليه ليشتمه!؟.. كلهم يقولون له "ولد"!.

وما لها "ميمي هانم".. مالهـا تتقصـع هكـذا وتشـتمه وتستجوبه وتنظر رده، وتعاملـه كأنـه طفـل صـغير!.. لا! لا أحد له الحق في أن يعامله هكذا حتى أمه..!

لمي لسانك يا ميمي ولا تتقصعى على حسابي أمام عبـد العزيز وعبد اللطيف!..

ووقف سعد يحدق في "ميمي" وينقل نظراته بينها وبـين عبد العزيز.. وارتفع من ورائه صوت "شكري" ثابتا حاسما من الشباك:

- روح يا ابني بقى.. قلقتنا كلنا.. كفايـة الشـحططه اللي شفناها.. ده لسه عبد المعبود والشيخ عبد الحي ومعاهم الواد عبده بيلفوا عليك! ناقص يدوروا عليك دلالين!..

ورفع سعد رأسه إلى شكري الواقف في شباكه ولم يجب، وظل واقفا في الشارع بلا حراك كأنه لا يسـتطيع أن ينقـل رجله، وقلبه يغوص في أعماقه..

وزعق عبد العزيز بلهجة مطمئنة:

- ما تروح يا واد انت بقى على بيتكلم.. انت عاوزهم ينزلوا يبوسوا راسك في الشارع؟!. جـره يـا واد يـا شـوقي جـره.. ده مـين اللـي جـاي ده؟.. عبد المعبود؟.. جره غضـب عنـه يـا أسـطى عبد المعبود.

ووجد سعد ذراعـا قويـة تمسـكه بحنـان، والأسـطى "عبد المعبود" يقول بصوت مشحون:

- ليه تعمل فينا كده بس يا سـعد يـا ابنـي؟! يـاللا يا ابني ياللا.. ا يهديك.. كده يا سـعد؟. دا احنـا كلنا بنقول عليك عاقل تقوم تعمل كده؟ دا أبوك مش قادر ينطق، زي ما يكون نزل عليه سهم ا مـن قلقه عليك! حد يعمل كده في أهله؟! ياللا يا ابنـي بوس رأس الست والدتك وصالحها.. وا دا لـولا الدكتور عبد العزيز ا يستره لحقها بحقنة، كانت.. القصد!

ومشى "سعد" منكس الرأس ومعه "الأسطى عبد المعبـود" يمسك بذراعه، وتنحى شوقي قليلا، وانطلقت زغرودة مـن "ألطاف" و "عبده" يدخل الشارع زائطا:

- استريح بقى يا شيخ عبد الحي! أهو الحيلة رجـع! أهو بسلامته شرف!.. ديك البرابر!!

وصاح فيه "شوقي" متحرجا بغيظ:

- بس يا واد يا عبده! اخرس! اوعى تقول كـلام زي ده تاني! إلا الحيلة دي!

وأخذ يقفز درجات السلم، ومن ورائـه "عبـده"، والليـل يستلقي بصمته على شارع عزيز، بينما كانت ميرفت تنـزل إلى الشارع في لهفة، وترتمي على أخيها أمام عتبـة البيـت متهدجة:

- كده يا سعد؟! اخص عليك..

واختلطت دموعه بدموع أخته، وهما يتعانقان، وهي تقوده من يده وتتأمل كل وجهه..

و "عبد المعبود" ينسحب.. وطرف إصبعه يمسـح دمعـة انبثقت من القلب!

(٦)

صحا "عبد العزيز خليفة" من نومه بعد الغـداء منزعجـا على أصوات نسائية تصل إليه مـن وراء زجـاج شـرفته المحكم الإغلاق.. وهز رأسه وحاول أن يقاوم رغبته في أن يفتح الشرفة ليستطلع الأمر، فقعد على سريره يـدبر عمـل الليلة: يجب أن يفرغ الليلة من مراجعـة ثلاثـين صـفحة.. امتحان دور ديسمبر على الأبواب ولم يبق إلا خمسون يوما! ولكن الأصوات المتشابكة ألحت عليه.. ولاحظ هبوب تيـار بارد على سهم من الضوء يتسرب من الشرفة التـي أحكـم إغلاقها قبل أن ينام.. وقام متأففا فوجد باب الشرفة مردودا.. من فتح الباب علي وأنا نائم؟!..

ودخل إلى الشرفة، فوجد "عبد اللطيف" يقف ضاحكا ومن ورائه "عبده"، بينما "ميمي هانم" في شرفتها تتكلم بلا كلفة مع "سعاد هانم" التي وقفت فوق سطح بيتها هي و "أنيسة" زوجة "عبد المعبود"..

وزمجر "عبد العزيز" وهو يتلفت إلى جارته "ميمي" ويدير رأسه إلى سطح بيت "شكري" حيث تقف سعاد وأنيسة.

ثم همس لعبد اللطيف مؤنبا:

- ايه ده؟! تفتح عليا الشرفة وأنا نايم؟!. أنا صحيت من الدوشة دي.. إيه ده يا عبد اللطيف؟ وانت إيه اللي وقفك هنا يا واد يا عبده.. انجر اعمل لي شاي.

فرد عليه عبد اللطيف بصوت خافت دون أن يلتفت:

- اسمع اسمع.. اسمع بس..

وارتفع صوت أنيسة:

- والنبي الغسيل ما هو ناشف في يومه!. كل ما اطلع ألمه ألاقيه زي ما هو.. يا أختي ده من امبارح الصبح!.. أصلها مطرت شوية بالليل!..

ونظر "عبد العزيز" إلى أخيه "عبد اللطيف" بضيق وبغيظ وانسحب من الشرفة متثائبا وهو يقول:

- دي بقى الأحاديث الشيقة اللي خلتك تفتح على الشرفة وأنا نايم!

ولم يجبه "عبد اللطيف".. وبقي مكانه في الشرفة متظاهرا بأنه لا يتسمع بل يتابع لعب بعض الأولاد بكرة القدم في الشارع.. بينما دخل "عبد العزيز" وراء "عبده".

وارتفع صوت "ميمي":

- غسيل إيه يا أنيسة؟ ما تسمعي بقى خلينا نعرف نتكلم.. قطيعة.. انت ماسكة لنا الغسيل من الصبح..! لازم تفكرينا بهباب البيت.. باقول والنبي يا سعاد انها خلاص ما حدش طايق يكلمها.. اللي طالع في دماغها ان احنا ما يصحش نروح المقابلة بتاعتها.. طيب المقابلة بتاعة الأسبوع اللي فات قلنا كانت ضاربة ابنها سعد ومش رايقة لها وأهي شويكار جت من غير ما تدرى.. لكن تقولي إيه في مقابلة الأسبوع ده!؟.. أنا فايته عليهم وسامعه الضحك والصالون ملعلع والبيانو شغال على الآخر.. دا أنا من يومها لحد النهارده فات عليه أهه يومين تلاتة، وأنا مش طايقة.. كأنها ضربتني بالقلم! والنبي أنا قلت أروح أوريها مقامها، لكن سكت. طالعة فيها على ايه يعني ست.. عديلة دي؟!. أنا أحسن منها.. هو كل من خطف له حاجة من عفش الدايرة واللا كل من اشترى له حتة خرابة، ما حدش يعرف يكلمه..؟!

وقبل أن ترد "سعاد هانم" قالت "أنيسة" محاولـة إسـكات "ميمي":

- يا أختي بلاش مجايب في سيرة الناس! هـو انتـي يا ميمي ماعندكيش كلام غير سيرة الناس؟.. والنبي لالم الغسيل وانشره في الجنينة.. يا أختي الرجالـة سامعينك..! مش كفاية أهو بيتك سد الشمس علـى الجنينة وحوجنا لطلعة السطوح؟ دا لو بيتك طلـع كمان دور راح يسد الشمس على السطوح ده كمـا ومانلاقيش منشر.. يا اختي اسكتي بقى يا ميمي هو انتي بقك ما بيتعبشي من كتر الكـلام.. الرجالـة سامعينك يا شيخة! الرجالة سامعين كلامنا!!

وشعر "عبد اللطيف" بحرج من تعريض "أنيسة" المسـتمر بوقوفه في الشرفة، فانسحب، بينما اضطربت "ميمـي" فـي شرفتها وتلعثمت من غيظها وهي تحاول أن ترد على "أنيسة" بكلمات يشعر بها ويسمعها "عبد اللطيف" قبل أن يغلق بـاب الشرفة.. وارتفع صوتها أكثر من قبل:

- ا ؟ وانتي مالك انت؟.. انتي؟.. انتى اش دخلك في الكلام ده؟!.

انت لا لكي في المقابلة ولا بتروحي ولا بتيجـي!..ا !..
وكمان يعني انت مالك ومال اللي بيبني واللي بيهد.. ان كنا جرنا على الشارع والا ما جرناش؟!.. هو احنا جرنا علـى ملكك؟! أهو بتاع الدايرة.. وآهو الفندي طول عمره خادمها.. ا .. انتي حاتمسكيها لنا ذلة!.. شيء بارد. انتي حاتطلعينـا من الشارع علشان الغسيل بتاعـك!؟.. لكـن الحـق مـش عليكي.. الحق على اللي اختار الشارع ده وبنى فيه.. واحنا كنا وش شوارع زي دي.. اللي يقطمنا واللي تستكبر علينا!! دا أنا شبشبي أحسن من أحسنها واحدة في الشارع!.. بلغـي عديلة هانم كده يا ست سعاد!..

وتردد صوت "أنيسة" خافتا هاربا:

- طيـب. طيـب.. دا أنتـي اللـي ينشـبك فيكـي ما يخلصشي.

وخفت حديث النساء و "سعاد هانم" تقول منسحبة من فوق السطوح:

- يا اختي مالوش لزوم ده كله.. هي كل حاجة تقلبيها نقار يا "ميمي" يا أختي!؟.. اللي بيود يـود بكيفـه. وهيه الناس حاتستكبر على بعض علـى إيـه!؟..

عيب يا ميمي تلخبطي كده!.. سعيدة يا اختي. أنـا نازلة أنكن في وسط عيالي.. أصلك انتـي دايمـا تخلقي حاجات كده وتعملي منها حكاية!..

ولم يعد أحد يسمع من الشارع إلا أولادا يزيطـون وهـم يلعبون الكرة..

وقال "عبد اللطيف" وهو يدخل من حجرة "عبد العزيـز" إلى الصالة:

- حقا لو أبوك طب مرة فجأة وسمع خناقـة زي دي، وشاف ميمي بتقصع كده!.. وآه لو يطـب وهـي لابسه صيفي!..

ولم يرد عليه "عبد العزيز" وظل قاعدا على كرسي فـي الصالة يرشف كوب الشاي على مهل..

وجاء "عبده" من المطبخ يقول لعبد العزيز:

- ما تنساش يا حضرة الدكتور تفوت دلوقـت علـى الشيخ حمزة تجيب الكتاب اللي انسرق مـن سـي شوقي.

فتمتم عبد العزيز لنفسه:

- ييه؟.. أنا لسه حانزل. ده الواحد لما بينزل بيقطـع حالة المذاكرة. وادي عطلة عالفاضي.. أنا عـارف "شوقي" ما بيفوتشي هو ليه؟!.. ما حق عبد اللطيف يفوت هو.

فرد "عبده" متلعثما باندفاع شديد:

- هو الشيخ حمزة الضلالي ده حايقر لسي شوقي انه اشترى كتبه المسروقة.. وا دا عمره ما حيقر لحد غيرك!..

ثم زعق دون أن يوجه الحديث لأحد بالذات:

- بقى المخفي ده قارئ في الأزهر، ويدور يشـتري كتب مسروقة؟! دا فاتح دكانه قدام الخديوية بالعنية علشان كده.. بقى "حمزة" دهه ينسى خدمتي لـه.. طب كان بلاش في كتب سي "شوقي" كرامـة ليـه أنا!. بقى نسي لما كان متلقح تحـت مـع الشـيخ "عبد الحي"؟.. الشيخ "عبـد الحـي" تمرانـه فيـه الخدمة.. أقله بيعلمني القراية والكتابة.. لكـن كلـه الا النجس ده.. والنبـي كـان لـه حـق الشـيخ "عبد الحي" يضج من شركته في السكن ويرمي لـه

عفشه في الشارع.. ما دام إيده طويلة.. مـا كـان جايز يسرق كتب الشيخ "عبد الحي" ويبيعها؟.. بقى يشتري الكتب اللي ولاد الحرام سرقوها من سـي "شوقي"؟ بقى هيه كانت ضاقت علـى الكتـاب ده؟ ما فيش خواطر خلاص؟..

وقال "عبد اللطيف" بضيق:

- جرى إيه يا واد يا "عبـده".. انـت حـاتقول لنـا محاضرة.. ادخل على المطبخ أجري..

ودخل "عبده" المطبخ متلكئا وهو ما زال يزعـق دون أن يوجه كلامه إلى أحد بالذات، وصوته يتقطع والكلمات تتعثر من فمه:

- وحياة النبي لو يحكموني عليك يـا شـيخ حمـزة يا دبوس لأ.. أ.. أ.. لـ.. لأعمل لـك إيـه بـس يا اخواتي؟! القصد.. داهية تهزل مقامـك.. قـال قاري كتاب ا قال!.. ده غلب الفقها بتوع بلـدنا.. قوم له يا سي الدكتور.. قم له.. وحياة النبـي هـو ما بيخاف من حد قدك.. وأيمان المسلمين ما هـو بازز بالكتب لحد غيرك!.. يا إما تقوم تـروح لـه

يا إما تشتري كتب تانية لسي شـوقي مـن أيهـا مكتبة.. إديني الفلوس وورقة فيها اسم الكتاب وأنـا أروح للشيخ "حمزة" أهد الدكان عليه.

وظل عبد العزيز وعبد اللطيف يسمعان وهما يبتسـمان.. وقام "عبد العزيز" إلى حجرته وهو يضحك قائلا:

- طيب يا سي "عبده".. أمرك.. بس تعالى خد كبايـة الشاي دي من هنا..

***

انطلق "عبد العزيز" مسرعا إلى شارع درب الجمـاميز، ووجد نفسه أمام سور المدرسة الخديوية حيث يقـع دكـان "الشيخ حمزة" على الرصيف المقابل لسور المدرسة.. وكان سعد داود ساعتها يقف على مقربة من دكان "الشيخ حمـزة" يروح ويجيء أمام سور المدرسة.. ينتظر خروج التلاميـذ، وعلى الباب تقف بعض عربات..، وباعة الجرائد المسـائية وحملة إعلانات السينما والملاهي يتجمعـون فـي انتظـار الجرس الذي يوشك أن يدق..

وكان الشيخ حمزة دبوس صاحب دكان الكتـب القديمـة مستغرقا في قراءة كتاب أصفر، وهو يرفع رأسه من لحظـة لأخرى ليهزه متلذذا بما يقرؤه:

- يا سلام عليك يا سيدنا حسان.. ما فيش أشعر منك لا في الجاهلية ولا في الإسلام.. وا كـده.. ا .. كده يا سيدنا حسان يا بن ثابت.. صدق رسـول ا حين قال فيك..

وحك شعرات ذقنه وهو يحاول أن يتذكر.. ثم أكمل وهو ينظر أمامه إلى وجه "سعد" الذي وقف مسـتندا إلـى بـاب الدكان وعيناه على باب المدرسة:

- أيوه صدق رسـول ا حـين قـال.. قـال إيـه يا سيدي؟.. أو كما قال.. اسمع يـا سـي سـعد.. تشتري ديوان سيدنا حسان تنال به ثـواب الـدنيا والآخرة، ويقوي أسلوبك في العربي.. أنا حاخد فيه منك سبعة صاغ بس.. اسمع كـده القصـيدة دي: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول.

ولم يكد الشيخ "حمزة" يمضي فـي قـراءة أول كلماتـه، وينطق اسم "سعاد" حتى وجد "عبد العزيز" أمامه:

- برضه سعاد؟.. هم المشايخ ما عندهمش شغلانه غير سعاد.. واحد مستلمها بياسعا فيمن دعا سعادا!. وأنت قاعد هنا تشعر لي في سعاد.. فاحتد الشيخ "حمزة" مقاطعا:

- كلام ايه ده.... ا ! ده شعر سيدنا حسان بن ثابت يا جدع..

وعاد يقرأ وهو يهز رأسه: بانت سعاد فقلبي اليوم متبول..

فصاح عبد العزيز: جاك وجع في قلبك. وكمان دا شعر كعب بن زهير مش كلام حسان بن ثابت..

فصرخ حمزة: اخرس!

ثم استدرك ووجهه ينفرج بابتسامة:

- ا !!! هو انت؟.. ا يجازيك يا دكتور عبد العزيز..

وقام يسلم عليه مرحبا وهو يضحك:

- دا أنا افتكرت سعد هو اللي بيتكلم.. سلامات يا دكتور.. طيبون.. سلامات. طيبون. كل سنة

وانت طيب.. ازيك كـده! دي خطـوة عزيـزة.. دا احنا زارنا النبي.. وا جيت في وقتـك.. دانـا وقعت النهارده شوية كتب طب لكن..

فأسكته "عبد العزيز" بصرامة وهو يستند بمرفقـه علـى منضدة في مدخل الدكان ونظراته تفحص الكتـب القديمـة المرصوصة على الرفوف في الداخل:

- بس.. بس.. انت وصلت لكتب الطب؟!

والتفت "عبد العزيز" إلى سعد:

- ازيك يا سعد.. بص معاي كده على كتاب تـاريخ العصور الوسطى.. الجزء الأول والثاني والثالث.

وقال الشيخ حمزة مرحبا:

- عاوز كتاب تاريخ العصور الوسطى الأجزاء الثلاثة عندي؟ حاضر.. المكتبة كلها تحت أمرك.

ولكن "عبد العزيز" قطب وجهه قائلا بحزم:

- اسمع يا واد انت بقى يا شيخ حمزة.. هات كتـاب شوقي أخويا وما تستعبطش عليا.. وقول لي دغري مين اللي سرقه لك، وإلا وا العظيم أقابل النـاظر

حالا وأبلغه ضدك وأجيب البوليس يهاجم لك الدكانة دي.. عاملين لي مشايخ بس وواحد قاعد يقرأ لـي في ألفية ابن مالك علشان لقى فيها اسم واحدة مـن الجيران.. والثاني عايش لي علـى شـرا الكتـب المسروقة من التلامذة المساكين! طلع الكتاب حـالا أحسن أعمل لك مصيبة زي مصـيبة "غريـب".. فاكر؟!

واضطرب "الشيخ حمزة" وأخذ ينقل نظراته متحرجا بين "عبد العزيز" و "سعد" والشارع، وأمسـك لحيتـه الطويلـة السوداء وهو مطرق، ثم أخذ يدفع الهواء بيده مستنكرا وهـو يطقطق، ولم يكد "عبد العزيز" ينتهي حتـى انفجـر الشـيخ "حمزة" في غضب متحرز وهو يلقي بمسبحته على المنضدة:

- تجيب لي البليس؟ كلام ايه دي؟! الكلام الغليض ده يا دكتور.. دهدي؟.. انت جاي تهينـي كـده ليـه يا أخي؟ والذين يرمون الناس بالباطل! ا !.. بليس إيه و "غريب" إيه؟.. بقى تقارنني أنا بغريب؟! طب ده راجل ضلالي وبطال و.. وأخلاقه فسدانة وأمله متلوف! وكان بيعمل في التلامذة حاجات وحشـة.

وفضلا عن ذلك.. يعني.. إيه يا أخي الكلام ده.. ثم إني.. ثم إني يعني كده. ا .! أنا رجل محترم. ثـم إني. أنا لا تلهيني تجارة ولا بيع عن ذكر ا ..

فاحتد "عبد العزيز" مقاطعا:

- تلهيك؟ يا شيخ اتلهى! لما انت فالح كده ما كملـتش في الأزهر ليه؟ ما تشوف زميلك اللي كنت سـاكن معاه في شقة واحدة بقى ايه دلوقـت وانـت ايـه! ما الشيخ عبد الحي أهه قرب يتخرج من دار العلوم وانت متلقح هنا تشتري كتب مسروقة!..

واسترد "الشيخ" حمزة مسبحته وأخذ يعبـث بهـا قـائلا بانكسار:

- دهدي؟!.. انت حاتعترض؟.. دا حكم ربنـا.. هـو سبحانه وتعالى عاوز كده!!.. حكمته كـده.. أمـا ملكش حق أبدا في الكلام ده يا دكتور.

وسكت قليلا ثم انفجر بضيق:

- طب والقرآن المجيد يا شيخ الواحد كل يوم يفكر انه يرجع البلد يتفيأ ظلال التوت ويشرب مـن ألبـان البقر.. أحسن من الغلب ده..

فقال "عبد العزيز" وهو يتأمل في وجه الشـيخ "حمـزة" الشاحب المرتجف بعمامته الكبيرة المتسخة الشال:

- اسمع يا شيخ "حمزة". أنا مش فاضي لظلال التوت وألبان البقر. أنا نازل لك مخصوص. هات الكتاب خليني أرجع. أنا ما عنديش وقت للوقفة دي.

وكأنما تذكر "سعد" أنه فقد كتابـا قبـل أن يطـرد مـن المدرسة، فصاح:

- ا ؟ طيب وكتاب "الجغرافيا الإقليمية" الجزء الثالث بتاعي مش عندك كمان؟! ما هو ضاع مع كتـاب "شوقي" قبل ما اتخانق مع المستر فيـرنس بيـوم واحد.

وكأنما تنبه "عبد العزيز" لوجود سـعد بجـواره خـارج المدرسة والطلبة ما زالوا في الداخل.. فقال بصوته المرتفع دائما وهو ينظر إلى باب المدرسة المغلق:

- ا !.. على فكرة. إيه أخبارك مع الناظر؟

فأجابه سعد مبتسما متشجعا:

- لسه.. لا جديد تحت الشمس.

ولوح له "عبد العزيز" بيده.

- يا أخي هو يعني عمك شكري كان لازم يحبكها مع الناظر!؟ أنا لما رحت تاني يوم قعد يشتم لي فـي فصلكم وأخذ مني تعهـد ان شـوقي لا يتعـرض لمدرس الإنجليزي.. وخلصنا. وخد نفـس التعهـد على كل أولياء الأمور. لكن شكري أفندي بقى لازم يدخلها في السياسة! دا كان ناقص يضرب النـاظر بالكرسي.. ا ! لكن دا انت بقى لك مدة مطرود من المدرسة يا وله.. دي السنة حاتروح عليك..

وتدخل الشيخ "حمزة" متلطفـا وهـو يـرى انصـراف "عبد العزيز" إلى موضوع آخر غير سرقة الكتب:

- أيوه.. ده شكري أفندي عمل حتة دور! قعد يقـول للناظر انت من برادع الإنجليز وحريمك انجليز.

وأكمل هامسا:

- حاكم جماعة الناظر انجليزية.. ما هو "أبو سـريع" حاكي لي ع الدور كله.. دا الساعي الخصوصـي بتاعه وبيروح له البيت وبينكشف ع الجماعة..

فنظر اليه "عبد العزيز" وهو يهز رأسه:

- هو "أبو سـريع" بقـى اللـي بيبيـع لـك الكتـب المسروقة؟.. فصاح "الشيخ حمزة":

- لا وا يا شيخ!.. حرام عليك.. حرام قطعا.. قسما بالذات العلية ما هو "أبو سريع"!.. يا خبـر!.. ثـم يعني ايه قولك الكتـب المسـروقة؟!.. دي مـش مسروقة.. بقى أنا أشتري حاجة مسروقة؟.. وكمان تظلم في الشغلة دي راجل طيب وصـاحب عيـال زي "أبو سريع" يا شيخ حرام.. إن بعـض الظـن إثم.. طب وشرف المصطفى يا شيخ ان اللي بـاع لي كتاب أخوك وكتاب سعد دهه.. انه تلميذ معاهم وابن راجل طيب.. وباع لي الكتابين في يوم واحد كمان.. هه!.. وأبوه راجل عارف ربنـا وحامـل كتاب ا المنزل.. بس اقسـموا علـى كتـاب ا ما تجيبوا سيرة لحد!.. يا سيدي الواد شوكت ابـن "الشيخ عبد الـرحيم المغربـي" كاتـب المحكمـة الشرعية العليا هو اللي باع لي الكتابين.. هه!.. بس غيرشي ربنا أمر بالستر!.. وآدي الكتابين أهـم.. ادفعوا فيهم ريال وا يبارك لكم..

وأخرج الكتابين من درج أمامه:

وبهت سعد..

شوكت عبد الرحيم المغربي!.. إنه دائما في ملعب التنس مع أولاد الذوات، وهو فوق هذا صاحبنا..!!

وقال "عبد العزيز" وهو يتناول الكتابين ويفحصهما:

- عاوز ريال كمان يا ضلالي يا قليل الدين؟ تلاقيـك موقعهم الاتنين بشلن... أنا ما حقيش أدفـع فـيهم ولا مليم... هاتهم من سكات وخلاص.. كفاية انـي حاسكت عليك!..

فاحتد "الشيخ حمزة":

- ا !.. طيب وأنا مالي.. بقى ده جزاتـي.. طـب ما أنا دافع فيهم فلوس.. قسما بالذات العلية أنا دافع فيهم ريال. عشرين قرش بـالمليم، عـاوز تاخـد الكتابين وتمشـي كـده مـن سـكات؟ ده شـغل ما يرضيش ربنا.. ده حرام!.. طـب وكتـاب ا المجيد أنا دافع فيهم خمستاشر قرش!

- فضحك "عبد العزيز" وأعطاه قطعة نقدية قائلا:

- ما كنت بتقول عشرين قرش! طيب.. أنا أدفع لك عشرة صاغ في الكتابين!.. آه يا ضلالي تلاقيك برضه كسبان فيهم!..

وضحك "الشيخ حمزة".. وتكسرت ضحكته حتى بانت أسنانه المتراكبة الصفراء المهشمة واهتزت لحيته.. ودعك أنفه الطويل وحك رأسه القصير الشعر ثم وضع عليه عمامته الكبيرة وهو يقول:

- طيب يا سيدي وا ما يمشي إلا كلامك انت.. ان شا حتى يمشي على رقبتي.. عشرة صاغ عشرة صاغ.. بس ايه بقى.. عاوزك كده يا دكتور كرامة للنبي عليه الصلاة والسلام وحبا في أهل البيت الكرام تشوف لي كده دواء ناجع لوجع السوة.. دا أنا طول الليل وأنا عمال أنازع من سوتي يا دكتور.. هات ايدك كده شوف. هنا..!

وأمسك الشيخ "حمزة" بيد "عبد العزيز" وحاول أن يضعها على جنبه ولكن "عبد العزيز" سحب يده ضاحكا وهو يقول:

- يا أخي جاك خابط في سوتك.. هو فيه حاجة في الطب اسمها سوة..

- طب وأنا مالي ومال اسمها في الطب بقى!؟.. انت عاوزني أرطن لك بالإنجليزي زي الدكاترة.. أنـا عاوز الدوا وخلاص..

ورد عليه "عبد العزيز":

- ابقى فوت عليه بكره.. لا. بعد بكره فـي العيـادة الخارجية في القصر العيني الجديد.. عارفه؟.. بعد بكره الساعة عشرة الصبح. بس اوعى تاخد الـدوا تبيعه.

وضحك الشيخ "حمزة" طويلا وهو يقول:

- بقى أنا ضلالي خالص كـده حـابيع الـدوا بتـاع الحكومة كمان!؟..

وأمسك الشيخ "حمزة" القطعة ذات العشرة قـروش التـي أخذها من "عبد العزيز" وفحصها خفية.. وأخذ "سعد" يقلـب كتابه ويفتحه ويقفله فرحا وهو يهمهم:

- بس ليه تقطعوا الورقة اللي عليهـا اسـم الواحـد وترموا جلدة الكتاب وتحطوا الجلدة الوحشة دي..

ثم أكمل ملتفتا لعبد العزيز بحرج:

- لما أروح حابعت لك الخمسة صاغ ثمـن الكتـاب يا دكتور عبد العزيز..

فأمسك "عبد العزيز" بذراعه وهزه قائلا:

- عيب!.. خمسة صاغ إيه يا وله؟ ما انت و "شوقي" واحد.. المهم يا مغفـل انـت نـاوي تعمـل إيـه دلوقت!؟.. حاتصوع في الشوارع على طول كده؟!

وتدخل الشيخ "حمزة" في الحديث بحكمة وتؤدة:

- ما تشوف له واحد يا دكتور يعمل انه أخوه والـلا قريبه واللا شيء من هذا القبيل ويـروح للنـاظر يستسمحه ويقول له إن والده عيان ويضربه قلمـين في غرفة الناظر على سبيل المجاملة للناظر.. وأهو ربنا سبحانه وتعالى ينجح المقاصد.. واللا نسـيت أيام ما كنت في الخديوية يا داكتور!؟.. ا يرحمه ويحسن إليه الناظر اللي كان على أيامكم!.. كـان يقوم بنفسه يحوش ويستكفي باللي جـرى قدامـه! فاكر؟!.. وا أنا فاكر مرة دخلت مع صـاحبك ده اللي كان اسمه كمال الصفطاوي.. لبست كاكولـه حلوة كده ومعتبرة.. واستلفت عباية صوف وشـال

كشمير.. أول ما هليت على الناظر ا يرحمه قام
واقف لي.. يقول لي أهلا سيدنا الشيخ.. قمت لك
نازل على "كمال الصفطاوي" ضرب.. فاكر؟
يا دوبك لهفته قلمين.. قام الناظر يحوش عنه..
ودخله المدرسة.. بالك؟!. كمال يومها طلع من
المدرسة كان حايقتلني!! أصل الكفين طلعوا مكن
سوروا له ودانه!! ألا "كمال الصفطاوي" فين
دلوقت؟ ما بتشفوش. دا بقى ضابط بوليس قد
الدنيا.. وكل ما بيجي مصر يحود على هنا.. لسه
من شهرين بايع له كتاب تاريخ الجبرتي.. كتاب
مش موجود زي ما انت عارف، وبيعه كمان
ممنوع.. قال إيه فيه سب في محمد علي الكبير
والأسرة المالكة!؟.. إيه رأيك بقى في الثورة
دي!.. انت فاكر الحكاية والا نسيتها.. ما أنا كنت
أيامها ساكن في شارعكم مع الشيخ "عبد الحي"
يا جدع!.. وانتم في البكالوريا.. دا احنا ياما شدينا
عليها المسخرة.. عاوزين لـ "سعد" قلمين زي دول
يسوروه لكن يرجعوه المدرسة!..

ولمعت عينا "عبد العزيز" وهو يقول:

- ا يخيبك يا شيخ" حمزة"!.. صحيح يا واد يا "سعد" ما تيجي نشوف لك واحد وجيه كده نعملـه عمـك والا خالك وتخش به على الناظر يلحسـك قدامـه قلمين، ويراضي بهم الناظر، وخلاص.

اسمع يا شيخ حمزة.. انت بتشوف كمـال؟ ده واحشـنى جدا.. خليه..

واعترض "سعد" مقاطعا باستنكار شديد وباستعلاء:

- لا لا.. أنا كرامتي لا تسمح بهذا.

ودفعه "عبد العزيز" في كتفه قائلا بصوته المرتفع دائما:

- كرامتك إيه بس!؟.. مش ترجع المدرسة أحسن من الدوارة في الشوارع!؟. دي المسألة بينـك وبـين الناظر بس.. الراجل ييجي ياخدك القلمـين قـدام الناظر ولا من شاف ولا من سمع، وتصبح تلاقـي نفسك في المدرسة. والناظر بالتأكيـد بعـد كـده حيتنازل عن حكاية ضربك في الطابور اللي وافـق عليها أبوك المغفل..

وتوقف "عبد العزيز" قبل أن يكمل نطق كلمـة المغفـل، و "سعد" يحتج والدنيا تغيم في وجهه.

ثم قال "عبد العزيز" مستدركا:

- تعال تعال يا "سعد" ولو أني مش فاضـي، نفـوت على مطبعة الأسطى "عبد المعبود". يمكن ايده تطلع خفيفة عليك شوية. يا الـلا نلحـق النـاظر قبـل ما يمشي، وخير البر عاجله، مـا تخفـش. مـش حايضربك قوي زي ما "حمـزة" ضـرب "كمـال الصفطاوي".

والتفت إلى "حمزة" قائلا:

- ضروري تخلي كمال يفوت علينا يا شيخ حمزة..

وجر "سعد" من يده ومشى به متعثرا في اتجاه المطبعـة، و "سعد" يتلكأ:

- أنا لا أقبل حتى أن أبوي نفسـه يضـربني قـدام الناظر. المسألة مسألة مبدأ يا دكتور. لا لا..

ولكن "عبد العزيز" نجح في أن يجره خطوات.. بينما كان طلبة المدرسة الخديوية يخرجون ويمرون من أمـام "سـعد" ويحيونه.

وقال "سعد":

- على كل حال المدرسة خرجت خلاص. والنـاظر دلوقتي روح.

فوقف "عبد العزيز" يقول لـ "سعد" بحزم:

- طيب أنا مروح.. واسمع بقى. فكر كويس ما تبقاش عبيط. دا مستقبلك.. ما تدخلشي كـل حاجـة فـي الكرامة. هي يعني كرامتك تقبل بس انك تترمي في الشارع أكثر من عشرة أيـام دلوقـت. افهـم دي كويس.. ما فيش حاجة تعوض حضور الحصـص أبدا.. ساعات الواحد وهو بيجاوب فـي الامتحـان بينسى اللي قراه ويفتكر شرح المدرس في الحصـة ويجاوب من شرح المـدرس بـس!. دي تجـارب الواحد عارفها كويس.. حتى عندنا في كلية الطـب الدنيا مش حاتخرب لما انت تتضرب قلمـين. أنـا مش عاوز أقول لك إن الغاية تبرر الواسطة. لكـن فكر كويس في كل حاجة تعملها.. وفـي المزايـا والمضار. اسمع كلامي وفوت دلوقتي على الأسطى "عبد المعبود" اتفق معاه انه بكـره يلـبس كـويس

ويروح معاك المدرسة ويقابل النـاظر علـى انـه خالك.. عمك.. أي حاجة.. وتخليه يقول لك شتمتين كويسين قدام الناظر ويلهفك القلمين.. ونخلـص.. الطريقة دي حلت أزمات الدنيا لتلامذة كتيـر مـع نظار أشد من ناظركم ده ألف مرة.. الشيخ "حمزة" فكرني.. حكاية "كمال الصفطاوي" كانـت متعقـدة أكتر من حكايتك ماحلهاش غير القلمين بتوع الشيخ "حمزة"!

وارتفع صوت احتجاج من وراء "عبد العزيز":

- لا لا.. غير معقول.. لا يمكن.. ده حل مهين!

والتفت "عبد العزيز" فوجد أخاه "شوقي" يقف وراءه ومعه طالب طويل أسمر حازم الوجه ثابـت النظـرات.. فزعـق "عبد العزيز" في أخيه "شوقي":

- بس يا واد يا "شوقي" بلاش فلسفة.. أمال ما تنتصح كده على كتبك بدل ما تنسرق منك في المدرسـة.. انت أصلك جحش.

وضحك "شوقي"، وقاطع أخاه متحرجا قبل أن يستمر في شتمه:

- ده إجماع الطلبة. اسأل كمان "الأستاذ عبد الرافع".. حضرته الأستاذ "عبد الرافع" رئيس جمعية الخطابة بالمدرسة.. وحضرته أخويا الدكتور "عبد العزيز خليفة" بكالوريوس الطب والجراحة!..

وتقدم "عبد العزيز" مسلما على "عبد الرافع" برعاية.. ثم قال مداعبا:

- أهلا وسهلا الأستاذ "عبد الرافع".. أنت زعيم المدرسة بقى واللا إيه؟!. تلاقيك بتفكر تخش الحقوق وتطلع تعمل وزير.

فرد "عبد الرافع" مبتسما:

- لا.. أبدا.. أنا ناوي أدخل الحربية.. وأطلع ضابط بس..

ثم أكمل متحرجا:

- أصل الحقوق مدتها طويلة، ومصاريفها كتير.. كويس الواحد يطلع ضابط.. وطني يعني..

فرنت ضحكة عبد العزيز تغمر حرج عبد الرافع من إشارته السريعة إلى فقره:

- يعني عاوز تدخل الحربية علشـان تطلـع ضـابط وطني؟!.. يعني ناوي تضرب لك ضابط انجليـزي بالكرسي؟.. يعني ان شاء ا توصل لحد يوزباشي وتركن على المعاش!..

وخلال الضحكات قال "شوقي خليفة":

- احنا امبارح أرسلنا عريضة للناظر مـن جمعيـة الخطابة وجمعية التمثيل وكل جمعيات المدرسـة.. عريضة وقعها رؤساء وسكرتيرو الجمعيات وبعض الطلبة المهمين، ووقعها معانـا "ميخائيـل أفنـدي" والشيخ " علي" وطالبنا فيها بعودة "سعد داود أفندي" فورا وبأن يعتذر المستر فيرنس له أمـام الطلبـة وإلا..

وقاطعه "عبد العزيز" بقوله:

- وإلا؟! وإلا إيه يعني. حاتعملوا مظـاهرة علشـان عودة "سعد".. يعني عودة "سعد زغلول"؟! يا خراب بيتك يا داود أفندي! اسمع كلامي يا "سعد"! ما فيش حل غير قلمين من "عبد المعبود" قدام الناظر فـي أودته، وانت ترجع فورا..

فصاح "سعد" بقوة:

- كلا.. وألف مرة كلا..

وهزة "عبد العزيز" وهو ينصرف:

- ا ؟!.. أنت كمان بقيت زعيم؟. وحاتتكلم لي بكـلا وألف كلا؟! ما تقول كمان تقطع يدي ولا أوقع هذه المعاهدة.. ا يخيبك!.

وانصرف "عبد العزيز" مسرعا..

ومشى "سعد" وذراعه في ذراع "شوقي" ويـده الأخـرى تمسك بذراع "عبد الرافع" وهو يشعر بـدفء غريـب فـي أعماقه، وبقوة لم يشعر بها من قبل.. وأطلق أول ضحكة في يومه.

زملاؤه رفعوا عريضة بالأمس.. ومع أن الناظر لم يـرد اليوم.. فلا بد أن يرد غدا.. وإلا.. فمن يدري.. ربما كـان هو الإضراب..

أخيرا.. سيضربون من أجلك يا سعد!.. إنك نفسـك لـم تجرؤ حتى على مجرد التفكير في شيء كهذا..

(٧)

بدأت مدارس البنات تخرج والطريق يزدحم بـالموظفين العائدين من أعمالهم، و "شوقي" و "سعد" و "عبـد الرافـع" يمشون في شـارع درب الجمـاميز يروحـون ويجيئـون ويتوقفون كل خطوتين أو ثلاث يحكون ويضحكون، ونبـرة ثقة وأمل تشيع في أصواتهم.. ووجدوا أنفسهم في ميدان "باب الخلق" وسط زحام الترام والعربـات والباعـة المتجـولين وصوتهم يكاد يضيع منهم.. وقال "عبد الرافع":

- ما تيجوا نحود على دار الكتب.

فأجابه "سعد داود":

- النهاردة الاتنين.. المكتبة قافلة.

بينما كان "شوقي خليفة" يجذب "سعد" بيده قائلا:

- تعال يا شيخ على القهوة دي نكمل كلام.. هو احنا كل يوم حـانطلع مـن المدرسـة نتصـعلك فـي الشوارع.. يا للا بنا على القهوة ياللا.

وتردد "عبد الرافع" قليلا.. ولكنهم دخلوا القهوة فوجـدوا "شوكت عبد الرحيم المغربي" أمامهم يقعد على كرسي ويسند ذراعه على كرسي ويمد رجلـه علـى كرسـي.. والقهـوة الصغيرة مزدحمة تضج يخبط الطاولة وزعيـق الجارسـون على الطلبات..

وتردد "شوقي" وهو يقف في مدخل القهوة. أيسـلم علـى "شوكت" أم يتجاهله، وشـعر "سـعد" بضـيق مـن رؤيـة "شوكت"..إنه منذ سمع أول أمس أنه هو الذي سرق كتابه لم يستطع أن يفكر إلا في أن يبصق في وجهه إذا قابله.. ولكن "عبد الرافع" تقدم إليه فقام "شوكت" متثـاقلا يسـلم علـيهم جميعا..

ووقف "الجارسون" وراءهم يبحث عن كراسـي، وأخـذ يهيئ الكراسي الثلاثة التي كان "شوكت" يشغلها جميعا، وهو يقول معرضا بـ "شوكت":

- الزبون اللي يقعد هنا يتام على كرسي واحد مـش يبعزق نفسه على تلات كراسي..

ثم يمشي "الجرسون" يفتش عن كرسي رابع وهـو يكلـم نفسه بصوت مرتفع:

- اقعد بأدبك يا زبون وإلا قوم روح.. بلاش فقـر!.. شاغل لنا تلات كراسي من الصبح على واحد شاي!

وضحك "شوقي" و "سعد"، بينما حاول "شوكت" أن يـتكلم مع "عبد الرافع" متجاهلا كلام "الجرسون":

- إيه يا "عبد الرافع"؟!. أنا ما قدرتش أروح المدرسة النهاردة! إيه أخبار العريضة.. مش خلاص "سعد" رجع...

وقال "عبد الرافع" معاتبا:

- كنت لازم تيجي.. النهارده كان أحرج يوم. يعنـي أول امبارح تقف تخطب زي ميرابـو.. وامبـارح تختفي، والنهارة تغيب؟!

..على كل حال الناظر قرر إرجاع "سعد". ولكنه حل كل الفرق ماعدا الفرق الرياضية والمجلة. يعني جمعية الخطابة وجمعية التمثيل وجماعة البحوث التاريخية وخلافهـا.. زي ما أشيع امبارح. وخصم نمرتين مـن السـلوك مـن كـل الموقعين على العريضة، وأعلن في طـابور الصـباح أنـه بيرجع "سعد داود" لا لأن العريضة قدمت.. ولكن لأن والده اعتذر للمستر فيرنس والمستر فيرنس اكتفى بهذا.. تصور!..

طبعا ده ما حصلشي. الناظر بيبرر تراجعه ومـش عـاوز يعني يظهر قدامنا انه خضع لمطالبنا..

وجاء "الجرسون" ووقف يسألهم عن الطلبات، وقعد "سعد" و "شوقي"، بينما ظل "شوكت" و "عبد الرافع" واقفين... وبعد قليل هز "شوكت" رأسه قائلا:

- على كل حال كويس! ما دام "سعد" رجع خـلاص. طيب سلام عليكم..أنا امبارح وأنا فـي المدرسـة برضه سمعت ان حضرة الناظر زعل من العريضة وناوي يعاقب اللي وقعوها ويحل فرقـة الخطابـة والتمثيل بالذات.. لأنهم تزعموا حملة التوقيعات.

وحين حاول "عبد الرافع" أن يستبقيه، تحرك مزهوا وهو ينظر في ساعة يده الذهبية بحركة رشيقة، هامسا:

- يا.. ياه؟! دي مدرسة سان فانسان دي بول طالعـة حالا!!. الشعب بتاعي مالوش صبر ينتظر!

وانصرف مسرعا.. خفيف الحركة و "شوقي خليفة" يتبعه بنظرات محنقة.. مدرسة "سان فانسان دي بول"؟!. مالك انت ومالها؟!.. يا أخي رح بقوامك المتثنى هذا ولونك الأبـيض، وانتظر لك فحلا من المدرسة الإسـماعيلية!! يـا ظبـي!..

احترس يا "شوكت" يا بن الشيخ "عبد الـرحيم المغربـي" أن تتعرض لـ "ميرفت" أخت "سعد" وانـت واقـف تتمخطـر كالغزال أمام مدرسة سان فانسان دي بول!.. فأنا "شوقي" ابن الحاج "خليفة"..

وعندما غاب "شوكت" في زحمة الميدان، التفت "شـوقي" إلى "سعد". ولكن "سعد" كان شاردا!.. مالك يا "سعد"؟. ألـم تسمع ما يقوله "شوكت"؟! هو ذا ذاهب يتسكع ويتمايع أمـام مدرسة أختك؟ هل جرحتك كلمـات هـذا الولـد؟!.. مالـك يا "سعد"؟! وقعد "عبد الرافع" يقول لشوقي معاتبا:

- يا "شوقي" دي مش طريقة تعامـل بهـا "شـوكت المغربي".. انت حتى مارضيتش تسلم عليه وهـوه ماشي وقعدت تبص له بطريقة غريبة!..

فانفجر "شوقي":

- تسلم عليه ازاي؟! ده سرق كتبنا!! وهوه ده راجـل الواحد يسلم عليه؟

فأجاب "عبد الرافع" محاولا السيطرة على غضبه، ولهجة صعيدية تنفلت من كلماته:

- يا سيدي ما كفايانا من الحكاية دي، ما دام ماشـي معنا كويس؟! يمكن ندم على جريمته وعاوز يصلح نفسه! لازم ياخد فرصة يتحسن... ما تبقاش ماسخ يا "شوقي"! إيه يعني فايدة اننا نفضحه ونعقده منـا وما دام هوه ما بيعملش حاجة ضدنا في المدرسـة، بل انه بالعكس ماشي مع التيار وسابقه كمـان!! ده طول النهار امبارح كان مختفي في المدرسة كأنـه مكسوف من نفسه.. يظهر أن الشيخ حمزة حكى له انكم خدتوا الكتب. وهوه حتى مـش طـايق يقعـد معاكم. فانفجر شوقي خليفة:

- كلام ايه ده يا "عبد الرافع"؟!. هوه هوشك لما وقف أول امبارح في ملعب التنس يقول: يجب أن يعـود سعد ولن نبرح أماكننا إلا علـى أسـنة الرمـاح؟. تقولشي ميرابو يعني!؟ جاته داهية في امه! ده لولا انه عمل كده، كنا فصصنا العيال البيض اللي حاشر نفسه فيهم على طول في حوش التـنس!.. تلاقيـه بيقول علينا: دول واحد صعيدي والتـاني فـلاح، يندحك عليهم!.

وضحك "عبد الرافع".. نعم إنـه يـذكر مـا حـدث أول البارحة.. كان عدد كبير من الطلبة حول "شوقي"، وهو يجمع توقيعات رؤساء الفرق على العريضة، ودخل ملعب التـنس وحوله رئيس فرقة المصارعة ورئيس فرقة الملاكمة فوجـد رئيس فرقة التنس وبعض "أولاد الذوات" ومعهـم "شـوكت عبد الرحيم المغربي".. وكان بعضهم يدخن.. وقدم "شـوقي" لهم العريضة ليوقعوها، وحين وقف رئـيس فرقـة التـنس ليقرأها بضيق، قال له "بجفاء":

- بتقرا ايه.. امضي وخلاص!..

وفجأة وجد "شوقي" العريضة على وجهه ورئـيس فرقـة التنس الذي قذفه بها يقف متحديا ويده فـي خصـره واليـد الأخرى تنفض سيجارة يقتحم دخانها عين "شوقي".. فهـاج "شوقي" فيه قائلا:

- انت فاهم ايه يا قليل الادب.. هـو احنـا خـدامين أبوك! فرد عليه رئيس فرقة التنس ببرود وهو يتقدم اليه بازدراء:

- انت؟! أنا ما ارضاش أشغلك خدام عندي لا انـت ولا أبوك!.

وفي سرعة خارقة، انتزع "شوقي" حذاءه وقذف به رئيس فرقة التنس، فأصابه في كتفه.. وتحرج الموقـف لـولا أن انقض "شوكت المغربي" فوقف بين "شوقي" ورئـيس فرقـة التنس داعيا إلى وحدة الطلبة حول العريضة فقط.. ورئـيس فرقة المصارعة ورئيس فرقة الملاكمـة وبعـض الطلبـة الرباعين من مؤيدي "شوقي" يتهيئون سـاعتها للمعركـة.. والطلبة الآخرون من حول "شوقي" يتحرشون لضرب "شلة" ملعب التنس، ونظرات التحدي تطق من عيونهم بالشرر!!.. ولكن "شوكت" وقف يخطب.. كانت الحركة موفقة.. أنقذتهم كلهم ومعهم "شوكت" نفسه من أيدي طلبة أذرعتهم ملتهبة من الغيظ مستفزين من "شلة" ملعب التنس!

وقال "عبد الرافع" لـ "شوقي" مقاطعا:

- على كل حال هوه برضه قال كـلام كـويس أول امبارح.

فاحتد "شوقي":

- يا أخي بس افهم.. هم خـافوا.. والـواد "شـوكت" عرف يخلصهم منا.. ا .. دول واخدين عالمربيات والكمريرات يا "عبـد الرافـع". دا الواحـد مـنهم

بيرجف لما المربية الخوجاية بتاعته تكـش فيـه.. ايش حال بقى لو واحد جحمرش زي حالتنا مسـكه رزعه كف؟! بقى دول لو ما كانوش خافوا كـانوا سكتوا على أن واحد منهم ينضـرب بالجزمـة؟.. باقول لك خافوا.. وكانوا يسكتوا على ضرب البلغ كمان!..

وضحك الأصدقاء من الطريقة التي يتكلم بهـا "شـوقي"، وكأن صوته وأداؤه وحركات يديه تنبعث من إحساس فـلاح متمرد على فساد مالك كبير..!

وانتزعت الضحكات فكر "سعد داود" من الشرود، فقـال ضاحكا:

- ا ؟!. هو انت في بلدكم يا واد انت يا "شوقي"!؟.. آه يا فلح! هو انت فاكر نفسك فـين يـا واد انـت يا واد؟.. دا انت عملت زي "عبده" بتاعكم.

وضج "شوقي" وهو مستغرق في الضحك هو الآخر، وقال متخايلا بلهجة قريته وطريقة التفكير فيها:

- صل ع النبي يا جدع! حاكم العيال البـيض بتـوع مصر دول كلهم مايعين! ظباء! والنبي أنا ما يمـلا

عيني حد من أهـل مصـر دي كلهـا. لا حـريم ولا رجاله.. مصر كلها حلاوة.. حلاوة بيضة!.. ده اللي بنى مصر كان فـي الأصـل حلـواني..!.. يا حلواني!!.

وخبط "عبد الرافع" كتف "شوقي" من خلال الضـحكات، كأنما يريد أن يسكته حتى لا يغضب "سعد داود" القـاهري، ويدخل معه في مناقشة طويلة حول القاهرة والريف!.

ولكن انطلاق الضحكات بكـل قواتهـا مـن الصـدور، اكتسحت من أعماق "سعد" إحساسه بالضـيق مـن كلمـات "شوقي" التي تعرض بالنساء والرجال في القاهرة، وبالأولاد البيض الذين يخافون من المربيات.. فإن لم توجد المربيات.. آه يا "سعد".. تضربهم الأمهات!!..

وارتفع صوت "شوقي" فجأة:

- لكن دبرونا دلوقت حانعمل ايه بعـد حـل فرقـة التمثيل. طيب والرواية اللـي فـي إيـدنا دي؟!.. "ميخائيل أفندي" بيقول ما يهمكوش بكـره النـاظر يرجع في القرار، وإذا ما رجعشي فنأجر مسـرح بره ونمثل بفلوس! كل الاشـتراكات معـاه وهـو

متبرع بجنيه كمان والباقي يتلم من أعضاء الفرقة!..

فقال "عبد الرافع" بهدوء:

- يا أخي مش دي المشكلة. طب فرقة التمثيل تقدر تأجر مسرح بره، وفرقة الخطابة تعمل إيه؟ والفرق التانية؟ لازم نشوف طريقة نرجع بها الناظر عن قراره!..

وتساءل "شوقي" فجأة:

- أنا عاوز أعرف. اشمعنى جمعية المجلة لم تحل! علشان سي "شوكت" طمعان يبقى رئيس تحرير؟! أنا عاوز أفهم الحكاية دي.. يعني كل الفرق انحلت ما عدا الفرق الرياضية لأنه طبعا لا يستطيع أنه يحلها لأنها مرتبطة بمسابقات و..

فقاطعه "عبد الرافع":

- وأنا أؤكد لك أنه لا يستطيع الاستمرار في حل بقية الفرق! ده إجراء مؤقت لإرهابنا على رأي "ميخائيل أفندي" بكره يرجع الفرق كلها تاني غصب عنه! دي مدرسة مش إمبراطورية!

وقال "سعد" كأنه يفيق من حلم:

- بقى خلاص؟! أنا بكره راجع المدرسة! يا سلام!

ومر الوقت دون أن يشعروا.

وهبطت شمس العصر الفاترة الصفراء وراء البيوت القديمة في باب الخلق، وأخذ لون النهار ينطفئ منها والمغرب يزحف في بطء..

ونهض "عبد الرافع"..

وقام "سعد" و "شوقي"..

ومشى الثلاثة في صمت..

وقطب "عبد الرافع" جبينه وهو يتوقف قائلا في حسم:

- الحكاية بتاعة سرقة "شوكت" للكتب دي يا "شوقي" عاوزين نتكلم فيها جد مرة تانية.. بس خلوها سر.. كلمة شرف نخليها كلنا سر.. على رأي أخوك الدكتور "عبد العزيز" يا "شوقي" انت تعرفه وتحترس منه لكن ما تعاديهشي. دا برضه كان صاحبنا.. يعني كان عامل صاحبنا!

وقبل أن يرد "شوقي" ابتسم "عبد الرافع":

- على فكرة أخوك "عبد العزيـز" ده لطيـف جـدا يا "شوقي".

ودخل "عبد الرافع" في اتجاه شارع الخليج المصري عائدا إلى بيته، و "شوقي" و "سعد" يتابعان سيرهما فـي شـارب درب الجماميز، وفي داخل الـدكاكين أضـيئت المصـابيح والكلوبات..

وزحف إحساس حزين على نفس "سعد" فجأة، فتقلصـت ابتسامته، وصديقه "شوقي" يمشي صامتا بجواره.

الليل يهبط.. بل لم تزل في الأفق بقايا شاحبة من ضـوء أحمر، وفي غير هذا الشارع الضيق، ربما كانـت الشـمس ما تزال تضيء!.. لماذا صنعت هذا يـا "سـعد"؟!.. لشـد ما تشعر بالضيق وأنت عائد إلى بيتـك؟!. أتـواجههم بمـا فعلت.. قل لـ "شوقي" أولا.. ولكن لماذا تشعر الآن بالحزن، وأنت عندما صنعتها لم تكن حزينا؟!. كنت متهيبـا بعـض الشيء، وقلبك يدق، ولكنك في النهاية كنت سعيدا!.. على كل حال أنت لم ترتكب شيئًا تخجل منه.. إنهـا سـاعتك أنـت، قدمت عندك ولم تعد منتظمة كما كانت منـذ ثلاثـة أعـوام عندما اشترتها جدتك.. كان ثمنها إذ ذاك خمسـة جنيهـات،

ولكنك بعتها بستين قرشًا!!.. كان يجب أن يكون معك نقود، فهم الذين حرموك من مصروفك في البيت، حتـى بعـد أن صالحتك أمك.. وأنت مطالب بخمسة قروش اشتراط فرقـة التمثيل، كان يجب أن تدفعها من أول الشهر، وعليـك ديـن للشيخ "حمزة" عشرة قروش أخرى.. مـا الـذي يعـذبك؟!. الناس كلهم يبيعون أشياءهم القديمة!.. ولكن كيف تواجه أمك وأباك وجدتك بهذه الحكاية؟.. وأختك "ميرفـت" وأخواتـك الصغيرات!؟.. الذي يبيع أشياءه القديمة هو السـكير الـذي يشرب الخمر بثمنها ومدمن المخدرات، أو المقـامر الـذي يلعب الورق بأي شيء يمتلكه.. ولكن هذا ليس ضـروريا.. أمك أحيانا تبيع أشياء قديمة وتشتري بها الأطباق من بـائع "السكسونيا" الذي يتردد كل شهر على شارع عزيز فيفـرح أبوك!.. أنت لم تشتر شيئا، ولم تضع نفسك.. كل مـا فـي الأمر.. أنك اشتريت علبة سجاير صغيرة.. علبـة سـجاير مصرية فنحن لا نشتري البضـائع الأجنبيـة.. الطربـوش والكرافتة والحذاء كلها من مصر.. وعلبة السجاير أيضـا!.. ما أجمل أن يدخن الإنسان سيجارة في هذا الجـو الشـاحب المثقل بالأحزان والضياع.. سيفرح "شوقي خليفة" بالسيجارة

المصرية.. لندخن معا أول سيجارة، وكم من أشياء صنعناها لأول مرة، عبد الرافع لا يفهم هذا، وربما أخذ يعظ ويلـوم.. إنه صعيدي جامد الدماغ.

ووضع "سعد" يده في جيبه وتحسس علبة السجاير التي لم يفتحها منذ اشتراها هذا الصباح، وبدأ يسحبها وهو يفحـص كل من يمر بنظراته.. ولكن ضحكة "شوقي خليفة" رنت بلا مناسبة.

وبوغت "سعد" وسحب يده من جيبه بسرعة وتوقف مبتعدا محمر الوجه وهو يتساءل بنظراته. أيعرف "شوقي" فيم كان هو يفكر الآن؟.

وظل "شوقي" يضحك، وتصاعدت مـن خـلال ضـحكة كلمات جاهد طويلا ليجعلها واضحة:

- أما يا واد يا "سعد" حصلت حتة حكاية النهارده في الفصل.. بين الشيخ "علي" والأستاذ "عطا ا ".

واعترضه "سعد" بضيق:

- الأستاذ "عطا ا " مين؟..

فقال "شوقي":

- ا . انت نسيت المدرسة والا ايه.. بليه.. الـزعيم عطا ا .. الأستاذ عطا ا اللي درجه جنب الباب!.

ثم استطرد:

- حكاية تهلك من الضحك.. احنا طلعنـا علـى أول حصة بعد الناظر ما أعلن في الطابور حل الفـرق ورجوعك للمدرسة وخصم درجات من سلوك اللي مضوا على العريضة.. وطبعا عرض شويه كـده بـ "ميخائيل" أفندي والشيخ "علي".. ويظهـر انـه كان احتك بالشيخ "علي".. ما علينا.. المهم.. كـان عندنا الشيخ علي أول حصة والشيخ جاي متعكـر قوي.. وباب الفصل مفتوح طبعـا حسـب أوامـر الناظر زي ما انت عارف.. والواد عطا ا قاعـد جنب الباب. البرد اللي جاي مـن الصـالة كـان جامد.. الواد تعب من البرد، ميل كده وهـو قاعـد على درجة وروارب الباب شويه.. نقره الشيخ على وهو بيوارب الباب.. قام قال له (لا تغلـق البـاب يا أفندي بل اتركه مفتوحا، وابق اسـتأذن قبـل أن تحدث أي تغيير في نظام الفصل).. رد عليه بليـة

بطريقته الزعامية إياها: (طيب اسمح لي أقفل الباب لأن فيه تيار برد شديد جاي من الصالة بيخبط فـي جنبي).. وقام رد الباب ورجع وقعد بهدوء.. الشيخ علي جز على أسنانه وقال له: (اترك الباب مفتوحا كما كان يا ولد!).. عمك بليه وقف بالوقار المعهود وحبك الطربوش على رأسه بدرجة الميل إياها..

وقاطعه "سعد" مرة أخرى بضيق:

- بليه مين بس دي!؟..

وتأفف شوقي من المقاطعة:

- ا ؟!. باقول لك الواد القصير اللي عامـل زعـيم لازم الواحد يقول له يا أستاذ عطا ا .. انت ناسي بلية!؟.. انت سرحان في إيه م الصبح؟!. انت جرى حاجة في عقلك.. ناسي "عطا ا "؟

فقال "سعد" مبتسما وهو يغالب شروده:

- آه!.. الزعيم!!..الأستاذ عطا ا .. عمل ايه!؟. بقى الواد بليه وقع مع الشيخ علي.. دا ما يجيش طـول ركبته..! دا يبقى قدام الشيخ على زي البلية فعلا.. عمل إيه قل لي..

واستعاد "شوقي" حالة الضحك التي تسيطر عليه واستمر:

- أيوه ما أنا باقول لك أهه.. المهم بلية تسـاهل فـي كلمة يا ولد، وفتح الباب.. وبعد شويه والشيخ "علي" محموق في شـرح القواعـد، بليـة طلـب الإذن بالكلام.. الشيخ "علي" صهين.. قـام بليـة وقـف وطلب من الشيخ "علي" انه يغير مكانه أو يسمح له بقفل الباب لأنه مش قادر يستحمل هـوا الصـالة.. الشيخ "علي" برضه ماردش وشـور لـه يقعـد... وبعدين إيه... التفتنا لقينا الواد بلية قام على غفلـة رزع الباب وقفله بالأكرة وقعد مكانه زي الأسد... الشيخ "علي" قطع الشرح وراح له بشـويش كـده وسأله: (ايه يا ولد ده).. بلية قعد مكانه يقول بكـل هدوء: (أولا أنا مش ولد!.. أنا كل الناس حتى كبار السياسيين بيقولوا لي يا أستاذ، ثانيا إذا كنت أنـت عامل حساب للناظر والأمر الصـادر منـه بفـتح أبواب الفصول أثناء الدراسة فأنا أحب أقول لك اني تفاهمت مع حضرة الناظر شخصيا.. أيـوه احنـا تفاهمنا خلاص، سيب الباب مقفول بقى ولا تبـالي

واتفضل كمل الشرح).. التفتنا لقينا الشـيخ "علـي" اتنحنح النحنحة بتاعته اياها ساعة ما بينوي علـى شر، وبعدها لقينا حتة دين قلم نازل يرن على وش بلية!.. قام واقف بكل هدوء. وهز رأسه كده وقـال لـه. (ا ! ا ! ا .. أنـت بتصـفعني؟!.. يعنـي حضرتك بتصفعني على وجهي؟!.. أنا لا أقبلهـا.. وا لا أقبلها.. وا لا أقبلها!).. قام الشيخ "علـي" ساده بقلم تاني.. رد بلية بكل وقار برضه: (ا !.. وتثني بقلم آخر؟).. قام الشيخ "علي" ضربه التالت من سكات. قعد بلية يهز رأسه ويقول له: (ا ا . وكمان تالت وكمان رابع وخامس إلى ما شاء ا !.. أنا لا أقبل!) الفصل هاص وهات يـا خـبط علـى الأدراج بالنغمة بقى: (وكمان رابع وكمان خـامس وكمان سادس).. شوية والناظر دخل وشه أحمـر زي الديك الرومي..

ولم يضحك "سعد" انفجرت شـفتاه ولـم يخـرج منهمـا صوت!.. ودخلا حارة ضيقة تفضي إلـى شـارع "عزيـز"

وظلال المغرب تستلقي على أرض الحارة التي تكاد بيوتهـا المتقابلة تلتقي أمام أعينهم على امتداد البصر..

واستغرب "شوقي" ورنين ضحكاته يرتفـع منفـردا فـي الحارة المعتمة.. مالك يا "سعد"!؟.

صمت "سعد" جعله يقطع الحكاية ويشعر أنهـا سـخيفة، وهي لم تكن كذلك أبدا، فالجميع ظلوا يضحكون منها، وهـو نفسه كان يكتم ضحكاتها كلما تذكرها في بقية الحصـص... وسيضحك منها الليلة أخوه "عبد العزيز" و "عبـد اللطيـف" وحتى "عبده" حين يحكيها لهم على العشاء.. ولكن "سعد" لـم يضحك ولم يتابعها كما ينبغي.. مالك يا "سـعد"!؟.. أتكـون تعرضت لـ "درية" بنت عم شـكري وحاولـت أن تكلمهـا فشتمتك وأنت الآن خجلان من نفسك خائف من مقابلة أبيهـا عم "شكري"!؟.. أضربتك اليوم أيضا؟.. ولكنك كنت منذ قليل ونحن مع "عبد الرافع" منبسط النفس؟!. أتفكر يا "سعد" فـي عودتك إلى المدرسة؟! أنت عائد يا أخي. أعلنهـا النـاظر، وثبت لك أنك لن تهان وفينا عرق ينـبض، وأن الخديويـة لا تستعبد!..

أم أن أمك تشاجرت مع أبيك وقال كل منهما للآخر كلاما لم يعجبك!؟.

مالك يا "سعد" كأنك لا تريد أن تدخل الشارع!... أعرفت شيئًا يشين عن أختك "ميرفت"!؟. أنت تغير لونك حين تكلـم "شوكت" عن بنات مدرسة سان فانسان دي بـول... ولكـن يا أخي في كل مدرسة بنات طيبات وبنات فاسدات... لمـاذا تسيء الظن بأختك؟

وعاد الصديقان يتقاربان في صـمت، ووضـع "شـوقي" ذراعه في ذراع "سعد" ومشيا بلا كلام..

وسحب "سعد" علبة السجاير وفتحها بلا كلمة وقدم منهـا لـ "شوقي"...

وقفز "شوقي" مبتعدا كالملسوع... ثم عاد يقترب من "سعد" مستنكرا:

- إيه ده؟؟! سجاير..؟

ورد "سعد" بهدوء:

وفيها إيه؟.. فقال "شوقي" بصوت رهيب:

- لا. لا... يا "سعد"!.

وأمسك "شوقي" بعلبة السجاير وحاول أن يجد كلاما فظيعا يقوله لـ "سعد" ولكنه لم يستطع أن يقول كلمة...

وبانت الحيرة في عينيه... الحيرة والرجاء وشيء كالدعاء ألا يفعلها "سعد"!..

والتقت نظرات "سعد" بنظرات "شوقي"، وأوشكت الدموع أن تنهل من عيونهما....

وفي صمت تقطعه أنفاسهما أمسك "سعد" بعلبة السـجاير وهرسها بأصابع متشنجة وتركها تقع في الأرض..!

وتابعا سيرهما في صمت... وعلى مدخل شارع عزيـز قال سعد وهو يحني رأسه:

- إذا كنا حانعمل حفلة التمثيل بره فأنا مسـتعد أدفـع تلاتين قرش أو حتى أربعين.. أنا بعـت سـاعتي النهارده!.

وزعق "شوقي" في استنكار وهو يمسك بذراعه:

- بعت ساعتك؟!.. ا . الساعة الذهب؟! ا ! جـرى لك إيه يا سعد؟.

فقال "سعد" ورأسه منكس وهو يحاول أن ينصرف.

- بس ما تزعقشي كده! وأنا يعني كنت أعمل إيه؟!.

وانصرف دون أن يجرؤ على رفع رأسه في وجه شوقي، متعثر الخطوات إلى بيته.. بينمـا وقـف "شـوقي" حـائرا مستغربا.. وأخيرا بدأ يطلع السلالم إلى شقته متهيبا أن يسأله أحد أخويه عن غيابه الطويل.. والليل من ورائه يغمر شارع عزيز تماما!..

(٨)

دس "عبد العزيز" المفتاح في جيبه بعد أن فتح باب الشقة، لم يكد يدخل حتى سمع صوت وابور الجاز يملأ الشقة بالوش، وغناء "عبده" يرتفع ورائحة الطعام والدخان والجاز المحترق تملأ الصالة..

وتقدم "عبد العزيز" في صالة البيت متجهـا إلـى المطـبخ فامتلأت أذنه بغناء "عبده":

داويني وخد مالي

يابا يابا... ما داويني وخد مالي

وابتسم "عبد العزيز" وتمتم لنفسه

- وا الواحد حقه لما يفتح عيادة يحط يافطة مكتوب فيها "داويني وخد مالي".. أيوه "يا عبده".. ازعـق كمان وقل داويني وخد مالي..

واستدار إلى غرفته دون أن يدخل المطبخ، مارا بغرفـة أخويه "عبد اللطيف" و "شوقي"... فوجد كـل شـيء علـى

حاله... كل سرير كما تركـه صـاحبه: الغطـاء متكـوم، والبيجامة ملقاة على سرير "عبد اللطيف" والجلبـاب علـى سرير "شوقي" والشباك لم يفتح بعد ورائحة النوم ما زالـت في الغرفة المهوشة المعتمة.

... أف! ا يلعنك يا "عبده"... لو كانت غرفتي أنا أيضا مازالت كما تركتها في الصباح فمصيبتك سوداء!...

وتوقف "عبد العزيز" على صوت "عبده" الذي ارتفع بشكل ملحوظ مباغت منسلخا من ضجة وابور الجاز يدفع كلمـات ساخطة متلعثمة:

- كده يا ست "ميمي"؟.. بقى كده؟.. تلطشيني بـالكف وتشتميني ع الصـبح و... وتبهـدليني وتخلينـي فرجة؟! قال أنا خدام عند عزاب وما يصحش أخش عندها!؟ طب يا ست "ميمي" ما انتي بتتمحكي فـي العزاب دول؟.. قال خدام قال؟!.. أنا خدام أنـا؟!.. ناس ما عندهاش دم.. عالم ما بتشمش!. معلـش!.. أنا وانت والزمن طويل يا شارع عزيز!.. لكـن... لكن كله منك يا شيخ "عبد الحي"!.. بقى يا راجل.. بقى يا ست "ميمي".. يا نهار أسود!..

ولكنه وجد "عبد العزيز" فوق رأسه يزعق:

- جرى ايه يا واد يا "عبده"؟!.. ايه الكلام ده.. انـت صوتك جايب لآخر الشارع.. انت اتخانقـت مـع الجيران يا وله؟.

فشد "عبده" قميصه المتسخ وأحكم وضـع أطرافـه فـي سرواله الطويل متصنعا ضحكة يداري بها اضـطرابه مـن المفاجأة:

- ا .. يا ألف مرحب.. أهلا حضرة الدكتور.. انـت يعني جيت بدري.. يعني حضرتك جيت بدري.

- فاضل قد إيه على الغدا؟..

وأمسك "عبده" بخرقة وتقدم إلى وابور الجاز وأزاح غطاء الطاسة وقلب ما فيها، والتفت إلى "عبد العزيز" مطمئنا:

- فيها ربع ساعة بالكتير. خلاص.. على ما تقلع..

وعاد "عبد العزيز" إلى غرفته زاهدا في سؤال "عبده" عما حدث بينه وبين "ميمي هانم" ففي كل يوم والثـاني يجـري شيء ما.. المهم أن يفرغ "عبده" من إعداد الطعام.. وسيحكي هو من نفسه كل ما حدث وهم يتناولون الغداء..

ا يلعنك يا "عبده".. لا تفلح إلا في شتم الناس والاهتمام بأمور النسوان في الشارع، وتتوهم دائما أشياء لا أصل لها، ولا ترضي عن أية فتاة هنا، ولا تعجبك علاقة أي رجل في الشارع بامرأته، فكل رجل في الشارع تراه نعجة وكل امرأة في رأيك زائغة العين!.. وأنت تجري وراء بـائع الجرائـد تسأله عن آخر أخبار الثورة في فلسطين وتحلم دائمـا بـأن تذهب إلى هناك لتحارب الإنجليز وترمي بهم في البحر مـن بر الشام كله ومن بر النيل أيضـا، ولا تكـاد تـرى "عبـد المعبود" حتى تلاحقه بالسؤال لتعرف منه آخر ما حدث فـي حرب الحبشة.. فإذا فرغت من كل هذا قعدت تتهجـى فـي جريدة أو في صفحات الكتاب الـذي يعلمـك منـه الشـيخ "عبد الحي".. وبالطبع يا "عبده" لا يمكن أن يكون عندك وقت بعد هذا كله لشغل البيت.. وهناك "ألطاف".. أنـت تخـاف عليها من "سعد"، تراها خسارة في الخدمة وأحسن من كـل نساء الشارع وأحسن من مخدومتها "عديلة هانم" نفسها، وأنت تغار عليها حتى من الباعة، فـلا تتركهـا تسـاوم الباعـة ولا تطيق أن تتلقى غمزة من عين أو يضاحكها رجل، إنمـا تقوم أنت عنها بشراء حاجات كل يوم.. وهكذا نـدفع نحـن

أجرتك، وأنت تخدم "عديلة هانم" من أجل عيون "ألطـاف". ولا تكتفي بهذا.. بل تدور أيضا على "سعاد هانم" و "سميرة" بنت "شكري عبد العال" لتشتري لهما ما تريدان وتضـحكهما بغنائك وتكلمهما عن ثورة فلسطين وحرب الحبشة!.. لعنـة ا عليك يا شيخ.. الساعة الآن الواحدة والنصف وأنت لـم تخلص من المطبخ، ولم تنظف إلا حجرتي أما بقيـة الشـقة فهي كما تركناها في الصباح.

***

وأغلق "عبد العزيز" خشب شرفة حجرته التي تواجه بيت "شكري عبد العال" بكل سكانه، وتكاد النظرة – غصبا عنه – تنغرس في حجرة "درية" و "سميرة" حيث قعدت "درية" الآن.

كم أنت شائقة يا "درية"!!.

وخلع ملابسه، ولبس البيجاما، وفتح الدولاب يضـع فيـه البدلة، وألقى نظرة على مجموعة الكرافتـات التـي يعنـى باختيارها ثم زعق فجأة ينادي "عبده".. ولكن "عبـده" كـان يقف وراءه يحاول أن يتكلم ورأسه محمـل بأسـئلة عديـدة لا يعرف بأي واحد منها يبدأ.. ومن كل الأشياء التي تمـلأ رأسه اختار أن يسأل "عبد العزيز":

- ألا النجاشي هو اللي أعفى ولا موسوليني؟ يعنـي مين فيهم اللي يغلب التاني؟.

ولكن "عبد العزيز" أمسكه من كتفه في حنق:

- فين يا واد يا عبده الكرافتة الجديدة؟.

فأجابه "عبده" بسرعة خاطفة ليعاود الحديث الذي بدأه:

- لبسها الأستاذ "عبد اللطيف".. لكن يعني.. "الـ رأس كاسا" ده هو والجيوش بتاعته يقدروا..

فصاح "عبد العزيز" في ضيق:

- "رأس كاسا" إيه جاك خابط في رأسك.. قولي لـي وما توجعش دماغي بالنجاشي وموسـوليني.. قـل لي.. "عبد اللطيف" لبس الكرافتـه؟.. انـت شـفته لابسها.. انطق.

فرد "عبده" بنفس عدم الاكتراث ليعود إلى كلامه الذي لم يكمله:

- أيوه.. شفته.. لكن.. يعني.. اللي عاوز يتطوع في الحبشة يعمل إيه؟.... أنا اتطوعت في فلسطين لكن بيقولوا ان الحكومة قطعت السكة... الإنجليز خلـوا

الحكومة تقطع السكة، داهية لما تقطعهم من البـر كله.. لكن آهي السكة سالكة ع الحبشـة.. وآهـم سايبين اللي عاوز يروح يروح...

وتلعثم قليلا، ثم انفجر متحمسا:

- دهدي يا دكتور.. ما أروح أنا وأخاص يعني نسيب الحبشة وحدانية كده قدام إيطاليا..

ونفخ "عبد العزيز" وهو غير ملتفت تماما لكلام "عبده":

- هو الواحد ما يعرفش يتهنا على كرافته والا علـى منديل في البيت ده؟!. الحاجة اللي تفلت من "شوقي" يلقطها "عبد اللطيف"!. ا يخيبكم!..

وفتح خشب الشرفة فتدفق شعاع هادئ من شمس نوفمبر، يغمر بدفئه البساط الذي يمتد على أرض الغرفـة بحمرتـه الداكنة المنقطة بالسواد.. ولمح "سعاد هانم" تقف في شرفتها تجاهه في فستان أسود قصير الأكمام وإلى جوارهـا ابنهـا الصغير يقضم رأس جزرة، وبنتها تجري على بلاط الشرفة، وهي تنظر في الأفق الرحيب المطعم بالشمس كأنها تستصفي ما فيه من دفء.. وتردد "عبد العزيز" قليلا قبـل أن يـدخل

شرفته.. ستدخل هي وتحرم نفسها من الشمس لو أنه دخـل، فهي ليست كـ "ميمي".

ورفع عينيه.. وبان له القميص التحتي يخفق على ساقين بديعتين!.. وسحب "عبد العزيز" نظاراته بسرعة، وأغمـض عينيه متحرجا، ثم استدار إلى الداخل، واستلقى على سريره يتأمل الشعاع في الحجرة، ولم يعد يرى أمامه غيـر سـماء صافية تغمر الشمس الدافئة زرقتها المشربة بالبياض.

لم يتصور أبدا أن لـ ـ "سـعاد هـانم" هـاتين السـاقين الجميلتين.. لم ير ساقيها أبدا.. لا.. بل رآها أكثر من مرة.. رأى ساقيها وصدرها وكل بدنها عاريا تماما.. وأمسك بيـده كل جزء في صدرها ووضع عليه سماعته الطبية.. لم يشعر وقتها بأنه بدن امرأة!!.. ولربما رآه غدا ولم يشـعر أيضـا بفتنته الأنثوية.. ولكنه الآن – على هذا البعد – يشعر بما في هذا الجسد من كنوز!..

ولكن.. لا!.. شرف المهنة يا دكتور!.. لا تسـتعد فـي خيالك صور أشياء لم تكن لتراها وتتحسسها بيدك لو لم تكن طبيبا!! مسكينة هذه السيدة المنكسرة التائهة النظرات.. ليـت "شكري عبد العال" يتزوجها ويستريح فهي في صمتها تعيش

في تعبد دائم له.. أنا أعرف! وهي أيضا تبدو زوجة طيعـة مريحة.. ولا أحد ينفع "شكري عبد العال" مثلها. إنها تقـف الآن في صمتها تنتظر هلة "شكري" على الشارع.. ولا شيء يمكن أن ينبعث منها غير أنفاس هادئة، ودقات قلب تزلـزل بدنها الدقيق النحيل.. ما أشد الشبه بينها وبين "درية" بنتـك يا "شكري".. هي أيضا لها نفس النظرات التائهـة العميقـة الحزينة، تخجل من كل شيء حتى ليخيل للإنسان أنها أحيانا وهي سائرة في الطريق تشعر بخجل من نهديها المتـرعين البارزين، وكأنها تنحني لتداريهما من العيون.. ولكن "درية" طويلة فارعة تعمر حياة بأسرها.. وفي "درية" شيء ما مـن "ميمي".. فيها نشاطها المتوفر المنطلـق كالأنهـار الجديـدة المتدفقة.. ولكن لا لا.. فلا أحد في كل بنات الشارع ونسائه له مثل حيوية "ميمي".. وجرأتها!.. الشعنونة الحلوة.. كـان الولد "عبده" وأنا داخل يقف في المطبخ هائجا يكلـم نفسـه ويشتم "ميمي".. كان يشتم "ميمي" و "أمين أفندي".. والشـيخ "عبد الحي".. ما دخل الشيخ "عبد الحي".. ما أدخلـك أنـت يا "عبد الحي"؟!..

وتقلب "عبد العزيز" في فراشه ونادى:

اسمع يا عبده..

ورد عليه "عبده" من بعيد:

- لما اخلص من الأوده اللي في ايدي.. دقيقة واحدة.

ولم يلح "عبد العزيز".. "عبـده" هـذا كأبيـه تمامـا يـا عبد العزيز! أبوه في البلد يتكفل بالبهائم عند أبيـك "الحـاج خليفة" ويحسب نفسه واحدا من البيت، وهو لا يتقاضى هناك أجرا، وإنما يزرع من أرضكم نصف فدان لحسـابه نظيـر عمله هو في البلد وعمل ابنه "عبده" في مصـر.. و "عبـده" فوق هذا يتقاضى منكم أجرا خمسين قرشـا فـي الشـهر.. لا يصرف منها شيئا!.. وهو لهذا مليء دائما، وأحيانا يقرض الشيخ "عبد الحي".. يا ترى ما الذي حصل اليوم من الشـيخ "عبد الحي"؟..

وتحرك "عبد العزيز" من فراشه بعد قليل.. وعندما أخذت أصابع قدميه تتحسس مكان الشبشب تحـت السـرير، كـان "عبده" يدس الشبشب في قدميه.. والكلمات على شفتي "عبده" تدحرجها ضحكاته المكتومة وهو قاعد على البساط:

- اسكت اسكت.. الشيخ "عبد الحي" بينقهر قوي لما أقول له يا شيخ "عبد الحي".. أنا عارف أقول له إيه أمال؟.. أقول له يا خواجه؟!

فأجابه "عبد العزيز" متسليا:

- قل له يا سيدي.

وهز "عبده" رأسه متحرجا مضطربا في استكبار:

- حضرتك عارف اني ما بقولشي لحد أبدا كلمة يا سيدي دي.

وابتسم "عبد العزيز" وهو ينظر إلى "عبده" بعطف كبير ونوع من الاحترام.. مسترسلا في أفكاره.. "عبده" هذا تربي معهم.. جاءوا به من البلد وهو غلام منذ أكثر من عشرة أعوام.. وأوصاهم أبوهم أن يعاملوه كواحد منهم، وأنب "عبد اللطيف" يوما لأنه سمعه يناديه "يا ولد".. وأفهمهم أن "عبده" هذا قريبهم، وأنهم هم و "عبده" يلتقون عند أحد الجدود.. وحذرهم من إذلال الفقراء الذين يخدموننا فهذا شيء لا يليق بأولاد الناس الطيبين.. وذكرهم أبوهم إذ ذاك أنه يأكل أحيانا على صينية واحدة مع الرجال الذين يشتغلون له ويخدمونه.. وظل يروي لهم أحاديث عن النبي ووصايا

الإمام علي بن أبي طالب وسيرته مع الذين لم يوسع عليهم في الرزق..

وفي الحق أن "عبده" كان يتعامل مع "عبد العزيز" وإخوته كأنه واحد منهم، مسئول عنهم.. فهو يعرف ما في جيب "عبد العزيز" أكثر مما يعرف "عبد العزيز" نفسه.. وهو يقف معهم في ساعات الطعام يسمع أحاديثهم ويشترك معهم ويعلق على الموقف السياسي، "شوقي" هو الآخر يخرج معه أحيانا إلى السينما الأهلي في "السيدة زينب" ويحكي له كثيرا مما يحدث في المدرسة، و "شوقي" هو الذي اشترى له من مصروفه الخاص كتاب القراءة الرشيدة وأقنع "عبد الحي" بأن يعلمه.. وكثيرا ما يترك "شوقي" المذاكرة ليسمع إلى "عبده" وهو يقرأ ويصحح له قبل أن يذهب إلى درس "عبد الحي"..

وأخذ "عبد العزيز" يتأمل "عبده" القاعد أمامه على البساط، وفمه مفتوح على ضحكة لم تنقطع بعد وهو ما زال يردد:

- هي قولة الشيخ دي تزعل؟.. طب يا خواجه "عبد الحي".. يا مستر.. هه!

وتكسرت ضحكاته، ولمعت عيناه الضـيقتان العكرتـان، ومسح أنفه الأفطس بظهر يده، وهو يتأمل "عبـد العزيـز" يخطو في حجرته متجها إلى الشرفة متسائلا:

- فاضل معاك كام من مصروف البيت يا "عبده"؟

وقال "عبده":

- مستورة!.. لكن.. هي الحوالة بالفلوس ما وصلتش من البلد؟.. ما تشد تلغراف للبلد تستعجل الحوالة؟..

وأجاب "عبد العزيز":

- النهارده ما لحقتش أصرف الحوالة وبكره الجمعة.. على كل حال اعمل حسابك توضـب بكـره غـدا كويس.. أخوي أحمد جاي من أسيوط.. حا يسـتلم خلاص في دمنهور.

ونط "عبده" فرحا وهو يهتف:

- ا .. الباشمهندس جـاي؟!. يـا ألـف مرحـب.. ما تحملش هم، حانزل العصر اشـتري وزة مـن سوق السيدة زينب.. اسمع يا حضرة الدكتور.. أنا حاروح معاه دمنهور.. آه.. يشغلني موظـف فـي الهندزة عنده. أنا طهقت من الشارع ده. قال خـدام

عند عزاب قال.. لما انتي حرة كده قوي يـا سـت ميمي أمال ليه يعني "أدهم بيه" كان قاعد عند "عديلة هانم" امبارح في وسط الحرين زي جحش البنـات والدحك يبرن وديل الدحكة بتاعتك انتي يـا سـت ميمي جايب من هنا لبلادنا؟ هه؟ والرقص والمغنـى أشكال وألوان؟!.. جاتكو شوطة تلمكم يـا نسـوان مصر.. عاملين بتوع قوي..!

واستوقفه "عبد العزيز" وهو يكتم ضحكه ليبـدو جـادا.. وحاول أن ينهره ولكن "عبده" تحـرك وراءه بضـيق، ثـم توقف.. وتعثرت الكلمات على شفتيه كأنه يريـد أن ينفجـر بشيء يضايقه:

- بقى الست "ميمي" دي لازم حضـرتك.. يعنـي.. يصح كده تشوف لها حل.. أنا ما أقـدرش أصـبر على دي الحال.. أنا يعنـي خلقـي ضـاق.. ا .. بتضحك ليه يا حضرة الدكتور.. إيه يا أخويـا ده.. دي ضربتني بالكف. وبتضحك كمان يـا دكتـور؟ بقى لو حد في البلد داس لابـوي علـى طـرف.. حضرة العمدة حايضـحك ويـأرا زي حضـرتك

دلوقت!.. والنبي دا كان يوريه نجـوم الظهـر!.. ما هو يا إما تكلم جوزها يا إمـا بقـى أنـا مـش حاسكت لها!.. حاتقولوا ضرب ولية! طب وماله...

وظل "عبد العزيز" يضحك ولم يقل شيئًا و "عبده" مغـيظ يخبط كفا على كف.. وفمه مفتوح.. وعاد يكمل وعيناه فـي الفراغ:

- اك حق تدحك يا دكتور.. ما هو أنا خلاص بقيـت ماطشة للست "ميمي".. لكن أنا اللي سكت.. هو أنا أفندي من بتوع مصـر يـتلطش بـالكف ويقـول مرسيه!.. لكن كله منك يا شيخ "عبد الحي".. انـت اللي لازم تاخد بحقي.. كله بسببك.. دا أنا.. إيه ده؟ دا أنا مرسالك يا شـيخ عبـد الحـي.. دي كأنهـا ضربتك انت.. دا أنـا لسـه بـاقول لهـا الشـيخ "عبد الحي" بيسلم عليـك وبيقـول لـك.. قامـت مناولاني بالكف. ما تفهمه يـا حضـرة الـدكتور. أروح أنده له لاجل ما تفهمه!

وأجابه "عبد العزيز" وهو يتجه إلى الشرفة كاتما ضحكه:

- طب.. بعدين..

ووقف في شرفته تحت أشعة الشمس الدافئة.. "سعاد هانم" مازالت واقفة – لا تشعر بوجـوده – وعيناهـا علـى أول الطريق!.. بعد قليل يهل "شكري عبد العال".. يا سـاهية!.. هو أيضا يتلكم عنك بإعجاب، ولكنه لـيس متحفظـا معـي مثلك!.. لن يطول قلقك فالموظفون بدءوا يعودون.. نحن في أوائل الشهر.. وها هو ذا "داود أفندي".. إنه لا يعود بحزمة الفجل المعتادة فقط، وإنما يحمل معه أيضا في اليد الأخـرى كيسا كبيرا من البرتقال.. احترس يا "داود أفندي".. وقعـت منك برتقالة كبيرة!.. يا فرحتك يا "عديلة هانم" بزوجـك!.. لا تبصق على الأرض الآن يا "داود أفندي" فمـا حبكـت!.. وقعت برتقالة أخرى.. لا تمـل لالتقاطهـا والكـيس علـى صدرك.. انفرط البرتقال كله على الأرض!.. "سـعد" ابنـك عاد إلى المدرسة، ونجا من فضيحة ضربه أمام التلاميـذ.. لم أنت البرتقال لم.. أو ناد "ألطاف" تسـاعدك.. لا.. أنـت مرتبك.. انزل يا "عبده" أنت.. انزل بسرعة.. سـاعد "داود أفندي" واحمل عنه البرتقال، ولكن إياك أن تتماحـك هنـاك بألطاف، وتغيب.

ونزل "عبده" مسرعا.. و "عبد العزيز" واقف في الشـرفة عيناه على مدخل شارع عزيز يرقب القـادمين.. "شـكري" يعود هو الآخر.. طويل عظيم مهيب أنت يا "شكري"!!. في جيبك الآن مرتب كبير، مرتب ضابط في الخدمة قبضته على شوق وحرقه!.. أنت الآخر في يدك كيس.. كيس تفاح بـلا ريب.. أو موز على الأقل.. "سعاد" الآن ليست في الشـرفة لتراك.. ربما التقطتك نظراتها الساهية من بعيد، فـدخلت!.. عيناك تحملقان إلى أعلى.. بنتك "سميرة" تطل مـن الشـباك وإلى جوارها "درية".. ما ألطفك يا "درية"!! فرحـة الحيـاة تشرق في وجهك الصافي الحزين، وتتألق بها عيناك.

وانتبه "عبد العزيز" مضطربا على شـباك تحتـه يخـبط الجدار بقوة أثناء فتحه.. تطل منه رأس كبيرة في طاقية من الصوف الأبيض:

- ا ! "عبد الحي" ا يخيبك..

وأطلق عبد العزيز ضحكة عالية.

ولوى "عبد الحي" وجهه المكتنز في ضيق واضح بكـلام "عبد العزيز" وضحكته.. وسعل قليلا كأنه يداري اضـطرابه

والابتسامة تحاول أن تشق طريقها إلى وجهـه المشـمئز.. وتأمل "عبد العزيز" فيه:

- مالك!؟

وقطع "عبد الحي" سعاله قائلا بضيق:

- أصلى مستهوي شويه النهارده.. هو الواد "عبـده" قال لك حاجة؟..

وضحك "عبد العزيز" وارتفع صوته:

- مستهوي؟.. هو أنت يحوق فيك هوا أو برد؟..

وابتسم "عبد الحي" متضررا..

وتابع "عبد العزيز" كلامه بصوت منخفض وهو ينحنـي من الشرفة:

- مستهوي والا قاعد تذاكر فـي المنـادى وتـرخيم المنادى وسعا وسعادا والحاجات دي؟ لكن انت ايش حشرك في "ميمي".. طب دي ما وردتش في ألفيـة ابن مالك.. كنت بتقولها إيه.. ميم.. ما هي مترخمة خلقة..

وطقطق "عبد الحي" واحمر وجهه قائلا بضيق ملحوظ:

- يا أخي ما تبقاش هزلي على طول كده فـي كـل حاجة!!. وبلاش نهـزر فـي الحاجـات دي.. دي حكاية طويلة.. ويعني.. وكانت حاتقلب بغم!

وفجأة وقعـت نظـرات "عبـد العزيـز" علـى أخيـه "عبد اللطيف" مقبلا مع "أمين أفندي" من أول الشارع.. فقال لـ "عبد الحي":

- شوف.. "أمين أفندي" أهه جاي مع "عبد اللطيف".. مش فاهم "عبد اللطيف" نازل دش معاه في إيه؟! إيه بـس الحـديث اللـي ممكـن يجمعهـم.. تلاقـي "عبد اللطيف" بيخطب له فـي السياسـة و "أمـين" ولا هو هنا!.. والا يمكن بيصبره على أجرة الشقة المتأخرة.

وفتحت "ميمي" باب الشـرفة، وتقـدمت إلـى الحـاجز الحديدي، على كتفها جاكته من الصوف الأخضـر الفـاتح تمسك طرفيها بيديها، ونحرها الناصـع يخطـف البصـر، والقميص الحرير ينسدل في نعومة على جسدها.. وعنـدما استقرت أمام حاجز الشرفة الحديدي التفتت إلى "عبد العزيز"

برقة شديدة وهي تضم شفتيها الدسمتين لتضيق فمها الواسع.. ونفضت شعرها بأناقة وفي عينيها ابتسامة:

- بونجور يا دكتر..

وابتسم "عبد العزيز" وحياها برأسه.. ثم مال من الشـرفة قائلا لـ "عبد الحي" من تحته:

- ادخل انت يا "عبد الحي" واقفل الشباك كويس أحسن تستهوى أكتر.. وإلا الحكاية تقلب بغم صحيح!

ولم يجب "عبد الحي".. وزم شفتيه مهمهما:

- دهدي؟ انت حاتعملني مسخة والا ايه!.. مسـتهوي مستهوي .. أنا حر! أستهوى والا اتنيل بنيلة!

وتحركت "ميمي" فـي شـرفتها وأدارت وجههـا إلـى "عبد العزيز" وهي تلم الجاكتة الصوف وتحكم إغلاقها بيـد من على نحرها، ويدها الأخـرى تلـوح برشـاقة فائقـة، وأصابعها النحيلة الرائعـة الرقيقـة الأنامـل تشـير إلـى "عبد العزيز" أن يقترب.. ثم همست:

- أنا يا دكتر عندي شكوى من الواد "عبـده" الخـدام بتاعكم والشيخ "عبـد الحـي" ده.. دا مفـيش ذوق خالص.. أنا منتظرة بس لما ييجي لفندي بتاعي!

ولم يعلق "عبد العزيز"، ورأى "عبد الحي" يختفـي مـن الشباك ويغلقه بضيق.. فضحك.. وأخوه "عبد اللطيف" يتقدم الشارع إلى جوار "أمين أفندي" وترددت نظراته بين "ميمي" بوجهها الجميل المتألق، وبين زوجها الذي ينقل خطاه البطيئة في الشارع مثل كيس القطن، إلى جـوار "عبـد اللطيـف" الطويل الفارع!.. ولمح نظرة غريبة سريعة تفلت من عيني "ميمي" إلى عيني "عبد اللطيف"! الولد "عبد اللطيف" منظـره وجيه في الكرافته الجديدة!! وهي في الحقيقـة لائقـة علـى بدلته.. وانت يا "أمين أفندي" بجواره مثل كاتب محـام مـن الريف إلى جوار محام قاهري كبير أنيق!.. معذورة "ميمـي هانم" لو زاغت عينها الآن إلى الولد "عبد اللطيف"!.. لمـاذا يا "أمين أفندي" لا تهتم بمظهرك، ومرتبك محترم؟! الكرافتة على صدرك مقلوبة مبرومة ناحلة، بفتائل، كحبل ناسل مـن التيل!

ويدك أيضا فارغة.. كل الرجال في الشارع عادوا إلـى بيوتهم وأيديهم ملأى!.. نحن في أول ليلة جمعة في الشـهر يا بغل!!.. "ميمي هانم" في أتم زينتهـا لـك منـذ الآن؟!..

غريبة!.. فيم تتكلم هكذا بحماسة يا "أمين" و "عبد اللطيـف" يصغي إليك بإشارات أنيقة والكرافتة تضيء على صدره..!

واقترب "عبد اللطيف" و "أمين"، فزعق "عبـد العزيـز" ساخرا:

- أهـلا وسـهلا.. الكرافتـة دي شـيك خـالص يا "عبد اللطيف"... جايبها منين.. دا أساتذتك مـش لابسين زيها!!

ودوت ضحكة خشنة من الشرفة من وراء "عبد العزيز"، اختلطت بضـحكة "ميمـي" الناعمـة الخافتـة... والتفـت "عبد العزيز" فوجد "شوقي" أخاه يقف إلى جانبـه... دخـل الشرفة دون أن يشعر هو... وقال "شوقي" ناظرا إلى أخيـه "عبد العزيز" بعتاب:

- أنت حاتخلي الواحد منا يحرم يهوب ناحية دولابك.

وتطلع "عبد العزيز" من – حوله فوجد "ميمـي" تـدخل، وعاد إلى الصالة ينادي "عبده" ويطلب منه أن يسرع بإعـداد الغداء.. ولم يجب "عبده" فصفق "عبد العزيز":

- الواد "عبده" راح يلم البرتقال بتاع "داود أفندي" لازق هناك جنب "ألطاف"... ا يخيبك يا عبده..

ورد "عبده" من المطبخ ضاحكًا:

- دهده.. طب وماله؟..

ثم استطرد عبده:

- أنا باغرف أهه... أتفضلوا اقعدوا بس... هو يعني سي "عبد اللطيف" جه؟..

وسحب "عبد العزيز" كرسيا من الصالة وقعـد... وهـو يزعق لـ "عبده":

- أهي الحكاية طبلت على دماغـك أنـت والشـيخ "عبد الحي" بتاعك.. أهي "ميمـي" اشـتكت لـي.. تقولشي أنا ولي أمر سي "عبد الحي" ده كمان؟

وأكمل لنفسه وهو يغالب الضحك:

- الحكاية قلبت بغم صحيح يا شيخ "عبد الحي".

وترك "عبده" المطبخ، وأقبل مسرعا:

- طيب نعمل حق عرب والمحقوق منا يدفع خمسـة جنيه وينضرب قدام الرجالة.. إذا كنت أنا محقـوق أنا قابل الحق علـى رقبتـي ومسـتعد للضـرب بالمركوب كمان.. وإذا كانت الست "ميمي" محقوقة

خلي جوزها بقى يورينا المرجلة.. يقر بالحق ويدفع الخمسة جنيه ويضربها علقة الحق ويخليها تنحـق لي!.. قلت إيه بقـى؟... مـا تقـول يـا حضـرة الدكتور!..

وقام "عبد العزيز" يفتح باب الشقة لأخيه "عبـد اللطيـف" الذي وقف يدق الجرس بصبر نافد، ووضع يده على أكـرة الباب وهو ينهر "عبده":

- انجر يا واد حضر الغدا بلاش كلام فارغ... حـق عرب إيه يا أخويا!. جاك كسر حقك... هـو أنـت حاتعمل رأسك برأس "ميمي".

وانسحب "عبده" إلى المطبخ وهو يزم شـفتيه ويضـرب الأرض بقدمه في عصبية:

- وماله؟! وفيها إيه يعني؟!..

وانطلق "عبد اللطيف" إلى حجرته متأففا من تركه علـى الباب يقرع الجرس، ودخل مسـرعا إلـى حجرتـه فخلـع طربوشه وجاكتته وعاد يقعد فـي الصـالة وعينـه علـى "عبد العزيز":

هو أنت يا "عبد العزيز" يا أخي لازم تعمل لي هليلة فـي الشارع علشان لبست كرافتتك... لازم تجيبني بزفة وفضيحة من أول ما أحط رجلي في الشارع؟.

وابتسم "عبد العزيز" وهو يمد إليه يده باستعجال:

- طب بس اقلع الكرافتة اقلـع... علـى كـل حـال الجماعة ما خدوش بالهم لا منك ولا من الكرافتة... "ميمي" دخلت قبل ماتشوف الكرافتة... حاسب وانت بتقلع الكرافتة... بقى دي ربطة دي؟... يـا أخـي اتعلموا تربطوا الكرافتات...

وابتسم "عبد اللطيف" من إشارة "عبد العزيز" إلى "ميمي" وسلمه الكرافتة قائلا وهو يكتم ابتسامته:

- بس يا "عبد العزيز" ما يصحش كـده لمـا يكـون الواحد ماشي يكلم في موضوع مهم مع الناس.

وقاطعه "عبد العزيز".

وهو يقوم إلى حجرته ممسكا الكرافتة بعناية:

- ناس؟... ناس مين؟ هو "أمين أفندي" دا ينقال عليه ناس!.. يعني كنت ماشي مـع رئـيس الحكومـة يا أخي.. واللا أنا تعني ضيعت هيبة الزعامـة؟...

ثم يعني لما أنت عاوز تعمل لي محتـرم ووقـور قوي كده في الشارع، إيه اللي يخليك تلاطش منـي الكرافتة قبل ما ألحق ألبسها غير لبسة واحـدة؟!... إذا كنت أنا خايف ألبسها... طيب يا أخي سيبها لما ألبسها تلات أربع لبسات... وأنت يا واد يا "شوقي" حل عن الكرافتة اللي أنت لابسها دي بقى... أنـت هريتها!

وضحك الجميع و "عبد اللطيف" يتمتم وهو يمشـي وراء "عبد العزيز":

- ده "أمين أفندي" ده حمار بشكل!..

ثم أكمل ضاحكًا مكررا إحدى الجمل الشائعة من روايـة للريحاني وهو ينغم الحروف:

- ده فصيح بشكل... أنا مش فاهم واحدة مثقفة وبتقرا زي "ميمي" دي عايشه معاه ازاي... ده ما يعرفش حاجة أبدا غير الأكل والنوم!. ويوم ما يفكر قـوي يفكر في المرتب بعد المعاش!

أطلق "عبد العزيز" ضحكة ذات مغزى خاص:

- لا.. دا هو يعرف في الأكل بس... ايش عرفك أنه بيعرف في النوم!

ورفع "عبد اللطيف" حاجبه غامزا:

- طيب نسأل "ميمي"؟

وخرج "عبد اللطيف" و "عبد العزيز" إلى الصالة، بينمـا كان "عبده" و "شوقي" يزحزحان المكتب القديم الملقـى فـي ركن الصالة ليحولاه إلى مائدة طعام. وعندما توسط الصالة تماما رصت حوله الكراسي الخيزران وفرش "عبده" فوقـه المشمع ووضع الطعام وهو يقول.

- المشمع ده داب خالص يـا حضـرة الـدكتور... عاوزين مشمع جديد بقى.

وبدأ الإخوة الثلاثة يأكلون ورائحة المشمع تمـلأ أنـوفهم مختلطة برائحة الأرز واللحم والخضر، ويد "عبـد العزيـز" تتحسس الأجزاء المكشوطة الناحلة من المشمع ونظراته شبه حالمة، وهمهم:

- لما أتخرج وأشتغل حاجيب أودة سـفرة بحالهـا... ترابيزة بكراسي بمشمع بكله، ونحل عـن مكتبـك يا سي "شوقي"!...

وتدخل "عبده": والنبي يا حضرة الدكتور لما تشتغل تجيب مكتب جديد لسى "شوقي".. وتشوف لنا شقة جديدة كده فـي الحلمية والا في ميدان السيدة جنب الست الطـاهرة.. شـقة تبقى منها عيادة ومنها بيت وأنا أشتغل لـك تمرجـي!.. أي وا .. وربنا يتوب علينا من شارع عزيز ده!. طيب وأيمان المسلمين يوم ما نفتح عيادة بره لو حد هوب من الشـارع ده ناحية العيادة.. القصد. لازم أدفعه أجرة الكشف. حاخد منـه أنا بنفسي أجرة الكشف. وأتحكم كده على كيفي. أدخل اللـي يعجبني و.. و.. أكرش اللي.

وارتفع صوت "عبد العزيز" يغمر كلمات "عبـده" التـي بدأت تتعثر:

- ألا قل لي يا "شوقي".. عملتوا إيـه النهـاردة فـي العرايض اللي قدمتوها علشان إعادة الفرق؟! انتـوا مش حاتبطلوا عـرايض بقـى.. وألا اسـتحليتوا العرايض من يوم ما نجحت العريضة اللي كتبتوها علشان "سعد".. تعرف.. وا النـاظر بتـاعكم ده ما عملشي حاجة أحسن من إلغاء فرقـة التمثيـل.. السنة اللي فاتت كنت حاتقع فـي الامتحـان مـن

انشغالك في التمثيل.. والسنة دي ألعن!... داخل لي في التمثيل والخطابة والمجلة... وترجع من المدرسة المغرب!... وحتى يوم الخميس راجع لي الساعة اتنين... انتوا مش خارجين الساعة اتناشر؟...

وتدخل "عبد اللطيف" يرد عن أخيه الأصغر، كأنه مسئول دائما عن الدفاع عنه أمام "عبد العزيز":

- لأ يا عبد العزيز لأ.. دي مسألة مبدأ.. ما تقولش انهم غلطوا في العرايض يا راجل!!. الناظر متعنت في إلغاء الجمعيات دي طبعا!.. ثم إن "شوقي" يعني يقدر بشوية مجهود يوفق بين المذاكرة وبين نشاطه في الجمعيات دي، أنا رأيي ان "شوقي" يستمر في نشاطه المدرسي.. وأنا أؤكد لك ان الناظر حايرجع الفرق تحت ضغط الطلبة... شوف.. الجو مشحون دلوقتي واحنا على أبواب ١٣ نوفمبر عيد الجهاد الوطني... ومش من مصلحة الناظر انه يستفز الطلبة في الظروف دي!... سيب "شوقي" يا "عبد العزيز" ما دام بينجح.. دي كلها حاجات

تكون شخصيته... ثم يعني احنا واحنا قده ما كنـا بنعمل كده واكتر.. انـت وانـت فـي الخديويـة ما انطردت في مظاهرات سنة ١٩٣٠ وكنت فـي فرقة التمثيل وكنـت حـاتحترف!.. لا يـا "عبـد العزيز". لا. لازم. ما تضعفشي معنويته كده. ده..

ووقف "عبد العزيز" منتهيا مـن الطعـام مشـيرا إلـى "عبد اللطيف" بيده:

- طيب كفاية.. كفاية.. حاسب حاسب.. هي مرافعة.. انت حاتعمل محامي علي يا وله!... تقول لي شرق وغرب.. انت أتكلمت في خمسين موضـوع فـي وقت واحد...

وضحك "عبد اللطيف" وأخذ يأكل على مهل، وعيناه على "شوقي" الذي قعد يمضغ اللقيمات شـارد الفكـر.. ونفسـه تجيش!

إن "شوقي" يشعر باضطراب أمام أخويه... لم يعجبه فـي "عبد العزيز" موافقته علـى أن يلغـي النـاظر الجمعيـات المدرسية... حتى إن كان الاشتراك في بعض هذه الجمعيات يأخذ من وقت المذاكرة فليس هذا على أية حال هو ما جعـل

الناظر يحلها... وليس من اللائق أن ترحب يا "عبد العزيـز" بقرار كهذا.. "عبد اللطيف" وحده هو الذي يقدر الأمر.. أنت يا "عبد العزيز" تنسى بسرعة يوم كنت طالبـا مثلنـا فـي الخديوية.. كنت تحكي لأخيك الأكبر "أحمد" عما يحدث فـي المسرح، وكنت تحكي لأمك في البلد، ومازلت تتـذكر يـوم مثلت دور قائد روماني، وجاءوا لكم بطعام فاخر وكثير فـي مشهد المائدة، وكان ينبغي أن تأكل لقمة صغيرة وتقوم بعـد أن يفاجئك قائد آخر بكلام خطير، ولكنك قعدت تأكل حتـى أنهيت نصف دجاجة محمرة!.. كان لفرقة التمثيل بالخديويـة صيت ومجد قديم.. وكان "عزيز عيد" يختار منهـا الوجـوه الجديدة ويدفع بهم إلى أدوار البطولة، والخديوية هـي التـي قدمت شهيدا رائعا إلى مسرح "فاطمة رشدي"!... كان جميلا فتيا باهر الطلعة.. عندما يظهر على المسرح يصـفق كـل الناس إعجابا بطلعته... غير أن الناظر يحل الآن هذه الفرقة وفرقتي الخطابة والموسيقى!!. وهو عنيد هذه المرة أكثر مما كان يوم طرد "سعد" من المدرسة! ولكن العريضة التي قدمها إليه الطلبة مطالبين بإعادة الفرق، هي في الحق أقـوى مـن العريضة التي قدمت لإعادة "سعد".. وعلى العريضة الأخيرة

توقيع مدرسين غيـر أن المـؤلم حقـا أن النـاظر اجتمـع بالمدرسين الموقعين، فخرج أحدهم من عند الناظر نادما يشتم الطلبة لأنهم ورطوه في التوقيع على مثل هـذه العريضـة، وأعلن لهم أن الناظر سيرد على العريضة يـوم الأحـد!... لماذا يوم الأحد بالذات؟!. اليوم الخميس... فلمـاذا لا يـرد الناظر يوم السبت!!...

أوشك "شوقي" أن يصرخ فـي أخويـه "عبـد العزيـز" و "عبد اللطيف" بالسؤال الذي يعذبه: لماذا يختار الناظر يوم الأحد للرد عليهم... لماذا لا يرد يوم السبت؟! ...

ولكن "شوقي" ابتسم، وهو يمسك نفسه... فما يعرف أخواه هذه الحكاية.. هو لم يحكها بعد.. وهو يريد أن يتكلم في هذا الأمر.. إنه الآن مأخوذ بما حدث اليوم بعد نهاية الـدرس.. من أجل هذا تأخر ساعتين بعد موعد انصراف المدرسـة!.. لم يكد يدق جرس الانصراف حتى اتجه مندوبون عن الطلبة إلى مسرح المدرسة الذي أغلقه الناظر.. اندفعوا إلى البـاب وحطموه وهم يهتفون للطالب الذي اندفع بكل ثقلـه يكسـر الباب المغلق، ويرون فيه صورة أخرى من "ويصا واصف" الذي حطم السلاسل الحديدية يوم عطل "صدقي باشا" الحيـاة

الدستورية ووضع البوليس والجيش على أبواب البرلمان سنة ١٩٣٠ ووقف "سعد داود" داخل المسرح يندد بالمدرس الذي أعلن ندمه لأنه وقع.. ويتهمه بالضعف والتخاذل... وقف "عبد الرافع" يقسم أن الناظر حدد يوم الأحد للرد على العريضة لكي يعطي الفرصة في يوم السبت للمترددين الذين يريدون سحب توقيعاتهم.. آه و "ميخائيل أفندي" مدرس التاريخ أيضا قال هذا عندما انتهى اجتماع الناظر مع المدرسين، وطالب باليقظة والإصرار.. ووقف "شوكت عبد الرحيم المغربي" يقترح الإضراب يوم السبت.. وتحمس كثيرون لهذا الاقتراح.. وخصوصا "بلية".. حتى "بلية" نفسه متحمس!.. "بلية"؟!.. لا لا.. في مثل هذا الموقف لا يجب يا "شوقي" أن تقول عنه" "بلية".. خطبته في المسرح كانت عظيمة وا .. يجب أن نناديه بالاسم الذي يفضله: "الأستاذ عطا ا "!.. كان رائعا جدا وهو يتكلم هذا الظهر في المسرح.. كان أروع من الخطباء.. من "سعد داود" و "شوكت المغربي"، وحتى من "عبد الرافع" نفسه.. وكنت تريد أن تخطب ولكنك بعد "عطا ا "، لم تجد الجرأة في قلبك لتقف يا شوقي! لم تجد كلاما تقوله!.. تحمس الطلبة بعد

خطابه وهتفوا له وهو يطالب بإعلان الإضراب يوم السبت.. ولكن "عبد الرافع" لم يوافق على الإضراب، لأن الإضـراب الآن ربما أعطى سلاحا للناظر، وربما شجع دعاة الهدوء من المدرسين وحتى من الطلبة على سحب توقيعاتهم.. بل ربما دفعهم إلى استنكار الإضراب، والعريضة نفسها، فيفسد كـل شيء!.. وهكذا قرر الطلبة انتظار رد الناظر يـوم الأحـد، وعلى أساس رد الناظر يجري ما يجري.. المهم ألا ينسحب أحد من الذين وقعوا خصوصا المدرس المتخـاذل!.. لـنكن يقظين..! إن مرور يوم السبت فـي هـدوء كامـل دون أن ينسحب أحد الموقعين، سيفسد خطة النـاظر، ويوقعـه فـي حيرة!.. إن "ميخائيل أفندي" يقول عن الناظر، إنـه منـاور خطر، وسياسي كالإنجليز تماما، وهو يحذر من تهديد الناظر بأن يسحب المجانية من الطلبة الحاصـلين علـى مجانيـة التفوق!.. ميخائيل أفندي يقول إنه تهديـد حقيـر والنـاظر لا يملك هذا الحرمان من المجانية لأنه حـق حصـل عليـه الطالب بتفوقه!!.

***

وتنبه "شوقي" على أخيه "عبد العزيز" واقفا على الحوض يغسل يديه، ويناقش "عبد اللطيف" محتـدا حـول أشـخاص المرشحين في انتخابات اتحاد طلبة الجامعة!..

لو كان في المدارس الثانوية اتحاد للطلبـة، ينتخـب لـه التلاميذ اثنين عن كل مدرسـة كمـا يحـدث فـي كليـات الجامعة!!. لو أن هذا يحدث، لما جرؤ رجل كالناظر على أن يحل جمعية التمثيل والخطابة والموسيقى وجمعية الدراسـات التاريخية والجغرافية!.. مستحيل!.. ولما جرؤ على أن يلوح دائما بسحب المجانية من المتمتعين بها!!

وناداه "عبده" الذي قعد بعدهم يأكل في صحن نظيف أعده له "عبد العزيز" وحطه إلى جنب قبل أن يبدءوا هم الأكل..! ولكن "شوقي" وقف يتابع مناقشة أخويه باهتمام ولم يرد على "عبده" فصاح "عبده" بخطورة:

- تعرف يا سي "شوقي".. لو جمدتم شوية.. النـاظر بتاعكم حينخ ضروري.. لا بد عن أنه ينخ..

وضحك "عبد العزيز" وهو يجفف يديه:

- إياك ينخ عليك جمل..!.. انـت عامـل مستشـار سياسي لـ "شوقي" والا إيه؟..

وتساءل "عبد اللطيف".. عندك مجلة الجامعة.. يا للا اقرأ لنا بقى قصة "محمود كامل" بتاعت الأسبوع ده..

وتدخل "عبده" مسرعا كأنه يخشى من ورطة مقبلة:

- أنا مش رايح أنا.. آه.. مجلة الجامعة عنـد السـت "ميمي" من يوم التلات.. من ساعة مـا اشـتراها الدكتور.. خلي سي "شوقي" هو اللي يروح يجيـب المجلة من عند الست "ميمي" آه.. أنا بـاقول لكـو أهه.. مش راح أخبط عليها طول عمري بعد اللـي حصل منها في حقي النهارده الصبح!..

وتساءل "عبد اللطيف" عما حصل.. بينما كـان "شـوقي" يعود من حوض الغسيل وقلبه يتفتح للجلسة المعتادة الحلـوة بعد غداء كل خميس على سرير "عبد العزيز" يقرأ لهما قصة "محمود كامل" في جو مشحون بالصمت والتطلع.. دائما يوم الخميس.. وهو اليوم الذي خصصه أبوهم ليستريحوا فيه من المذاكرة، وأصبح هذا جزءا من تقاليدهم.. وبعد أن ينتهـي "عبد العزيز" من قراءة القصة ويستريح كل واحد من الإخوة الثلاثة، يقوم فيلبس خير ما عنده ويخرج إلى فسحة الخميس المقدسة التي لا يلغيها أبدا غير هجوم الامتحـان!!.. وفـي

صباح الجمعة – وهم يتناولون الفطور – يحكي كـل واحـد منهم قصة الفيلم أو المسرحية أو سهرة الغناء التي شـاهدها ليلة الأمس..!. إن قراءة قصة "محمود كامل" المحامي بعـد غداء كل خميس هي أحد مراسم الخميس التي لا تتغير أبدا.. كان يجب أن تعيد "ميمي هانم" المجلة صباح اليـوم، ولكـن يظهر أنها نسيت بعد ما حدث بينها وبين "عبده".. على كـل حال أنت مازلت تلبس البدلة "يا شوقي" وتستطيع أن تـذهب أنت بنفسك وتطلب المجلة من "ميمي هانم".. ويا ليتها تفـتح لك الباب هي بنفسها وتأخذك من يدك إلى الداخل وتناقشـك في قصة هذا الأسبوع!!.. ولكن ربما فتح لك الباب زوجهـا "أمين أفندي" نفسه.. أعوذ با !

ولم يكد "شوقي" يفرغ من غسل يديه، حتى سمع دقـات على الباب فأسرع ليفتح قبل أن يقوم "عبده" عـن طعامـه.. ووجد "أمين أفندي" أمامه في جلبابه المنزلي.

وحملق "أمين أفندي" لحظة في وجه "شوقي":

- الدكتور "عبد العزيز" موجود؟!. صاحي؟!. شـوفه كده ونادي لنا الشيخ "عبد الحي" من تحت.

وأدخله "شوقي" حجرة صغيرة مجاورة للباب الخـارجي، أعدت للاستقبال، تزحمها كنبة كبيرة وعدة مقاعد من القطيفة الكالحة، وعلى حائطها شريط ثبتت عليه صور كثيرة تعلـوه صورة الحاج "خليفة" ثم صور مختلفة لـ ـ "عبـد العزيـز" و "عبد اللطيف" و "شوقي" وأصدقائهم..

ودخل "عبد العزيز" متثاقلا يرحب بـ "أمين أفندي" وبعد قليل جاء "عبد الحي" مع "شوقي"...

والتفت "عبد العزيز" إلى "أمين" بعد صمت قليل... وحياه بيده... ثم قال له:

- خيرا يا "أمين أفندي"... انت بـاين عليـك كنـت عايزني في حاجة عاجلة... إيه اللي خـلاك بعـت "شوقي" أخويا ينادي "عبد الحي"؟!.. إيه خيـرا؟.. اتفضل.. تحت أمرك!..

وتنحنح "أمين أفندي" وتجهم وجهه... وبـدأت الكلمـات تضطرب على شفتيه:

- خير إن شاء ا ... خير... ما هـو أصـل الحكايـة.. الحقيقة ان المسألة.. بقى صلوا بنا على النبي.. يعني احنـا دايما جيران على الغالي مـن قـديم الأزل.. يعنـي سـي

"عبد الحي" وأنا وأنتم.. طول عمرنا بنراعي بعضنا...الحقيقة يعني ده كتير خالص... والشيخ "عبد الحي" راجل قاري في الأزهر ويعرف الحرمات... الحقيقة... بصـراحة يعنـي... انت ما لكش حق أبدا يا شيخ "عبد الحي"... دي مش أصول أبدا...

وفجأة.. اقتحمت "ميمي هانم" باب الشقة المفتوح ودخلـت الحجرة بلا استئذان يسبقها عطر قوي وهي تزعق:

- استني انت يا "أمين"... انت مش عارف تـتكلم... انت ملخوم ومـدهول وحايلخمـك الأزهـري ده كمان!...

ووقف الجميع... وجاء "شوقي" و "عبد اللطيـف" علـى صوتها وسلمت علـى "عبـد العزيـز" وحـده، ثـم تقـدم "عبد اللطيف" مسلما... وتبعه "شوقي" في خجـل خفيـف.. وحطت هي نفسها على كرسي كبير فأحدث صـوتا تحتهـا، فقامت من عليه بسرعة، وامتحنت كرسيا غيره ثـم جلسـت عليه في مواجهة "عبد الحي" تماما ووضعت رجـلا علـى رجل ويدها في خصرها واتسعت عيناها وارتعشـت فتحـة أنفها المتطاول وهي تحملق في "عبد الحي" مائلـة بجـذعها

قليلا إلى أمام وفتحة الفستان من على صدرها تكشف منبـت نهديها، غير مبالية بالعيون المتطلعة...

وصرخت متحدية:

- هه يا شيخ "عبد الحي"؟.. حط عينك في عيني كده.

وأرخى "عبد الحي" عينيه، وفوجئ من لهجتهـا وأحمـر وجهه وهمهم:

- أعوذ با .. أستغفر ا .

- بينما انفجرت "ميمي" تقول بلا حساب وهـي تهـز وسطها:

- بقى اسمع يا اسمك إيه أنت يا شيخ "عبد الحي" والا يا شيخ قرد والا نيلة!.. أنت مـا تسوقشـي عليـه المشيخة هنا وتسبل لـي عنيـك وتعمـل نفسـك مكسوف!... أنا مش "سعاد هانم" تقعد طول النهـار تهز لها رأسك وعامل انك بتبص في الكتاب وأنت عمال تدحاب لها عنيك من تحت لتحت وتبصـبص لها وتتطلع لرجليها وهيه واقفة في شـرفتها مـش دارية باللي بيجرى، وفضيلتك مستشيخ قوي وعمال

تقول لها يا سعا فيمن دعا سعادا.. فـيمن دعـا... سعادا..

وانفجرت الضحكات تقطع على "ميمي" حـدة انفعالهـا، وهي تطوح برأسها وبدنها كله مقلدة "عبد الحي"!.. وغـاص "عبد الحي" في الكرسي وازداد وجهه احمرارا وهو يغمغم:

- ا !!. ا !!. إيه ده... ا !.

وبان له وقتها أن هذه السيدة "ميمي" يمكن أن تقول له أي شيء ولا تبالي!

ونظر "عبد العزيز" إلى أخيه الصغير "شوقي" ولمح لـه بعينيه أن ينصرف إلى الداخل، فما يصح أن يبقى في مجال كهذا وهو صغير ولكن "شوقي" تغابى عن إشـارة أخيـه... فصاح "عبد العزيز" في غمرة الضحك:

- قوم يا سي "شوقي" بسرعة نادي لنا عمك "شـكري عبد العال".

وقاطعه "عبد الحي":

- لا لا... مافيش لزوم لده كله... اقعد يـا "شـوقي" أقعد... أو أصح تقوم!

وأمسك "عبد الحي" بيد "شوقي" وضغط عليه ليمنعه مـن الحركة بينما اندفعت "ميمي":

اجري يا "شوقي" نادي عمي "شكري بيه"... خليه يتفـرج على فضايح سي الشيخ!...

وتشبث "عبد الحي" بيد "شوقي" وضـغط علـى كتفـه، واختلطت الأصوات، وارتفع وسطها صوت "عبد العزيز":

- ادخل جوه انت يا "شوقي" استعجل القهوة!.. انـت يعني لازم تعمل لنا قعر مجاس.. والا حاتقعد انت كمان تعمل قاضي غرام للشيخ "عبد الحي".

واحتد "عبد الحي" موجها كل ضيقة إلى "عبد العزيز":

- اسمع يا دكتور "عبد العزيز"!.. حاكم انت راجـل هزلي!! لا لا تخلط الهزل بالجد في كل المواقف... إيه اللي يعتدوا علينا ويسبقونا بالشـكوى... علـى رأي المثل "ضربني وبكى وسبقني فاشتكى..." بقى أنا راجل مريض.. اعتكفت في البيـت مضـطرا، غصب عني، مكرها نظرا لمرضـي المفـاجئ... وبعثت لها الولد "عبده".

فوقفت "ميمي" شاهقة كأنها تلتقط من الهواء فجـأة شـيئا كانت تبحث عنه:

- بس... أهو وقع بنفسه... سامعين؟ بعت لي "عبده"!! سامع يا دكتر... اسمع يا شيخ "عبد الحي"... أنـا باشهد عليك الدكتور اللي يشرفك انـك تقعـد فـي مجلسه!... ازاي تبعت لي وانت راجـل عـازب وقاعد لوحدك!.. هـي حصـلت؟؟.. حتـى انـت كمان؟.. وازاي يا دكتور الواد "عبده" قليل الأدب ده بيجي يقول فلان والا علان بيقول لك!... يقول لي إيه يعني؟.. هو له إيه عندي علشان يقول لي!.. أنا لو كان جوزي راجل مشاكس والا شـراني شـوية كان قام عليك دلوقت يا شيخ "عبـد الحـي" انـت و "عبده" وضربكم بالجزمة!.. بالجزمة!... فاهم!..

ووقف "عبد الحي" محتجا يزعق لأن ميمـي جرحتـه!! واختلطت الأصوات.

ودخل "عبده" يحاول أن يشـرح المسـألة... وتشـابكت الكلمات في حلقة وهو يضرب الأرض بقدميه ويهز رأسـه بعصبية شديدة في حركة رفض، وأمسك بيد "أمين أفندي":

- بقى أنا.. أنا.. بقى.. ترضى انـت. تفتكـر. أنـا مرسال بين واحد وواحدة!!..

وانفجرت الدموع من عيني "عبده".. وتهدج صوته مـن الغيظ وخنق نفسه بيديه وهو يشرح لأمين أنه يقبـل القتـل ولا يقبل أن يقوم بالدور الذي تخيلته فيه "ميمي"..

وفهم الجميع بعد جهد أن "عبد الحي" إنما أرسل "عبـده" إلى الست "ميمي" لأنها كانت تدق بيد الهون لتصنع "كفتـة" والدق كله يدوي على رأسه الموجع...

وقال "عبد العزيز" متلطفا والحديث يهدأ:

- على كل حال يا شيخ "عبد الحي" كان يصح تطلـع أنت بنفسك تتفاهم مع الست "ميمي" بـدل المسـألة ما تقلب بغم!.. لكن بقى تبعت لها "عبـده" بـــ... يقول لها سي الشيخ بيسـلم عليـك وبيقـول لـك تسمحي. دي يعني على رأي الشعراء القدام فيهـا "إشارة له"... زي ما كانوا الشعراء القدام بيعملـوا لما بييجوا يشحتوا من الملوك زمان!. يعني إشـارة خبيثة... وإن كنت انت لم تقصـد هـذا يـا سـي الشيخ!..

- فوقف "عبد الحي" متأففا مستفزا و "ميمي" تبتسم من الطريقة التي ألقى بها "عبد العزيز: آخـر جملـة، محاولا السخرية بالشيخ "عبد الحي"!... ثم انقـض "عبد الحي" على "عبد العزيز" قائلا بضيق:

- هو احنا فـي تيـاترو؟!.. انـت بتـتمقاس عليـه والا إيه؟... إيه اللي إشارة له، ولـم تقصـد هـذا يا سي الشيخ!... سي الشيخ إيه يا دكتـور؟.. أنـا أفندي زيك تمام؟.. شايفني باقرأ لك الراتب هنا كل يوم؟ ثم إني يعني ولو اني مظلوم في هذا الأمر... فانا فضلا عن أني أنا لم أكن أقصد أي اشارة طيبة أو خبيثة زي ما بتقـول انـت بهـذرك المعهـود يا داكتور عبد العزيز... فأنا.. أقصد..

وقطع كلامه وقعد ينظر إلى "أمين أفندي" مطمئن القلـب بعض الشيء لأن "ميمي" تبتسم... وخفت صوته وهو يتجـه إلى "أمين" قائلا:

- اسمع يا "أمين أفندي".. بقى يعني الحمد على كل حال... أنا وا يا "أمين أفندي" مع أني لم أقصد أي شيء لكني سعيد جدا وأهنئك بزوجتك اللي عنـدها

هذا الحفاظ كله على نفسها واللـي تعـرف كيـف تحترم غيبتك.. وأنا متسامح على كل حـال فيمـا نالني منها..

أما الكف اللي خده المسكين "عبده".. فـ.. يمسحه في أنا بقى!.

ووقف وشد الجاكته على جلبابه، وتحرك ليسلم، فسـبقته "ميمي هانم" وزوجها إلـى البـاب وهمـا يسـلمان علـى "عبد العزيز" و "عبد اللطيف"، ويطيبـان خـاطر "عبـده".. وسلما عليه أيضا... وقالـت "ميمـي" وهـي تسـلم علـى عبد الحي":

- على كل حال حصل خير.. لكن تاني مرة لما تتعب من الدق على دماغك ابقى ابعـت "عبـده" يكلـم الخدامة مش يكلمني أنا... والا اطلع انت بنفسـك.. احنا برضه نقدر نسقيك فنجان قهوة!

فأحنى رقبته، ورفع كلتا يديه إلى جبينه، ورأسه مطـاطئ قائلا:

- متشكرين قوي!!.. ربنا سبحانه وتعالي كـده يـديم المعروف.

وعندما خرجت "ميمي" وزوجها إلى بسطة السلم التي تفصل بين شقتها وشقة "عبد العزيز"، همس "عبد العزيز" في أذن "عبد الحي".

- بقى أنت مبسوط من حفاظ "ميمي هانم" على نفسها... تكونشي بعت لها الواد "عبده" علشان تمتحنها في الحفاظ بتاعها يا سي الشيخ؟!

وضاع احتجاج "عبد الحي" وسط انفجار ضحكات "عبد اللطيف" و "عبد العزيز" فاستغرق "عبد الحي" نفسه في الضحك، بينما ارتفعت من على بسطة السلم أصوات ترحيب عالية، وهرج، وأقبل "عبده" من ناحية الشرفة يقفز ويزيط:

- الباشمهندس جه!... الجماعة وصلوا...

واندفع على السلم إلى الشارع، ومن ورائه "شوقي"، وعلى درج السلم كانت بنت أخيه الصغيرة تسبق أباها وأمها، ولم تكد تراه حتى تعلقت به، في فرحة كبيرة... ولفت ذراعيها الصغيرتين حول عنقه وظلت تقبله... وهرول "عبد الحي" مسرعا ينزوي في ركن السلم وشد بيده على المهندس "أحمد" شقيق "عبد العزيز"، وخفض رأسه وتوقف وعينه تختلس نظرة إلى السيدة الجميلة زوجته.

واندفع "عبد العزيز" يعانق أخاه الأكبر "أحمد" على بسطة السلم... وزوجة أخيه تقبل "ميمي" ضاحكة:

- انتي احلاويتي قوي كده ليه يا بنـت يـا "ميمـي".. يقطعك!.. كل يوم يزداد جمالك!

وتحسست بيدها نحر "ميمي" المكشوف، وغمزت بعينيهـا مشيرة إلى "عبد العزيز" و "عبد اللطيف" وهي تخبط "ميمي" على صدرها:

- يا اختي داري جمالك أحسن العيال ينشـغلوا عـن المذاكرة!.. ده حتى الواد "شوقي" راخـر كبـر!.. دانتي كده تخيبي أملهم!..

وضج المكان بالضحك وهم يدخلون في الشقة و "عبـده" على السلم مثقل بالحقائب ينهج ضاحكا:

داري جمالك لتصيبك عين

ولدي يا ولدي.... لتصيبك عين!!..

(٩)

النهار يشحب، وأشعة الشمس تصفر، وفي السماء تتراكم ألوان داكنة باهتة... وتتسال الخيوط الحمـراء مـن خـلال السحاب المعتم.

في الجو شيء مقبض باهت حزين.. والمغـرب يزحـف بسرعة. لو أنك تبكي الآن يـا "شـوقي" لأزحـت الهمـوم الغامضة التي تملأ صدرك وتكاد تسد حلقـك كالغصـة؟... لماذا تكتئب هكذا دائما في عصر كـل جمعـة!؟.. أخـوك "عبد العزيز" يعرف كيف يهرب من هذه الساعات الخاويـة العقيمة الشاحبة من عصر الجمعة، في الخريف. إنه يعـرف كيف يتسلى... وهو دائما يذهب إلى السينما في حفلة الساعة الثالثة!... فهو ما يكاد يخلص من الغداء حتى يسـرع إلـى حجرته متحدثا عن الفيلم الذي يريد أن يراه... وأحيانًا يحتج عليه "عبد اللطيف" ويطالبه ألا يذهب وأن يقاطع دور السينما الأجنبية ويضحي بالفرجة، ولكن "عبد العزيز" ينهي المناقشة

غالبا بالسخرية من "عبد اللطيف"، ويخـرج متأنقـا خـالي البال!..

هو الذي علمكم يا "شوقي" مقاطعة السينما الأجنبية، ولكن لم يعد يفعل!.. ومع ذلك فهو الذي فعل أشياء تبهر القلب في السنوات القليلة الماضية!.. منذ أربعة أعوام جمع كثيرين من أهل الشارع في بيت "شكري عبد العال". وأخذ يحدثهم عـن مشروع القرش ودور القرش الذي سيدفعه كل مواطن فـي بناء الاقتصاد الوطني، ووضع شارة في "عـروة الجاكتـة"، ومضى يجمع القروش من أهل الشارع... وتطوع الأسـطى "عبد المعبود" للمشروع أيضا... وحتى عندما ذهبتم إلى البلد في إجازة العيد، مضى "عبد العزيز" يشرح المشروع لأبيـك ولأمك، ولرجال آخرين في القرية، وخطب في الناس بعـد صلاة العيد، وأرسل أبـوك الخفـراء يجمعـون القـروش ويوزعون الطوابع، وجمعت أنت و "عبد اللطيف" التبرعات، وبدأت بأمك وأبيك، كان "عبد اللطيف" وقتها في مدرسة بنبا قادن الثانوية، وكنت أنت يا "شوقي" ما تزال فـي المدرسـة المحمدية الابتدائية... وقدمك "عبد اللطيف" لأصحابه مزهوا بك، ورأيت في عينيه شعاعا يسطع بالحب والرضي.. وذات

يوم أخذك إلى أرض المعرض لترى مهرجان القرش، وهناك رأيت "عبد العزيز" يخطب والطلبة الكبـار يصـفقون لـه، فامتلأت بالفخر، وشعرت بأنك ضخم هائل لأن لك مثل هـذا الأخ الذي يصفق له الناس، وأوشكت أن تبكي من الفـرح.. في تلك الأيام كان "عبد العزيز" يأخذك معه أحيانا إلى سينما رمسيس المطرية، ويشتري لك الحلوى من مطعـم آمـون المصري، تماما كما كان يشتري لك "البسبوسة" من دكان في الناصرية عندما كنت تجيء إلى مصر مع أمك لتزور إخوتك قبل أن تدخل المدارس! ومنذ عامين فقط شتمك "عبد العزيز" مرة لأنك أردت أن تشاهد فيلما في سينما "تريومـف" التـي تملكها شركة أجنبية! كان "عبد العزيز" أيامها يربط في عنقه شريطا أخضر من صنع مصر – بدلا من الكرافتة – ويبرزه بزهو واعتزاز.. ولكنه الآن يا "شوقي" لم يعد يصنع ذلك – لا هو ولا أصحابه.. وأصبح يسخر من الرجل الـذي كـان يحبه، والذي ألقى حبه في نفسك... هذا الرجل الـذي يثيـر دائما ذكريات الإمبراطورية العربية والفرعونيـة ويطالـب الشباب ألا يهدءوا حتى يروا العلم المصري يرفـرف علـى سماء لندن!... "عبد العزيز" وصحابه يضحكون دائمـا منـه

وهم يتذاكرون كلماته التي مازالت تهزك حتـى الأعمـاق، وتفتح أمامك آفاقا مسحورة بـاهرة مـن الفتـوة والأحـلام والسطوة!! و "عبد العزيز" وأصحابه يقولون إن هذا الرجـل الذي يقاوم الإنجليز، إنما يفعل ذلك بتشجيع من إيطاليا، وإنه ليتخذ "موسوليني" مثلـه الأعلـى، ويثرثـر مثلـه بهـوس الإمبراطوريات القديمة وهو على صـلة أكيـدة بالسـفارة الإيطالية في مصر بل إنه يتلقى منها المال!.. لكم يبدو هـذا كله فظيعا وشائنا ومرعبا!!. ليس من حق أحد أن يلوث نبالة الأحلام بهذا الشكل! ولكن "عبد العزيـز" يقـول دائمـا إن الانتصار الحقيقي هو أن تكون سماؤنا وأرضـنا لنـا بـلا شريك. وأن نكون نحن المصريين والعرب أحـرارا داخـل بلادنا، بلا سلطان إنجليزي أو فرنسي أو أي نفوذ أجنبـي... قال هذا هو وأصحابه، ثم بدءوا ينتقون "الكرافتات" الفـاخرة ويقرءون الكتب والروايات الإنجليزية، ويلبسون البدل مـن الصوف الإنجليزي، ويتفرجـون فـي دور السـينما غيـر المصرية!..

لكم تغير "عبد العزيز"!!.. حتى قراءة الشيخ "رفعت" التي تنساب رائعة هادئة تملأ النفس بجـلال القـرآن، لـم يعـد

"عبد العزيز" يطرب منها لغير رخامة صوت الشيخ "رفعت" وإعجازه ...أما القرآن نفسه!!.. مصيبة!!.. كـان الراديـو الجديد الذي اشتراه "شكري" يلعلع بصوت الشـيخ "رفعـت" وهو يقرأ سورة "يوسف"، "عبد العزيز" واقف يسـمعه مـن الشرفة.. فنظر إلى "شكري عبد العال" الذي كان يقف فـي شباك بيته وقال ضاحكا:

- إيه رأيك في حكاية ﴿ **ولَقَد همتْ بِهِ وهم بِها لَـولاَ أَن رأَى برهان ربهِ...**﴾ حكاية برهان ربه دي مش داخلة المخ قوي يا عم شكري بيـه... يعنـي لـو برهان ربه دا اتأخر دقيقة... كان حايجرى إيه؟!

فضحك "شكري":

- ا يجازيك يا "عبد العزيز" ويجازي شيطانك!

حتى هذا يا "عبد العزيـز" تضـحك منـه!... ولكنـك يا "شوقي" عندما تسمع صوت الشيخ "رفعت" يتلـو سـورة "يوسف" تكاد تبكي!.. وتحس في خشوعك بطعم الـدموع... آه. ﴿ **لَقَد كَان فِي يوسفَ وإِخْوتِـهِ آيـاتٌ للسـائِلِين** ﴾!!.. يوسف أصغر إخوته!..

ولكن "عبد العزيز" لن يخرج هذه العصـرية.. فـأخوك الأكبر "أحمد" يسافر اليوم مع زوجته وابنته الصـغيرة فـي قطار الساعة السابعة إلى دمنهور ليتسلم عملـه الجديـد!... وهو و "عبد العزيز" و "عبد اللطيـف" يقعـدون الآن مـع الضيوف الذين جاءوا يودعونه.. البيت كله مقلوب بالضيوف من النساء والرجال، الأصوات تختلط والضـحكات تتشـابك وكلها تقرع في رأسك حيث تجلس على مكتبك في الصـالة تحاول أن تذاكر!.. لا فائدة من أن تفهم كلمة واحـدة ممـا تقرؤه يا "شوقي"!.. اللوغاريتمات!؟.. ما فائدة هذا كلـه!!.. أشعر بتبلد يجمد عقلي وأنا أقرأ هذا الكلام!! أنـا لا أريـده، مهما يحاول "عبد العزيز" أو "أحمد" أن يقنعني بفائدتـه فـي الحياة والمستقبل!... بماذا ينفعني هـذا كلـه فـي دراسـة الآداب؟!... أنا داخل كلية الآداب غصبا عنكم كلكم.. أريـد أن أعرف أعماق الحياة... أريد أن أطير على جناح الفلسفة إلى آفاق من الفن والمعرفة لا تدركونها!.. ليس هذا الكـلام فارغا كما يقول "أحمد" و "عبد العزيز" و "عبـد اللطيـف".. أنا داخل القسم الأدبي يا دكتور "عبد العزيز".. لـن أدخـل القسم العلمي أبدا وأشوش رأسي بدراسة الكيمياء والطبيعـة

وحساب المثلثات!!.. أنا لا أريد أن أدخل الهندسة مثل "أحمد" أو الطب مثلك يا أخي!.. لا تملأ رأس أبيك بـالفكرة، فهـو دائما يقتنع برأيك أنت، ويراني صغيرا لا أفهـم مصـلحتي ولا أعرف مستقبلي!... أنا أعرف نفسي أكثر منكم كلكـم... يا "عبد العزيز"... لا تتحكم في مصيري!.. ضحكاتك تلعلـع والنهار يروح... والضوء في داخل الشقة باهت ضـعيف... لا نستطيع أن توقد نور الكهرباء، فالشـمس مازالـت بعـد تستلقي على الحائط، ومع ذلك فالشعاع لا يضيء.. ولم يعـد من الممكن تمييز حروف الكتاب بسـهولة.. لا فائـدة مـن المذاكرة الآن! كل شيء حولك ينطفئ، ويغيض... مريض، شاحب، معذب، دام، حزين!!.

لكم تشعر بالوحشة المخيفة الآن وأخوك "أحمد" يسافر!... الأيام التي قعدها في مصر مرت دون أن تشعر!... كانـت جميلة نابضة مفعمة هذه الأيام القليلة!.. ولكنها راحت!.

لو قعدت هكذا دقيقة أخرى لنزلت الـدموع مـن عينـك يا "شوقي"!... ومع ذلك فهم حولـك يضـحكون: الرجـال والنساء... إنهم هناك في قريتي البعيدة يتغنون بالعصر، وأنا هنا أوشك أن أبكي أمام زحفه الكئيب!..

وخرج "شوقي" إلى الشرفة... وفي أعماقه همهمة بموال من قريته:

م العصر للعصر باطلع على المراداه

ألقى جميع النساء من طيبين ورداه

شبه القطا في الخطا، والميه ماء ورداه!...

من هذه الشرفة تبدو أمامك بيوت شارع عزيز صامتة كأنها كلها تنطوي على مأساة غامضة... وفي الجو خواء رهيب، وفراغ، وضياع أيضا!... آه يا "شوقي".. والسماء الزرقاء تمتلئ بسحاب يجري بعضه خلاف بعض متموجا زاخرا بألوان المساء وبقايا الأشعة الغاربة في ظلال بيوت شارع عزيز، ولكن الأولاد الصغار وحدهم يزيطون وهم يلعبون الكرة ويتصايحون ويتشاجرون... وولد منهم يثبت الكرة بقدمه على الأرض، ويندفع إليها يضربها بكل قوته فيصيب الهدف ويقع على ظهره والآخرون يهللون إعجابا به...هكذا تماما كان يصنع لاعب ذاعت شهرته وأنت في المدرسة الابتدائية، وكان دخوله الفصل أول مرة ليدرس اللغة الإنجليزية عيدا عندك وعند كل زملائك... كنتم تتأملون

قدمه، وترهبون تحذيره أن يضرب أحدكم برجله فيرميه إلى خارج المدرسة... كالكرة!

***

وانزاح عن صدر "شوقي" بعض ما يثقله.. ورفع قامتـه وابتسم على هذه الذكرى ومـلأ صـدره بـالهواء المـنعش البارد!..

ووقعت عينه على شباك منزل "شكري عبد العال" فـرأي ابنته "درية" تصفف شعرها في المرآة.. إنها لا تذاكر في مثل هذه الساعة هي الأخرى!.. لا أحد يستطيع أن يذاكر في مثل هذه الساعة من مهبط الليل أبدا..

وخفق قلبه فجأة، وتراجع بجسمه قليلا، ولكنه لم يغـادر مكانه من الشرفة.

في وجه "درية" المستطيل الساكن، وفي شعرها الأسـود المرسل وسمرتها الصافية، في هذا كله شيء ما ينفذ منه إلى الأعماق ويهزه حتى يكاد يلهث!.. آه وصـدرها العـريض البديع الواسع بنهديه المنتفضين!.. يكاد نهدها يشق قميصـها وينفجر منه وهي واقفة أمام المرآة.. تماما كالدم الذي ينتفض في عروقك يا شوقي!!..

ولكنها لا تشعر بأن النظرات تتلصص عليهـا... وهـي واقفة في هدوئها ساجية العين تسكب قطرات مـن زجاجـة عطر على مفرق شعرها... ما اسم هذا العطر يا تـرى؟؟.. أليست هذه التي تقف أمامك الآن يا "شـوقي" هـي نفسـها "ريري" بطلة قصة "محمود كامل" الأخيرة؟.. ولكن الأخرى تسكن في الروضة وهي تلميذة في "الميردي دييه".. لا يهم! والأخرى بنت ضابط كبير في المعاش. آه يا عم "شكري"...! وبطلة قصة "محمود كامل" طويلة سمراء مكحولة العينين في نهديها كبرياء وشموخ وبعينيها حزن جليل، كأميرة هنديـة.. "درية" أيضا تملك نفس الأشياء... تملك من الجلال والفتنـة والهدوء الحزين ما لا تملكه كل الأميرات الهنديات!!

وكما حدث في قصة "محمود كامل" بالضبط، يرتفـع الآن صوت الراديو بموال من صالح عبد الحي:

فيك ناس يا ليل بتشكي لك مواجعهم

أمانة يا ليل ما تبقى تواجعهم...

ولكن "درية شكري" – ما أحلى الاسـم لبطلـة قصـة – لا تسمع وتشرد، كبطلة قصة "محمود كامل"... إن "دريـة" مشغولة الآن بالفستان الجديد الذي اشتراه أبوهـا مـن أول

مرتب قبضه بعـد عودتـه إلـى الخدمـة... كمـا يقـول "عبد العزيز" ضاحكًا!!

آه يا "شوقي" لو كنت تعرف العزف على الماندولين كبطل القصة "العاشق الشاب" الذي يتجول بالماندولين بين جـاردن سيتي والروضة كأنه "فارس من فرسان العصور الوسطى"!. ولكنك حاولت أن تتعلم الموسيقى وأنت تلميذ فـي المدرسـة الابتدائية وانضمت بالفعل إلى فرقة الموسيقى، وجاء أبـوك فقلت له الخبر سعيدا به وطلبت منه أن يشتري لك "عـودا" صغير، فضربك بالكف وشتم إخوتك الكبار وزعـق فـيهم: "إزاي تهملوا الواد كده لحد ما هو عايز يطلع لي طبال. طب ما بدل وجع القلب في مصر ما أبعته بتعلم عنـد غـوازي سنباط"!!.. آه.. يا أبي لو كنت تقرأ قصص "محمود كامل"، وتعرف العشق!... لو سمعت "ميمي هانم" أو "درية شكري" أو "ميرفت" أخت "سعد" وهي تعزف على البيانو!... لنا مدة طويلة لم يزرنا أبونا... ليته يجيء ومعه أمي! ليتني سافرت مع أخي "أحمد" وزوجته وابنته عندما سافروا في منتصـف هذا الأسبوع وقضيت معهم ليلتين في البلد.. كنت أريد هذا، ولكـن "عبـد العزيـز" رفـض!... دائمـا تـتحكم فينـا

يا "عبد العزيز"!... آه، وضحكاتك الآن يا عبد العزيز" ترن من داخل البيت.. ألا تشعر يا "عبد العزيز" بوحشة لأمنا...

وظلال المغرب تطوي الخيوط الحمـراء مـن السـماء، والظلام يزحف على شارع عزيز، وهمهمة المساء الحزينـة تختلط بغناء الشحاذين من بعيد، و "درية" مع أختها "سـميرة" تعبران الشارع بسرعة إلى بيتنا... "سـميرة" متعثـرة فـي مشيتها بعض الشيء كأنها من طول قعدتها في البيـت لـم تتعود المشي في شارع، وأختها "درية" تسبقها بخفة كالغزال: الوجه مرفوع والنظرات مستقيمة، وصدرها ينحنـي قلـيلا مثقلا بنهديها! ...

خلال هذا الأسبوع يا شوقي" استطعت أن تكلم "درية" بلا حرج. وتبادلتما كلاما كثيرا عن المدرسين والدراسة، وسألتك هي عن هذا المستر "فيرنس" الذي تشاجر معه "سـعد داود" وعن الناظر الذي حل الجمعيات... كل الأخبـار عنـدها... و "عبده" لا يبل في فمه فولة!..

كم كانت "درية" حلوة رائعة وهي ترفع حاجيبها بإكبـار ودهشة، وعيناها تضيئان، وأنت تحكي عن المعركـة التـي

مازالت دائرة في المدرسة بينكم وبين النـاظر حـول حـل الجمعيات..

وحكيت لها كيف أجل الناظر رده يوم الأحد الماضي إلى يوم الأحد القادم!!!

و "ميرفت داود" أخت "سعد" هي أيضا تـرددت علـيكم كثيرا مع أمها... و "سعاد هانم"، وحتى "رجاء صدقي"... كل النساء والفتيات في الشارع ملأن البيت أثناء إقامـة زوجـة أخيك، وعندما غابت مع زوجها يومين في زيارة أبيك سألتك عنها "سعاد هانم" مرة، واستوقفتك "ميمي" أربع مرات لتسألك عن زوجة أخيك متى تعود من البلد!..

إنهن جميعا في الداخل الآن... ترتفع ضحكاتهن... لا بد أن زوجة أخيك تتحدث مرة أخرى عن الـزواج، وتخطـب "درية" و "سميرة" و "ميرفت" في وقت واحد. ثـم تـواجههن جميعا بألا واحدة منهن تصلح لـ "عبد العزيز" أو لـ "عبـد اللطيف".. وأنت يا "شوقي"... ألست في الحساب؟!.. لـيس فيك مطمع لأحد... "عبد العزيز" يتخرج بعد شهور وأيـام، و "عبد اللطيف" بعد عامين.. أما أنت.. فأمامك حتى تنتهـي من الدراسة وقت طويل! وخلال هذه الأعوام إمـا أن تـأتي

ما يدخلك النار وبئس المصير، وإما أن تصوم لتكسر حـدة شبابك كما يقول الشيخ "علي" مدرس العربي!. ألم يكن لـك شباب ذات يوم يا شيخ "علي"؟.. ولكن جيلك كان يتزوج في السادسة عشرة!.. هكذا تزوج أبوك يا "شوقي".. لو كنت هنا الآن يا "شيخ علي" تسمع ضحكات النساء فماذا كان يمكن أن تقول؟!... اطمئن على كل حال، فالرجال في حجرة والنساء في حجرة أخرى... ولكنهم يسـمعون ضـحكات بعضـهم البعض، وليس هذا حراما على ما أظن!.. ما ألطف ضحكت "سعاد هانم"!.. ما أحلى صوتك الدافئ أنت يا ست الكـل!.. وإن كان صوت "ميمي" هانم دائما يرتفـع ليخفـي صـوتك ويصبح وحده هو أعلى الأصوات!!.. كان يجب يـا شـيخ "عبد الحي" أن ترسل "عبده" إلى "سعاد هانم" لا إلى "ميمـي" التي فضحتك!.. تعال هنا الآن.. وادخل في قلـب صـالتنا واجل عينيك بمنظرها وهي قاعدة بلا كلفة بعـد أن رمـت شالها والفستان الأسود يأكل من بـدنها.. وهـو يـا "شـيخ عبد الحي" مكشوف عن نحرها الذي لم يره أحد أبـدا بعـد المرحوم زوجها!.. شيخ الحمى لا تضعف!.. ألم يقل "شوقي" أمير الشعراء هذا البيت في رواية مجنون ليلى!!.. لكم أتمنى

أن أمثل دور قيس أمام "رجاء صدقي" في دور "ليلى" كما فعل "سعد داود" في أحد أيام المقابلة... أمام أمه!.. لو رأتك أمك يا "شوقي" في مشهد كهذا، لفقدت النطق إلى الأبد!.

ضحكات النساء تتزايد، وتنفذ إلى الشارع وتمزق صمته الذي تغلفه الظلال!.. الساعة الآن تتجاوز الخامسة... ويجب أن أرتدي البدلة، فأخي أحمد سيتحرك بعد قليل ليلحق بقطار السابعة! ...

وحين استدار "شوقي" ليدخل إلى الشقة ارتفع وراءه في الشارع صفير بنداء يعرفه وصوت منغم:

- ويكا يا ويكا...

وأطل "شوقي" من الشرفة مدركا أن صديقه "سعد داود" هو الذي يناديه... ودقق النظر في شابين يقفان مع "سعد" ثم صاح كأنه فوجئ بهما:

- ا !.. الأستاذ "بلية"؟.. الأستاذ "عطا ا "؟!.. أهلا وسهلا.. و "عبد الرافع" كمان؟!.. أهلا اتفضلوا.. وارتفع صوته مسترضيا:

- اتفضل يا أستاذ "عطا ا "..

"ثم بانت الحيرة على "شوقي".. أيلح فـي دعـوتهم إلـى الطلوع عنده أم ينزل هو إليهم في الشارع.. لا مكـان فـي البيت فالضيوف يملأونه: النسـاء فـي حجـرة الجلـوس، والرجـال فـي حجـرة "عبـد العزيـز" وحجرتـك أنـت و "عبد اللطيف" لا تصلح يا "شوقي" لاستقبال أحـد.. فهـي مزدحمة بمكتب "عبد اللطيف" وسريركما والدولاب الكبير.

وقال له "سعد":

- انت واقف كده ليه؟.. البس وانزل هوا!..

وعندما دخل "شوقي" يلبس، اتجه "عطا ا " إلى "سعد" في تؤده ونظر إليه باستنكار:

- ايه يا ويكا دي؟.. إيه اللي هوا، ويا ويكـا!.. هـو احنا بنلعب هنا. هل احنا هنا فـي موقـف بتـاع يا ويكا؟.. هو دا موقف لعب يا ولـد انـت؟.. دي كلمات صبية!!

وقبل أن يجيبه "سعد" أخذ يحكـم طربوشـه ويتحسـس الكرافتة ثم استدار إلى "عبد الرافع" مشمئزا وهو يشير إلـى "سعد" بلهجة تحمل من الترفع والوقار والتؤدة أكثر مما يبدو على عطا ا .

- الولد ده داير لي كده بالقميص والبنطلون ورأسـه عريانه عمال يقول لي ويكا.. أنـا قلـت لـك يـا "عبد الرافع" مرة ان الولد ده مش بتـاع مواقـف سياسية هامة!.. إيه ده!.. هو يا أخي موقفـه مـع المستر "فيرنس" ده لا يبرر حشره في وسطنا كـده على طول!.. هو يعني كان جاب راس كليب؟.. دا لولا احنا كان جه أبـوه ضـربه فـي المدرسـة وخلاص!.. أنا لا أقبل المشي مع ولـد زي ده..؟ مش كفاية انه بتهوره الصبياني كان أوشك يبـوظ جهادنا من أجل إعادة جمعيات المدرسة.. أكثر من أسبوع واحنا بنجاهد وييجي حضرته أول امبـارح في المدرسة ويستفز الطلبة ويحلف لهـم ان اللـي حايسحب توقيعه حاينضرب.. طب إيـه رأيـك ان "شوكت عبد الرحيم المغربي" وهو أقرب الناس الينا كان أوشك يسحب توقيعه أمام التهديـد الصـبياني ده.. إذا كان بيقول يا ويكا ما هو يقـدر يعمـل أي عمل صبياني بعد كده!.. متشـبث ليـه بالولـد ده يا "عبد الرافع"؟.. ما هي العلاقة؟

وكان عبد الرافع يحاول أن يسكت "عطا ا " و "عطا ا " يعرض بـ "سعد" ويلكز "عبد الرافع" بيده فـي احتجـاج.. و "سعد" صامت يضغط على نفسه.. ولكن "سعد" قـال فـي غيظ مكظوم حاول أن يخفيه في ابتسامة.

- زعلان ليه بس يا أستاذ؟!.. على كل حـال مهمـا قليت أدبك عليه انت برضه اسـمك ضـيف فـي حتتنا!..

واغتاظ "عطا ا "، وتقدم نحو "سـعد".. ولكـن عربـة حنطور أقبلت فتنحوا لها، ووقفت العربـة و "عبـده" يقفـز منها.. ولمحه "سعد"، فناداه ولكن "عبده" دخل إلـى البيـت بلهوجة:

- استنى بس يا سي "سعد" أحسن القطـر حايفوتنـا.. استنى لما الباشمهندس وجماعته يسافروا بالسلامة..

ولكن "سعد" أسرع وراءه متسائلا بصوت حاول أن يجعله خافتا:

- هيه ماما عندكم؟

وجاءه صوت "عبده" وهو يصعد السلالم:

- أيوه!.. أهم حريم الشارع كلهـم بعصـابة المعلـم موجودين عندنا..

وعاد "سعد" ينضم لـ "عطا ا " و "عبد الرافـع" وهـو يهمس متحرجا:

- يظهر ما فيش فايدة ما دام ماما لسه في الشـارع.. دا أنا كنت فاهم انها راحت الحلمية!..

ورفع صوته مكملا:

- وا يا أستاذ عبد الرافع.. أنا يظهر أني مش حاقدر أجي معاكم.. أنا آسف.

ووقف "سعد" يصفر بفمه لحنا حزينا.. ووجهه إلى شرفة "شوقي".. فاحتد "عطا ا ":

- اتفضل يا سيدي.. أهو اعتذر!.. يا بوي!.. حاجـة تقلق!.. تضيع لنا وقتنا مع أولاد مصاروة من اللي بيقولوا يا ويكا ويدوروا في الشـارع يترقصـوا.. اتفضل.. أهو واقف يصفر ويترقص الولد ده يروح أحسن يلبس له بيجاما حرير زرقاء ويمشي يترقص ويصفر ويغني: "يا وردة الحب الصافي"..

وفوجئ "سعد" بطريقة "عطا ا " في الكلام، ورآه يتطوح أمامه ويتراقص بخلاعة في انفعال شديد، ولم يغضب "سعد" وأخذ يتأمل منظر "عطا ا " ويضحك.. وزادت حدة "عطـا ا " وسيطرت عليه الرغبة في أن يجرح "سعد".

بيضحك كمان.. كله منك أنت يا "عبـد الرافـع".. انـت المسئول عن كل هذا، كيف نعتمد عليه وهو عاوز ياخد إذن ماما، وبيسأل ماما لسه فـي الشـارع والا خرجـت مـن الشارع.. مش عارف حتى هي فين! دي رقاعة إيه دي؟!.. إذا كان الولد ده مش عارف يواجه أمه يبقى كيـف يواجـه القوة الغاشمة؟ يا شيخ! يا شيخ! انـت أصـلاك ماسـخ يـا "عبد الرافع".. "سعد داود" قال!!. تدعي لي "سعد داود" فـي اجتماع زي ده؟.. ده مستني إذن ماما.. ده ناقص يدخل لنـا في المسائل العليا، ماما وطانط وأبله وتيزة.. و..

وفجأة زعق "سعد" في عصبية وهو يمسك كتف "عطا ا " ويهزه بعنف:

- جرى إيه يا واد انت يا واد.؟.. انت يـا واد انـت يا بلية!. وحياة ديني لولا انك في شارعنا وجاي مع الأستاذ "عبد الرافع" لكنت أمسح بيك الأرض.

وحاول "عطا ا " أن ينحي يد "سـعد" عـن كتفـه بـلا جدوى.. فبدأ يعاني من إحساسه بقوة "سعد" وبقدرته على أن يمسح الأرض به فعلا.. وهاله أن يكلمه "سعد" بهذه الطريقة بينما يتحدث عن "عبد الرافع" باحترام كبير..

وعندما لم يفلح في أن ينحي يد "سعد" صاح كالمنهار:

- سيب كتفي أولا.. واخرس يا ولد يا كلـب.. ابعـد إيدك دي عني باقول لك! انت لازم تعـرف انـت بتكلم مين يا ولد.. اتكلم كويس معايا.. انت تـروح تعمل عصبي على ماما هناك وهـي بـالروب دي شامبر!.

ورفع "سعد" يده عن كتف "عطا ا " وحطها على فمه في حنق وضغط بكلتا يديه على فم "عطا ا " وأنفه ليمنعه مـن الاستمرار في الكلام.. ولكن "عبد الرافع" نحي يد سعد بعيدا بينما ابتعد "عطا ا " يتحسس أنفه وفمه وصدغيه، مكروبـا من ضغط يد "سعد" على أنفه..

وعندما ابتعد قليلا أخذ يهمهم بصوت منهزم مرتعش:

- بقى كده؟.. يعني هوه كده؟! لكن أنا المسئول اللـي سمعت كلام "عبد الرافع" وجيت أدعو ولد كلب زي

ده لاجتماع سياسي هام.. بقى الولد ده هـو اللـي يرتب الاحتفال بيوم ١٣ نوفمبر؟!؟ بقى الكلـب ده حيقـاوم "نسـيم باشـا" وجنـود الإمبراطوريـة البريطانية!؟. أنا في سنة ١٩٣٠ كنت باشتغل مـع رجال، يقوم يحكم الزمن فـي سـنة ١٩٣٥ انـي أتعامل مع صبية؟! مع غلمان!!

وفي تلك اللحظة كان "عبد الحي" يخرج من باب البيـت ويندفع إلى الشارع وهو يتلفت حوله، وكان شوقي هو الآخر يقبل معتذرا عن التأخير ويسلم على عطا ا وعبد الرافع..

ومال عبد الحي إلى عطا ا يسلم بحرارة دون أن يكـتم شعوره بالمفاجأة:

- ا .. أتاري الشارع منور يا أستاذ "عطـا ا ". دي فرصة طيبة خالص.. اتفضل تشرب شاي. وا أنا لا يمكن أتركك رغم أني عندي أمر هـام جـدا.. لا يمكن. احنا عرب يا راجل..

فقاطعة "عطا ا " وهو يسترد هدوءه، ويتخذ هيئة رجـل مهم أكبر من سنه بكثير مقلدا طريقـة "مكـرم عبيـد" فـي الخطابة:

- أنا عارف يا أستاذ عبد الحي انـك رجـل كـريم ومضياف ومن خيرة شبابنا الـوطني.. مـش زي بعض الأولاد جيرانك.. أنا لا أنسى بلاءك طـوال الخمس سنوات الماضية.. من عهد صـدقي سـنة ١٩٣٠.. أنا..

وقطع كلامه بقهقهة مصطنعة واسترسل يقول في خطورة وهو يضحك بعصبية ويبتعد به:

- اتفضل انت.. أنا عارف انك مستعجل.. أنا مـدرك أهمية المشوار اللي عندك.. ان شاء ا نلتقي هناك الساعة السابعة تماما.. طبعا..

- وضحكا بزهو وثقة و "عبد الحي" يقول:

- يا سيدي ما احنا من قديم زملاء في الكفاح..

وتمتم سعد:

- زملاء في الكفاح قـال.. أزهريـة وصـعايدة زي بعض.. قولوا زملاء في الفتة والملوحة.. والفـول النابت..

فهزه "شوقي" مستنكرا:

- لا، لا، يا سعد.. عيب كده..! ما يصحش كده.. إيه السخافة دي.

- بينما ضحك "عبد الرافع" متلاطفا:

- ومالها الملوحة بقى يا سي سعد؟.. انت حاتعيب في الصعايدة والا ايه؟..

وتنبه "سعد" إلى أن عبد الرافع – أيضا – صعيدي، فتمتم معتذرا:

- لا لا.. دا أنا قصدي الواد "بلية".

وزعق "شوقي":

- لا يا سعد.. أنا لا أسمح لأي واحد إنه يقـول لـه كده.. عيب كده!.

وتقدم "عطا ا " ويده في يد "عبد الحي" إلى "عبد الرافـع" قائلا:

- ودلوقت ستعرف من الفتى.. حاتعرفوا بعض كويس خلال الاجتماع أيضا..

وسلم "عبد الحي" على "عبد الرافع" وهو ينصرف قائلا:

- سنشعلها نارا.. وسيصلاها الأشقى.. سلام علـيكم بقى.. لا مؤاخذة.. حاكم أنا عندي مأمورية كده قبل الميعاد إياه يا أستاذ عطا ا .. أنا وا مـا قـدرت حتى انتظر لحد ما أطلع المحطـة أطـرق أخـوك يا سي "شـوقي" يادوبـك سـلمت عليـه مودعـا واعتذرت.. لا مؤاخذة يا جماعـة.. إن شـاء ا تشرفونا بالزيارة في وقت كده يكون فسيح.. أنا لي في عنقك زيارة يا أستاذ "عطا ا ".. وانت يا أستاذ عبد الرافع لا بد عن أنك تيجي مرة كده مع الأستاذ "عطا ا " تشربوا الشاي عندي.

وانطلق "عبد الحي" في طريقه مسرعا، و "عبد الرافـع" يميل على أذن "شوقي" هامسا:

- الليلة الساعة سبعة فيه اجتماع هام في جريدة الجهـاد لتنظيم الاحتفال بعيد الجهاد الوطني.. ده طبعا أول اجتمـاع يعقد السنة دي لتنظيم احتفال ١٣ نـوفمبر وطبعـا سـتتلوه اجتماعات أخرى.. الاجتمـاع ده سيشـهده منـدوبون مـن الجامعة وطلاب من المدارس الثانوية والصناعية والمتوسطة والأزهر ومندوبين عن العمال والتجار.. أنا فايـت عليـك

متأخر شوية لكن أنا ما عرفتش بموعد الاجتماع إلا الساعة أربعة النهارده.. أصله اجتماع سري جدا والتحضير له يجري في تكتم شديد لكيلا يهاجمه البوليس.. و.. أنا شايف انك طبعا مشغول بسفر أخوك يا "شوقي".. ولكن أنا رأيي انك تطلع تسلم عليه وتعتذر له وتيجي الاجتماع.. مش لازم تودعه لحد المحطة!.

ولم يستطع "شوقي" أن يجيب.. إنه يجب أن يقبل أخاه على المحطة، ويلوح له والقطار يبتعد!.. الاعتذار يبدو مستحيلا!.. وهو أيضا لا يستطيع أن يتخلى عن الاجتماع!.. فيوم ١٣ نوفمبر عيد وطني له مكانته.. إنها أول مرة يحضر اجتماعا تحضيريا للاحتفال بهذا العيد.. وهو يعرف لماذا يسمونه "عيد الجهاد الوطني" تعلم من إخوته وهو صغير أنه ذكرى اليوم الذي ذهب فيه سعد زغلول ورفيقاه إلى المعتمد البريطاني لتنظيم الحماية وخرجوا من عنده فاستقبلتهم الجماهير تهتف: "الاستقلال التام أو الموت الزؤام"..

وسار سعد زغلول مع الثورة ثم قاد المقاومة حتى مات!

وقطع تفكيره صوت "عبده":

- العفش نزل كله والجماعة نـازلين أهـم يـا سـي "شوقي"... حاتركب في العربية معاهم والا حتاخـد الترماي مع حضرة الدكتور؟ ما تيجي في العربيـة أحسن..

ولم يرد عليه "شوقي"، ووقف تبدو عليه الحيرة.. وقبل أن يتحرك أقبلت بنت أخيه الصغيرة تتحسس يده وتشـده منهـا وتتنطط:

- تعال معانا في العربية والنبي يا أنكل.

وقال "عطا ا " بحزم واستعلاء:

- واضح ان "شوقي" كمان ما عندوش إذن ييجـي.. مش معقول يحضر الاجتماع.. يا للا بنا احنا بقى..

ولم يجب "شوقي"!

صحيح.. لا يصح أن تتخلف عن اجتماع كهذا، فأنت أحد قلائل يمثلون المدرسة الخديوية في هذا الاجتماع يا شوقي.. ولكن. أتترك أخاك يسـافر هكـذا دون أن تودعـه علـى المحطة؟!.. يمكن أن تودعه من هنا.. ولكن بمـاذا تعتـذر؟ أتقول لهم الحقيقة؟!. لن يتركوك تذهب!..

وفي الصمت الذي لف الأصـدقاء والشـارع ارتفعـت أصوات النساء مختلطة بقبلات التوديع.. وبانت إحدى النساء خارجة من على عتبة الباب، فاستدار "عبد الرافع"، ونكـس رأسه هامسا لـ "شوقي":

- على العموم ابقى اعمل آخر جهدك انك تحضر ولو متأخر شوية.. لازم تحضر بأي شكل.. الاحتفـال بعيد الجهاد الوطني السنة دي يختلف عن السـنين اللي فاتت.

وسلم، والنساء يخرجن، وتقدمت زوجة "أحمـد" تركـب العربية وهي تقول في نبرة حزينة مشحونة بشيء كالدموع:

- وداد مش وداع يا مصر..

وسلم "عطا ا " على "شوقي" بسرعة وهو يهمس:

- على العموم إذا لم تستطيع انك تيجي فما فيش داعي تتعب نفسك واحنا فينا الكفاية.

ومشى "عطا ا " ويده في يد "عبد الرافع"، وابتعد "سـعد داود"، وابتلعهم جميعا ظلام الشارع، وصوت "عبد العزيـز" يرن وسط الرجال الذين خرجوا لتوهم:

- هو الواد "شوقي" انخفى راح فين؟..

"الواد".. الحمد ان "عطا ا " لم يسمعك!.. يا دكتـور "عبد العزيز"!.. أنا الآن مندوب المدرسة الخديوية بحالها في اجتماع خطير يحضره مندوبون من كليتك لنتناقش معا فـي حالة البلد ولندبر المقاومة ضد وزارة "توفيق نسيم" وقصـر الدوبارة ونحضر ليوم ١٣ نوفمبر؟..

وتقدم "شوقي" وفي يده ابنة أخيه الصـغيرة فـدخل فـي زحمة الرجال والنساء التي يستلقي عليها شعاع مـن نـور مدخل البيت.. وعندما تبين "عبد العزيز" وجه "شوقي" صاح فيه:

- أنت يا أخي كنت انخفيت فيني داهية؟... يـا لـلا اطلع معاهم العربية انت... واحنا حانحصلكم فـي الترماي...

وسلم "أحمد" على الرجال وأقسم علـيهم أن يبقـوا فـي الشارع وركب العربة وهو يدفع إليها أخاه الأصغر "شوقي"، وقفز "عبده" إلى جوار السائق، وتحركت العربـة تترجـرج بحملها، و "عبد العزيز" وأوقف أمام البيت يقسم على الرجـال المودعين أن يبقوا في الشارع.. ولكنهم صمموا أن يروحـوا كلهم إلى المحطة... وقطع "شكري" المناقشة بقوله:

- يا أخي أنا حاركب في الأتوبيس والا فـي ترمـاي تاني غير اللي حاتركبه انت!..

وضحك الجميع، وتقدم "شكري" في الشارع يتبعـه "داود أفندي" و "أمين أفندي"، و "عبد العزيز" يلاحقهم بالاحتجـاج من خلال الضحكات... ولكنه سكت أمام إصرارهم.. ومشى "عبد المعبود" يهمس لـ "عبد اللطيف" ضاحكا:

- ما هو واحد زي "داود أفندي" ده ان ما كانش يروح يطرق الباشمهندس حايفتكر ان الدكتور عبد العزيز مش واخد بنته.... حاكم السـت جماعـة اخـوك شبكتكم في تلات عرايس وسافرت.. ولو ان الناس جايين يطرقوا الباشمهندس في !..

وضحك "عبد اللطيف" بصوت مرتفع، والجميـع ينقلـون خطواتهم في الطريق الذي يقود إلى السيدة زينب... وقطـع "داود أفندي" الصمت قائلا في حزن:

- وا الكام يوم اللي قعدهم معانا مروا زي النسيم..

ولم يجبه أحد فتابع كلامه في جد صارم:

- آنا مش عارف يا دكتور أخوك الباشمهندس كان طايق البلد اللي كان فيها دي إزاي... بقى الشمس اللي هناك حامية

لدرجة أنها تسوي العيش!.. وعـيش بـالمعنى!.. وا أنـا حبيته.. فاكر الكـام رغيـف الاـي بعتـتهم لنـا جماعـة الباشمهندس..؟ إيه رأيك ان الست خبت العيش ده وبتطلـع منهم باللقمة كده زي الحلويات!..

والتفت إليه "شكري" قائلا بخفة:

- شمس إيه دي اللي بتتكلم عنها يـا "داود أفنـدي".. ودي تيجي إيه جنب شمس السودان الاـي تشـوي البني آدم.. تشويك أنت نفسك يا "داود أفندي".

وضحك الجميع، و "داود أفندي" يكمل:

- يا حفيظ!.. الحمد اللي ربنا أكرمه بالنقل!.. ودي عيشة إيه دي في وسط العقارب والتعابين والنـاس الأشرار، والشمس الفظيعة دي.؟!

وساد الصمت لحظة وهم يسيرون... وعلى محطة الترام مال "عبد العزيز" على أذن "شكري عبد العال" هامسا:

- "داود أفندي" ده بيتكلم زي حماته بالضبط!..

بينما كان "أمين أفندي" يسأل عبد اللطيف:

- ألا قل لي يا أستاذ "عبد اللطيف" أنا عاوز أسـألك على حاجة في القانون... دلوقت الدايرة لها عنـدي حاجة؟ تقدر تخليني أهد البيت وابنيه لجوه بمتر؟.. والا يعني دا كلام تهديد... أصل "أدهم بك" كل يوم والتاني ينط عندنا ويفهمني انـه حـايش الـدايرة عني... وحتى كل ما يقابل "ميمـي" عنـد الســت "عديلة" يقول لها كلام زي ده!. إيه رأيك؟ الـدايرة تقدر تعمل لي حاجة! لها عندنا كلام!.. أنا أعـرف في القانون برضه.. لكن الراجل ده لخبطني.

وقبل أن يجيب "عبد اللطيـف"، التفـت "شـكري" إلـى "عبد العزيز" غامزا وهو يهمس.

- اتفضل يا سيدي... بقى ده تقول عليه إيـه ده؟!... فيـه تغفيـل بعـد كـده.. ا يخيبـك!.. شـوف "عبد اللطيف" أخوك بيبص له ازاي؟. بقى البغـل مش عارف أدهم بيه عاوز منهم ايه!؟.

وتنحنح "عبد اللطيف" ليقول شيئا وهو يكتم ضحكه، غير أن التــرام أقبــل فتــدافعوا عليــه... وتقــدم "شــكري"

و "عبد العزيز" إلى الدرجة الأولى.. ولحق كل واحـد مـن الآخرين بمكان في الترام.

***

وعلى رصيف القطار، وقف الإخوة الثلاثة يقبلون أخاهم الكبير "أحمد". وجرس المحطة يدق مؤذنا بالرحيل.. وعانق "أحمد" كل المودعين، وسلم على "عبده" فتعانقا ثم قبل "عبده" يده وهو يدعو له بالسلامة والهيبة والمال بالويبة.

وابتعد المودعون خطوات حتى سلم الإخوة على زوجـة "أحمد" الواقفة في شباك القطار دامعة العـين تهمهـم: "وداد مش وداع يا مصر" والى جوارها ابنتها تحـاول أن ترفـع رأسها وتستطيل لتبص هي الأخرى من الشباك...

وتحرك القطار، والمناديل في أيدي المودعين، و "شوقي" ومن ورائه "عبد اللطيف" و "عبد العزيز" يسيرون في اتجـاه سير القطار المندفع، يلوحـون لأخـيهم والنظـرات تجهـد لاستخلاص الوجه المبتعد، والقلوب تخفـق وتغـوص فـي الأعماق شيئا فشيئا، وابتسامة مكابرة على الوجه تتهدل بهـا الشفاه قليلا قليلا.. ثم تتصاعد الزفرات!

وعندما غاب القطار في البعد، واختلطت كل الرؤى في انطلاقه السريع، كانت دمعة كبيرة تنحدر على خد "شوقي" أصغر الإخوة... و "عبد اللطيف" يمشي مطرقا يتنهد! ...

ووضع "عبد العزيز" يده على كتف "شوقي"... ثم أمسك بذراعه وسارا في صمت... حتى صار إلى المكان الذي يقف فيه رجال الشارع على رصيف المحطة... فوقف "عبد العزيز" يسلم عليهم ويشكرهم، وهو يحاول أن يضحك...

وتأخر "شوقي" يهمس في أذن "عبد اللطيف"... فقال له "عبد اللطيف" برقة.

- كويس... مافيش مانع تروح... بس انت عارف جريدة الجهاد فين؟.. ثم انت حتوصل متأخر قوي يا شوقي.. واللي بيوصل متأخر في اجتماعات زي دي بيبقي محل ريبة! ...

ووجم "شوقي" وقبل أن يقول كلمة كان أخوه "عبد العزيز" يمسك بذراعه في حنان بالغ ويسير به... كأب حنون يسترضي طفله الحزين الوحيد...

ومشى "شوقي" بين أخويه في صمت... وقطعوا ميدان المحطة متلاصقين و "عبد العزيز" ما زال يحاول أن

يضحك، وفي قلب كل واحد من الإخـوة الثلاثـة إحسـاس غريب بحب خارق لأخيه.. وأحس الثلاثة بأنهم يريـدون أن يمشوا متلاصقين هكذا طويلا طويلا!

وعلى باب حارة، احتكت بهم امرأة فاقعة الثياب متعرية، وابتسمت عن أسنان ذهبية وعلى وجهها النحاسي وشـعرها، خليط كريه من الأصباغ يثير الغثيان!..

وشعر "عبد العزيز" بتقزز وتحرج.. ونظر إلـى أخيـه "عبد اللطيف" من فوق رأس "شوقي".. فقال "عبد اللطيف":

- بلاش شارع كاوت بيه ده؟.. تعـالوا نمشـي مـن شارع تاني.

ودخل الإخوة الثلاثة في الشارع المجاور متجهـين إلـى ميدان الأوبرا. وقال "عبد العزيز" فجـأة محـاولا أن يبـدد صمتهم الحزين:

- اسمعوا يا أولاد... الليلة أهـي خـلاص راحـت ومافيش مذاكرة.. تعالوا بقى أفسحكم.. أعشيكم عند الحاتي. وأدخلكم سينما... سينما مصـرية علشـان خاطرك يا "شوقي".

وتحرك "شوقي" ... فلم يتكلم.. كان لا يستطيع أن يقـاوم رغبته في أن يظل مع أخويه، وهو يشعر منذ تحرك القطار أن في أعماقه فراغا لا تملؤه غير هذه الصـحبة؟.. ولكـن كيف يتخلف عن الاجتماع.

ولاحظ "عبد العزيز" وجوم "شوقي"... وكان وجهه يبـدو مؤسيا.. فتحسس عبد العزيز وجه أخيه مداعبا.

- ا ... دا انت يا واد يا شوقي قربت تبقى طولي أنا و "عبد اللطيف" أهه؟... ويا أخويا يعنـي شـنبك طلع.. على رأي المداح بتاع البلد "يا لـي شـنبك طلع من أكل الظفر يا أبو خليفة!" تعالى بقى أعشيك ظفر!..

وابتسم "شوقي" على ذكر كلمات المداح، والتفـت وراءه فوجد "عبده" يقول محاولا الضحك من خلال دموعه:

- أي وا يا أبو خليفـة... يـدوم الحمـاس وأكـل القلقاس!

فقال "عبد العزيز" ضاحكا وهو يلمح دموع "عبده":

- ا .. انت هنا يا واد يا "عبده"؟.. وبتعيط ليه؟.. انت زعلان علشان مارحتش تشتغل في الهندسة...

فهمهم "عبده" متهدج الصوت:

-	وا الباشمهندز له وحشة...

فدس "عبد العزيز" في يده قطعة نقود قائلا:

-	طب خد... روح اتفسح الليلة يا عم.. بس أوعـى تحود ع الشارع التاني.. ابعد عن كلوت بيه!

واحمر وجه "شوقي" وقال "عبده" باسما:

- وماله؟ ...

ثم استدرك:

-	الغرابة انك لك كلام يا حضرة الدكتور.. ربنا يديم عليك الفرفشة، والانبساط كده ...

وانصرف "عبده" والإخوة الثلاثة يتابعون سيرهم، يلفهـم حنان حزين!.

(١٠)

توالى الدق على الباب، ورنت الأحذية الثقيلة على السـلم في صمت الليل... فتقلبت "ميمي هانم" في فراشـها وهـزت زوجها في خوف وحذر..

وسأل "أمين" بصوت مأخوذ وهو يقوم من فراشه:

- مين؟.. مين اللي بيخبط؟

وجاءه جواب خافت ثابت:

- البوليس.

البوليس!؟!.. يا مصيبتك يا "أمين"!! ...

وقفزت "ميمي" من فراشها تخبط صدرها، وجـرت إلـى مفتاح النور فأدارته، وأخذت تروح وتجئ في الحجرة كفـأر في مصيدة...

وتمتم "أمين":

- البوليس؟!.. جايين ليه؟.. عايزين إيه؟!.. يـا رب لطفك يا رب!.

وقالت "ميمي" وهي تبلع ريقها، وتتحسس وجهها المصفر، وشفتاها ترتعشان:

- انت عملت إيه يا "أمين"؟.. البوليس؟ مـين اللـي عملها فينا يا رب؟... انـت ضـيعت دفـاتر فـي الوزارة تاني زي ما ضيعت دفاتر الدايرة يا أمين؟ كده يا "أمين".

واختنق صوتها وتهدج، وشرقت بالدموع... والباب يـدق ويرتفع من ورائه نفس الصوت الثابت الخافت:

- افتح... أنا البوليس..

وهمهم "أمين" وهو يدعك عينيه ويحاول أن يلم نفسه:

- لازم هي مسألة الدفاتر القديمة بتاعة دايرة عزيز... ما هم قالوا انهم يقدروا يبلغوا ضدي في أي وقـت ان شاء ا بعد خمس سنين... مـا فـيش غيـره باشكاتب الدايرة المؤذي نسيب "داود آفندي"... هو اللي عملها.. ربنا ينتقم منك يا أدهم بيه!

وأكملت "ميمي" كأنها تولول.

- هو بعينه "أدهم بيه" قريب "عديلـة هـانم".. عينـه زايغة علي من زمان! أنا مهزآه لسه من تلات أيام

قدام كل الستات... ربنا ينتقم منه الشـايب العايـب المفتري...

وارتفع الصوت من الخارج غاضبا مهددا هذه المرة:

- حاتفتح والا نكسر الباب... افتح ...

وهرول "أمين" إلى الباب حافيا، ودست له "ميمي" الشبشب في قدميه وهو يدير المفتاح في الباب، وتراجعت مسرعة إلى غرفة النوم ووضعت البالطو على قميصها، وعـادت إلـى زوجها تساعده في شد المزلاج وتستقبل معه شـابا صـغيرا أنيقا دخل بسرعة في بدلة عادية ومن حوله ستة عسـاكر... قال وهو يدخل في صوت منخفض مؤدب:

- لا مؤاخذة... أنا ضابط مباحث قسم السيدة زينب... أنا متأسف خالص على الإزعاج ده.

وتوقفت "ميمي" بعد أن أضاءت نور حجـرة الصـالون وسألته وهي تضغط على أعصابها لتبدو متماسكة:

- مباحث؟ والمباحث لها عنـدنا ايـه؟ عـايز إيـه يا حضرة الضابط جاي ليه؟!. ايه؟.. أفندم!

وتحرج "أمين"... ولمح الضابط يفحص زوجته "ميمـي" بابتسامة غريبة... فانفجر:

- اسكتي انت.. اخرسي.. ولا امشي أدخلي جوه..

واستدار وهو يرى على وجه زوجته رعبا يخالجه القلـق والهزيمة.

- ادخلي انتي يا "ميمي" عند الأولاد أحسن يصـحوا مخضوضين.

ونكست "ميمي" رأسها، ولم تجب، ولم تتحرك.

وجلس ضابط المباحث على طرف كنبة كبيرة في حجرة الصالون وأمين أفندي واقف مضطرب... وأشـار الضـابط إليه:

- اتفضل استريح... المسألة بسيطة خالص... ما فيش داعي لده كله... الست يظهر انها عصبية شوية..

وقعد "أمين أفندي" متـزايلا علـى كرسـي بعيـد عـن الضابط... بينما رن في الصالة صـوت عسـكري يقـول لزميله:

- خف رجلك شوية أحسن الجزم تفزع الكتاكيت اللي جوه. دا العيال دول أحباب ا والليي يسرعهم مـن نومهم يغضب عليه ربنا... خف رجلك شوية أحسن العيال يصحوا...

ونهض الضابط إلى الصالة قائلا بصوت منخفض:

- بس يا جدع انت وهـوه... والا... اطلعـوا بـره الشقة.. خليكم بره أحسن.. أخرجـوا مـن غيـر دوشة.. كفاية في الصالة واحد منكم وواحد علـى الباب واتنين عالبسطة... واتنين عالسلم.

وانسحب العساكر محاولين ألا يحدثوا ضجة أثناء السير، وقعد "أمين" ينظر إلى الضابط بقلق كبير:

- أيوه يا حضرة الضابط... خير... أنا تحت أمرك

وأجاب الضابط بهدوء:

- خير ان شاء ا ... المسألة بسيطة خالص...

ودس يده في جيبه – ونظرات "أمين" و "ميمي" تتعلق بيده فأخرج علبة سجاير وفتحها ومد يده بها إلى "أمين" فاعتذر.. وقلب الضابط نظرات مترددة بين علبة السجاير وبين "ميمي" الواقفة فهزت رأسها مستنكرة وهي تتأمل الضابط... وبادره أمين قائلا:

- مراتي مش من الستات اللي بيدخنوا.

وأخذ الضابط سيجارة وأشعلها ببطء وأخذ يعبث بالعلبـة بين يديه.. فلمح "أمين" ماركة العلبة ونوعها.. هي سـيجارة مصرية... اسمها المصري أفنـدي.. نـوع مـن السـجاير لا يدخنه غير الشباب الذين يتحدثون دائمـا عـن الحريـة والدستور والاستقلال! ...

وحملق أمين في الضابط بعجب يخالطه الارتياح، وقـال متشجعا بطرب:

- سعادتك بتشرب دخان مصري!

ولم يجب الضابط، وحاول أن يرسم تقطيبة حـادة علـى وجهه الصبوح البسام...

ولم تعجب أمين تقطيبة الضابط، وإن ظل يزحف علـى قلبه شعور خفي بالارتياح..

وعاد الضابط يخطف نظرة سريعة فاحصة إلى "ميمـي" كأنه يعجب لوجود امرأة بمثل هذا الجمال في شارع كهذا... وتضايقت "ميمي" من نظرة الضابط إليها، ومـن الصـرامة التي اتخذها وجهه فجأة ردا على تهلـل زوجهـا وتمسـحه به...إن زوجها لا يحسن الكلام في الغالب، وهو أحيانًا يقول أشياء لا لزوم لها، ولكنها لا تحب مع ذلك أن يتجهم رجـل

في وجه "أمين" لمجرد كلمة طيبة قالها ليطمئن بها نفسه!... وفكرت في العساكر الذين كانوا مرشوقين في الصالة والذين يتناثرون الآن على السلم، وباب الشقة مفتوح على آخره...

ودوى في أعماقها صراخ عاصف أوشك أن يهب، ولكن صوتها اختنق في حلقها قبل أن تقول كلمة، فأمسكت شعرها بيدها في عصبية وعيناها المفتوحتان مشدودتان إلى حوافها..

وسرى في الصمت أنين طفل، ثم ارتفع بكاء آخـر مـن الداخل، و"ميمي" في مكانها تتنهد وتكاد أنفاسها تملأ المكـان بزفرات كالفحيح.

وارتعشت بغتة وانقضت في وجه الضابط:

- أنتم جايين تاخدوا الراجل ليه؟... تاخدوه من مراتـه وأولاده ليه؟!.

ولم تستطع أن تكمل، وانهارت في بكـاء تنـاثرت منـه كلمات تلعن "عديله هانم" وقريبها الباشكاتب "أدهم"، والزمن، والمباحث وتندب وحدتها وضياعها...

ودهمت الضابط رهبة مثقلة بالضيق والندم وهـو يـرى فزعها وأحد أطفالها يتحسس طريقه إليها باكيا في الظـلام، ومن ورائه طفل آخر يصرخ من الذعر... ثم طفل ثالث.

وقامت "ميمي" تحمل طفلا وتسحب الآخرين وبدنها كلـه يرتعد ونحيبها يملأ صمت الليل.

وأشار الضابط إلى العسكري الذي كان يقف في الصالة:

- خليك بره.. انزلوا كلكم على باب البيت البراني...

وامتلأت السلالم بقرعات أحذيتهم وبعض كلمـات رثـاء للأطفال الذين هبوا من نومهم مذعورين..

وقام الضابط إلى "أمين" أفندي" قعد إلـى جـواره علـى كرسي وثير.. و "أمين" واجم مطرق، كأنما راح الدم منه!

وقال الضابط:

- اسمع يا حضرة.. أنا آسف للازعاج ده كله.. أنا جاي بخصوص واحد سـاكن عنـدك فـي بيتـك مـش بخصوصك أنت.. مش أنت برضه صاحب البيت..؟

وأكمل الضابط و "أمين أفندي"، يحملق فيه ويتعجل كلماته بتوجس:

- أنا جاي لك بصفتك صاحب البيت ده.. بشأن طالـب في دار العلوم اسمه "عبد الحي"..

واسترد "أمين" أنفاسه وزفر بقوة مقاطعا الضابط:

- "عبد الحي"؟! ا يخرب بيته! ماله "عبد الحي"؟! قال علي إيه؟ سعادتك جاي..

وهدأه الضابط:

- يا سيدي ما قالشي عليك حاجة.. المسألة لا تخصـك أنت.. بس افهمني... أنا وا ..

وقبل أن يكمل، وهو يبحث عن كلمات يهدئ بها "أمـين"، إذا بباب الشقة المقابلة يفتح وصوت "عبد العزيز" من الخارج يدوي ثقيلا مرتعشًا.

- ايه يا جماعة الشغل ده؟.. خناق وصوات السعة تلاتة الصبح كمان؟ ما تختشوا بقى وتقدروا ان الواحد عنده مذاكرة وامتحانات! ا !.. جرى إيه يا ست "ميمي"!؟ إيه الحكاية؟. إيه العساكر دول؟.. انتو جبتو البوليس لبعض والا إيه الحكاية؟.. وسكت "عبد العزيز".

وأخذ سكون الليل يئن برجع نواح "ميمي" من داخل غرفة نومها.. وفجأة جلجل زعيق "عبده" من بعيد:

- بتقول إيه يا شاويش؟!.. انتوا المباحث؟!.. شـي ا يا مباحث!.. والمباحث جايـة تعمـل إيـه هنـا؟!.. دا عمر شـارعنا ده مـا دخلـه صـنف عسـكري

ولا عسكري مرور حتى! انتو فاكرين ايـه؟!. هـو "أمين أفندي" لا سمح ا بيتاجر فـي حشـيش؟ والا انتوا فاكرين الست "ميمي" من بتوع كده والا كده؟!.. روح يا عم انت وهو ا يرضى عنكم.. قطع لسـان اللي يظن فيهم سوء.. دول ناس أشراف.. غلابـة!.. هي الست "ميمي" حمقية وإيدها طويلة على خلـق ا شويه لكن كلنا على ا .؟ روح يا عم انت وهوه روح ا يسهل لكم وا لأصحي لكم البيه "شكري"..

وذاب صوته وهو يبتعد بينما دخل "عبد العزيـز" شـقة "أمين أفندي" وهو يدعك عينيه بطرف إصـبعه، ولـم يكـد "أمين" يراه حتى قام إليه مرحبا مستجيرا كأنه وجد يدا تمتـد إليه من المجهول لتنشله من حفرة ضيقة:

- شوف يا دكتور "عبد العزيز" شوف يا "عبد العزيـز" يا أخوي اللي جرى لنا على آخر الزمن.. البـوليس جاي لي!.

وتهدج صوت أمين، وزوجته "ميمي" ما تزال تحـاول أن تسكت الأطفال في الداخل، وصدى بكائها يـدوي فـي أذن "أمين"، يعصر قلبه ويضغط على حلقه ويجرح صدر ضابط

المباحث.. وعندما شعرت "ميمي" بمقدم "عبد العزيز"، ارتفع نشيجها وهي في الداخل وأوشكت أن تطلق صرخة مفزعة، بينما كان الضابط يقول لزوجها "أمين":

- المسألة بسيطة يا حضرة الفاضل.. أنا عمال أقول لك من الصبح أنا جاي بخصـوص موضـوع يتعلـق بمسجون سياسي.. أنا متأسف اللي جيت في وقت زي ده.. لكن أعمل إيه بس الأوامر كده. وأنا قلـت لـك يا...

وهب "عبد العزيز" على قدميه فجأة وعيناه تتفتحان علـى الضابط وهو يصيح في عجب:

- ا ؟ الصفطاوي؟.. هو انت ازيك يا واد يا كمال.

وفوجئ ضابط المباحث، ووقف حائرا مبهوتا.. ثم ارتمى في أحضان "عبد العزيز" يعانقه بحرارة:

- خليفة؟!.. يا سلام!! ازيك يا عبد العزيز.. انت لسـه ساكن هنا برضه من أيام ما كنا في الخديوية.. يـاه.. سبع سنين؟.. أيوه.. سبع سنين السنة دي..

فاستطرد "عبد العزيز" ضاحكا مشيرا إلى الأغنية الشائعة أحيا وأموت في الحتة دي.

فقال الضابط وهو يشد "عبد العزيز" إلى جانبه ويقعد معه على كنبة كبيرة ويغمز بعينه إلى "ميمي هانم" في الداخل متجاهلا تماما وجود زوجها.

- طبعا يا عم. واللي عنده جيران زيك يعزل ليه؟ ازيك يا "عبد العزيز".. وا زمان! دي ظروف إيه دي؟.. يا سلام.. يا راجل من سنة ما خدنا البكالوريا لحد النهارده لا أشوفك ولا أسمع عنك؟ ازيك.. كل اللي أعرفه عنك انك دخلت الطب.. انت خلصت ولا لسه! بتشتغل فين دلوقت!.. الغرابة وأنا داخل الشارع افتكرتك وافتكرت أيامنا..

- فأجابه "عبد العزيز" وصوته يرتفع ثابتا كعادته:

- هو انت فاكر الطب زي البوليس تنسلق في تلات سنين وتقوم ساكع المرتب المعتبر!.. لا يا عم..! أنا لسه عندي آخر امتحان في ديسمبر.. لكن انت فين أراضيك؟ تعرف؟. قابلت مين يا سيدي وقعدنا نتكلم عنك قريب؟. أيوه.. أيوه.. الشيخ حمزة دبوس. ازيك يا كمال.. وبعتم بيت الحلمية من زمان يا أخي ولا حد يعرف فين أراضيك!...

وتنهد الضابط "كمال" وغام عليه حزن طارئ وتنهد قائلا:

- دنيا! يا عبد العزيز!.. بس نقعد مع بعض وأنا أحكي لك؟ دا أنا شفت...

وقاطعه "عبد العزيز" مغيرا جو الحديث:

- وانت فين دلوقت يا وله؟..

فضم الضابط أطراف أصابعه مشيرا إلى "عبد العزيز" أن يتأنى ويراعي الظروف وقال مبتسما:

- زي ما انت شايف يا دكتور.. ضابط مباحـث قسـم السيدة. وقام "أمين" من الحجرة يجري إلـى زوجتـه ممتلئا بالطمأنينة:

- بس يا ميمي.. اطمئني.. دا الضابط طلـع صـاحب الدكتور عبد العزيز الروح بالروح!.. دول بيهـزروا مع بعض.. الدكتور عبد العزيـز بيقـول للضـابط يا واد.

وقبل أن يعود "أمين أفندي" إلى الحجرة، كـان الضـابط "كمال الصفطاوي" ينظر إلى النجفة الفاخرة وإلى الكراسـي المذهبة الوثيرة، ويتحسس السجادة السـخية الـوبر، وهـو يتساءل:

- ايه الصالون العجيب ده؟! دا شغل برنسـات.. بـس يا خسارة مش راكب قوي علـى الأودة أم شـبابيك مكسرة دي!..

وابتسم "عبد العزيز":

- ما هو فعلا شغل برنسات! ما هو أمين أفنـدي كـان أصله بيشتغل في دايرة البرنس عزيز.. ولكـن قـل لي.. انت جاي لهم بالتجريدة دي ليه؟ إيه الحكاية..

فقال الضابط:

- ما فيش حاجة تخصهم بالمرة.. وا يا عبد العزيز أنا عايزك تطمـنهم أنـت!.. دول أعصـابهم انهـارت خالص!.. يا أخي شغلتنا دي باستمرار تحط الواحـد في مآزق!.. القصد..

وسكت متنهدا و "أمين" يعود من الداخل، وعلى السلم يرن صوت "عبده":

- اتفضل يا بيه! اتفضل يـا "شـكري بيـه". اتفضـل يا أسطى "عبد المعبود".. اتفضلوا شـوفوا المصـيبة اللي حطت على راس أمين أفندي في الليل الأضلم!.. جايبين المباحث قال!!.. مباحث وحكومة على إيـه؟!

على إيه يا حكومة تعملي كده في أمين أفندي؟! طيب يا حكومة وعلى رأي الأدهم "وان عشت يا حكومـة لالبسكم طرح وشيشان".

وعلت ضحكة عسكري من الخارج قائلا:

- أي وا .. طب تعال بقى يا للي تنحش كمل لنا موال الأدهم. قل لنا يا واد قول: يا حكومة دا أنا الأدهم قتل لي من العيال ولدين.. يا حكومة أنا الأدهم والأدهـم أجيبه منين.

وزعق "عبده":

- ابعد عني يا جدع انت وهو! تدهملوا الدنيا وتقولـوا غني موال؟! يا خسارتك يا أمين أفندي.. يا خسارتك يا ست ميمي في البهدلة دي كلها.. هم بس عملوا إيه يا أخواتي؟! عملوا إيه يا حكومة!؟.. يعنـي كـانوا شتموا الملك؟ وافرضوا حتى انهـم شـتموه! طـب وماله؟. شتموا.. من غلبهم!. جايبين لنـا المباحـث؟ طب آدي احنا جبنا لكم "شكري بيه"!.. هيه!

ونهره "عبد العزيز" من الداخل وطلب منـه أن يخـرس تماما، بينما "شكري عبد العال" يتقدم إلى الصـالون ووراءه "عبد المعبود".

ووقف ضابط المباحث يسلم عليهما، وقعد "شكري" مـلء كرسيه بالجلباب والبالطو العسكري وأزاح طربوشه قلـيلا.. وحين كان "عبد العزيز" يعرفهم بـبعض اقتحمـت "ميمـي" الغرفة مستغيثة متهدجة:

- الحقنى.. الحقني يا عم "شكري بيه"..

وقام "شكري" فأمسك بيديها مهدئا، وحـاول أن يـدفعها برفق إلى الصالة، ولكنها قعدت معهم في الصالون.. وعـاد هو يجلس في مكانه مشدود الأعصاب بلا كلمة.

وساد الوجوم..

ودخلت امرأة "عبد المعبود" من باب الشقة ووقفـت فـي الصالة، وعلى رأسها شال من الصوف ينسدل على أذنيهـا وعنقها ويخفي كل شعرها.. والحيرة تضطرم على وجههـا، ونادت "ميمي هانم" فلم تتحرك "ميمي" وظلـت تنظـر فـي الفراغ كالمذهولة وصدرها يعلو ويهبط بشكل ملحوظ.. فقال

عبد المعبود موجها كلامه إلى "ميمي" وهو يخفـض عينيـه متحرجا:

- اتفضلي انتي يا ست أم.. يا ست.. يا ست "ميمـي".. اتفضلي جوه مع جماعتي.. انتي ما لكيش قعدة هنـا دلوقت في وسط الرجالة كده.. قومي حتـى أعملـي شاي علشان البيه.

وقامت "ميمي" بخطوات بطيئة مترنحـة، حتـى بلغـت الصالة فتلقفتها "أنيسة" زوجة "عبد المعبود" بلهفة، وعانقتهـا مواسية. وتهدجت "ميمي" بالبكاء من جديد وهي في أحضان "أنيسة".

ونظر "شكري" إلى ضابط المباحث بحسم:

- أيوه يا حضرة الضابط. إيه المهمة اللي انـت جـاي بخصوصها؟ عايز إيه من الجماعـة دول؟. اتفضـل اتكلم.. احنا جيرانهم وأهلهم.

فأجاب الضابط ببساطة وسرعة:

- وا يا أفندي المسألة بسيطة وما كانشي فيـه داعـي للانزعاج والضجة دي كلها.. لكن الست بقى قعـدت تصرخ والدنيا اتقلبت وما ادتنـيش فرصـة أتكلـم..

المسألة كلها تتعلق بواحد مسـجون سياسـي اسـمه "عبد الحي" ساكن في بيتهم في الـدور الأرضـي.. قبض عليه من يومين وهو خارج من الاجتماع اللـي عقدوه الطلبة بدار جريدة الجهاد لأنه قال كلام خطير جدا ضد الحكومة.. والمطلوب هو أخذ تحريات عنه وتفتيش بيته ولأنه رفض حتـى يـدينا العنـوان!.. ويظهر انه أخفى المفتاح.. واحنا عرفنـا بتحرياتنـا طبعا انه ساكن هنا!.. آدي المسألة كلها..

وسادت الدهشة وبهت "عبد العزيز"

- "عبد الحي" مقبوض عليه!؟. أنا راخر بقى لي يومين مش سامع له حس ولا خبر!.. وا دانا فاكره بايـت عند واحد صاحبه بيذاكروا سوا والا حاجة..

وارتفع صوت "عبده" من حيث وقف في الصالة:

- يا خبر أسود!.. الشيخ عبد الحي!؟.. يا..

وغمرت زعيق "عبده" من الخارج، صيحة فرح أطلقهـا "أمين أفندي" وهو يقف:

- بس كده؟! انتو جايين علشان كده!... طيب قول مـن الصبح يا حضرة الضابط.. ا يقطعك يا عبد الحـي

ويقطع أيامك.. يا ميمي دول جايين بس علشان شـقة عبد الحي..!

واعترض "عبد المعبود" مشمئزا:

- ما بلاش هيصة على الفاضي يا أمين أفندي! ما تقعد بعقلك ومقامك كده خلينا نفهم إيه الشـغلة!.. بتقـول عبد الحي مقبوض عليه ليه يا حضرة الضابط؟!.

ولم يتكلم الضابط، وأخذ ينظر إلى أمين الذي كان يوشك أن يقفز من الفرح و "شكري عبد العال" يرمقه بغيظ وحنق، وازدراء، غاض فيه فجأة كل الإشـفاق الـذي كابـده منـذ لحظات.

وقام "شكري" إلى "أمين"، وجذبه من يده بشدة:

- اقعد اقعد يا أهبل.. وبلاش كلام خايب لحد ما نفهـم الموضوع كويس..

وظل "عبد العزيز" ينظر إلى الضابط ثم تهدج صوته:

- إلا حكاية القبض على عبد الحي دي!؟.. يا خسـارة يا عبد الحي..

وتحرج الضابط قائلا بخجل:

- وا أنا آسف جدا يا جماعة.. يعني دي أوامر.. وأنا دايما أحاول أوافق بين الأوامـر وبـين ضـميري.. يا جماعة أنا وا .. وربنا يعلم.. أنا آسف جدا..

وتوقف قليلا، وهو يتأمل النظرات التي تسـتلقي عليـه، و "عبد العزيز" مأخوذ يتنهد..

واستمر الضابط يقول متخلصا من حيرته شيئا فشيئًا:

- وا يا جماعة الحقيقة ان عبد الحي ده شاب كـويس جدا.. رغم أنه انضرب واتعذب كتير في المحافظـة فهو لم يعترف باسم واحد من اللي نظموا الاجتمـاع ولا باسم اللي دعاه.. حتى عنوان بيته رفض يقـول عليه وقال انه ساكن في بيت ا وربط على كـده!.. تصوروا.. غيره لم يحتمل ضربة واتكلـم وبعضـهم اتكلم من غير حتى ما حد يهدده!.. يا سـلام!. ولـد صحيح! أنا طبعا لازم أفتش بيته وأرفـع تحريـاتي للقسم المخصوص من قبل الساعة سبعة الصبح.

ووضع "شكري عبد العال" رجلا على رجل ونظر إليـه بتؤدة:

- لكن يا ابني هل أنت عارف انت بتخدم مين دلوقت؟!..هل انت يا ترى بتخدم مصر بالأعمال دي؟!.. أبدا.. دا كله لحساب الإنجليز.. ليه تسمحوا للإنجليز انهم يستعملونا ضد بعض!.. ما تخليهم هم اللي يعملوا الأعمال الفظيعة دي مباشرة من غير واسطتنا احنا.. لكن مع الأسف كل واحد بيقول أنا لوحدي حاعمل ايه؟!.. لا لا.. ده مش تمام!.. لازم كل واحد في مكانه يعمل الواجب كوطني وبس، وهو في الحالة دي مش حايبقى لوحده.. انت باين عليك شاب وطني.. لكن ليه تعمل كده؟.. ليه تنفذ أوامر الإنجليز، الوطن يطالبك بعكس هذا يا ابني!.

وفوجئ "الضابط" كمال الصفطاوي بكلام الصاغ "شكري عبد العال".. وحاول أن يداري اضطرابه في ضحكة شاحبة..

وسكت الجميع، ونفس "كمال الصفطاوي" تجيش بمشاعر عديدة مبهمة.. ولم يعرف كيف يقول!.. "عبد العزيز" يضع يده على خده ويطأطئ رأسه من الحزن! وربما كان يحمله مسئولية القبض على "عبد الحي"!.. ولكن عبد العزيز صديق

لكمال من أيام الخديوية، وهو مازال يذكر بلا ريب كم مشى إلى جواره في المظاهرات وخاض معه دخان البارود وهـو يهتف بسقوط الإنجليز وحياة وادي النيل.. ولكن اليوم، يـوم آخر!.. لا شيء يخيف "كمال" اليوم مثل اسم "راسل باشـا" الضابط الإنجليزي حكمدار العاصمة!.. وإن كان لا يستطيع أن يواجه أحدا – حتى نفسه – بأنه يرهـب "راسـل باشـا" أو يخدم غيره من الإنجليز!.. ومع ذلك فلو أنه تمرد فما هي النتيجة؟!.. إن مرتبه الآن لا يكفي لثمن أدويـة أمـه التـي أصابها الشلل بعد موت أبيه بعام واحد.. وهو يربي أخا لـه في الدراسة الحربية، وأخا ثانيا في المدرسة السعيدية صغيرا متحمسا كالذين يقبض عليهم، ويرعى أختـا أرملـة مـات زوجها ولم يترك لها غيـر الحسـرة والفجيعـة الدائمـة، وطفلين!..

ماذا لو أحيل إلى الاستيداع؟.. إنه الآن يقترض إلى جوار مرتبه ليواجه النفقات وهو لا يستطيع أن يسهر مع زملائـه لأن مرتبه لا يبقى منه شيء، حتى ثمن السجائر يفتقده فـي بعض الأحايين، وكم من مرة فكر في أن يمتنع عن التدخين! وهناك مع ذلك من يظن أنه سعيد مرتاح في بحبوحـة مـن

العيش!.. أنت يا حضرة الصاغ شكري عبد العـال رجـل آخر.. وأنا أنحني أمامك الآن إكبارا لك.. في أيامك ضربت رئيسك الإنجليزي بالكرسي ولم تبال!.. من يدري كيف كانت ظروفك.. ربما لم تكن لك وقتها أم يقتلها فجأة أن يتأخر عنها الدواء!!... إنك لم تجرب هذا العذاب الذي أعانيه كل شـهر عند ما أتحسس حساباتي لأوفر أولا ثمن الـدواء لأم ربمـا ماتت أمام عيني!!... لو لم يكن لنا بيت بعناه!.. إنك حتـى لا تعرف ماذا حدث لي وأنا في السـنة الأولـى بمدرسـة البوليس!.. لو لم يترك أبي لنا بيتا لما اسـتطعت أن أكمـل دراستي!... ثمن البيت هو الذي دفع حياتنا حتى تخرجت من البوليس وأصبح علي أنا وحدي أنا أعول هذا الحشد كلـه... أنا أعرفك يا حضرة الصاغ شكري منذ كنـت طالبـا فـي الخديوية... حكى لي عنك عبد العزيز بإكبـار... يجـب أن تعرف أنني كافحت كثيرا أنا أيضا يا حضرة الصاغ... أنـا أعرف مفخرتك، حدثني عنك "عبـد العزيـز" ونحـن فـي الخديوية، وذكر لي الآن بطولتك مع الضابط الإنجليزي وهو يعرفنا ببعض... كأنما أصبحت هذه المفخرة علما عليـك!.. ولكن هذه المفخرة في تاريخك ليست سببا كافيا لهذه النظرات

المشفقة التي تلقيها علي.. أنا وطني مثلك تماما!.. وأنت أيضا في الخدمة مثلي الآن... ومن يدري... ربما استعملوك لضرب مظاهرات ١٣ نوفمبر عندما تنفجر... وربما لم تستطع ساعتها أن تصنع كما صنعت منذ عشرة أعوام!...

وقطعت الصمت صيحة من عبد العزيز:

- بقى كده يا كمال؟! عبد الحي مقبوض عليه! ...

وزلزل "كمال الصفطاوي" لرنين كلمات "عبد العزيز"... وتلعثم قليلا، ولم يستطع أن ينظر إلى "عبد العزيز"... وسعل وهو يقول بتحرج:

- وا يا عبد العزيز دي أوامر.. أصلك ما تعرفشي العسكرية يا عبد العزيز... اسأل حضرة الصاغ! حضرتك تعرف العسكرية كويس... وأنا على كل حال عاوز آخذ منكم كلمتين تحري عن عبد الحي ونشوف مسألة المسكن.. يعني إذا كان ممكن..

وتعثرت الكلمات في فمه، وأدار إصبعه تحت ياقة قميصه كأنما يوسع عن رقبته، وهو يكمل في زفرة واحدة:

- نفتش مسكنه بشكل ودي ونرفع التقرير للقسم المخصوص.. ونخلص.

وابتسم شكري وهو ينظر إليه معجبا به.. وقال:

- اسمع يا ابني.. سيب الوظيفـة دي أحسـن.. أنـت خسارة! اشتغل في الضبط والربط.. في المرور.. في أي حاجة.. بس ابعد عن أي صلة بالبوليس السياسي.

ونظر "كمال" إلى "عبد العزيز" محاولا أن يرسم ابتسامة، ثم همس ببرود:

- إيه؟ سرحان ليه كده؟! المسـألة إن شـاء ا خيـر يا عبد العزيز.. مـا فـيش أي ضـرر حايصـيب عبد الحي.. ويمكن يخرج عنه بسرعة جدا.. بأسـرع مما تتصور.. بس أخلص أنا من الإجراءات بتاعتي! أنا يا "عبد العزيز"...

ولم يكمل، والتفت إليه "عبد العزيز".. والتقت نظراتهما، وتألقت عيونهما فجأة بشعاع جميل حمل إلى قلب كل منهمـا ذكرى رائعة من صفاء الأيام الأولى حين كانـا يخوضـان الحياة والخطر معا وأولى مغامرات العمر جنبا إلى جنب..

وفاضت السكينة في نفس "عبد العزيز"..

وأخرج الضابط علبة سجائره المصـرية، ووقـف يقـدم سيجارة لـ "شكري بك" فاعتذر، واعتذر الجميـع، وتنـاول "عبد المعبود" السيجارة وأشعلها قائلا بارتياح:

- تسلم يا بيه.. سيجارة المصـري أفنـدي دي أنـزه سيجارة! ولأول مرة منذ أقبل الضابط انطلقـت فـي الليل ضحكات مطمئنة.

وتحسس الضابط جيبه، وأخرج منه دفترا صغيرا، وأخـذ يقلب في صفحاته، حتى وقف عند صفحة خالية وبدأ يتهيـأ للكتابة وهو يسأل:

- هو عبد الحي ده ميوله إيه؟

فبادر "عبد العزيز" بخفة:

- ميوله. لسعاد هانم مسميها سعا..

فهز "عبد المعبود" رأسه مستنكرا، وحـاول "شـكري" أن يلوم "عبد العزيز" ولكنه انغمر في الضحك الـذي اسـتغرق الجميع، و "عبد العزيز" يكمل:

- ده راجل في حاله يا شيخ.. ربنا يرد غيبته.. ميـول إيه بس يا كمال!؟

وعاد "كمال" يحاول أن يقطب وجهه متخذا هيئة حاسمة:

- أنا قصدي ميوله السياسية.. تعرفوا عنه إيـه؟ يعنـي الناس اللي بيجتمع بهم في بيته.. آراؤه اللي بيقولهـا في السياسة.. أنا قصدي كده.

واحتد "عبد العزيز" فجأة:

- ا ؟.. انت حاتشغلنا مخبرين على بعض والا ايه؟!.. وتداخل صوت "شكري عبـد العـال" فـي صـوت "عبد العزيز":

- لا لا.. ما يصحش كده.. أنت عاوز تشغلنا مخبـرين للقسم المخصوص!.. ميول إيه وبتاع إيه يا ابنـي!.. دا الولد مشغول بمذاكرته باستمرار وفي حاله..

وتأفف الضابط:

- يا جماعة أنا مش قصدي أشغلكم مخبرين في القسـم المخصوص ولا حاجة! جرى إيه يا عبد العزيز.. أنا قصدي أعرف الحاجات اللـي اشـتهر بهـا بيـنكم لأضمنها تقريري عنه.. لازم أرفـع التقريـر قبيـل الساعة السابعة صباحا، وأحب أفتش البيت وأشـوف إن لم يكن عنده أوراق خطيرة أو منشورات حيخرج

على طول.. آدي المسألة.. أنا عاوز أعرف بس هو مشهور بإيه بينكم.. أما الأساتذة بتوعه في دار العلوم اتكلموا وقالوا عنه مثلا إنه تلميذ مجتهد.. ومشـهور بميوله الأدبية ورئيس تحرير مجلة المدرسة..

فانقض "أمين" بضيق:

- أكتب يا حضرة الضابط.. مشهور عنه انه بصـباص بصباص ونجس.. وان فتشت بيته حتلاقـي أحجبـة بالعشق والوصال!..

ونفخ "شكري" مروعا:

- اسكت انت. قم شوف الشـاي.. أبعـت لنـا السـت أحسن!. إيه الكلام اللي عامل زي كلام خالاتـك ده.. دي الست بتتكلم أحسن منك.. بقى ده كلام حد يقولـه على جار في محنة!..

فقام "أمين" وهو يقول مستنكرا:

- محنة إيه بس؟ ما هو اللي خلي نفسه في محنة!.. هو اللي ودى نفسه في داهية.. وما نبناش منـه طـول عمره غير الفضايح والخضايض.. بقى ده جار ده..

جايب لنا البوليس في عز الليل!.. هـوه احنـا وش كده!؟.. ما كل المصايب جاية من تحت رأسه!..

بينما ارتفع صوت "عبده" من الخارج:

- اكتب يا حضرة الضابط أنه ما وردشي على شارعنا ولا حايورد عليه واحد أطيب من الشيخ عبد الحـي! أنا باقول أهه.. والشهادة .

وقام "عبد المعبود" يدفع "أمين" إلى الداخل مؤنبا:

- روح.. روح شوف الشاي!.. روح انـت يـا شـيخ روح..

وشيعة "عبد العزيز" بنظرة استغراب، وهز رأسه ويـده، وعاد يتلفت إلى "شكري" مبتسما.. واندفع "شـكري" يقـول بصرامة:

- اكتب يا حضرة الضابط اكتب.. قل على مسـئوليتي ان عبد الحي طيب. شاب عنـده أخـلاق.. شـجاع. وطني. غيور.

فتدخل عبد العزيز ساخرا:

- استني بس يا شكري بيه.. ما هو وطني دي وغيـور كمان.. دي اللي حاتوديه في داهية صحيح!.. بـلاش كلمة وطنـي فـي عرضـك فـي الظـروف دي.. دا مقبوض عليه بتهمة انه وطني!

قول عنه انه..

وانقطعت ضحكات "عبد العزيز" علـى صـيحة حـادة مستنكرة من "شكري عبد العال":

- يعني نقول عليه انه خاين علشان ننقذه؟!.. نقول عليه انه إمعة!!. لازم يعني يكون من برادع الإنجليز؟!.. دا أنا الولد عبد الحي كبر في عيني دلوقت بس!..

ودخلت "ميمي" بالشاي ووراءها "أمين أفندي" ووضـعت صينية فضية على مائدة كبيرة في الوسط، وبدأت تقدم بنفسها الفناجين، وأمسك الضابط "كمال" بفنجانه وهو يتأمـل دقـة نقوشه الثمينة بعجب.

وقعدت "ميمي" يغزوهـا شـعور خفـي بـأن الجميـع ينتظرونها.. ولم يعد الفزع يقبض على وجهها ويشد أطراف ملامحها ويرعش يديها.. وتساءلت

- إيه يا عمي شكري بيه.. إيه؟.. فيه حاجـة حصـلت للشيخ عبد الحي لا سمح ا ..

كان في وجهها طيبة واسترخاء، وصوتها ينسـاب دافئـا مشحونا بالحنان.. ورنت إليها نظرات الضابط وهو يقول:

- وا   يا ست هانم إذا كان ممكن تشوفي مفتـاح شـقة عبد الحي عندكم: بس نفتشها بسرعة ونرجـع لكـم المفتاح تاني.. إذا كـان ده ممكـن يعنـي.. نبقـى شاكرين.

والتفت إليها الجميع مترقبين.. ونظرت هي إلى الضـابط بقوة، قائلة في صوت خرج منها ضعيفا ولكنه يحمـل نبـرة استنكار رهيبة:

- أفندم؟!.. مفتاح إيه يافندم؟.

ولكن "أمين" زعق بغلاظة:

- امشي ادخلي جوه هاتي مفتاح شقة الشيخ عبد الحـي من سكات.. امشي.. إيه اللي حشرك انتـي. قـومي ياللا هاتي المفتاح. البيه الضابط عاوز يفتش الشقة..

كان معروفا عند "شكري" و "عبد المعبود" و "عبد العزيز" أن "أمين" لا يستطيع أن يكلم امرأته بهذه الطريقة أبدا، فمـن

الممكن أن تلتقط أي شيء أمامها وتقذفه به وتنهـال عليـك بأظافرها وبالشتائم.. ولكنها سكتت وغاض لونها، وخرجـت مطاطئة الراس، وعلى صـفحة وجههـا اختلاجـة الغـيظ المكظوم..

ونظر "شكري" إلى "أمين" وتمـتم وهـو يضـغط علـى أعصابه جاهدا:

- ليه يا ابني بس تعمل كده؟ ليه تصم نفسك بعملة زي دي؟ ليه تحمل مراتك على ارتكاب خيانة فـي حـق شاب وطني مسجون! هو حد ألزمك تجيب مفتاح شقة عبد الحي؟.. والا يعني بتتطوع للخيانة.

ودوت كلمة "خيانة" في أذن "أمين" وأرعبته.. ولم يستطع أن يقول كلمة.. واتجه بعينيه إلى ضـابط المباحـث كأنمـا يستنجد به ليتم ما جاء من أجله، في ضيق ظاهر بالآخرين..

- اسمع يا كمال.. تعرف؟.. الحقيقة حكاية المفتـاح دي سخيفة ومحرجة ومش معقولة كمان.. مـا تكسـروا الباب أحسن.. أنتم يعني خايفين مـن الطعـن فـي التفتيش!.. يا سيدي!.. هو فيه حد بيقدر قدام البوليس السياسي!.. لكن بشرفي يا كمال ما حتلاقي حاجـة..

تعرف بعد وجع الدماغ ده كله حتلاقي إيه؟.. كتـب المدرسة!.. وبالكتير يمكن تلاقي كام ديوان شعر قديم يكون عبد الحي وقعهم من الشيخ حمـزة دبـوس!.. يعني يا كمال..

ولم يكمل "عبد العزيز" وتمشى.. يعاني الزهـق، وعـاد يجلس.. وعبد المعبود يقول:

- وا يا حضرة الضابط ما في عنده غيرهم شوية كتب الدين واللغة والنحو اللي قاعد طول النهـار والليـل يمقق فيهم عينيه.. وسي أمين أفندي يعني.. أنا فكري انه ما عندوش مفتاح لشقة "عبد الحي".

وانفجر أمين في "عبد المعبود":

- أما أمرك غريب يا أخي.. لا يا سيدي.. أنـا عنـدي مفتاح!.. هو انت ولي أمري؟.. دا بيتي وأنا حر فيه يا أخي!.. قومي يا "ميمي" هاتي المفتاح بدل ما نروح احنا في داهية.. احنا اسمنا دلوقتي بنعطـل أعمـال الضبطية القضائية.. أنا فاهم القانون كويس وعـارف الأصول وأنا حر.. ما حدش يتدخل فـي شـئوني!.. ا !..

وتوتر الجو.. ووقفت "ميمي"، ومشت إلى الداخل متثاقلة، ثم استدارت فجأة عند الباب واتسعت عيناها واتخذ وجهها هيئة متحدية غريبة.. وانطلق صوتها رهيبا هادئا بطيئا:

- أنا ما عنديش مفتاح.. ما فيش مفتاح يا حضرة الضابط.. إذا كنت عاوز تكسر باب الشيخ عبد الحي اتفضل!

وأمسك الجميع أنفاسهم، بينما تنهد الضابط بارتياح.. وأخذ يكتب في دفتره الصغيرة بسرعة، ثم أغلقه وهو يقول:

- على كل حال أنا أثق في رأيكم.. أنت متأكد طبعا "يا عبد العزيز" انه لا يملك في شقته منشورات أو مطبوعات خطيرة.. يعني انت واثق ان كل عنده هو كتبه وكراريسه المدرسية.. وطبعا كلكم واثقين ومتأكدين بنفسكم من كده!

وابتسم "شكري عبد العال"، وهز "عبد المعبود" رأسه مؤكدا وبانت الفرحة على وجه "عبد العزيز" وهو ينظر إلى صديقه القديم "كمال الصفطاوي" بحب وثقة.. وأشرق وجه كمال بالطمأنينة ووقف يضع الدفتر في جيبه منصرفا قبل أن يتيح الفرصة لكلام جديد!

ووقف الجميع يسلمون على الضابط وهو يتحـرك إلـى الباب وتأخر "أمين" وحده، والضـابط ينصـرف والجميـع وراءه.. وشعر "أمين" لساعته بأنه يتزايل، وغرق في خجله، وثقل عليه إحساسه بالوحدة والخوف والزراية.. فأحنى رأسه ولم يعد يرى أمامه شيئا.

وقال "شكري" وهو يسلم على الضابط:

- أنا فخور بمعرفتك يا ابني.. أنـا صـحيح تشـرفت بمعرفتك.. برضه البلد لسه فيها خير كتير.. وعلـى رأي أمير الشعراء المرحوم شوقي بيه: وبورك فـي الشباب الطامحين.

ومشى الضابط مسرعا: ومعه "عبد العزيز" يودعه، وعلى السلالم وهما يهبطان معا أخذ "كمال" يد "عبد العزيز" وجذبه إليه وتوقف هامسا:

- اسمع يا عبد العزيز.. عبد الحي طالع النهارده فـي الغالب هو وكل الطلبة اللي قبض عليهم في جريـدة الجهاد.. أنا أعتقد كده.. لكن كلهـم حيظلـوا تحـت المراقبة.. والإفراج عنهم حيكـون مجـرد مصـيدة لغيرهم.. الحالة حرجة جدا والداخلية مقلوبة.. واحنا

بنشتغل ليل نهار.. خايفين جدا من ١٣ نوفمبر السنة دي.. كل التقارير ان الاستعدادات لـه فـي منتهـى الخطورة.. اسمع.. أنا اتـأخرت وخـايف العسـاكر يلاحظوا حاجة.. ما انت جايز تلاقـي مـنهم واحـد بيشتغل مخبر علي.. أنا كنت عاوز أسألك على تلميذ في الخديوية اسمه "شوقي خليفة".. مـش ده أخـوك الصغير؟

وفوجئ "عبد العزيز" بالسؤال فأجاب:

- ا ؟!.. أيوه.. لكن.. و

وقاطعه الضابط وهو يتحرك على السلم:

- أنا برضه تصورت كده.. اسمع.. قل له يحترس من تلامذة الخديوية اللي كان مقبوض عليهم واللي حيفرج عنهم النهارده... دول اعترفوا وجابوا سيرته.. اعمل حسابك انه هو مراقب من امبارح.. بس ما تقـولش اني أنا اللي قلت لك!.. هاتها له بأي طريقة.. وابقـى خلينا نشوفك يا عم..

وأفلت "كمال" من "عبد العزيز" قبل أن يعطيـه فرصـة للرد.. وقفز إلى العربة وهو يطلب منه باللغة الإنجليزية أن يبقى ما دار بينهما سرا في أضيق الحدود..!

ووقف "عبد العزيز" في الشارع مشتت النفس: برد الفجر يملأ الدنيا، وشعاع رقيق يزحف بالزرقة المتوردة في ظلمة السماء!..

وعندما طلع "عبد العزيز" إلى شقته وجد "عبد اللطيـف" و "شوقي" في انتظاره على باب الشقة يتكلمان مع ميمي هانم في طمأنينة.

وسحب "عبد العزيز" يد "شوقي" ودخل به إلـى الشـرفة وحدهما.

وقال "عبد العزيز" بحسم:

- اسمع يا "شوقي".. فيـه حـد مقبـوض عليـه مـن مدرستكم؟

وأجاب "شوقي" دون أن يفهم سر الخطورة التي سيطرت على ملامح أخيه:

- طبعا.. الأستاذ "عطـا ا " ده واحـد مـن زعمـاء المدرسة وشوكت المغربي..

- وقاطعة "عبد العزيز":

- شوكت المغربي؟ مش ده الواد اللي كان بيسرق الكتب منكم! هو كمان من زعماء المدرسة؟.. قال زعمـاء قال!!. انت أصلك مغفل ومش داري باللي حواليك!..

ودخل "عبد العزيز" إلى الحجرة مسرعا.. تاركا "شـوقي" في حيرته واستدار إليه "شوقي" فقال له "عبد العزيز":

- ما تسألنيش... خد بالك منهم كـويس وبـس... هـم طالعين النهارده... كلها ساعتين تلاتة وتلاقيهم قدامك في المدرسة...

واضطربت الأشياء في نفس "شوقي" وشعر بظلمات تغيم على صدره.. والشعاع يزحف ويغمر الأفق الشرقي قبل أن تطلع الشمس، والسحاب الداكن في السماء من فوقه يلتهـب بحمرة نور الفجر، والأشياء تضـيء أمامـه فـي شـارع عزيز... وأحس بالبرد فدخل مسرعا.. ليلبس ويـروح إلـى المدرسة من توه وفي رأسه آلاف من الأسئلة بلا جواب!

(١١)

ختم "داود أفندي" صلاة الصبح، والتفت إلى زوجته مؤنبا:

- ما بلاش مسك سير الناس ع الصبح!

ورمته "عديلة هانم" بنظرة حادة من عينيهـا الواسـعتين، واستمرت تكلم أمها القاعدة جنبها على كنبة الصالة أمام عدة القهوة. وعندما ترك "داود أفندي" سجادة الصـلاة، رمقتـه "عديلة هانم" بضيق:

- يا أخي أنا قلت لك ألف مرة ما تبقاش تتوضا وانـت بالبدلة... إيه يا اختي ده.. شايف بليت نفسـك ازاي زي العيال الصغيرين..

ولم يرد "داود أفندي"، وبلع الكلمات ومضى يقرع بـلاط الصالة بالقبقاب ويحدث في مشيه دويا تأففت له "عديلة هانم"، وهو يمضي هادئا إلى حجرته ليلبس الحـذاء غيـر حافـل بنظراتها، يتمتم بالدعوات لنفسه وأهل بيته بالفلاح والسـتر، ويدعو لأمين أفندي وزوجته باللطف في قضاء ا !..

وعندما راقت الصالة من خبط القبقاب عادت "عديلة هانم" تكمل حديثا لأمها:

- والنبي لولا "شكري بيه" ا يستره كان البوليس خدها هي وجوزها في الكلبشات... ما هو بسلامته "أمـين" لاطش من الدايرة أشكال وألوان.. أطقم صيني وطاقم الصالون ونجف كريسـتال.. غيـر بقـى الفلـوس والحاجات التانية اللي ضيع دفاترها.

وتوقفت عن الكلام قليلا، وتنهدت وهـي تتحـرك فـي مكانها:

- يا أختي!.. لما أقوم أروح لها.. برضه شيء واجب.. بس طالعة لي فيها من غير مناسبة وشـاطرة تتنكـت على أدهم بيه. والنبي لولا هو لكانت الدايرة بهـدلت جوزها... أقله ما كانش طلـع سـليم مـن حكايـة الدفاتر... والا البيت اللي واكل فيه حق الدايرة لكانت تهد لهم البيت... قال إيه فاكرة انه بيبصبص لهـا... قطع لسانها هي مين دي كمان الفلاحة دي!..

- وقامت من فوق الكنبة ومضت إلى حجرتها حيث كان زوجها "داود" يغمغم بتلاوة بعض الأوراد بعد صـلاة

الصبح كما تعود منذ عشـرات السـنين.. وارتفـع صوتها وهي تمشي في الممر متجهة إلى زوجها:

- انت مش حاتتطرق بقى يا "داود"... مش يصح تنزل بدري علشان تلحق قبل ما تروح الشغل تفوت علـى "أمين".. قوم يا أخـوي كفايـة قرايـة مـا حـبكش النهارده.. سودت عيشتي من عشرين سـنة بقرايـة الفقها بتاعتك دي.. انزل بقى حود على "أمين أفندي" خد بخاطرهم على ما بلاهم... يا عيني يـا "ميمـي" يا أختي... يا ندامة!.. هو يا اختـي جـوزك كـان بيلاطش ده كله وفاكر انه حاينجى بيه!..

ولم ترق "سعد" رنة الشماتة الواضحة التـي تشـيع فـي كلمات الإشفاق المتناقضة التي قالتها أمه.. ولم يعجبه بصفة خاصة كل ما قالته أمه عن "أدهم بك" و "ميمي" ولا دفاعهـا عن هذا العجوز المتصابي "أدهم"... فانـدفع مـن حجرتـه منفجرا في أمه:

- ألا إيه لزوم الكلام اللي بتقوليه ده؟... "عبده" حكى لنا كلنا النهارده الصبح ان المباحث كانت جاية علشـان تفتش شقة عبد الحي وانت سامعة كل حاجة بودنك...

البوليس جه "لأمين أفندي" علشان أسـباب سياسـية وانت عارفة ده كويس.. ليه بقـى تقعـدي تحـوري الحكاية وتقولي كلام ما لوش لزوم!... يا سلام علـى الستات دول! ...

وفوجئت "عديلة هانم" بلهجة "سعد" وسـحنته الممتعضـة وهو يكلمها، فصاحت فيه ويدها في وسطها:

- اخرس!... هو أنت يا ولد مالـك ومـال الحاجـات دي!؟ ...هو أنا كل ما اتكلم ترد كلامي وتعلي صوتك عليه يا ولد!.. أنت حاتجيبلي ضغط!... اخص عليك ولد قليل الأدب!

وتهدج صوتها وارتعش، فأعطاها "سعد" ظهـره وعلـى وجهه اشمئزاز واضح وهو يدمدم:

- ايه اللي ولد؟... إيه اللي ولد وقليل الأدب؟!... كـل حاجة كده تقلبيها خناق ونكد وشتيمة وعياط؟... وا ده بابا معذور فيكي...

وزعقت "عديلة" وهي تكاد تفقد سيطرتها على أعصابها:

- سامعين الواد بيقول إيه؟! قليل التربية!... يعني أقـوم عليه أضربه بالشبشب... خدوا الواد ده من قدامي... جروه من قدامي أحسن أنسل عليه الشبشب!..

ووجد "سعد" أخواته البنات الصغيرات حوله ينظرن إليـه في إشفاق، وجدته تبعده برفق، وأخته الكبرى "ميرفت" تحيط بأمها وهي تصرخ:

- إيه ده يا سعد... انت اتجننت؟... ادخل أودتك انت إيه ده يا ماما الزعيق ده ع الصبح.. إيه؟ وحياة ديني أنا بقيت أكره يوم الحد من كده.. كـل أيـام الأجـازة أقضيها في خناقات.. وزعقت فيها أمها:

- امشي من قدامي يا بنت انتي كمان عمى في عينك...

وارتفع من الداخل صوت "داود أفنـدي" محـذرا هادئـا ساخرا:

- هيه يا وليه!؟.. قولي يا فتاح يا علـيم!... صـبحنا تطيحي في العيال!!؟ حانجلبه؟ لازم تجلبي لنا الغم ع الصبح!؟

ورنت ضحكة أم "عديلة" في الجو المتوتر:

- صدقت يا ابني والنبي! جرى إيه يا "عديلـة"؟ مالـك يا بنتي كده صابحة راكباكي العفاريت!؟ دا الهـوانم يا بنتي، تصحى الواحدة منهم من حضـن جوزهـا تضحك وتتمخطر، وانتي مالك كده كفى ا الشـر؟! جرى إيه يا سي داود أفندي! مش عوايدك؟!..

ثم اقتربت من ابنتها "عديلة" وهي تخفي ضحكة.. وجرتها بعيدا عن الأولاد وهمست في أذنها:

- هو يا اختي لفندي بعافية اليومين دول والا إيـه؟... انتي حتى بقى لك تلات أربع جمع مـا بتسـتحميش معاه!

وأغمضت "عديلة" عينيها ولوحت بكفها وهـزت كتفهـا وتسللت الابتسامة إلى وجهها وهي تقول:

- يوه يا نينه! كلام إيه ده!؟

ثم هشت الأولاد بعيدا، فجروا وراء "ميرفت" إلى حجـرة "سعد".. وقعدت "عديلة" في حجرة أولادها.. وجـاءت أمهـا تقعد بجوارها هامسة لها:

- والنبي كله منك يا "عديلة"!.. انتي اللي دايما مغيـرة دم الراجل... يا بنتي أنا دايما أقول لك ما تنغـريش

قوي بجمالك... دا الوفاق أحسن حاجة.. قـال قـرد موافق ولا غزال شارد... زمان كانت الواحـدة منـا تقف قدام جوزها لحد ما يلبس وصوتها مـا يعـلاش على صوته، وتكبسه قبل ما ينام، وتقف بين إيديه زي الجارية!... علشان كده كانت غلاوة الست في زماننا ما تطلعشي أبدا من قلب الراجل... سوا كانت تركية والا فلاحة!... سيبك يا بنتي من قولة ان جوزك فلاح وانتي تركية.. ده كلام فارغ... أنا غلبت أعلمـك... هو بقى سيدك من يوم ما اتجـوزك... والنبـي أنـا ما كنت أقدر أقعد مع المرحوم أبوك على الأكـل... كنت أخدمه لحد ما يأكل وأصب له يغسـل إيديـه... شوفي لما أقولك: الست اللي ما تفتحشي نفس راجلها، نفسه تنفتح على أقل منها... افهمي يا بنتي بقى.. انتي مش صغيرة للعلام... حط عنيكي في وسـط رأسـك كده وافهمي... هم الرجالة بيلفوا بره ليـه ويـدوروا يتجوزوا على نسوانهم.. وان ما كـانوش يتجـوزوا يعرفوا طريق المسخرة؟! هيه؟

فأجابتها "عديلة" بهدوء:

- يا نينه بابا حاجة و "داود" حاجة... أصل زمان كـان شكل ودلوقتي شكل! ...

وسمعت "عديلة" باب الشقة الخارجي يدق، وانتظـرت أن يفتح الباب أحد... وصاحت عند آخر دقة وهي تصفق:

- آي افتحوا الباب... إيه يا اختي ده؟ هو أنـا كمـان حافتح لكو الباب؟!.

وقامت من حجرة الأولاد تمشى في الصالة متجهة إلـى الباب وهي تنادي:

- رحت فين يا بنت يا ألطاف.. افتحي يا "ميرفـت"... ا ؟!.. انت طالعة من أودة "سـعد" ليـه يـا بنـت يا "ألطاف"؟... إيه اللي غرزك في وسطهم يا بنت.. أنا مش قلت لك ألف مرة ما تخشيش أودة "سـعد"... إيه اللي داخلة الأودة بعين وبجاحة ومغـروزة فـي وسط العيال... يا سلام على عيون البنات الفلاحـين دول... يندب فيها الرصاص! ...

واندفعت "ألطاف" نحو الباب، قائلة باستنكار:

- والنبي ما دخلت يا ستي... ده ست "ميرفت" هي اللي نادت لي أدخل كباية ميه.. أصل سي "سعد" مفحـوم من العياط جوه.

وأسرعت تفتح باب الشقة...

وانقبضت "عديلة هانم".. ووقفت حائرة تنظر إلى حجـرة "سعد"، واندفعت نحو الحجرة، ولكن "ألطاف" قالت لها بعد أن فتحت الباب:

- دا سي "شوقي" عاوز سي "سعد" ...

وشعرت "عديلة" بارتياح لمقدم شوقي في هـذه اللحظـة بالذات ومشت إليه تستقبله:

- اتفضل يا سي شوقي... اتفضل جوه عند سـعد فـي أودته... تعال يـا سـعد قابـل "شـوقي" ...إزيـك يا شوقي...

ودخل "شوقي" حجرة "سعد"، فاهتز قلبه فجـأة.. كانـت "ميرفت" أخت "سعد" تقف وسط الحجرة في جلباب منزلـي طويل أبيض، وشعرها الأسود يتهدل في فوضى على كتفيها، وعلى وجهها إطراق حزين... لم يرها من قبل في مثل هـذا الثوب الذي يبرزها على اتساعه ريانة نضـرة حالمـة!...

ولاحت له فجأة كإحدى فتيات الأساطير!... وابتسمت هـي بجهد ابتسامة مثقلة بالحيرة والأسى الغامض! ...

وتألق في عينيها بريق طيب وهي تقول:

- اتفضل يا شوقي.. مش تخلي صاحبك يعقل شوية!..

وخرجت من الحجرة تترك وراءها حفيفا كالريح الحلوة، وفي ذيلها كل أخواتها الصغيرات... ونظرة "شـوقي" علـى وجهها.

هذه أول مرة تراها من قرب يا "شوقي"... وجها لوجـه، وتضع يدك في يدها وتسمع صوتها يخفق باسمك! هـذه إذن هي الفتاة التـي تملـك وجـه أمهـا المسـتدير الجميـل، وما لا يوصف من الفتنة!.. أهذه إذن الفتاة التـي يطاردهـا "شوكت عبد الرحيم المغربـي" سـارق الكتـب، الرقيـع، الجاسوس!؟ آه لو عرف "سعد"!.. أنت وحدك يـا "شـوقي" تحمل هذا السر منذ أيام!.. ليتها هي تعرف ما عرفته أنـت فجر اليوم: "شوكت المغربي" جاسوس على زملائـه!.. لـو أنها عرفت، لصفعته كلما تعرض لها على ناصـية مدرسـة سان فانسان دي بول، وتابعها في شوارع الحلمية بدلا من أن

تبتسم له بفمها الحلو الرقيق الشفتين، وعينها التي يسطع فيها بريق خارق..

لا بد من ضرب "شوكت" هذا عندما يخرج من الحبس!... هناك ألف سبب لضربه...! لن يفيد أنه قبض عليه في اجتماع جريدة الجهاد... لن يصبح بطلا من أجل هذا!.. قم يا "سعد" قم يا أخي وانظر للعجائب التي جرت!..

ولاحظ "شوقي" أن صديقه "سعد" صامت، محمر الأنف والعينين محتقن الوجه.. فقال متحرجا وهو يتفادى النظر إلى عينيه:

- البس يا سعد البس بسرعة.. لازم نروح المدرسة بدري النهارده.. انت ناسي أن النهارده ميعاد الناظر على العريضة بتاعتنا... والنهارده لن نقبل أي تأجيل... كفاية الاسبوع اللي فات كله أعصابنا تعبانة والواحد ضاغط على نفسه وعمال يحايل ده ويتخانق مع ده علشان ما حدش من اللي مضوا على العريضة يسحب توقيعه!... النهارده يوم فاصل!.. انت ناسي والا إيه يا سعد!؟... تعرف إيه اللي حصل مع عبد الحي!... أنا سمعت حاجات غريبة... البس بس...

عاوزين نفوت على عبد الرافـع نـتكلم معـاه قبـل ما نروح المدرسة.. انت تعرف عنوان عبد الرافع!..

وتحرك "سعد" ببطء والاهتمام بما قاله "شـوقي" يزحـف على نفسه شيئا فشيئا ووقف "شوقي" يهز كتف "سعد" منفعلا:

- أما الواد شوكت المغربي ده طلع حقير بشكل!... بس البس.. البس وأنا أحكي لك كل حاجة..

وقام "سعد" يغسل وجهه، وقبل أن يعود من دورة الميـاه دخل "داود أفندي" فسلم على "شوقي" وسأله عن إخوته ووالده الذي لم يزرهم من زمن، ثم جلس على حافة سرير "سـعد" صامتا، تاركا لـ "شوقي" الكرسي الوحيد الذي في الحجرة. وبعد قليل همس لـ "شوقي" قائلا:

- يا ابني أنا عايزك تعقل سـعد... أخـوك وبيحتـرم كلامك وانت كاك عقل زي اخواتك.. ربنا يديم عليكم نعمة العقل..

ثم تنهد "داود أفندي" وهز يده بامتثال، وهو يقلب نظـرة منطفئة من عينيه الضيقتين إلى "شوقي" الجالس إلى المكتب، و "سعد" الذي دخل إلى الحجرة يلبس بدلته مسرعا..

وسلم "داود أفندي" على "شوقي" وقبل ابنه "سعد" في رأسه وانصرف..

وعندما فرغ "سعد" من ارتـداء ملابسـه، أقبلـت أختـه "ميرفت" ووقفت في فتحة الباب تسند ذراعيها إلى مصراعيه بدلال، ومالت برأسها وجذعها وهي تبتسم هامسة:

- فيه واحد عاوزك اسمه غريـب وشـكله غريـب... كده... يظهـر انـه صـعيدي والا قريـب الشـيخ عبد الحي.. اسمه عبد الرافع!..

وتهلل "سعد" و "شوقي" في نفس الوقت:

- عبد الرافع... اتفضل.

وأدخلته "ميرفت"، واختفت وهي ترمق – بخفة – وجهـه الصارم الوقور.

وقال "عبد الرافع" بحسم:

- اسمعوا.. النهارده لن نقبل أي تأجيـل... إذا النـاظر طلب التأجيل فهذا يعتبر رفض للعريضة واسـتمرار في حل الجمعيات... احنا يجب أن نتمسك النهـارده بالرد.. أنا طول الليـل أفكـر فـي الموضـوع ده

ما جانيش نوم ووجدت أنه يجب أن تحسم المشـكلة النهارده مع الناظر ده..

فقال سعد كأنه يحشر نفسه في الموضوع:

- ما أنا قلت لكم الرأي ده من زمان، اِحنا استنفدنا كل الوسائل معاه!.

واندفع عبد الرافع:

- أنا أؤكد لكم انه خايف يرد على العريضـة... هـو لا يستطيع أن يتحدانا بشكل سافر! مهما تكن سلطته.. فالأمة مصدر السلطات! ...

فلاحقه "شوقي":

- طبعا. لكن أنت فين يا "عبد الرافع"؟... دا أنا كنـت عاوز أفوت عليك من الفجر! فيه حاجـات خطيـرة جدا... يا أخي قل لنـا علـى عنوانـك.. سـاعات الواحد...

وتدخلت كلمات "سعد" تقطع الحديث:

- أنا خلاص لبست.. تحبوا ننزل على طول والا نشرب حاجة يا "أستاذ عبد الرافع" ...

وتقدم "شوقي" إلى الباب متعجلا:

- يا للا بنا ياللا ...

ومشوا في صمت: "عبد الرافع" أطولهم في الوسط يطبق شفتيه على الأسرار، و "شوقي" متـوتر الأعصـاب قلـيلا، و "سعد" يرفع رأسه أحيانا ليطلق زفرة..

ولمحوا وهم يتركون شارع عزيز بعض الجيران يدخلون بيت "أمين أفندي".. كانت من بينهم "سعاد هـانم" و "أنيسـة" زوجة "عبد المعبود"..

وساروا في الطريق إلى درب الجماميز يملئون صدورهم بهواء الصباح البارد وعيونهم تتفتح على آفاق مثيـرة مـن تحدي الخطر، والشمس الفاترة تملأ الـدنيا أمـامهم، ودرب الجماميز يضطرب في حركة نشطة من الطلاب والموظفين والباعة والعربات المتجولة.

ولمحهم "عبده"، فصاح وهو يلوح بصحيفة في يده:

- دا العرب هاربين الإنجليز في فلسطين!.. يا خسـارة يا شيخ عبد الحي!.. انت اللـي كنـت بتقـرا فـي الجورنال كل يوم وتفهمني اللي فيه قبل مـا أطلعـه للدكتور.. وا ؟.. انتو مستعجلين كده ليه يا افنديـه..

تعرف بقى يا سي "شوقي"؟ دا نسـيت ان النهـارده وعدة الناظر يرد عليكو.. حاكم اللي جرى امبـارح بالليل تول الواحد.. وحياة النبي يا شيخ ان صـريخ الست ميمي وأولادها لسه ساورني لحد دي الساعة.. ربنا يرجعك بالسلامة يا شيخ عبد الحي ويزيح عنـا وعن أمة النبي.

وابتسم "سعد"، وهز "شوقي" رأسه بأسف، و "عبد الرافع" ينظر إلى "عبده" مستغربا..

ورفع "عبده" يديه في ضراعة:

- ربنا ينصركم على من يعاديكم.. روحوا منصـورين بعون ا ..

ومشى "عبده" ورأسه في الجريـدة... يتحسـس بعينيـه حروف العناوين الكبير محاولا القراءة.. ثم لوح بها وانطلق:

- وا براوة يا فلسطين... دا احنا عرب مـين يعانينـا وسيوفنا ذهب مين يعادينا...

وتابع "عبده" مشيه متجها إلى شارع عزيز، بينمـا سـعد يحكي لـ "عبد الرافع" عن هجوم البوليس ليلة الأمس علـى بيت "أمين أفندي" ومحاولة تفتيش بيت"عبد الحي"..

وزفر "شوقي" بعنف... كانت نفسه تجيش وهو يحاول أن يتكلم ويحكي ولكنه لا يعرف من أين يبدأ... ولم يكـن مـن السهل عليه أن يصدق ما يسمعه عن "عطا ا " و "شـوكت المغربي"!..

ولئن كان من الممكن أن يصنع "شـوكت أشـياء كـالتي حكاها "عبد العزيز" نقلا عن صديقه ضابط المباحـث، فـإن المستحيل أن يصنع "عطا ا " شيئا كهذا.. جاسوس!.. أنـت يا "عطا ا "؟.. أنت الخطيب الذي هز أعصاب التلاميذ حين اقتحموا المسرح وبدأ ساعتها أنه لا يهاب شيئا ولا يمكن أن يخاف من شيء، وأنه مستعد للدفاع حتى الموت عن الشيء الذي يؤمن به..؟!.. لم تكن يا "شوقي" في الأيـام الأخيـرة تطيق أن يناديه أحد باسمه الساخر القديم "بلية"، وكنت علـى العكس مستعدا لأن تمسك بخناق أي واحد يسخر به أمامـك، حتى "سعد" نفسه!.. ليس "عطا ا " مثل "شوكت المغربي".. إن "شوكت" هذا ولد سخيف ناقص يسرق الكتـب ويحشـر نفسه مع المتعجرفين، وهو يتعرض لأخت "سعد" وربما كان يحكي بفخر عن ابتسامتها له وهو جالس مـع الـثقلاء فـي ملعب التنس.. ولكن "عطا ا ".. الذي يتحـدث دائمـا عـن

الكرامة والصدق والكبرياء.. هـذا فظيـع وخـانق ومثيـر للدموع! وانفجر "شوقي" بغتة:

- تصوروا!.. تصور يا "عبد الرافع" ان الواد "شـوكت المغربي".. و "عطا ا ".. الأستاذ "عطا ا ".. شوف المصيبة السودة... تصور انهم اعترفوا.. شهدوا على "عبد الحي"... قالوا كل حاجة!

وامتلأ وجه "عبد الرافع" بالاستنكار والقلق والاشـمئزاز والخوف فقاطع "شوقي":

- آه؟!.. بتقول إيه؟.. مش ممكن!! مش معقول؟. مـين قال لك كده؟

- فقال "شوقي" بضيق وكأنه يبحث فـي أعماقـه عـن أرض يستقر عليها قلقه:

- يا أخي أنا متأكد ان ده حصل... متأكد من الحكايـة دي زي ما أنا متأكد انك أنت عبـد الرافـع وان ده سعد!

ثم أكمل بصوت متوتر جاف:

- ده الضابط اللي جه امبارح يفتش هو اللي قال لعبد العزيز أخوي.. طلعوا أصحاب زينا من زمان.. وعبد العزيز موصيني ما أقولشي لحد!

وتوقف "عبد الرافع"، و "سعد" ينظر إلى وجه "شوقي" باهتمام ودهشة وقال "سعد".

- طيب يا "شوقي" دول ما يقدروا يودونا كلنا في داهية..

وسحب "عبد الرافع" أنفاسه في بطء كبير وقال في تأمل:

- اسمع يا سعد... البوليس السياسي ساعات يعمل حاجات زي دي علشان الناس تشك في بعض.. وبالطريقة دي يمنع الطلبة من الاتفاق على أي إضراب أو أي شيء.. أنا باقول لك كده... ثم إنهم لو كانوا اعترفوا على زملائهم كانوا اعترفوا علي أنا وادوا البوليس عنواني... طيب إيه رأيك ان مندوب المدرسة الإسماعيلية ساكن جنبي وقبض عليه أول امبارح الفجر.. والبيت جنب البيت!

فقفز "سعد" محتدا:

- هو حد عارف عنوانك!.. إذا كنا احنا مش عارفينـه حايعرفه الواد بليه والا الواد شوكت؟!.. هو دا دليـل يا أستاذ عبد الرافع؟!.

ووجم "عبد الرافع"، ولم يستطع أن يفتح فمه... وغـاض لونه قليلا وعيناه تدوران في الفضاء...

وهمهم "شوقي" بصوت تستريح نبراته على اليقين:

- يا سيدي اللي بيسرق كتب أصحابه يقـدر يعمـل أي حاجة... اسأل الشيخ حمزة دبوس يحكي لك كتير عن الواد شوكت..

وأكمل "شوقي" في صوت مضطرب النبرات:

- لكن عطا ا يعمل كده! غريبة!؟

فقال "سعد":

- غريبة ليه يا شوقي... انت بتاكل من البلاف بتاعـه.. انه يعرف السياسيين الكبار، وانه مش عارف ايـه!! أصلك انت فلاح يا أخي وهو بيضحك علـى العـبط اللي زيك!.. ما هو رزق الهبل ع المجانين!!..

وعندما اقتربوا من باب المدرسة كانوا صامتين... ومروا على دكان الشيخ "حمزة دبوس" فاستقبلهم مرحبا، واستوقفهم يسلم عليهم قائلا:

النهارده اليوم الموعود... و...

فقاطعه "عبد الرافع":

- انت يعني مهتم بالمسألة قوى كده ليه كأنك واحد من المدرسة... كأنك عضو في جمعية من الجمعيات اللي حلها الناظر؟!

فأكمل الشيخ "حمزة" مقهقها... وهم يسيرون!

- **وشَاهِدٍ ومشْهودٍ * قُتِلَ أَصحاب الأُخْدودِ** !... أهـو ان شاء ا يطلع الناظر بتاعكم زي أصحاب الأخدود!... ده جه من الفجر والمدرسين كلهم.. مش عارف إيه العبارة! ...

وتلفت الأصدقاء الثلاثة إلى بعضهم البعض في دهشة... ليست هذه عادة الناظر ولا المدرسين، فهـم لا يحضـرون إلا قبل دخول الفصول بدقائق قليلة...

ودخلوا المدرسة: أنفاسهم تتابع، وعلـى الوجـوه تحفـز وهجوم.

ولاحظوا أن المدرسة تكاد تكون خاليـة... لا أحـد فـي الفناء.. كل تلميذ يدخل من بـاب المدرسـة يلتقطـه أحـد المشرفين ويأمره بالتوجه إلى فصله... وإذا دخل أكثر مـن تلميذ معا، فرق بيـنهم أحـد المدرسـين أو أحـد ضـباط المدرسة... وحتى في الصالة الكبيرة أمام الفصول بالـدور الأول لا يوجد أحد على الإطلاق إلا مدرس هنا أو مـدرس هناك.. لا تجمعات.. ولا كلمة إلا رد مقتضب عن استفسار يوجهه طالب!.. لماذا هذا الإجراء الغريب؟!.. ماذا يعني هذا كله.. لماذا ألغي طابور الصباح؟! ...

وهمهم "عبد الرافع":

- وده جوابه ده!... هو ده رد الناظر على العريضـة؟ يظهر أن المسألة حاتنتهي بالإضراب!

وزعق أحد المشرقين على "سعد" و "شوقي":

- بسرعة يا أفندي ما حدش يمشي جنب التاني... كـل واحد لوحده!

وتلكأ "عبد الرافع" في سيره وهو يرى "ميخائيل أفنـدي" مقبلا مكشر الوجه...

وهمس "ميخائيل أفندي" لـ "عبد الرافع":

- الناظر قرر ردا على العريضـة إعـادة الجمعيـات الملغاة ووقف نشاطها مؤقتا... وألغى كل الفسح...

وقاطعه "عبد الرافع" بعجب:

- يعني تبقى الجمعيات موجودة ومش موجودة في نفس الوقت!.. ثم إيه يعني الإجراءات دي كلها؟!

ولوح له "ميخائيل":

- ادخل انت فصلك دلوقت بسـرعة... كلـه سيتضـح بعدين... على كل حال هو عامل اجتماع بعد الحصة الأخيرة للمدرسين اللي وقعوا العريضـة... دلوقـت نشوف إيه آخرة الجو الإرهابي ده.. ده راجل بارع.. ومداور أكتر من الإنجليز أنفسهم.

ودخل "عبد الرافع" الفصل... وتوالى دخول الطلبة إلـى فصولهم واحدا بعد واحد.. والمدرسون والمشرفون يروحون ويجيئون بسرعة غير مألوفة..

ودق جرس الصباح في المدرسة خلال الهمهمة والتوتر، وإشفاق مبهم من المجهول!

(١٢)

صوتك الدافئ يا "سعاد هانم" يعمر المخ!.. معذور "عبد الحي" معذور!.. قلوبنا معك في شدتك يا "عبد الحي"، يا بطل!.. ربنا يعيدك بالسلامة إلينا وإلى مدرستك.. ولم نعرف قيمتك في قلوبنا إلا بعد غيابك.. لم نكن نحس بوجودك في الشارع إلا حين يرتفع صوتك مرخما: كيا سعا فيمن دعا سعادا.." والآن بعد ما انطفأ نور شقتك وأغلقت شبابيكها ولم يعد أحد يراك أو يسمع صوتك، شعرنا لغيابك بحزن فادح، كذلك الحزن الذي نشعر به حين تخطر لنا ذكرى إنسان عزيز بعد مرور سنوات على فقده... هكذا تشعر اليوم يا "شكري" حين تتذكر ابنك الشهيد والمرحومة زوجتك.. صورتها في الصالة فوق الراديو الجديد.. تقعد تحتها تماما "سعاد هانم"، تتكلم بصوتها الخفيض المشحون المنكسر، ذي البحة الغريبة، وإلى جوارها امرأة الأسطى "عبد المعبود" تبادر كلما ارتفع صوت الراديو رائقا صافيا، فتستعيذ با وتصلي على النبي كأنها ترقيه من العين!!..

اختشي يا امرأة... لا تعومي على عوم ابنتـي "سـميرة"!.. لا تجرحي "سعاد هانم" هكذا يا "أنيسـة"، فعينهـا الجميلـة لا تحسد، وإنما تشعل النار فـي البـدن المنطفـئ!. عيـب يا "شكري"!. هذا وا عيب كبير!.. لا يجب أن تفكر هكذا!. المسكينة "سعاد هانم"!. لماذا يا "سميرة" يا ابنتـي تلسـعينها بنظرات متحدية وكلمات خاطفة؟!..

لا تخافي.. لو كنت ولدا يا "سميرة"!.. لو عاش لي ولـد، لطلب مني بنفسه أن أتزوج!..

ربما قبلت يا "سميرة" ذات يوم أن يتزوج أبـوك بعـدما تتزوجين أنت ويشاركك حياتك رجل يفهم حاجات الرجـال، وتعرفين أنت من أسرار الحياة وأمورها أبعد ممـا تعـرفين اليوم!...

ولكنك يا "شكري" لا يجب أن تفكر في هذا كلـه الآن... الباب يخبط وأنتم في الصالة لا تسمعون!.. طبعا.. فصـوت الراديو يشغلكم.. افتحي يا "سميرة".. هـل أقـوم أنـا مـن حجرتي وأفتح، أم تترك درية المذاكرة وتشتغل بوابـة لـك يا ست سميرة؟!.. ما الذي شغلك هكذا وجعلك لا تسـمعين

الخبط على الباب..!؟ " كرهت حبك من كتر صدك"؟!! كلام فراغ.. قلة حياء!..

- اقفلي الراديو يا بنت يا "سميرة"!..

ودخلت "سميرة" مضطربة بعض الشيء إلى حجرة أبيهـا بعد أن أغلقت الراديو وهي تقول:

- "عبده" جايب الورقة دي لحضرتك.

وتقدمت في حجرة أبيها والشقة كلها يغمرهـا الصـمت والتهيب.

ورن صوت "شكري عبد العال" وهو قاعد على كرسيه:

- أنا قلت لك مرة قبل كـده، ان الراديـو ده مجعـول علشان تسمعوا القرآن أو حـديث أو تـدبير منزلـي أو أي حاجة مفيدة مش الكلام المخنث ده عن الحب، والصد وقلة الحيا..

وبلعت "سميرة" ريقها، وطأطأت وهي تغمغم:

- حاضر يا بابا.

ولم تشأ أن تقول إن "درية" هي التي طلبت منها أن تعلي الراديو لتستطيع أن تسمع أغنية "كرهت حبك" وهـي علـى مكتبها.

وتعالى صوت "سعاد هانم" من الصالة في عتاب:

- وفيها إيه لما الولاد يسمعوا غنـا؟ ده النبـي عليـه الصلاة والسلام سمع الغنا يا شكري بيه.

واختنقت "سميرة" بمشاعر متناقضة، ولمعت في عينيهـا دمعة، واحتقن وجهها وهي تسمع النبرة الغاضبة من صوت أبيها تلين وتنعم:

- يا ست سعاد أنا ما باحرمشي أولادي من حاجة.. لكن مش لازم يسمعوا الغنا ده.. ما فيه مغنى كتير!..

وخرجت "سميرة" وصوت أبيها يرتفع:

- تعال يا عبده.. ادخل.. ازي الدكتور عبد العزيـز؟.. ازي الأستاذ عبد اللطيف و "شوقي أفندي"؟ أسـيادك كلهم بخير؟..وتأزم "عبده" وبـان الاحتجـاج علـى وجهه، وتعثرت الكلمات بشفتيه.. وقال كأنما يؤكـد سخطه على كلمة أسياد هذه:

- شوقي أفندي قال لي أدي الورقة لحضـرة الصـاغ شكري بيه. وان ما لقتوش هاتها وتعال.. قال لي كده قدام الأستاذ عبد اللطيف.

وأخذ "شكري" يعيد قراءة الورقة بصوت مرتفـع وهـو يمصمص بشفتيه ويهز رأسه بإعجـاب!.. "حضـرة العـم الفاضل شكري بك، أرجو أن تتفضلوا فتسـمحوا لـي بـأن أستعير كتاب الطبيعة الجزء الثالث من كريمتكم المحترمـة الآنسة درية.. إذ أنه لم يوزع علينا إلى الآن ونحن مطالبون بشرائه ولا وجود له في المكتبات.. ولدكم المطيـع شـوقي خليفة".

وطوي الورقة في يده وهو يقول:

- يا سلام!.. أدب وأخلاق وبلاغة.. ربنا يبارك لأبوكم فيكم، وا يا شيخ خليفة انت تستاهل كل خير، عرفت تؤدب أولادك صحيح!.. كده كده!.. عـايز يسـتلف حاجة من درية يقوم يتجه بالكلام إلى أبوها.. ويقول الأسباب كمان.. تعالي يا درية.. تعـالي يـا بنتـي، شوفي شوقي ابن عمك الشيخ خليفة عايز ايه، ابحثي له عن الكتاب ده واديه لعبده.

- وتناولت "درية" الورقة من أبيها وقرأتها ثم ابتسمت قائلة:
- حاضر يا بابا.. ولو أن كتب السنة اللي فاتت دي عايزة تدوير وغلبه.
- وقرأت الورقة من جديد وابتسامتها تملأ وجهها.. ثم أعادتها لأبيها ضاحكة:
- لكن يا بابا ماله كاتب بفقهته كده!... يكونشي اللي كتبها هو الشيخ عبد الحي..

وانقطعت ضحكاتها على طقطقة أبيها المستنكرة وهو يقول متجهما:

- لا لا لا.. ما تقوليش كده!.. عيب كده يا بنتي!

وخرجت تكتم ضحكاتها، وصوت الضحك المكتوم يتناثر من بين شفتيها المضمومتين، و "عبده" يرفع يديه للسماء وهو يتبعها إلى الصالة داعيا:

- إلهي يسمع منك يا ست درية!.. إلهي يرجعك بالسلامة يا شيخ عبد الحي يا أمير!.. ارجع بقى يا شيخ.. كفاية كده حبس ومرمطة.. يا وداه يا عبد الحي!.. خمس ليالي بزيهم!!..

ودخلت درية حجرتها، ومالت إلى جوار السرير تفتش في كتب السنة الماضية المكومة في ركن الحجرة.

ومشى "عبده" وراءها.. ولمحته "سميرة" من مكانها فـي الصالة متجها إلى حجرة "دريـة"، و "دريـة" فـي جلبابهـا المنزلي منحنية تبحث بين الكتب فنادته "سميرة" بغضب:

- تعال يا واد انت يا عبده هنا.. ما تدخلشي أودة سـتك درية! وهيه كمان موطية بتدور على الكتب.. عيـب كده!..

- وحملق "عبده" فيها، ونقل نظراته بينها وبين السـت "سعاد" و "أنيسة" زوجـة الأسـطى "عبـد المعبـود" وتزاحمت الكلمات على لسانه، فقال وهو يخبط رأسه بيده في حيرة من لا يعرف كيف يرد الإهانة:

- ما تيجي تاخديني كفين وتريحي نفسك.. اتفضـلي.. ما تضربيني لحد ما أقول لك "أنا مرة".

وضحك "شكري" من داخل حجرته، وناداه:

- انت يا واد عبده بتكلم رئيس النقطة فـي بلـدكم والا إيه..

واستطرد "شكري":

- اسمع يا عبده.. سيدك الدكتور بيعمل إيه دلوقت؟

وأجابه "عبده" بسرعة وضيق شديد:

- أهو بيذاكر.. الدكتور بيذاكر.

وعاد إلى حجرة "شكري بك"، وزوجة: عبـد المعبـود" تداري ابتسامتها ملوحة بذراعيها في ظهر "عبده" قائلة فـي صوت خفيض:

- جاتك عفرة تعفرك.. والنبي انت مالـك قعـدة فـي مصر.. حقك تروح تشتغل غفير في بلدكم بدل الغلب اللي رامي نفسك فيه.. خدام ومعرور من الخدمة!..

وارتفع صوت "عبده" من حجرة "شكري بك":

- إلهي وانت جاهي تاخد شهادة الخدمـة يـا دكتـور عبد العزيز ويعينوك بعيـد عـن مصـر.. نفسـي يا اخواتي أبعد عن مصر وبلاويها.. عـاوز اشـتغل تمرجي بس في بلد تانية غير البلد دي.. أنا عـارف بس الباشمهندس ما قضاليش شغلة الهنـدزة ليـه؟!.. والنبي يا سي شكري بيه أنا زهقـت مـن البلـد دي خالص.. وحياة النبي.. دا أنا قاعد هنا ملطشة للحريم في شارع عزيز.. اللي تاخدني كفـين مـن البـاب

للطاق، واللي تشخط وتنطر، واللـي فـاكراني عبـد عندها.. القصد.. آه يا زمن؟ أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل.. وأيام بتيجي على الحر الكريم ينذل.

- واستغرق "شكري" في الضحك، وشعر "عبده" براحة وهو يرى كلماته تهز الرجل الوقور على كرسيه.

وقال له "شكري" وهو يحاول أن يخلص من ضحكه:

- اللهم اجعله خير.. روح قل لـا دكتور عبـد العزيـز يخلص مذاكرة بقى ويلبس ويستناني.. أنـا حـافوت عليه بعد ربع ساعة بالكتير. ا يجـازي شـيطانك يا عبده!..

فقال "عبده" مستنكرا محتجا:

- هو حد يقدر يدخل أودة الدكتور من غير هو ما يطلبه دلوقت؟!.. هو معقول ينزل ويسيب المـذاكرة؟!. دا فاضل له على الامتحان قيمة شهر.. والنبي يا سـي شكري بيه تشوف مرسال غيري للشغلة دي!.. بلاش تعرضني أنا للإهانة والأذية.. بلاش في دي!..

وعاد "شكري عبد العال" يقهقـه كأنـه يريـد أن يغمـر الهمسات الحزينة التي كانت تملأ نفسه من أول الليل.. وشعر

أنه يريد أن يتكلم طويلا مع "عبده" وأن ضحك مـن جديـد ولكن درية نادت من حجرتها:

- تعال يا عبده خد الكتاب لسيدك.

وتمتم "عبده" وهو يسرع من حجرة "شكري" بك" إلى باب الشقة الخارجي:

قطيعة تقطع "عبده" وسنينه!.. انتم مفيش حيلـتكم غيـر سيدك وستك والكلام اللي يوجع القلب ده؟!..

وأكمل وهو يفتح باب الشقة ويقف خارجه:

- عبده ما بيجيش.. أنا ما بدخلش أود الحريم.. هـاتي الكتاب هنا.

ودخلت "سميرة" إلى حجرة "درية" فأخذت منهـا الكتـاب وخبطت به يد "عبده"، وأغلقت وراءه باب الشقة وهي تهمهم:

- ضربه!..

ونزل "عبده" السلالم وهو يتحسس الكتاب بيديه وينظفـه من التراب، وعبر الشارع عائدا إلى بيته، وحلقه يشرق مـن التراب.. وتمتم لنفسه بسخط:

- بس عاملين لي هوانم وشاطرين تتأمروا وكتبكم عليها شبر تراب؟! جاتكو شوطه! عاملين بتوع كده!! قـال يعني!!

وتقدم ببطء يطلع سلالم بيته درجة بعد درجة.. ومر بباب شقة "عبد الحي" فوجدها ما تزال في الصمت المظلم.. وتنهد "عبده" وشعر بحسرة تفيض في أعماقـه وتوشـك أن تـدفع الدموع إلى عينيه.. وأمسك بباب شقة عبد الحـي وغمغـم بصوت كالأنين وهو يتصعب:

- يا والداه.. يا خسارة يا عبد الحي!..

وأسرع بالكتاب إلى "شوقي" الذي كان يجلس أمام مكتـب "عبد اللطيف" وسأله "شوقي":

- إيه ده يا عبده؟ انت غبت كده ليه؟! طب أهو الدكتور عبد العزيز كـان عـايز شـاي ومتعطـل علشـان خاطرك..

ورد "عبده" بثبات:

- آهي العطلة جايه له لحد هنا.. آهو سي شكري بيـه جاي وعايزه يلبس علشان ينزلوا مع بعض.

وأمسك "عبد اللطيف" الكتاب من يد أخيه "شوقي" وقلبه ثم قربه من أنفه كأنه يحاول أن يشم رائحة الأنثى فيه وعاد يقرأ الاسم المكتوب عليه ويلقي علـى "شـوقي" نظـرة باسـمة عريضة:

- خد يا عم.. "درية شكري".. ذاكر واتهنا.. يمكن نحب الطبيعة وتخش علمي..

ولم يرق كل هذا لـ "شوقي"، وتناول الكتاب من أخيـه، وفتحه بعنايه.. وأضاءت أمامه الحروف التي كتب بها اسـم "درية شكري" وخفق قلبه بسرعة وهو يقلب الصفحات ويقرأ على هوامشه ملخصات متناثرة بخط درية.. خطهـا الأنيـق النحيل!

ورفع رأسه عن الكتاب فوجد أخاه "عبد اللطيف" يراقبـه مبتسما فأغلق الكتاب بسرعة واحمر وجهه.

وتابعه أخوه عبد اللطيف بقوله:

- ا ؟! سبت الكتاب ليه؟ هو انت سالفه علشان تـذاكر فيه والا علشان تحطه قدامك وتتغزل فيه؟

وأحس "شوقي" كأن عبد اللطيف يداهمه ويكشف سـتره!. وغاض جسمه بحرارة تلذعه وتحسس جبينه ولم يجب!..

وعاد يفتح الكتاب في صمت، بينما كان "عبـد العزيـز" يزعق من حجرته البعيدة ويلعن "عبده" وأيامه ويحمله تبعـة زيارة "شكري عبد العال"..

ورجع "عبده" من حجرة عبد العزيز محرجا ضيق الصدر يحدث نفسه:

- دهدي؟!.. مش عايز تقابلـه مـا تقـابلوش.. وراك مذاكرة وامتحان وما عندكش وقت له ابعتني أقوله له كده.. وأنا مستعد أهه.. وماله؟ ا ! خبر إيه؟.. كـل حاجة عبده عبده!!.. وأنا مالي؟ هو أنا اللي حانزلـك وأضيع لك وقتك؟ ما هو صاحبك؟ شاطرين بس أول ما تشوفوا بعض تشدوا المسخرة على خلق ا !..

وذاب صوته في ضجيج الوابور الذي أوقده في المطـبخ ووضع عليه الشاي..

وقام "عبد العزيز" من مكتبه ومشى وحده في الصالة يسب ويلعن فقال له "عبد اللطيف" دون أن يغادر حجرته:

- يا أخي روح اتفسح لك شوية وابقى ارجع عوضهم.. دي حتى فرصة علشان تنظم في مخـك المعلومـات اللي ذاكرتها.. احنا عندنا أستاذ مـدني كـان طـول

عمره الأول.. ومعاه دكتوراه مـن فرنسـا بدرجـة الشرف ومن رأيه إن أحسـن طريقـة للمـذاكرة أن تقطعها للترويح عن النفس.. ده يجدد نشـاط الـذهن ويخلي الإنسان أكثر استعداد لتلقي لمعلومات جديـدة ويمكنه من انه...

فقاطعه "عبد العزيز" وهو ينفخ من الضيق:

- اتلهى يا واد انت بلاش فلسفة.. أسـتاذ مـدني إيـه؟ دا طب مش قانون!.. اسمه طب مش الكلام الفـارغ اللي بتقروه!

وضحك "عبد اللطيف" وظل "عبد العزيز" يتمشـى فـي الصالة حائرا: الفسحة مع "شكري بك" حلوة ممتعة ليس لهـا مثيل، ولكـن السـاعة التـي تضـيع الآن لا تعـوض يـا "عبد العزيز"! غير انك الآن لا تفهم ما تقرأ.. ربما كنت في حاجة إلى فسحة صغيرة لتنشيط ذهنـك!.. "عبـد اللطيـف" له حق! كلام أستاذ المدني هذا معقول!.. اسمع.. كم صفحة ذاكرت في الساعتين الأخيرتين؟ ياه!.. ثلاث صـفحات!!.. هذه ليست مذاكرة.. كنت سرحان! أنت تذاكر فـي السـاعة عشر صفحات على الأقل.. نعم يحسن أن تتفسـح الليلـة..

اذهب يا "عبده".. روح ناد "شكري بيه".. الفسحة مع "شكري بيه" تجلي الدماغ، وساعة مذاكرة بعدها أحسن مـن خمـس ساعات الآن.. خير عند ربك من ألف شهر!!..

ودخل "عبده" إلى حجرة "عبد العزيز" يحمـل الشـاي.. فتناول منه الشاي ووضعه أمامه على المكتب إلـى جـوار كتاب ضخم مفتوح، وشرد قليلا عن الشاي والكتاب..

وقال "عبده":

اشرب الشاي قبل ما يبرد.. دا خيره في ناره..

فالتفت إليه "عبد العزيز" وزر عينيه.. أيطلـب منـه أن يذهب ليستعجل "شكري بيه"، أم يلبس هو وينزل، أم يعـدل عن هذا كله ويقعد الليلة في البيت يحاول أن يذاكر؟!..

وقبل أن ينطق بكلمة، دق باب الشقة الخارجي.. وأسـرع "عبده" يفتح.. الحمد !!... جاء "شكري بك" بنفسه، وقطـع الشك باليقين.

وقام "عبد العزيز" يغسل رأسه ويلبس بسـرعة ملابـس الخروج.

وترك "شكري" مع أخويه "عبد اللطيف" و "شوقي"، فلمـا دخل عليهم في حجرة الصالون بادره "شكري" بقوله:

- إيه الوجاهة دي كلها؟!

كأنما كان شكري يلفت نظره إلى أناقته هو نفسه.. بدلتـه الجديد الكحلي، والقميص الحريري الأبيض الهفهاف ودبوس الياقة على كرافتة سوداء جديدة يلمع فيها فص مشبك ذهبي.

وضحك "عبد العزيز" وهو يتأمل أناقـة "شـكري" قـائلا باقتضاب:

- ده احنا لازم رايحين نغزو الليلة!..

ولم يعلق "شكري" على كلام "عبد العزيز" بغير الابتسامة والنظرة الخاطفة، والتفت إلى "شوقي" يستأنف الحديث الـذي انقطع عند دخول "عبد العزيز".

- فاهم يا "شوقي" يا ابني؟.. أنا كنت باقول لك إيـه؟!. أيوه: كون الناظر يرجع لكم الجمعيات، وفـي نفـس الوقت يفرض عليكم النظام الإرهابي اللي قلـت لـي عليه ده... دا اسمه كلام فراغ.. وسكوتكم على الحكم دا اسمه كلام فارغ برضه.. إيه اللي كل واحد ينشغل في عمله ومذاكرته؟!. ثم ازاي تقبلوا تأجيـل موسـم جمعية الخطابة؟ ازاي.. هو خايف ليه من التجمعات في المدرسة!.. هـه؟ وازاي تقبلـوا أن اجتماعـات

التمثيل تبقى في المرسح اللي حاتمثلوا فيه الروايـة.. يرميكم كده في تيارات عماد الدين؟!.. ا ا علـى التربية!.. إيه ده؟.. تقعدوا مـن أول حصـة لآخـر حصة بدون فسحة وتخرجوا من الحصص على الغدا وبعدين على بيوتكم؟!.. هو فاكركم غـنم؟!.. وازاي تسكتوا يومين كاملين على أوضاع زي دي؟!

وأسرع "شوقي" يقول:

- لا، على كل حال هو تراجع برضه.. رجع لنا "سـعد داود" من زمان غصب عنه.. ورجع لنا الجمعيات.. وعلى كل حال احنا أبلغناه عن طريق المدرسين انـه إذا فصل أي واحد من اللي وقعوا العريضة أو سحب منه المجانية فاحنا حانعلن الإضراب.. وأبلغناه أنه إذا استمر العمل بهذا النظام حانضرب.. بس ما حددناش ميعاد للإضراب.. أصل الأسطى عبد المعبـود قـال مرة كلمة الواحد حاططها قدام عينيه على طول.. قال لنا حاسبوا من الإضراب أحسن دا لو إضراب واحـد ما نفعش تبقى مصيبة، واللي انتم عـاملين إضـراب ضده ياكلكم أكل بعد كده!.. والحقيقة ان فيه تلامـذة

خايفين من الإضراب.. أصل التلامذة اللي كان قبض عليهم وطلعوا بيقولوا لنا عن حاجات وحشه خـالص حصلت لهم.. وحضرتك عارف ان الناظر أقسـم أن كل تلميذ حايضرب رايح يسلمه للبوليس بنفسه هـو مش حايطرد حد من المدرسة.. لكن بيهدد بالبوليس.

وانفجر "شكري" بغتة:

- إيه الكلام الفـارغ ده؟!.. الأولاد دول بيلعبـوا فـي وسطكم لعبة مرسومة!.. الأولاد اللي كانوا محبوسين دول لازم.. لازم جواسيس وعملاء للبوليس وبـرادع للإنجليز..

وتدخل "عبد العزيز" بسرعة في الحديث يغالبـه إشـفاق على أخيه من تأثير كلمات "شكري":

- هه يا "شكري بك"؟.. مستعجل ننـزل والا نشـرب حاجة؟..

فوقف شـكري وتحـرك نحـو البـاب، وهـو يرمـق "عبد العزيز" الذي سبقه إلى باب الشقة..

ونزلا معا.

ووقف "عبده" يقول لـ "شوقي":

- ما هو حقيقي كلام ما يدخلشي المخ. بقى مدرسة فيها ألفين تلميذ بشنبات ما يقدروش على راجل واحد؟!.. ناظر إيه وبتاع إيه؟!.. دا لو كـان نـاظر النظـار ما يقدرش يقف قدامكم!. وده كلام إيه اللـي بيقولـه الأسطى عبد المعبود ده كمان!؟.. إيه اللي إضـراب ينفع وإضـراب مـا ينفعشـي.. هـو فيـه حاجـة ما بتنفعشي!.. طب ما تسأل الأسطى عبد المعبـود، كانوا بيعملوا إيه زمـان فـي نسـيم باشـا ده ذات نفسه؟!.. ما هو حاكي لي.. دا من عشر سنين كانت البلد كلها عامله إضراب ضده وبيتقال له في وشـه: إخيه يا نسيم يا أبو عقل تخين.. وأهـو كـان عنـده بوليس وجيش وإنجليز ودنيا هايصـة.. بقـى مـش خارج من إيدكم تعملوا كده في حتة ناظر لا هو هنـا ولا هناك! ولا يحتكم حتى على غفير.. يـا خسـارة يا رجالة!..

وقبل أن يتكلم "شوقي" زمجر "عبد اللطيف" في "عبده":

- اسكت بقى خلينا نذاكر. امشـي ادخـل جـوه فـي المطبخ.. بلاش كلام في السياسة.

وانسحب "عبده" مهمها:

- وا خسارة يا عبد الحي.

وبدأ يرسل أول كلمات من موال: "السبع لما انحبس.."

ولكن "عبد اللطيف" نهره بعنف وأمره أن يهس.

وسكت "عبده"، ووضع كل من "شوقي" و "عبد اللطيف" رأسه في كتابه.. وبعد قليل سأل "شوقي":

- أقوم أذاكر على مكتبي في الصالة.. يمكن تكون انت عاوز تقرأ بصوت عالي؟!..

فقال "عبد اللطيف" باقتضاب:

تكونش انت عاوز تطلع تدردش مع "عبده" في السياسة.. والا تخبي مجلة تحت الكتاب وتقعد تتسلى فيها!..

وسكت "شوقي" واستغرق في القراءة قليلا.. ثم سأل:

- تفتكر الدكتور عبد العزيز راح فين مع شكري بيه؟..

- ولم يجبه "عبد اللطيف".. ونظر إلى أخيه طويلا، فأحس "شوقي" من نظرات "عبد اللطيف" أنه ما زال صغيرا بحيث لا يجوز له أن يسأل إلى أين يمضي أخوه الكبير مع رجال كبار..!

ورفع "شوقي" صوته كأنه يهرب من المأزق الذي وضعه فيه سؤاله:

- تعرف يا عبد اللطيف؟.. تعرف؟.. كلام شكري بيـه ده معقول خالص!.. الـواد عبـده لـه حـق.. لازم المدرسة تضرب كلها، أو على الأقـل لا تخضـع.. تعرف؟ ما أنا قلت لك قبل كده!.. وا العظيم ده لما الناظر حل جمعية الخطابة والتمثيل الواحد منا كـان حايعيط.. الدمعة فرت من عين عبد الرافـع.. بقينـا عايزين نزق التلامذة كده ونروح نهد الدنيا على دماغ الناظر..

- ولم يجب "عبد اللطيف"..

صحيح.. كل ما يقوله "شوقي" صحيح.. يجب أن يهـدوا الدنيا على رأس الناظر. يجب أن يضربوا أو علـى الأقـل فليتمردوا على النظام الذي وضعه لهم.. ولكنه هو لا يستطيع أن يطالب أخاه بالمخاطرة!

وسمع "عبد اللطيف" صوت أخيه "عبد العزيز" ينادي من الشارع، فأسرع، يفتح الشرفة، وطلب "عبد العزيز" منـه أن يرسل البالطو مع "عبده" فالدنيا تلج!

وعندما نزل "عبده" بالبالطو كان "شكري" يعود من بيتـه هو الآخر. والبالطو على كتفه.

وسارا معا في برد الطريق المظلم..

وهمس "عبد العزيز" و "شكري بك".

- بتقول احنا رايحين عند "شـويكار"؟!.. مـش دي قريبة عديلة هانم مرات داود أفندي؟ طب افـرض رحنا لقينا المغفل داود هناك؟! تبقى سهرة إيه دي؟! لا يا عم! المذاكرة أحسن!

فلكزه "شكري" بغيظ تخالطه ضحكة مكتومة ودفعه إلـى أمام:

- يا أخي لا! اسكت!.. اسكت خالص.. مـا تـنطقش إلا لما نطلع من الشارع.

ومش "عبد العزيز" بجوار "شكري" وأمامهما في الأفـق يختلط الشجر والنخيل بالليل.

***

وحين دخلا أول شارع في الحلمية شعرا بالأرض صـلدة تحت الأقدام، وتابعا المشي إلى جوار البيوت ذات الأسـوار والحدائق!.

وأطلق "شكري عبد العال" ضحكة رنـت فـي الصـمت المظلم وهو يهز "عبد العزيز":

- بقى أنا عاوز أسهرك سـهرة ملـوكي فـي بيـت شويكار هانم، تقوم تقول لـي داود!؟.. يـا أخـي دا عديلة هانم دي من الفرع المايل في العيلة.. انت دلوقت حاتخش في بيت واحدة أبوها باشا وخالهـا باشا، وجوزها..

وقطع كلامه ليطلق ضحكة أخرى، ثم أكمل:

- جوزها الشرعي يعني موظف كبير فـي السـراية الملكية... لسه عرسان من أسبوعين!!

ودار رأس "عبد العزيز".. وتفتحـت نفسـه للمغـامرة.. ومشى بسرعة، ولكن "شكري" أمسك به:

- اتقل يا دكتور.. تقل رجلك شويه، كل ما تتأخر كل ما يكون أحسن. مش بيقولوا كـل تـأخيره وفيهـا خيره..

ونقل "شكري عبد العال" خطواته ببطء.. وتوقـف قلـيلا على منعطف شارع ومشى خطوتين، ثم استدار وهو يبصق على الأرض واتجه إلى شارع آخر وهو يقول:

- بلاش الشارع ده.. فيه بيت نسيم باشا..

فقال له "عبد العزيز":

- يا أخي هو احنا في إيه والا إيه؟ هو احنا رايحـين مظاهرة؟

ولم يرد "شكري" على "عبد العزيز".

وتابع سيره في ثبات وثقة، وأحـلام المغـامرة الغريبـة المقبلة ترسـم صـورا بـاهرة فـي الظـلام أمـام عـين "عبد العزيز"؟..

(١٣)

طعم الخمر مازال في حلق "عبد العزيز" منذ أول أمس!.. لم يعرف غير البيرة من قبل، أما في تلك الليلة فإنـه ظـل يشرب "الكونياك"، وأصبح مصدع الرأس، يعـاني إحساسـا حزينا.. لكم شرب حتى فقد القدرة على ضبط نفسه، وظـل يردد الغناء، وأخيرا قام فرقص!.. مر يومان، ومـع ذلـك، فمازال طعم الكونياك في حلقة!!

لو أن أباه علم!.. لو أنه رآه يشرب لوقع الحاج "خليفـة" من طوله مغشيا عليه!!

إن "عبد العزيز" يعـاني خجـلا غريبـا مـن "شـوقي" و "عبد اللطيف" أخويه الصغيرين على الـرغم مـن أنهمـا لا يعرفان.. وحتى من "عبده"!..

وهو لم يستطع منذ أول أمس أن يواجه نفسه!..

"الكونياك"؟!.. أيمكن إذن أن ينقلب إلى سكير يفقـد كـل شيء من أجل كأس من "الكونياك"!؟.. أعطته الكئوس نشوة

وألهبت كل حواسه، وحلت عقدة لسانه، ولم يعد متحرجا من "شويكار هانم"، وانطلق يضحك ويتصرف بحرية، ولكنه في الصباح شعر بكل هذا شائنا مهينا، وبأنه في أعماقه مذنب!.. وظل طوال اليومين لا يستطيع أن ينجو مـن إلحـاح هـذا الشعور بالذنب..

مع ذلك فلو أن "شكري" دعاه مرة أخرى، فسيذهب مـع إلى هناك بسعادة وإقبال وشراهة، ويرد غناء "رجاء صدقي" ويشرب نظراتها بعينيه، ويختلج على الدعاء المخـتلج مـن شفتي "شويكار"!..

شويكار..!

إنه مازال يذكر وجهها البديع بالعينين الواسعتين والأنـف الطويل الواسع الفتحتين الذي يمنح جمالهـا طابعـا خاصـا حريفًا! ونهديها، ودلالها، وتطوحها وهـي تغنـي بعـد أن سكرت!.. ليت "شكري" يدعوه الليلـة أيضـا.. ولكـن لا.. مستحيل!

هو لا يستطيع أن يرى "شـكري".. إنـه خجـلان مـن "شكري" أيضا!.. كان يجب يا "عبد العزيز" ألا تفقد صوابك إلى هذا الحد.. بدوت طفلا صغيرا أمامهم، ونظر إليك "أدهم

بك" بغيظ واستصغار وأنت تتمايل، و "شويكار" تسندك فـي آخر السهرة، ولهب يسـري فـي نخاعـك، ويستنهضـك ويناديك!!... ساعتها قام "أدهم بك" بنفسه فسلمك لـ "شكري عبد العال"، وهمس في أذنه بكلمات غاضبة.. أكـان يؤنبـه لأنه جاء بك؟.. أنت لم تشعر بحب لهذا الرجل، ولعله هـو أيضا كان يحس بك ثقيلا على قلبه.. لماذا قعد هـو بعـد أن قمت أنت و "شكري"؟.. ولماذا لم تخرج "رجاء صدقي: هي الأخرى؟.. إيه.. كان "شكري" متضررا مـن وجودهـا أول الأمر.. وعاتب "شويكار هانم" لأنها أحضرتها وهـي مـن جيرانه.. ولكن "شويكار" أخذت تمزح!..

عجيب "شكري عبد العال" هذا!! انه مـع ذلـك داعـب "رجاء" طويلا!! داعبها بوقار وظرف، ولم تتجرأ هي عليـه أبدا.. ظلت تقول له عم "شكري بيه".. مع أنها كانت تلقـب "أدهم بك" باسمه مجردا.. وكانت البنـت تضـحك وتغنـي وترقص، وتكاد تنط، وتجري كأنها تريد أن تشـق المكـان، وتمتص السجائر بشراهة كما لو كانت تمتص رحيق الحياة، وتشرب بجنون كأنها تصفي حسابها مع الدنيا، ثم تسعل حتى ينقطع منها النفس!.. لكم كانت مثيرة للرثاء وهـي تسـعل،

بقدر ما كانت رائعة نفاذة وهي تـرقص وتغنـي وتركـب الحروف على بعضها وتصنع كلمات جديدة يضـحك منهـا الموجودون!..

مثل هذا النوع من الفتيات الصغيرات لا يمر بـلا أثـر يا "عبد العزيز"!! في الحقيقة أنت تريد أن تسهر مرة أخرى مع نفس هذه المجموعة، حتى "أدهم بك"!! إن نظراتـه إلـى "شويكار هانم" مسلية جدا، ولكم راق لك يا "عبد العزيـز" أن تتأمله يتودد لـ "شويكار" ويحاول أن ينـال رضـاها، هـو العجوز الذي يكبرها بمثل عمرك أنت!.. وزوجها بعد ذلـك قاعد مهيب الطلعة طويل نحيل فاخر، يشرب ويضحك فـي صمت، ويتابع "رجاء" بنظرات حذرة.

كل ما في مثل هذه السهرات بديع، لا يشبع منه القلـب.. ولكن خسارة، فالحلو لا يكمل.. لو كان من الممكـن تأجيـل هذه السهرات إلى ما بعد الامتحان!!

الوقت يزحـف بسـرعة مخيفـة.. وليلـة تضـيع الآن لا تعوض يا عم "شكري"!..

ولكن "شكري" وقف في شباكه ينادي "عبـده".. وعنـدما أسرع إليه سلمه ورقة لـ "عبد العزيز".

وحين فرغ "عبد العزيز" من قراءة الورقة، رماها علـى مكتبه بخوف، وخبط الكتاب بعصبية!.. لا..!.. مستحيل لـن يسهر بعد الآن، لن يشرب "الكونياك" هـذه الليلـة أيضـا، ويصبح في غده يلفحه النـدم ووهـج الخمـر فـي رأسـه وحلقه!!.. يكفي أنه سهر ليلة الأمس، وهـو منـذ يـومين لا يستطيع أن يستقر على حال..

لا.. لا يا عم "شكري"!.. أنت رجل موظف لـيس لـديك شيء تصنعه بوقتك إلا مثل هذه السـهرات، أمـا نحـن... فطلبة... طلبة.. وراءهم امتحانات ومستقبل وأهل يدفعون دم قلبهم في التعليم وينتظرون النتيجة على نار!..

ستمر الساعة العاشرة تماما لنخـرج معـا إلـى سـهرة عندها؟!.. جميل وا !!... تفضل مر على يا سي "شـكري" وابحث عن الذي يخـرج معـك!... كـم السـاعة الآن؟!.. السابعة... يعني بقيت ثلاث ساعات!!.. ولكننا أيام المذاكرة نكون في حاجة إلى يوم مؤلف من ثلاثين ساعة يا رجل!!... آه... هذا هو الشهر الأخير وبعده لا مذاكرة إلى الأبد!!

ولم يشأ "عبد العزيز" أن يرد على الورقة التي أرسلها إليه "شكري" وظل يذاكر بانفعال واستغراق وحماس، ولـم يعـد

يشعر بشيء، وكأنما تفتحت كل حواسه وتحولت إلى طاقات تلتهم ما يقرأ...

وتوقف فجأة وهو يلمح عقارب المنبه أمامه على المكتب تشير إلى التاسعة والنصف.

وقلب الصفحات التي قرأها في أول الليـل.. وأدرك أنـه استوعب كمية من الصفحات – في ساعتين ونصف – أكثر مما يستوعبه عادة في خمس ساعات... وعاد يقلب الصفحات التي كان يجب أن يذاكرها في نفس الليلة، ورآها قليلة جدا... تكفي لها ساعة من مذاكرة الصباح.

إنه يستطيع أن ينهض في الغد قبـل موعـد اسـتيقاظه المعهود بساعة واحدة فيأتي عليها هي الأخـرى.. وهكـذا لا يتعطل!.. أن أولى ساعات الصباح هـي أكثـر سـاعات المذاكرة بركة وإنتاجا!..

قم يا ولد قم وانبسط الليلة أيضا!... قم فـالعم "شـكري" لا يطيق أن تعتذر له... ولئن كان هو يترك لك تقدير وقتـك ويسألك في أدب أن تذهب معه إن كـان لـديك وقـت، إن واجبك أن تكون أكثر أدبا، فلا ترد طلبه... ربمـا جرحـت شعوره إن اعتذرت... إنك تملك الوقت... فقم. البس البدلـة

الكحلي والكرافتة الحمراء البديعة التي مازال "عبد اللطيف" يطمع فيها.. ما أبدعك يا "شويكار" وأنت تقولين لي... متعابثة ولسانك ثقيل من كثرة الشراب: "يا ولد!".

لماذا تعلقين عينيك الواسعتين وتضمين شفتيك الدسمتين وأنت تنظرين إلي أنا؟ ألا تعرفين أنك تغرسين اللهب في قلبي!! ...آه! وزوجك الأنيق الفضي الشعر جالس لا يتكلم!

***

ودخل "عبد العزيز" بيت "شويكار هانم" للمرة الثانية بعد يومين بالضبط من أول مرة دون أن يفارقه تهيبه الذي صحبه في اللحظات الأولى من زيارته السابقة... ونظر إليه "شكري" فوجده يعبث بعلبة من الكريستال موضوعة أمامه على مائدة رخامية... ويداري فيها اضطرابه، وأوشك "عبد العزيز" أن يهشمها، فقال "شكري" مبتسما:

- انت مدهول كده ليه؟!.. ما تتفرد كده يا أخي... دا الجماعة سألوا عليك امبارح، وكنت حانزل أجيبك بس ما حبتش آجي لك وأنا شارب!! تصور! تدخل هنا أول امبارح لأول مرة في حياتك يقوموا

يشعروا بغيابك تاني ليلة على طـول.. لازم علـى كده تيجي كل ليلة!..

وضحك "عبد العزيز" وسحب يديه... وكأنه يفـتش عـن مكان لهما... ووضع يدا في جيب البنطلون، ومضـت يـده الأخرى تتحسس عنقه والكرافتة... بينما وقف "شكري" يتأمل في باب زجاجي كبير مغلق يفصل بين حجرة الصالون التي يجلسان فيها، وحجرة أخرى تضج بضحك نساء..

وقال "شكري" متعجبا:

- غريبة قوي!.. الساعة عشرة وربع والمقابلة لسـه ما خلصتشي.. دي "شويكار" قايلة لي انها حاتخلص تسعة ونص!..

ولم يجب "عبد العزيز".

وأوشك أن يسأل "شكري" إن كانت شـويكار هـانم" لـم تستثقل وجوده عندما جاءها أول أمس لأول مـرة.. ولكنـه عدل.. كان يجب أن يسأل عن هذا قبل أن يجـيء... وهـو يذكر على كل حال أنها ضاقت به أول الليل، ولكنها في آخر السهرة ظلت تداعبه، بطريقة ضايقت "أدهم بك"!!! علـى أن

"شكري" فاجأه وهو يرقب "شويكار" تتحرك من وراء البـاب المغلق وخيالها ينعكس على زجاج الباب:

- بس يا عم أهي جايه اهه... باقول لك هوستنا عليك امبارح لحـد جوزهـا مـا قـرب يغيـر!!.. دي مستلطفاك قوي يا ولد!.

ونطق "شكري" كلمة يا ولد بنفس الرنة العابثة التي تلقيها بها "شويكار"، فضحك "عبد العزيز" في زهو وأذاب كثيـرا من حرجه.

ودخل خادم في قفطان أبيض يدفع أمامه عربة زجاجيـة عليها كئوس كثيرة ودورق من الكريستال الفاخر يتوهج بـه الكونياك وأطباق بها فستق ولوز مقشور...

وعندما استقر الخادم أمام "عبد العزيـز" انحنـى وتهيـأ للانصراف، فاستوقفه "عبد العزيز" بخفة:

- خد هنا... لمين ده كله؟... امال فين أهل ا ؟ فـين الجماعة؟!..

وأشار "شكري" إلـى الخـادم أن ينصـرف، ثـم قـال لـ "عبد العزيز" وهو يكتم الضحك:

- حلمك!.. احلم!

وخطف "عبد العزيز" نظرة سريعة على الظلال المنعكسة على زجاج الباب من ورائه، بينما كان "شـكري" الجـالس قبالته يحملق في زجاج الباب مهمهما:

- ا دي شويكار غيرت رأيها!.. قعـدت!.. ا !... لكن دي مين اللي واقفة دي؟.. دي حاترقص.

وتعالت تصفيقة "على الواحدة" وأنغام البيـانو تتصـاعد بدور قديم، بينما انعكست على زجاج الباب صـورة امـرأة سمينة تتمايل على النغم وتقذف بنهديها وبردفيهـا ويتثنـى خصرها في نشاط لا يحتمله امتلاء جسدها!. من الشدة؟

وقام "شكري" وأوشك أن ينظر من خصـاص البـاب... أليست هذه هي صديقة "شويكار" اللي كانت تملك ذات يـوم أجمل جسد في زمانها، رقصت عارية تماما أمـام "الملـك فؤاد"!؟ ما أسعده!.. ما بالها سمنت!.. طبعا.. إنهـا الآن أم لبنت تزوجت... كان زوجها يفخر بأنه يملك الكنز الذي كان للملك ذات مرة!... ا يقويه زوجها التـيس!... هـو الآن موظف كبير جدا حصل على الباشوية منذ عام واحد، مع أن "شوقي بك" أمير الشعراء مات بحسـرته علـى الباشـوية!! أوضاع يا "شكري"!... ولكن ما لنا ولهذا كله الآن؟؟. تأمـل

يا "عبد العزيز"!.. تأمل يا ولد كيف تتثنى المـرأة!... أنـت لا يمكن أن تصدق أن في الدنيا أشياء غريبة مثل هذه المرأة وحكايتها مع الملك ومع زوجها!... ولكن ماذا تعـرف مـن الدنيا أنت؟!.. أنت لا تعرف إلا شـارع عزيـز، ومغـامرة صغيرة بعد زجاجة بيرة، أو قبلة تخطفها من خد بنت تريدك وهي ترتعش!.. أتعرف فضائح الدنيا وأغوار المدينة وأسرار الشوارع الكبيرة يا ولد!.. لا يمكن يا ابـن الحـاج "خليفـة" الطيب أن تتصور كيف تجري الحياة في بعـض القصـور خارج شارع عزيز!... ولكنا نحن يا أولاد شـارع عزيـز لا يعجبنا العجب، وما نصدق أن نرى مـا لا يعجبنـا فـي الشارع حتى نستلمه ولا نخلص منه أبدا!! كل مـا اسـتلفت نظرك يا "عبد العزيز" من سهرة أول أمس سـلوك "رجـاء صدقي"... أنا تضايقت من مجرد وجودهـا، فمـا يليـق أن نسهر مع واحدة من الشارع، ولكنك أنت لم تتضـايق، بـل على العكس كنت تضحك لكلامها ونكاتها وتطرب لرقصـها وغنائها وكنت تغرس عينيك في عينيها أحيانًا بشكل ملحوظ، وبطريقة ضايقت "شويكار" التي لا تحب أن يلتفت أحد إلـى سواها... ومع ذلك ظللت أنت على طوال الطريق – ونحـن

راجعان – ترص لي الشتائم في "رجاء صـدقي"!.. كانـت البنت محتشمة أكثر من "شويكار"، ولم يغازلها أحد إلا أنـت ولم تنهد لسواك يا "عبد العزيز" ولم تشتبك نظراتهـا بغيـر عينيك.. ولكنك كنت سـاخطا عليهـا، تتهمهـا بالتبـذل!.. يا سبحان ا !. يا أخي افهم حاجـات النـاس ولا تحـاكمهم بقسوة.. إنها تغني هنا بثمن ألا تفهم؟.. تأخذ جنيهـا لتحيـي ليلة انشراح عند "شويكار" وتعود البنت إلى أهلها بسـلام!.. هذا خير من أن تذهب مع رجل أو ربما عدة رجال لتعـود بهذا المبلغ إلى أهل يعيشون على عملها وأنـت تعـرف؟.. وعلى أية حال، فما شأنك بخلق ا يا أخي؟!.. البنت تشرح صدرك بغنائها ورقصها وكلامهـا وأنـت تمـلأ طريقـي بشتمها!.. كـان مـن المعقـول أن تشـتم زوج "شـويكار" نفسها!... على كل حال ربما لم تجئ "رجاء صدقي" الليلة.. ربما كان عندها عمل في المسرح أو لعل "شويكار" اقتنعـت بأنني لا أرغب في وجودها فتحرجت من دعوتها.. إنها لـم تسهر عند شويكار بالأمس ولم تكن "شـويكار" تنتظرهـا!.. يعني قطعنا عيشها!.. ا يلعنك!! أنت تحكم علـى "رجـاء" بقسوة لأنك تعرفها وتعرف أنها فقيرة، وعورة الفقراء كبيرة

أما عورة الأغنياء فمستورة!.. ولكن اسمع... من هذه التـي تغني بصوت له بحة حلوة.. ا أكبر هذا (الصوت) أعرفه! ارفعي صوتك يا ست بوحائد الست "منيرة المهدية"!..

واصطدمت رأس "شكري" بالباب وهو يجهـد لاخـتلاس النظر من خصاصه... فارتد مباغتا في خجـل، وارتفعـت ضحكة "عبد العزيز" بينما كان أدهم الذي جـاء منـذ مـدة يضحك قائلا:

- يا شكري إوعى تكسر الباب!... ما تفتحه وتخـش عند الحريم أحسن!... ما هي شخلع تستاهل أكتـر من كده...

وضحك "شكري":

- وا ضبطتني... جيت امتي يا أخويا... وا أنـا ما شعرت بيك!... وقاعدين ساكتين كده ليه؟

وسلما على بعضها البعض و "شكري" يكمل:

- بقى دي "شخلع" اللي بترقص دي.. أنا كمان قلـت مين يعرف يرقص كده! تعرف أنا الأول افتكرتهـا مين؟... أنا فكري راح...

فتدخل "عبد العزيز" مقاطعا بصوته المرتفع دائما:

- شخلع دي إيه كمان يا جماعة؟!.

وقال "شكري" بسرعة ليسكت "عبد العزيز":

- عالمة!.. عالمة مشهورة يا أخي!.. هو أنت عايش قفي قمقم..

ثم استطرد:

- وا عرفت تقفشني يا "أدهم". وا دا أنـا فكـري راح إلى "جلفدان هام"... افتكرتها "جلفدان".

فضحك "أدهم بك" قائلا باستعلاء مـن يعـرف أسـرارا كثيرة:

- جلفدان؟!.. اللي رقصت عريانة قدام الملك من كام سنة؟! هي فين جلفدان؟ دا انت بقى اللي عايش في قمقم يا مبارك!.

وقام يفرغ لنفسه كأسا ثانية من الدورق، وأفـرغ كأسـا لـ "شكري" وهو ينظر إلى كأس "عبد العزيز":

- اشرب يا دكتور... يعني ما تشربشي إلا لما تيجـي "شويكار هانم" بنفسها وتفتتح السهرة رسمي؟!..

وأمسك "عبد العزيز" كأسه بشيء من التردد، ومد يده إلى طبق اللوز وأخذ يعبث بحباته ويتناول منها على مهل، بينما التفت "أدهم بك" إلى "شكري بك":

- أنت ما تعرفشي يا مبارك ان جلفدان" هربت مـع ولد صغير يبقى صاحب جوز بنتها؟. دول عايشين في اسكندرية على طول.

وحملق "عبد العزيز" في دهشة بالغة.. و "شكري" يقـول ببساطة:

- لكن طلقت والا لسه على ذمة جوزها!..

ورد "أدهم":

- هو يقدر يطلقها.. دول كانوا يسحبوا منه الباشوية!.

ورنت ضحكات الـرجلين، و "عبـد العزيـز" مـازال يحملق... وأوشك أن يسأل عن الحكاية..

ولكنه بلع كلامه.. وبل ريقه بأول جرعة مـن كأسـه.. وأحس في جوفه بنوع من الري والثقل والخدر اللذيذ...

وفجأة سأل "شكري":

- لكن مين اللي كانت بتغني جـوه دي.. أنـا فـاكر الصوت ده.. دي مش "شخلع"!.. لكن أنا سـمعتها قبل كده...

فأجابه "أدهم" بخفة:

- دي البت المفعوصة بتاعة شارعكم دي اللي كانـت هنا ليلة أول امبارح.

وأمسك "عبد العزيز" كأسه بيده، وارتشف جرعة أخرى، ووجم "شكري" ثم رفع كأسه وهو يقول:

- آه.. رجاء صدقي!

واستطرد "أدهم" وهو يسمع ضجة النسـاء ترتفـع مـن الحجرة المجاورة وطرقعة قبلات تختلط بالضحكات:

- يظهر ان الستات نازلين..

ثم همس:

- الست "شويكار" فاهمة انها حاتعمل من البنـت دي "أم كلثوم" تانية.. تعرف البنت اللي كانـت بتسـهر قبلها هنا كانت حلوة صحيح... لكن بطلت تيجـي..

تعرف ليه يا مبارك؟.. الست "شويكار" بتغير منها. فاكرة ان اللي بييجي هنا بييجي علشان البنت!..

وعاد "عبد العزيز" ينظر إلى "شكري" مستغربا، وشعر بنفسه شديد الغباء فسأل ساخرا:

- الواحد قاعد مش فاهم حاجة أبدا.. قاعد زي الحمار! أنا عامل زي الفلاح اللي لسه جاي من بلدهم.. إيه الحكاية!. هي الست "شويكار" مش متجوزة من أسبوعين؟.. مش جوزها اللي كان قاعد معانا أول امبارح!..

فقال "شكري" ضاحكا:

- يا أخوي ما انت فاهم!... يعني حاتستعبط في دي كمان!... يا واد بلاش الحاجات دي على عمك!..

وفتح الباب الزجاجي الكبير الذي يفصل بين الحجرتين... وتقدمت "شويكار هانم" في فستان أسود لامع على صدره وردة كبيرة بيضاء، وهي في كامل زينتها، ومن ورائها "رجاء صدقي" في فستانها الصوف الأحمر.

وتقدمت "شويكار" عارية الكتفين، ملفوفة الخصر، بارزة النهدين والردفين، وعندما وقفت أمام "عبد العزيز" رفعت

حاجبيها في دهشة، وهي تبتسم، وأسنانها وعنقهـا وعيناهـا وكل شيء فيها يكـاد يضـيء... ومـدت ذراعهـا إلـى "عبد العزيز" ماسة كفه بأناملها وهي تقول في دلال:

- ا ... انت جيت يا ولد!... أهلا! كنت فين امبارح؟

فأمسك "عبد العزيز" بيدها مسلما مستمتعا بدفء ملمسها.. ولم يترك يدها وهي واقفة أمامه تبتسم... وتلعلع! ...

وأطلقت ضحكة صغيرة وهي تحاول أن تسـحب يـدها، ونظراتهـا تنتقـل فـي غنـدرة بـين "عبـد العزيـز" و "شكري"، و"أدهم".. وتأفف "أدهم"، ورمق "عبـد العزيـز" بعينيه، فقال "شكري" ضاحكا:

- ا ؟.. ما تسيب إيـديها يـا ولـد انـت حاتكلهـا والا إيه؟!.

ولوحت "رجاء صديقي" بيدها ورأسها وهي تنظـر إلـى "شويكار" و "عبد العزيز"، ثم تقدمت ضاحكة:

- يا سلاس! ...

وأدرك أنها تريد أن تقول: "يا سلام"!. بتلاعبهـا الـذي عرفه بالحروف. فضحك بخفة وطلاقة.

وعندما جلست "رجاء" وجلس "عبد العزيز" كانت "شويكار هانم" تدير كتفها لأدهم بك بعد أن سلمت عليـه "وشـكري" ينحني برشاقة على يدها فيقبل أطراف أناملها مـرة، ويقبـل كفها كلها مرة ثانية، ثم يمد يده فيداعب ذقنها متلطفًا:

- أهلا أهلا بالقمورة... انتي وحشتيني خالص.. مـن الساعة عشرة واحنا منتظرين.. انتي الليلة حاجـة شيك خالص.. حاجة تمام... أيـوه كـده.. أيـوه.. الحلاوة واللطف!..

وضحكت "شويكار" وقعدت منفلتة في رشاقة من شـكري الذي حاول أن يشم الوردة من على صـدرها.. و "رجـاء" تضج:

- يا سلاس.. اوعى الوردة البيضاء!

بينما أخذ "شكري" بتعليق "رجاء"، وكأنه تذكر امتعاضـه بوجودها، فنظر إلى "شويكار" بعتاب صـامت... ولاحظـت "رجاء" تحرجه فقالت ضاحكة:

- ما تبقاش درام يا عم "شكري بيه".. دانتو وحشتوني قوي امبارح.. أنا كنت عاوزة آجي امبارح.. لكـن عرفت إن الدكتور عبد العزيز كمان ما جاش!

وانفجرت ضحكة "شكري" بارتياح، ونظر إلـى "رجـاء" بطيبة كبيرة، و "عبد العزيز" يتأمله معجبـا بخفـة حركتـه ورشاقته ولطفه وهو يداعب "شويكار" عنـدما كـان يسـلم عليها!..

وقامت "شويكار" تملأ كأسا لها وكأسا لـ "رجاء" وهـي ترفع كأسها قائلة:

- أما الليلة في المقابلة "رجاء" غنـت حتـة دور... والنبي ولا "أم كلثوم"!... لازم تغنيه لكم تاني..

فزفر "أدهم بك" بضيق وتحسس شعر رأسـه المصـبوغ قائلا:

- أم كلثوم؟!... بقى كل واحدة تغني لها كلمتين تبقى أحسن من أم كلثوم.. وأي جورنالجي هلفوت يكتب له كلمتين يبقى أحسن من طه حسـين.. وان طلـع واد يمدح له الملك ببيتين شعر مكسـورين يبقـى أحسن من شوقي بك!... وأي سنكوحة بقت أحسـن من "فاطمة رشدي"!... وا عال!! ده إيه ده؟ ووجم الجميع... وأحست "شويكار" هانم بحرج فالتفتت إلى "أدهم بك" مستنكرة، ونقل "عبد العزيز" نظراته بين

وجه "أدهم" المتحدي، ووجه "رجاء" الـذي اصـفر فجأة، وشعر "عبد العزيز" بأنه يجب أن يرد الإهانة عن "رجاء"..

ولكن "شكري" رفع كأسه قائلا ليغير الجو:

- في صحتكم... في صحة "شويكار هانم". وشـوقي بيه وطه حسين وأم كلثوم ورجاء صدقي كمان!!

ولاح على "رجاء" وهي ترفع كأسها وتشرب أنها تحاول أن تتماسك.. واختلجت عيناها لحظة، غير أن الابتسامة بدأت تغمر وجهها... ودقت الأرض بقدمها وهزت رأسها وجسدها في حركة تهريج وقالت ضاحكة وهي تمط الحروف:

- القعدة باظت يا جدعان طب وماله..!..

وانفجرت "شويكار" بالضحك..

وتذكر "عبد العزيز" أنه يعرف إنسانا ما يتحـدث بهـذه الطريقة، فالتفت إلى رجاء مبتسما وهو يزرري ما بين عينيـه محاولا التذكر، ورجاء تنظر إليه ضاحكة وتميل برأسها في بساطة وهي تعيد:

- طب وماله!.. ومالـ..ـه

ثم استطردت:

- ده "عبده" خدامكم يا دكتور.. كل واحد يهينه بكلمة والا يتضايق من حاجة يرفس في الأرض ويقـول وماله!.. وطب وماله!. وضـحك "عبـد العزيـز" و "شكري"..

وقال "أدهم" مستعليا:

- طب سمعينا يا ستي!.. حافضـه الـدور بتـاع أم كلثوم: "إمتى الهوى ييجي سوا وارتاح".. يا سـلام عليك يا شيخ زكريا.. ما فيش كده..

وأجابت رجاء:

- لا.. أنا حاقول لك تواشيح يا سي "أدهم".. وبعـدين أغني لك دور: يا حلو وا .. أقول لك حاجة مـن سي عبده الحامولي!.. والا من محمـد عثمـان.. حاجة تفكرك بشبابك!..

وضحكت "شويكار" قائلة:

- لأ.. عمك "أدهم بيه" مش عجـوز قـوي كـده... يقطعك!.. دا الحاجات دي على أيام جدي!.

واحمر وجه "أدهم"، وبدأ يعبث بشاربه المصبوغ اللامع السواد، المجفف بعناية فائقة.. ثم أخرج علبة سجائره الذهبية، وتحسس سيجارة وتركها، وأخذ سيجارة أخرى فأشعلها في ضيق واضح.

وتدخل "شكري":

- أمال البيه فين الليلة!.. فين البيه بتاعك؟..

فقالت "شويكار" ضاحكة وهي تقوم من مكانها:

- وبتسأل ليه؟..

وضحكت و "عبد العزيز" يبتسم متحرجا من الضحكات المتتابعة التي لم يستطع أن يلاحقها.. أو يفهم سببها!..

وامتلأت الحجرة بدخان أزرق غريب الرائحة ينفثه "أدهم بك".. ووقفت "شويكار" متجهة إليه قائلة بطرب:

- أنت معاك؟!... برافو عليك يا "أدهم بك".. فوت بقى!..

ودهش "عبد العزيز" من الفرحة التي سيطرت على "شويكار" فجأة..

وقفزت تخطف السيجارة من "أدهم" فامتصـتها بشـراهة غريبة، وكتمت الدخان لبعض الوقت فـي فمهـا، ولعبـت بفكيها، ثم تركت الدخان يخرج بطيئًا متموجـا مـن فمهـا وفتحتي أنفها الواسعتين!!.. وأخذت تتأمله في هيمـان، ثـم مدت يدها بالسيجارة إلى "شكري"، ولكنه نحاهـا باشـمئزاز قائلا:

- أنا ما أشربش حشيش!..

ودوت الكلمة رهيبة في أعماق "عبـد العزيـز".. ولمـح "شكري" ينظر إليه متخوفًا مشفقا.. والتفت "عبد العزيز" إلى "رجاء" فوجدها تعتذر لشويكار متهيبة:

- أنا كمان ما أشربشي.. ما انت عارفة!

ولاحظت "شويكار" الامتعاض الذي ارتسم علـى وجـه "عبد العزيز" و "شكري".. فقامت من مكانها، وتأودت وهـي تنظر إليهما قائلة بصوت خافت يكاد أن يكون من أنفها:

- أنا مش متعودة عليه.. لكـن أصـله بيهـدي لـي أعصابي!.. أنا أحبه.. أعمل إيه!؟..

وخرجت من الحجرة، فغابت قليلا، و "أدهم" يدخن من السيجارة المحشوة على مهل ويتأمل الدخان الأزرق بتلذذ قائلا باستخفاف:

- على كل حال دي سيجارة واحدة ما فيش غيرها! بلاش فلسفة قوي كده!..

فقال "شكري" بصرامة:

- يا أخي كل واحد حر طبعا.. ولكن أنا ما أحبش مجالس الحشيش!..

وعادت "شويكار" بالعود ملفوفا في كيس أخضر من القطيفة والتقطه منها "شكري بك" فأخرجه بعناية من كيسه، وغمزه بيده.

وسرت أنغام خفيفة ولكن "شكري" توقف، ثم تنهد قائلا:

- وا أنا لو كنت مشيت في العود ده كنت بقيت دلوقت حاجة تانية.. ولكن الدنيا!..

فأخذت "رجاء" العود وهي تقول:

- يا عم شكري باقول لك خليك كوميدي! ما تبكيش على الدنيا ما تبقاش درام!..

وأعطت العود بدورها لـ "شويكار"، فبـدأت "شـويكار" تلعب بأوتاره... وانطلق نغم جميل... وعكفت "شويكار" على العود لحظة واستغرقها النغم، وبانت فاتنة في وجومها... ثم نحت العود فجأة لتقول بجد:

- تعرف يا شكري... تعرف البيه فـين... سـعادته مصاحب جديد... واحنا لسه في شهر العسل!!

ثم استدركت ضاحكة:

- مخاوي!.. قال على رأي جحا: واحد شـال معـزة وقع، قال هاتوا التانية!..

وضحك الجميع، وسأل "شكري":

- ومين المعزة التانية دي بقى!. لكن هو مش قـادر على الأولانية صحيح؟

فقالت "شويكار" بتجهم:

- معزة حقيقي!.. بنت قـد أولاده!.. مـن نوعـه.. بتشتغل في شباك تذاكر سـينما.. بنـت طليانيـة طمعانة في فلوسه! يا للا! يغور بيهـا الفـلاح ده! بكره تشرب المقلب! أصله بسلامته هيئة كده وملو

هدومه والواحدة اللي تشوفه تقول ياما هنـا يامـا هناك.. واللي تحت القبة لا هنا ولا هناك!..

وارتفعت ضحكات من جديد وضاع احتجاج عبد العزيـز على تعريضها بالفلاحين في عجبه من تعرضـها برجولـة زوجها.. وذابت الضحكات و "رجاء" تخبط الأرض وتتمايل برأسها وجسمها قائلة:

- طب وما... له!

وانفجر "أدهم بك" قائلا:

- ما تسمعونا حاجة بقى.. على ما قسم! ...

وعادت "شويكار هانم" تلعب بأوتار العود برأسـها علـى النغم الراقص قائلة لـ "رجاء":

- وري عملك يا بنت!

ووقفت "رجاء" تضـحك... وتتمايـل... ثـم اسـتغرقها الرقص... ومالت على شويكار" بدلال وهمست لها:

- والنبي اضربني لي آه يا اسمر اللون..

"آه يا اسمر اللون حبيبي الاسمراني"..

"أسمر وعيونه سود حتى الكحل رباني"..

وأقبلت نحو "عبد العزيز".. وبدت له بعد الكـأس الثالثـة كإحدى فتيات قريته... بسيطة طيبة، لها نفس الوجه، ونفس الصوت.. وسألها وهو يكاد يحتضنها بنظراته:

- انت من أي بلد؟.. انت الك مأساة؟..

ولكنها اربدت فجأة... ثم عادت فابتسمت:

- يا أخي ما تبقاش درام انت كمان!

- وتابعت الرقص، ودارت طويلا، وهي تعيد الأغنية بتلذذ حزين... واسترسـلت إلـى أغنيـة أخـرى و "شويكار" تتابعها بالعود...

وفجأة سعلت وسعلت.. وكممت فمهـا بكفهـا.. ولكنهـا وجدت على كفها دما... فشهقت... وظلت تسعل... وسال دم جديد على كفها.. وتأملت كفها وأدارتها بعيـدا عنهـا.. ثـم صرخت في فزع هائل وارتمت على كتف "عبـد العزيـز" وتشبثت به:

- دم!! دم!!. الحقني يا دكتور؟!. حاموت يا دكتور!..

(١٤)

أصبح "شوقي خليفة" متعب النفس.. كأن في أعماقه خوفا مبهما من أشياء لا يعرفها تماما...

ولم يكد يفرغ من ارتداء ملابسه حتى شعر بأنه يريـد أن يجري إلى الشارع... إلى المدرسة أو إلى أي مكان آخـر... ولكن الجو خارج البيت كئيـب. لا شـمس فـي السـماء، والسحاب كثيف، وفي الشارع هواء بارد..

واستوقفه أخوه "عبد اللطيف" يسأله:

- انت نازل بدري كده ليه؟... مالك؟ من يومين كـده ما انتش طبيعي؟ ...

ولم يجب...

وتبعه "عبده" إلى السلم قائلا:

- طيب مش تفطر؟..

ولكن "شوقي" ذهب في صمت، وهو يضـم كتبـه إلـى صدره في عصبية... وتوقف أمام شقة "عبد الحـي" التـي تقابلها شقة الممثلة "رجاء صدقي".

وفكر في أن يدق باب الممثلـة ويـدخل ليتكشـف سـر زيارات أخيه "عبد العزيز" المتكررة في النهار والليل...

لم يعد "عبد العزيز" كما كان.

منذ تلك الليلة التي سهر فيها مع "شكري بك"، وهو يتردد على شقة "رجاء صدقي" بلا انقطاع، ويتحدث عنها بلهجـة غريبة... ويخرج كثيرا في الليل! ...

"سعد داود" يقول إن "شكري" و "عبد العزيز" سهرا عنـد قريبة أمه "شويكار هانم"، وهناك رقصت "رجـاء صـدقي" وغنت طويلا، ثم سعلت بعد ذلك وبصقت دمـا... وحملهـا "عبد العزيز" في عربة حنطور وعاد بها إلى بيتها...

أيكون "عبد العزيز" عاشقًا للممثلة "رجاء"؟!.. أيصنع مثل "أرمان دوفال" مع "مرجريـت جوتيـه"؟!... ولكـن أبـوك يا "شوقي" لو عرف فلن يصنع كما صنع الأب "دوفـال"... وماذا تصنع أمك لو عرفت أن ولدها المرتجى يعـيش فـي مأساة كمأساة "غادة الكاميليا"؟!

ما كان يصح يا "عبد العزيز" أن تعمل هكذا... أن تخيب أمل أمك وأبيك... أيمكن أن تنجح الآن في امتحانك؟! ...

وشعر "شوقي" وهو يتذكر أمه وأباه في البلد بأشياء عديدة مضطربة تنفجر من أعماق نفسه، وتكاد تدفع الـدموع مـن عينيه... وهمست في أعماقه كلمات حزينة فاجعة من رواية "غادة الكاميليا.. المسرحية التي أخذه إليها "عبد العزيز"، منذ عام، وعاش أياما بعدها تهمس في أذنيه نغماتهـا الحزينـة البائسة!... إنه اليوم بالذات يذكر "مرجريت جوتيـه" وهـي تصرخ في وجه مصيرها: لماذا كتـب عليهـا الشـقاء!... لا ممثلة مثل "روز اليوسف" تملك كل هـذه الهالـة وهـي تتحرك على المسرح!..

واستدار "شوقي" إلى شقة "عبد الحي" وأوشك أن يطـرق بابه... ولكن خاطرا حزينا مر به...

وتذكر أن "عبد الحي" لم يعد بعد!... ما برح في سجنه... في غرفة مقبضة بلا فراش ولا شيء، في مثل هـذا اليـوم البارد... وربما كانوا ما زالوا يضربونه كما حكى الضـابط صديق "عبد العزيز"!.. أنت لن تضعف يا "عبـد الحـي"... ستظل كالجدار – كما كنت تقول عن نفسك – قـادر دائمـا

على أن تطلق ضحكاتك المجلجلة... كنت تضحك من كـل شيء... وبصفة خاصـة مـن جـوارك للممثلـة "رجـاء صدقي"!... أتعرف الآن يا "عبد الحي" أنها اسـتولت علـى "عبد العزيز" فلم يعد يضحك معنا، ولم يعـد يمـلأ البيـت علينا ...؟؟!!

أتعرف يا "عبد الحي" أن عبد العزيـز" يـروح ويجـيء بالحقن والأدوية، لا لأهل الشارع كلهم كما كان يفعـل مـن قبل، وإنما لها هي وحدها؟!. أتعرف أن "رجاء" تبصق دما، وربما التقط "عبد العزيز" منها العدوى؟!..

واندفع "شوقي" إلى شقة "رجاء" فجأة.. ولكن صوت عبده من ورائه استوقفه:

- طب بس خد كل اللقمـة دي... كـل السـاندويتش دهه.. دا نزولك من غير فطار يربي لك الدوخة... خد!... كل وانت واقـف زي مـا انـت... كـل يا أخوي.

ولم يستطع "شوقي" أن يقاوم عطف "عبده" وملأه حنـين هائل لكل شيء..

ووقف يقضم اللقمة ويبلعها وهو يشعر بطعم الدموع فـي حلقة. ووجد "عبده" يربت على كتفه بحنان قائلا:

- أنا عارف يا أخويا... ربنا ينجينا ...

والتفت إلى "عبده" في خجل، ولم يعرف ماذا يقول...

وخرج إلى الشارع، وأحس بالهواء البارد يلطم وجهـه، وينفذ من ملابسه إلى الجلد والعظام...

ووجد نفسه أخيرا أمام باب المدرسة، وقطـرات مطـر تسقط على رأسه، وأمامه ضباب لا يبـدده شـعاع. وشـعر بالناس من حوله يروحون ويجيئون في الشـارع، وبعـض المدرسين يدخلون من باب المدرسة نصف المفتوح!

لا يا "شوقي"... ليس أخوك "عبد العزيز" مثل بطل قصة قلب غانية أيضا... صحيح كان بطل قصة "محمود تيمـور" طالبا في كلية الطب جنى عليه حب غانية من جيرانـه فـي "البغالة"... ولكن "عبد العزيز" لا يعيش وحده... و "رجـاء" في النهاية ليست كتلك الغانية أنت تعرف... لم يدخل بيتهـا رجل غريب، وما فاحت لها سمعة... هذه الفتـاة السـمراء النحيلة ذات النظرة المتوهجة والعيـون السـوداء، والوجـه الحزين بشفتيه الغليظتين وطابع الحسـن علـى الـذقن!...

"رجاء" ليست غانية يا شوقي"!... أبـدا!... ليسـت كغـادة الكاميليا، ولا كبطلة قصة (محمود تيمور)!

وسمع "شوقي" صوت بواب المدرسة يناديه:

- إيه يا افندي!... داخـل والا مـانتش داخـل؟!... خلاص كل المدرسين دخلوا ودلوقتي نقدر نـدخل التلاميذ.

واغتاظ "شوقي" من لهجة البواب... وأحس كـأن قـدرا يتحداه ويطرق على عنقه فصاح بالبواب:

- إيه اللي دلوقتي أقدر أدخل؟!.. طيب ما أنـا مـن ساعة ما جيت أقدر أدخل زي ما أنا عايز.

فقال البواب بغضب:

- لا يا أفندم.. انت غلطان... وهي وكالـة مـن غيـر بواب؟.. ممنـوع دخـول التلاميـذ إلا بعـد دخـول كـل المدرسين... كل المدرسين يدخلوا الأول وبعـدين التلاميـذ واحد واحد. دي أوامر سعادة البيه الناظر. بقى لنا تلات أيام تمام ماشيين على كده، حتيجي انت تغلطني. يـاللا يـاللا.. عايز تتفضل جوه اتفضل، مش عايز اتفضل بره كـده كـده على طول أمر حضرة الناظر كده!

فاقتحم "شوقي" باب المدرسة نصف المغلق. قائلا بصوت مرتفع وهو يتقدم داخل المدرسة:

- ناظر إيه وبتاع إيه!؟ هي عزبة أبوه؟! هي خلاص سابت ديابها على كلابها!؟.

ولقي "شوقي" أمامه "ميخائيل أفندي" مقطب الوجه، ينظر إليه بغضب، في أبوة وإشفاق... والمطر يتساقط فجأة بشـدة ويكون في فناء المدرسة بركا صغيرة من الأوحال.

وأمسك "ميخائيل أفندي" يد "شوقي" وجذبه إلـى الـداخل بعيدا عن الفناء وهو يهمس له!

- يا ابني حاسب على نفسـك... إذا كنـتم عـايزين تتمردوا على النظام الجائر ده لازم تكونوا منظمين نفسكم، بدل ما تروح انت ومعاك تلاتة أربعة فـي داهية والمدرسة تظل تشتغل بعدكم زي المعتاد.

ولوح "شوقي" بيده وهو يشعر بنفسه تكاد تزهق، وبأنـه مستعد لأن يصنع أي شيء:

- إحنا مش داخلين الفصول زي الفراخ بعد كده... إن شاء ا نروح في ستين داهية أنا عايز أروح فـي داهية.

كانت كلماته مختنقة، وكان كل جسده يضطرم بهذا النوع من الرفض الذي يمكن أن يذهب به إلى آخر مدى.

واقترب منه تلميذ، وتلميذان وامتلأت أذنـه بعـد ذلـك بصوت تلميذ آخر يأتي من بعيد من الفناء قائلا في سـخرية ثابتة:

- احنا نقف هنا في المطر أحسـن... مـش داخلـين الفصول من تاني زي الغنم... احنا لن نسمح لأحد مطلقا انه يسوقنا... احنا مبسوطين كده من وقفتنـا في المطر.

كان هو صوت "عبد الرافع"!.

وانفلت "شوقي" من أمام "ميخائيل أفندي"، وجرى إلى فناء المدرسة ومن ورائه بعض التلاميذ ونظر إلـيهم "ميخائيـل أفندي" متعجبا، ثم هرول وراءهم طالبـا مـنهم أن يـدخلوا فصولهم في صوت حاول جاهدا أن يلونه بغضـب يخفـي الفرحة التي شاعت في أغوار نفسه...

ولكن فناء المدرسة كان إذ ذاك يمتلئ بالوحل، والمطـر يتساقط أخف مما كان، والحلقات تتناثر من خمسـة أو سـتة

طلاب كل حلقة تجادل أحد المدرسين، وتعلن أنهـا تـرفض الإذعان بعد للنظام الذي وضعه الناظر...

وسرت الحرارة من حلقة إلى حلقة، وارتفعت الأصـوات واختلطت، وانسحب بعض المدرسين من الفناء إلـى مبنـى المدرسة..

وانقطع المطر... وبدأت أشعة الشـمس تلـون أطـراف السحاب... وفجأة ارتفع صوت تغوص خشونته الجديدة فـي الرعشـة: "يحيـا الإضـراب".. "الخديويـة لا تسـتعبد.. الإضراب... الإضراب".

والتحمت الحلقات المتناثرة بسرعة غريبة، ودبت الحرارة في بدن كل طالب واهتزت السـواعد، والتمعـت العيـون بالغضب، وفتح باب المدرسة الـذي كـان نصـف مغلـق، واقتحمه طلبة آخـرون، والهتـاف الـراقص "الإضـراب الإضراب" ينطلق كالشرارة الملتهبة!..

ووقف "ميخائيل أفندي" بعيدا يفرط يديه، وإلـى جـواره الشيخ "علي" يهمس:

- أنا كنت متوقع أن هذا سيحدث... هو الناظر فـاهم انه يستطيع اقامة مثل هذا النظام وأنوف الطلبة في

الرغام يعني؟!... يتفضل بقى هو يـرغمهم علـى الدخول حسـب النظـام بتاعـه، والا يعنـي لازم يعرضنا احنا لمواقف سخيفة!؟..

- ولم يرد عليه "ميخائيل أفندي"... كانـت الهتافـات تملأ نفسه ببهجة غامرة، وكان قلبه يدق بسـرعة، ونظراته على الطلبة.. كلهم ملء الفناء ومن ورائهم الأفق العريض رحـب الشـعاع، ولـذة يخالطهـا الإشفاق تضطرم مع الدم في العروق!

وهمهم دون أن يلتفت إلى الشيخ "علـي" وكأنـه ينـاجي نفسه:

- أنا كنت متأكد أن ده سيقع... بس ما كنش لازم تبدأ انت بالهتاف يا "سعد يا داود"!..

والتهبت أكف الطلبة بالتصفيق على تغمة واحدة بهتـاف جديد ردده الكل في صوت واحد "تحيا مصر... تحيا مصر".

وتألق وجه "ميخائيل أفندي"، وأحس أنه يريـد أن ينـدفع وسط الطلاب ويردد معهم نفس الهتاف، والتفت إلى الشـيخ "علي" فوجده يبتسم والنظرة المشعة تسطع من عينيه، وهـو يهمس:

- إيه... آه لو كنا شباب!!.. آه لو كنا طلبة!

وأقبل الناظر من الداخل مسرعا مصفر الوجه بخطـوات حاول أن يجعلها ثابتة، ونظر إلى المدرسـين الـذين كـانوا يتناثرون في حلقات على سلم المدرسة، وأمامهم – في الفناء الواسع – جموع الطلبة تدوي هتافاتهم "تحيا مصر"..

وزعق الناظر في المدرسين:

- انتم واقفين تتفرجـوا يـا أسـاتذة!.. جـرى إيـه يا أفندية!.. دا سلوك تربوي ده؟.. يـاللا دخلـوهم الفصول بسرعة. اضرب الجرس يا فراش..

وأخرج الشيخ "علي" ساعته ببطء مـن داخـل القفطـان و "ميخائيل أفندي" ينظر إلى الناظر بسخرية وشماتة، وبعض المدرسين يتحركون مرتبكين مترددين بين الناظر والطلبة.. ووضع الشيخ "علي" ساعته على راحة يـده، وأخـذ يعبـث بسلسلتها الفضية ويدير مفتاح الساعة بـبطء وثبـات قـائلا للناظر وعينه على الساعة:

- لكن دا الساعة لسه سـبعه ونصـف إلا خمسـة، نضرب الجرس إزاي؟ لسه فاضل عشرين دقيقـة

على موعد ضرب الجرس ومال الناظر برأسه إلى الشيخ "علي" قائلا بغيظ:

- أنا اللي بامشي المدرسة.. مش ساعتك الحقيرة دي يا شيخ على هي اللي حتمشي المدرسة!..

وفوجئ الشيخ "علي" وحملق في الناظر دون أن يقول كلمة، ثم أدار إليه ظهره وهو يمشي بثبات قائلا بصوت ثابت مسموع وهو يتنهد:

- آه..! داروا سفاءكم.. ساعتي الحقيرة؟!.. لكن الحقارة عند غيري ليست في ساعتهم.. وإنما في نفوسهم!. على كل حال... داروا سفاءكم!

ودق الجرس، وهتافات الطلبة تتعالى بحماس متزايد على نفس النغم الراقص:

"الحرية.. الحرية.. الحرية"

واقتحم الناظر جموع الطلبة وحوله بعض المدرسين... وعندما شعر الطلبة بالناظر يتقدم نحوهم انفجروا بكل طاقاتهم يهتفون "يسقط برادع الإنجليز".

ورفع الناظر يده، وهو يندفع وسط الطلبة وهوى بها على وجه طالب طويل.. واستمر يتقدم وأمامه بعض المدرسين

يشقون له الطريق ويده تهوي علـى الـرءوس والوجـوه، وبالذات وجوه أكبر الطلاب وأعظمهم مكانة عند زملائهم.

وفجأة واجهته موجه من زحـف الطلبـة... واشـتعلت الهتافات "يسقط الناظر الجبان".

وانحنى بعض الطلبة على الأرض، وإذا بقطع من الوحل تتناثر وتلطخ وجه الناظر وطربوشه، والهتافات تتأجج "يسقط أذناب الإنجليز!.." "يسقط برادع الإنجليز" "يسقط الاسـتبداد" "الحرية.. الحرية".

وشعر الناظر كأن قلبه يقف عن الخفقان، وتضرج وجهه بالدم لحظة، ثم شحب تماما.. وأسرع عائدا إلـى حجرتـه، وصوته يختنق في حلقه بالشتائم والوعيد والدنيا تظلـم فـي عينيه!

وحين رآه الطلبة يرجع مسرعا.. أفسحوا لـه الطريـق، وهم يتراقصون من حوله ويقذفون بطرابيشهم وكتـبهم فـي الهواء من الفرح هاتفين في نغم راقص "تحيا مصر" والهواء الدافئ مترعا بشعاع الشمس يمسح حبات العـرق المتنـاثرة على الوجوه!..

وارتفع وراء الناظر صوت طالب.. ملحا على زملائه أن يحملوه ليخطب.. ولكن "شوقي" صاح فيه:

- احنا مش عايزين خطب يا سي عطا ا .. مش احنا نعملها وانت تنط على أكتافنا وتطلـع زعـيم فـي الآخر!

ولكن عطا ا وجد من يرفعه على كتفه، ووقف يخطـب متحمسا:

"أيها الشباب.. إذا استعان الناظر بالبوليس كما هددنا مـن قبل فإليكم معامل المدرسـة فأحرقوهـا، ودونكـم مبانيهـا فدمروها.. نحن أسود الخديوية ولن ندخل العرين الينا..".

وامتدت يد "عبد الرافع" فشـدت "عطـا ا " مـن كتفـه وأنزلته.. ووقف "عبد الرافع" على جذع شـجرة مقطوعـة وسط طلبة يحتجون على تصرفه مع عطا ا ويطالبون عطا ا أن يكمل، وصاح فيهم عبد الرافع:

"يا أبطال الخديوية.. فلنحذر التهور".

وظل "عبد الرافع" يصيح:

"اسعموا لي أيها الشباب.. اسمعوا يا حماة الوطن..".

غير أن همهمة السخط استمرت و "شوقي" و "سعد" وبعض طلاب قليلين يحاولون تهدئة الآخرين الذي تحمسوا لاقتراحات عطا ا بحرق معامل المدرسة!!

وأخيرا استطاع "عبد الرافع" أن يتكلم وأن يقنع الطلبة ألا يدمروا أو يحرقوا مدرستهم.. إنما عليهم أن يخضعوا الناظر لإرادتهم ويجبروه على احترام حقوقهم المسلوبة!!

وانتهى "عبد الرافع" وسط تصفيق فاتر.. وهمهم "شوكت المغربي".

يظهر أن "عبد الرافع" وشلته تفاهموا مع الناظر!.. وانتقلت الهمهمة إلى طالب آخر وثالث..

واستفز هذا الادعاء طالبا.. فحاول أن يمسك بمن يقوله.. ولكن "شوقي" أسرع إلى حيث كان يقف "عبد الرافع" ودقات متوالية تدوي في أعماقه، ورفع "شوقي" صوته فأحس برنين صوته في أذنيه:

"يا حماة الوطن.. يا أبطال الخديوية".

واندفع يتكلم وسط الطلاب متخلصا من حساسيته بنفسه فحذر أن يوجد بين الطلاب من يريد لهم أن ينقسموا ليكسب

الناظر من هذا الانقسام.. وطالبهم بأن يحافظوا على المدرسة ويضربوا الناظر فهي مدرستهم هم لا عزبة الناظر!

واقسم أن "عبد الرافع" في كلماته إنما يحرص على وحدة الطلبة وهو دائما صادق النظر صائب التفكيـر.. وطالـب "أبطال الخديوية " بأن يحذروا فتنة تعصف بهم.. وانسـالت في كلمته جملة خطابية مـن أحـد الأدوار التمثيليـة التـي يحفظها.. فقال دون أن يدري وهو يختم كلامه:

- إذا رأى الحارس خطرا فصاح، رفع الرجل الظالم عصاه فضربه.. فلنحذر أن توجه الضربة إلى مـن يحرسنا.. ونحن نثق بـ "عبد الرافع" ممثلا لنا..

وعندما انتهى، ارتفع التصفيق بحرارة، وشعر الجميع بأن كلمات "شوقي" تحمل نذيرا صادقا..

وهدأ التصفيق.. ولم يعرف الطلبة ما يصـنعون بعـد.. وخلا الفناء من المدرسين.. كانوا كلهم مجتمعين في حجـرة الناظر يناقشهم في الأمر.

وخيمت على الطلبة حالة من الفتور والحيـرة، وبـدأت الهتافات تخف..

فوقف "عبد الرافع" يقترح: أن يطالبوا الناظر بالعودة إلى الحالة الطبيعية، وإعادة الفسح، وحرية الجمعيات فعـلا، وإلا استمر الإضراب حتى يعدل الناظر من نظامه..

وعاود الطلبة حماسهم من جديـد.. وصـفقوا طـويلا.. وتقدموا..

تقدموا جميعا إلى داخل المدرسة كتلا متدافعة يرن هتافها في الصالة الكبيرة داخل الجدران "نريد الرد.. نريد الـرد.." وزاد رنين الهتاف من حماستهم، واندفعوا إلى السـلم الـذي يقود إلى حجرة الناظر، وعندما طلعوا آخر درجة من السلم وبدءوا يتقدمون في البهو الواسع أمام حجرة الناظر، وجدوا صفا كبيرا من السعاة، وأمامه صف آخر من المدرسين أمام باب الناظر، والناظر يخرج من حجرته ويطلب من الطلبـة بانفعال مكظوم أن يكفوا عن الهتاف لأنه يريـد أن يحـدثهم كأب.

وسكت التلاميذ.. ولم يعد أحد يسمع شيئا حتى الأنفـاس، وتقدم الناظر خطوة قائلا في صوت خفيض:

- أنا عايز أفهمكم اني مش من برادع الإنجليز.. أنـا كنت من أبطال سنة ١٩.. أنا كنت من زعماء طلبة المعلمين العليا..

وتقطع صوته وأوشك أن يتهدج، واستمر يقول:

- أنا من الممكن أن أطلب البوليس.. لكن مش أنا اللي أعمل كده مع طلبتي وأبنائي.. أبنائي اللي أنا مهتم بتربيتهم على أحدث نظريات التربية.. أبنائي الذين لم أكن أنتظر منهم أبدا أنهم يعملوا معي ما حصل.. على كل حال أنا ممكن أفصل المسئولين عن هـذه الجريمة الخلقية، وممكن أن أسحب المجانيـة مـن المشتركين في الجرم ولكني سأعفو عنكم جميعـا.. جميعا.. وأنا أفضل أنكم ترجعوا بيوتكم. أنا قررت إعطاءكم النهارده أجازة وبكره نبدأ صفحة جديدة.

وانطلق هتاف "شوكت المغربي" وسـط وجـوم الطلبـة: "عاش الناظر الوطني".

وقاطعه الناظر بازدراء:

- اتفضلوا أنا مش عايز هتافات، مش عايز هتافـات يا سي شوكت مرسي قوي.. اتفضل!!

وتحرك "شوكت المغربي" منسحبا ووراءه بعض الطلبـة لينصرفوا صامتين متثاقلين، ولكن "شوقي" زعق بغيظ مـن يدرك فجأة أن قوة غاشمة تعبث به وتحاول أن تستغله:

- لكن النظام الجديد يا حضرة الناظر.. النظام اللـي انت فرضته على المدرسة.

وتوتر الجو بغتة..

ولم يجب الناظر.. وبدا على وجهه ضيق شـديد، وضـم شفتيه بحنق وعضلات صدغه تتقاص، ونظراته تلفح "شوقي خليفة"..

وساد الصمت تماما.. صـمت لا تحركـه غيـر دقـات القلوب..

ثم تقدم "سعد داود" بين الزحام، ووقع طربوشه.. فتركـه في يد تلميذ وراءه وقال برنة خطابية متقنة:

- نريد أن نعرف إن كنت جادا في تغييـر النظـام أم أنك خدعتنا!..

وانفجرت عاصفة من التصفيق..

ونظر الناظر طويلا إلى "سعد داود"، ولم تـنخفض رأس "سعد".. وظل يواجه النظرات الموجهة إليه بثبات..

وأخيرا قال الناظر:

- يا شاطر بدل ما تحط بريانتين على شعرك بـنص مرتب أبوك. روح قص شعرك أحسن ووفر الفلوس دي لأهلك!..

وشعر "سعد" بتزايل مفاجئ.. ووضع يـده علـى كتـف جاره.. وأمسك بجار آخر من ذراعه وشدد قبضته.. ورنـت في البهو زفرات جزع.. وانفجر "سعد" في نبـرات غريبـة مشحونة موجعة:

- هذا شيء لا شأن لك به. هذا لا يليق بك ولا يحـق لك أن تقوله. وأنا أستجوبك هنا باسم الطلبة.. ماذا ستفعل في النظام الإرهابي الجائر الـذي فرضـته علينا. نحن نرفضه ونرفضه ونرفضه.

وتهدج صوت "سعد" ودمعت عيناه.

ولهب خارق يحتدم في قلوب الطلبة فيضجون بالتصـفيق وصياح الإعجاب، ويحملون "سعد" على أكتافهم.

وحاول الناظر عبثا أن يهدئ الطلبة فالتفت إلى المدرسين مستعينا ولكن الاشمئزاز منه كان واضحا على كثيـر مـن الوجوه... وجوه المدرسين والسعادة.. كل النظرات تسـتلقي على الناظر في استنكار..

ودهمه إحساس مخيف بالوحدة، وسعل في عصبية، وخبط الأرض بقدمه وهو يدير رأسه بسرعة بين الطلبة والمدرسين والفراشين واندفع إلى سعد داود يزعق بعصبية ويأس:

- اتفضل بقى.. اتفضلوا كلكم.. أنا لغيـت النظـام.. اتفضلوا خلاص.. ارجعـوا فوضـى زي الأول.. اتفضلوا من قدامي.. اتفضلوا.

وتدافع الطلبة على السلم يركضون ويصفقون ويخبطـون كتبهم وحقائبهم بأيديهم في نشوة بالغة.. وتدافعت جماعـات منهم تغني "سالمة يا سـلامة روحنـا وجينـا بالسـلامة".. والضحكات الظافرة ترتفع، والنداءات تشتبك مـع بعضـها البعض، وصوت حلقات أخرى ترتفع بأغنية "يا نخلتين فـي العلالي يا بلحهم دوا.. يا نخلتين على نخلتين بقـوا أربعـة طرحوا سوا"... وآخرون ينشدون في نغم راقص "الخمسـة في خمسة بخمسة و.. عشرين، والخمسة في سبعة بخمسـة

و.. تلاتين" وجماعات أخرى تغني علـى نغمـات أخـرى راقصة "أدب الدنيا والدين.. أدب الدنيا.. والد.. دين!".

ومشى وراءهم بعـض المدرسـين يطلبـون مـنهم أن ينصرفوا في صمت بينما دخل الناظر غرفته وطلب أن يبقى وحده.

وقبل أن يغادروا المدرسـة ارتفـع هتـاف: "الخديويـة لا تستعبد".. ورردده الجميع بكبرياء.. ثم انصرفوا.

***

وانتظر "شوقي" على باب المدرسة يتأمل البواب يصـفق بيديه متعجبا ويستعيذ با مما جرى، حتى جاء "عبد الرافع" و "سعد".

وفتح "شوقي" ذراعيه لـ "سعد" بزهو وإشفاق.. وعانقـه وهو يضحك..

ونادى الشيخ "حمزة دبوس" على الأصدقاء الثلاثة، ولكنهم حيوه وانصرفوا يتابعون سيرهم: كل واحد مـنهم يريـد أن يتكلم طويلا ويسمع طـويلا.. وغـابوا فـي زحـام درب الجماميز، وصوت الشيخ "حمزة" من ورائهم:

- ا ينجح مقاصدكم، ويكفيكم شر الرجل المؤذي اللـي ما ينظري ده!..

كان "عبد الرافع" واجما بعض الشيء، و "شوقي" يتحدث عن لعبة الناظر التي كشفها "سعد".. بجرأته!

والتفت "عبد الرافع" إلى "شوقي" قائلا:

- الواد "شوكت المغربي" دا خطر فعلا.

وصاح "شوقي":

- يا أخي باقولك كده من زمان..

وقال سعد:

- لكن شفت ميخائيل أفندي كان مبسوط ازاي؟!..

وأكمل "شوقي":

- وإلا الكلمة اللي خبطها الشيخ "علي" للنـاظر فـي عضمه..

وأخذ "سعد" يقلد الشيخ "علي" بمخارج ألفاظه:

- داروا سفاءكم!.. الحقارة عند غيري في نفوسهم!..

ومضى الأصدقاء يتكلمون فيما حدث بزهو ورضى.

ومال "عبد الرافع" إلى شارع الخليج.. وتـابع "شـوقي" و "سعد" المشي في اتجاه شارع عزيز.

وعندما بلغا أول الشارع... توقف "شوقي" فجـأة وقـال بامتعاض:

- حانروح من دي الوقت نعمل إيه؟ تعال يا شـيخ.. تعال نروح عماد الدين.. دا يبقى الصـبح حاجـة تانية.. منظره غريب وحزين جدا..

ولكن "سعد" قال له:

- لا يا عم. تعال نروح الأول علـى الأقـل نرمـي الكتب.. ونقول لهم في البيت.

وتقدما في شارع عزيز.

وسمعا لغطا غريبا في الشارع.. ونظر كل واحد منهمـا لأخيه في قلق، وهو يتوقف..

كانت الضجة تنبعث من بيت "شوقي" بالقرب مـن شـقة الممثلة "رجاء"، وتسللت من الضجة ضحكات كثيـرة بينهـا ضحكة غريبـة، ووقعـت عـين "شـوقي" علـى شـباك "عبد الحي".. كان مفتوحا..

وصاح وهو يقفز:

- ا ؟! ا حي.. عبد الحي!.

وخبط "شوقي" باب "عبد الحي"، بلهفة فوجـده مفتوحـا، واندفع ومن ورائه "سعد"، و "عبده" يروح ويجيء ويهـيص ويدخل ويخرج.

وتعانق "شوقي" و "عبد الحي"..

ولم يستطع شوقي أن يمسـك دموعـه.. وعـاد يعـانق "عبد الحي" ومن حولهم ترتفـع ضـحكات "عبـد العزيـز" و "شكري عبد العال" و "أمـين أفنـدي" و "عبـد اللطيـف" و "عبد المعبود".. وصينية محملة بالشربات تهبط من عنـد "ميمي" يحملها "عبده" قائلا:

- حتى الست "ميمي" فرحانة يا سي "عبـد الحـي".. وبتسقي شربات في رجوعك!.. ورجالـة الشـارع كلهم من فرحهم ما راحوش الشغل. حتى التلامـذة سابوا المدارس ورجعوا! ألف سـلامة يـا شـيخ عبد الحي.. يا سي عبد الحي أفندي.

(١٥)

هذه الشمس الصفراء يجـب أن تكـون أنصـع شـعاعا يا عبد العزيز.. النهار شاحب.. شاحب.. يوشك أن يسـعل هو الآخر مثل "رجاء".. لا.. لا.. لا تغلق الكتاب!..

ذاكر يا أخي ذاكر، فلم يعد إلا القليل وتـدخل الامتحـان وتصبح الدكتور "عبد العزيز" بحق.. نحن في الأسبوع الأول من نوفمبر.

والأيام تجري بسرعة، وبعد قليل يأتي ديسمبر، وتفـرغ من كل شيء وتصبح الدكتور "عبد العزيز خليفـة"!.. أمـك تنتظر هذا في البلد، وأبوك ...

لا بد أن أمك تحلم لك الآن بالنجاح كما تعودت أن تفعـل قبل كل امتحان.. عندما تنجح يجب أن تحتفظ بترتيبك لتظفر بالبعثة إلى "لندن".. وهنا يجب أن تتخصص في الأمـراض الصدرية.

ويجب أن تجد طريقة لهذا الشيء الرهيب الذي يقتات بدم البشر وينخر الرئة على مهل ويبتلع حياة الناس.. المسـكينة "رجاء" لا تعرف مرضها ولا تعرف أنها لن تشفى بسـرعة في مسكنها الرطب الذي لا تدخله شمس..

أنت وحدك تعرف أن حياتها تنحدر إلـى المغيـب، وأن الومضة الخارقة في عينيها، إنما تعكس اللهيب الذي يأكـل صدرها يوما بعد يوم!..

أمن السهل أن تنتهي حياة فتاة كهذه بمثل هـذه السـرعة واليسر؟

لا.. لا، ذاكر يا عبد العزيز ذاكر.. لا تفكر في الأشـياء الكئيبة القاتمة!..

"رجاء" يجب أن تعيش!

لم تكن تشعر بها من قبل..

على كل حال أنت لا تحبها، وإنما تشفق عليها.

ليس هذا هو الحب!..

أنت تؤدي واجبك بصفتك الرجل الوحيد في هذا الشـارع الذي يعرف مرضها والذي يستطيع أن يساعدها.. يدك هـي

حلقة النجاة الوحيدة التي يمكـن أن تنتشـل هـذا الكـائن.. لا لا!.. ليس هذا هو الحب! إنك لم تتبادل معها طوال مـدة إقامتها في الشارع أكثر من عشر كلمات.. عشر كلمات فـي عامين أو ثلاثة..! لم تفكر أبدا من قبل في أن تضمها بـين ذراعيك.. في أن تضع يدك على شعرها.. لم يخفق قلبك أبدا من قبل وأنت تنظر إليها وعيناها في عينيك.. لم تشعر بأنك تريد أن تقول لها شيئا، أو من الممكن أن تضحكا معا لشيء واحد. لم يحدث شيء من هذا أبدا قبل أن تراها وتسهر معها عند "شويكار هانم"..

ومع ذلك فما الذي حدث عند "شـويكار هـانم"؟!. كنـت تضحك لكلماتها وتعجب بغنائها.

ولكن لماذا تفكر في هذا كله الآن؟! ويجب أن تفرغ مـن قراءة هذا الكتاب مرتين قبل دخول الامتحان.. لا وقت بعـد للشرود!

لم تعد في السادسة عشر يا "عبد العزيز".. أخوك "شوقي" هو الذي في السادسة عشر الآن، وهو ينظر إليـك بريبـة، وتلمع عيناه بشيء كالدموع كلما رآك تطلع من عند "رجـاء" أو تنزل إليها وهو يخفض عينيه كأنما يداري من أجلك خجلا

زريا.. وحتى ما حدث في المدرسة بعـد يـوم الإضـراب، واجتماع الناظر ببعض الطلبة واشتباك "شـوقي" معـه فـي مناقشة، كل ذلك لم يحرك الولد ليحكيه لك أنت كما تعـود، وسمعته مصادفة يحكي لـ "عبد اللطيف" وحده!.

و "عبد اللطيف" هو الآخر واجم دائما.. دائما.. ينظر إليك بإشفاق وجمود كمن يرى شيئا عزيزا عليه ينحدر إلى هاوية وهو لا يملك حيال ذلك شيئا!.. هو لا يريـد أن يجرحـك.. يريد أن يتجاهل الأمر!.. أي أمر؟. أنت لا تحب رجـاء!!.. هذا الشارع الملعون لا يفهم.. و "عبده" أيضا يدعو دائما أن يصلح ا الأحوال.. أية أحوال يا ملعون؟!.. و "عبد الحـي" ينضم إليهم ويتحدث عن خضراء الدمن.. وما خضراء الدمن يا شيخ؟.. هي المرأة الجميلة في المنبت الفاسد..!.. لعنة ا عليك يا "عبد الحي".. أنت جامد صلد لا تهتز! ماذا تعـرف يا "عبد الحي" عن "رجاء"؟!.. لا أحد منا يعرف شيئا عنهـا. جاءت وأهلها إلى الشارع منذ عامين أو ثلاثة، ولم نر عليها ما يعيب.. لم يزرها رجل غريب.. ولم يرتفـع مـن بيتهـا ضحك خليع كما يرتفع من بيوت تحترمونها!.

كلكم يحترم "داود أفندي" وأنت يا "شوقي" صديق ابنـه.. ألم تسمع ضحكات "عديلة هانم" أبدا؟!..

لعنة ا عليكم.. فأنتم لا تفهمون.. أنكـم لا تعرفـون أن "رجاء" تغيض ساعة بعد ساعة؟! شعلة أيامها تنطفـئ فـي أيديكم وأنتم تلعنونها بلا سبب!.

ولكن.. لو أن أحدا منكم رآها مثلي في بيـت "شـويكار" وسط نساء باهرات ساطعات!

كانوا يعاملونها هناك كأنهـا قـردة تسـلي الآخـرين!.. العبي.. اقفزي.. ارقصي!.. ورقصـت وغنـت وضـحكت بجنون كأنها تستل حياتها من جانبيها.!. وفجأة سعلت، وظلت تسعل حتى بصقت دما وفقدت الصـواب... أكنـا سـاعتها نرميها في الشارع؟!.. أكان يجب أن أتركها هناك وأكتفـي بأن أتذكر بأسف تلك اللحظات الممتعة التي خلقها لي غناؤها ورقصتها وضحكها، أم أتصرف كإنسان وأحملها معي فـي عربة وأحضر لها الدواء؟!..

ومع ذلك فهي تذوب هنا بينكم على مهل!..

لا!.. مستحيل!.. "رجاء" يجب أن تعيش.. فلو أنهـا لـم تعش.. لو أن هذا حدث!..

وغامت عين "عبد العزيز" وتساقطت قطرات من عينيـه على الكتاب المفتوح أمامه، وأحس بأنه يريد أن يبكي بنشيج مرتفع.. ولكنه تماسـك فجـأة وهـو يتـذكر أن "شـوقي" و "عبد اللطيف" و "عبده" في الداخل.. ومسح عينيه بسرعة، وأغلق الكتاب، وقام إلى باب الشقة! ...

وحين كان يفتح الباب ليندفع إلى الخارج اعترضه "عبده" قائلا بإشفاق وحيرة:

- أقعد يا دكتور، أقعد ا يكفيك شـر أولاد الحـرام يا أخويا. أعمل لك فنجان شاي علشان تعرف تذاكر كده وتروق بالك؟!..

وأجابه "عبد العزيز" بصفعة قوية رنت على وجه "عبـده" بغتة. ودوى الباب بقوة خلف "عبد العزيز" وهو يندفع إلـى الخارج ويكتم في أعماقه صراخا رهيبا يريد أن ينطلق.

وتمنى لو أن كل شيء من حوله يسـتحيل إلـى دوامـة وحشية من الضجيج والفزع تفجر الدوي المكظوم في أعماقه ليستريح!..

وأخذ يقفز السلم بسرعة حتى وصل إلى باب شقة "رجاء" ومن ورائه يرتفع نداء "أمين أفندي" الذي فتح بابـه دون أن يشعر به "عبد العزيز":

- بس اسمعني يا دكتور من فضلك.. بذمتك هي مش عندها باسم ا الحفيظ؟.. يا منجي.. في عرضـك بس تقول لنا الحقيقة..

واستدار "عبد العزيز" إليه بحنق.. وتمنى لو أنه صـفعه على وجهه المكتنز، ثم زعق فيه:

- قلت لك ألف مرة لأ.. قلنا لكم دي نزلة شعبية حادة تعب خفيف في الرئة والزور..

ونزل "أمين أفندي" درجتين من السلم وهو يقول بصـوت مستعطف:

- طب بس قل لميمي تطلع... وتحاسب على نفسـها من العدوى! هي بتسمع كلامك أنت.

ودق "عبد العزيز" باب "رجاء" بعصبية وهو يتنهد بسرعة وغيظ:

- إذا كنت عاوز مراتك ما تنزلش هنا، احكم عليهـا انت يا أخي أنزل خدها وغور.

وفتحت "ميمي" باب شقة "رجاء"، واستقبلت "عبد العزيز" مبتسمة و "أمين" يغلي من الضيق والارتباك.. وناداها "أمين" فأجابته:

- طيب! آديني طالعة. أوعى تنادي على تاني!

وأغلقت باب شقة رجاء، ومشت أمام عبد العزيز..

ودخل "عبد العزيز" ويده في جيـب البيجامـة، وجـاوز الصالة الصغيرة المظلمة ذات الرائحة الغريبة التـي تـذكره برائحة الحلبة، واتجه إلى حجرة يشحب فيها ضوء النهـار، ويملؤها سرير واسع بأعمدة سوداء، تواجهه أريكة كبيرة..

وأشرق وجه "رجاء" حين رأته.

وتحركت من سريرها وهي تفتح عينيها الغـافيتين علـى تألق نظرات حزينة مرحبة.. وأشار إليهـا "عبـد العزيـز" ألا تتحرك.

ووقف إلى جانبها يتحسس جبينها ويدها، وفـي أعماقـه يسكت الضجيج الصاخب ويتحول إلى همسات تقطعها دقات رتيبة خافته..

وجاءت إليه أم "رجاء" بكرسي من الصـالة، ومسـحت قاعدته الخشبية بقطعة من القماش، وتحسست المسامير الناتئة من حافته، وعندما اطمأنت إلى سلامة الكرسي أشارت إليه:

- اتفضل أقعد يا دكتور "عبـد العزيـز".. اتفضـل يا ابني.. ثم أكملت وهي ترفع رأسـها، ونظراتهـا تتشبث بيد "عبد العزيز" :

- ازاي الحال دلوقت يا دكتور؟.. ربنا يجعل في إيـدك الشفا يا ابني ولا يدخلناش غم.. ربنا يكرمنا على إيدك.

وقعد "عبد العزيز" وهو ينظر إلـى أم رجـاء مغتصـبا ابتسامة يغالب بها الحزن الذي هاجتـه فـي أعماقـه رنـة صوتها.. قال:

- الحمد . أحسن.. رجاء بتتحسن خالص.

ولم يستطع أن يحبس نظراته عن أم رجاء، وهي تقعد إلى جوار "ميمي" على الأريكة تحكم الطرحـة علـى رأسـها، وتتلمس شعرها لتخفيه تحت الطرحة، وتلم جلبابها الكسـتور الغامق الفضفاض، الطويل حتى قدميها.. وبعد قليـل قامـت وهي تحني وجهها النحيل، نفس وجه "رجاء" النحيل الأسمر بالفم الواسع الطيب.. وخرجت من الحجرة فـي انكسـار..

مسكينة أنت يا أم رجاء!.. لا أحد في الشارع يعرف من أين جئت.. ولا كيف تعيشين.. ومع ذلك فكل الناس هنا يريدون أن يقذفوا بكم خارج الشارع منذ سعلت "رجاء" وبصقت دما!

لا أحد يزوركم غير "ميمي"!..

ولكن "أم رجاء" تملك من الطيبة وانكسار الخـاطر مثـل ما تملكه أمك يا "عبد اللطيف" يا من تنظر إلي دائما بحكمـة وجمود وفزع منذ بدأت أهتم بإنقاذ حياة "رجاء"!..

حجرتك يا "عبد اللطيف" فوق حجرتها تماما.. ما أسعدك! ومع ذلك فأنت تخافها كأنما هي كلبة جرباء تحمل الوباء!..

وتنبه "عبد العزيز" فجأة على "ميمي" تزعق بعصبية وهي تلوح بيدها في وجه "رجاء":

- يا رجاء يا اختي الدكتور قال لك ألف مرة بـلاش كل ما تكحي تبصي في المنديل.. إيه اللي كل شوية اهئ.. اهئ! يا جيجي يا أختي مش كده! ما تشخط فيها يا عبد العزيز خليها تجمد كده.

وبعدها وقفت "ميمي" تسحب الغطاء على كتف "رجاء"، ثم أمسكتها برفق وأرقدتها تماما..

واستدارت "رجاء"، واهتز بدنها كله ببكاء صامت يختنق:

- حاموت يا ميمي.. حاموت يا دكتور.

ووقف "عبد العزيز" مبهوتا، والظلام يملأ الحجرة، وأحس فجأة بشيء يتصدع بين ضلوعه، وترنح لحظة... ثم أمسك بعمود السرير الأسود، وغمام كئيب كريه يغمر الدنيا أمام عينيه وأعمدة السرير السوداء تميل، وجدران الحجرة ترتعش، و "ميمي"، وكل شيء من حوله يلفه ضباب داكن.. وغصة تملأ حلقه، والضجيج الوحشي يدوي في أذنيه من جديد!!

وارتمى إلى جوار "رجاء"، وأمسكها من كتفيها، وضمها من ظهرها إلى صدره بكل فزعه من مجهول غاشم ينقض عليها، كأنما يحميها بيديه من ضربة مفاجئة.. يعرف هو أكثر من غيره مدى فظاعتها!

واستدارت إليه "رجاء" والدموع تغشي وجهها الشاحب وفمها يختلج، وفي عينيها حيرة مضطربة ويأس، ودعاء ملهوف صامت إلى النجدة!..

وظلت نظرات "عبد العزيز" معلقة عليها لحظة.. وهو يرتعش.

وخبطته "ميمي" على كتفه وهي ترى دموعه.. ثم اتجهت إلى مفتاح النور فأدارته وهي تقول في محاولة جاهدة لتغيير الجو، والنور يغمر الحجرة:

- ما تخافيش يا رجاء يا أختي.. دا حتى عمر الشقي بقي!.

- ووقفت "ميمي" تغالب نفسها وتتأمل "عبد العزيـز" يمسك بكتف رجاء ويحتضنها!

وعادت تحـاول أن تثيـر الضـحك.. فقالـت لرجـاء وعبد العزيز:

- ما تبوسوا بعض قدامي وتريحوا نفسكم.. أطفي لكم النور تاني وأعمل لكم جو يـا أولاد؟! ا ا لـو مامتك يا ست رجاء دخلت دلوقت على البـوز ده! خليها تفتكرني.. زي بعضه! ابعد عنها يا واد انت واختشي بقى..

وتهافتت رجاء في ضحكة، وأخفت رأسـها بـين يـديها بخجل..

وتوالت دقات على الباب فمالت "ميمي" عليهما بخفة قائلة بهمس:

- لازم دا المأذون!..

ورنت ضحكة "رجاء" تجتاح ما على صدرها من كروب، ومسحت عينيها ووجهها بكفيها، بينما قفز "عبد العزيز" وقعد على الكرسي مضطربا لا يعرف إلى أين ينظـر ولا كيـف يضع يديه..

وقالت أم "رجاء" من الخارج:

- اتفضل يا أمين أفندي.. اتفضل في أودة المسافرين!

ووقف "أمين أفندي" متلعثما في الصالة.. فقالت له "ميمي" بضيق:

- تعالى يا أخي سلم على رجاء.. ادخل ما تتكسفش..

وقعد "أمين" على الكنبة إلى جوار زوجته "ميمي" دون أن يضع يده في يد "رجاء"..

وتنحنح قليلا ونظراته تتأمل وجه "رجاء" المزرق وكتفها العارية بلا خجل من "عبد العزيز"!..

والتفت "أمين أفندي" إلى زوجته وغمز بعينيه.. فحملقـت فيه "ميمي" بغيظ.. وهزت كتفهـا، ولـوت شـفتها المليئـة بالأحمر.. وشعر "أمين" بخجل!.

ماذا يقول عن "رجاء"، وزوجته هـي الأخـرى عاريـة الكتفين؟! لو أنها تقوم الآن بدلا من قعدتها طوال النهار مـع امرأة مصدورة! هذا خطر عليـه وعلـى الأولاد.. وعليهـا أيضا!

وارتفع صوت "عبد العزيز" في الصمت قائلا:

- يا رجاء انتي حالتك بتتحسن جـدا. بـلاش بقـى الأفكار السودا اللي عندك دي.. انتي عندك نزلـة شعبية وزورك مجروح، والدم ده ينزل من جـرح في الزور نتيجة السعال الشديد! كلها أسبوعين تلاته وتسيبي السرير.

وتمتم "أمين أفندي" دون أن يدري:

- لطفك يا رب!

وقالت "رجاء" وكلماتها تسقط في أنفاسها:

- أمال ليه يا دكتور كل الناس خايفة تزورني..

والتفتت إلى "ميمي" مكملة بانكسار:

- شوفي عديلة هانم.. أعمل لهـا المقابلـة بتاعتهـا، وتوديني عند قرايبها أغنى، وكده يوم ما أرقد..

وغاب صوتها، فبلعت ريقها وسكتت..

واندفعت "ميمي" تقول وكلماتها تتدافع:

- أصلها ناقصة.. لكن انت لو كان عندك زي ما انتي فاكرة كان إيه اللي يخليني عندك طول النهار.؟

وأوشك "أمين" أن يتكلم وتحرك قليلا، فأزت الكنبة وابتسمت "رجاء" قائلة:

- أصل عديلة هانم دي ما تعرفشي الناس الا لما تكون محووجة لهم.. واللي زيي يا ميمي ما ينسألش عنها الا لما تكون في صحتها. ما حدش ينحوج لنا الا واحنا صاحيين!..

واهتز "عبد العزيز"، وترددت في أذنيه نغمات باكية من مأساة "غادة الكاميليا".. وتذكر أباه بغتة واضطرب في مقعده.. وعادت الكلمات التي قالتها "مرجيت جوتيه" – وهي على فراش الموت – تتحرك وتنبش في أعماقه، فتفجر منها ينابيع لم يعرفها من قبل!

وسالت على صدره أمواج سوداء.

وقالت "رجاء" فجأة وضحكة خافتة تنطلق منها:

- يعني حاقدر أمثل في حفلة المدرسـة السـعيدية؟! دا أنا واخدة العربون! كان نفسي أمثل معـاهم دور "مرجيت جوتيه". لكـن راحـوا اختـاروا روايـة "الوطن".

ونظر إليها "عبد العزيز" متعجبا.. وفتح فمه ولكنـه لـم يتكلم.

وقامت "ميمي" تسحب الغطاء مرة أخـرى علـى كتفـي "رجاء"، وهي ما تزال تفكر في كلمات "رجاء" عـن خـوف الناس منها بعد أن مرضت.

وقالت "ميمي" وعلى وجهها شيء كالشرود:

- انت لكي ساعات تقولي كلام غريب كده! ليه تقولي كده؟!

ليه تقولي أن اللي زيك ما تتعرفش الا لمـا تكـون فـي صحتها؟. ليه كده؟!.. ما كلنا زي بعض!.. اخـص عليكـي يا جيجي! كلنا اخوات.

وضحكت "رجاء" وهي تتأمل "ميمي" بإكبار وحب:

- يا "ميمي" بلاش تدققي.. دا كلام روايات..

ووقف "أمين" متضايقا من كـلام زوجتـه، متحرجـا.. وتحرك إلى الباب الخارجي وهو يشير إلى "ميمي".

ولم تهتم "ميمي" بإشارته فناداها.. وأجابته:

- إيه يا أمين بس؟! مالك قلقان كده ليه!!؟.. عايز إيه يا أخي؟ طيب يا سيدي أنا طالعة وراك.

وفتح أمين أفندي باب الشقة في صمت، فوجـد "عبـده" أمامه يكاد يخبط الباب، وتلقفه "عبده" كأنما كان يبحث عنه، وأعطاه ورقة و "ميمي" ترجع إلى مكانها على الكنبة، وهـي تنفخ..

وقالت بدلال:

- ايه يا دكتور؟!.. مش ناوي تقوم تذاكر الليلة؟!..

وتبعتها "رجاء" وكأنها تنبهت فجأة:

- والنبي يا دكتور باعطلك خالص. قوم انت ذاكر.

وقال "عبد العزيز".

- لا لا.. أنا مرتب وقتي كويس.

وعادت "رجاء" تشرد مرة أخرى. ثم تنهدت. وابتسـمت بامتعاض، وهو تقول:

- بقى "عديلة هانم" مستكبرة تزورنـي؟ السـت دي غريبة قوي.. مسـتعيبة ليـه يعنـي!!؟ علشـان ممثلة!!..

- وانفجرت "ميمي" محنقة:

- - يا اختي! تروح تتنيل على بنتها ميرفت! تلاقـي كل أصحاب الواد "سعد" أخوها دايرين معاها!

فقاطعتها "رجاء" في استنكار خفيف:

- لأ يا ميمي.. لأ.. حرام!

وشعر "عبد العزيز" براحة خفيفة وهو يسـمع الحـديث الدائر أمامه، وابتسم! هو نفسه قبل "ميرفت داود" مرة تحـت سلم البيت.. بالضبط أمام شقة "رجاء" وهو خارج في الليل.. كانت قادمة تنادي "رجاء" فسلم هو عليها فجأة وأمسك بيدها وضغط ولكنها استدركت بلا مناسبة قائلة له: إنها تخشى أن يأتي الآن أحد فيراهما، فتقدم إليها بوجهه وتركت نفسها له، فقبلها وتركت له بدنها لحظة فاحتضنها بعنف ثم انفلتت منـه خائفة، وأكمل هو طريقة كأن شيئا لم يحدث، وعـادت هـي تدق على باب "رجاء" بثبات!.. "عبد العزيـز" يـذكر هـذا جيدا..

وبدأ يشعر في أغوار قلقه بالرغبة في الانطلاق والضحك والجري.

ولكن "أمين أفندي" عاد بسرعة وهو يقول في لهوجة بصوت موجع:

- شفتم!؟ شفتي يا "ميمي"؟! شفتم بيعملوا إيه بتوع دايرة عزيز؟!. عايزين ينزعوا ملكية البيت!! انذار!! انذار يا ميمي! عاوزين يرمونا كلنا في الشارع. ا !؟ لكن ده بيتي! بيتي أنا مش بيت الدائرة!

ووقف "عبد العزيز" مضطربا، و "ميمي" تخطف الورقة وتنظر إليها في جزع، ثم تعيدها إليه.. ثم تأخذها منه وتعطيها لـ "عبد العزيز"..

وتمتم "عبد العزيز" وهو يقلب نظراته على الورقة:

- يعني إيه الكلام ده؟! خالفتم شروط الدايرة عند البناء؟!.. الشارع يجب أن يكون أوسع من ذلك بكثير؟ الدايرة رايحة تبني عمارات سكنية؟! ستدفع لك التعويض ولو انك خالفت شروطها! إيه الكلام

ده؟! حاجة مش مفهومـة أبـدا؟!. تعـويض إيـه وشروط إيه اللي انت خالفتها؟!

وقالت "ميمي" وهي تكتم ثورتها بجهد:

- يعني احنا الحيطة المايلة! اشمعنا بيتنا هـو اللـي ينهد؟... والدايرة دي إيه كمان؟ هيه التنظيم؟!. هيه حكومة يعني!.. قصدهم ع المتر اللي خدناه زمـان من أرض الشارع؟ طب ما ندفع ثمنه ويريحونـا!. لكن يهدوا البيت؟. هو افترا والا استضعاف.

وضغط "أمين" على أسنانه بغيظ:

- اسكتي!

وظلت "رجاء" تحملق في الجميع، وهـي راقـدة دون أن تقول كلمة.

وأكملت "ميمي" وصوتها يرتفع شيئا فشيئا:

- بقى كله من شغل الراجل الباشكاتب قريب "عديلـة هانم". اسمه إيه أدهم بيه والا أدهم نيلـة! الراجـل الشايب أبو صبغة... بقى يعني يا إما..

فقاطعها "أمين" بضيق والكلمات تختنق في حلقة من فرط الغيظ ووجهه يحتقن:

- يا شـيخة ده شـغل البـرنس نفسـه!. عمـارات سكنية؟؟!! لكن دا أنا شاري الأرض مـن الـدايرة ودافع فلوسها!! ينزعـوا ملكيتهـا كلهـا! ازاي؟!. ا !؟. دا.. ا ...؟!. د. د.

واضطربت الكلمات في فمه.. فتقدمت اليه "ميمي" قائلـة بنفس اللهجة الساخطة:

- حاسب على نفسك يا أخي.. يعني لمـا تنشـل والا يجري لك حاجة.. حاتنفعنا بإيه الـدايرة؟ حـاتبقى الدايرة توكل العيال!!

وقال "عبد العزيز":

- روح أحسن لواحد محامي كويس يشوف لك حـل يا أمين. دا مش معقول أبدا. الدايرة تنـزع ملكيـة بيتك ازاي؟!. طب ما كفاية تبني في الخرابات اللي في الشارع عمارات على كيفها! ده ملكهـا تاخـده الدايرة ازاي؟!.

فقال "أمين" بيأس:

- أنا شاري أرض البيت ده بفلوس يا ناس؟. تنـزع ملكيته ازاي؟!. وتعويض إيه اللي حاتدفعه يعني؟! ما أنا عارف التعويضات اللي بتدفعها الدايرة!

- وانسحبت "ميمي" مسرعة وهي تحاول أن تحـبس دموعها، ومشى وراءها "أمين أفندي" بينما اهتزت "رجاء" في سعال متتابع.. ومال "عبد العزيز" عليها يسند رأسها بذراعه.

ودخلت أم "رجاء"، فأخذت مكانه، ووقفت تسـند ابنتهـا. و "عبد العزيز" أمامها منبهر الأنفاس وعينـاه علـى وجـه "رجاء" الشاحب.. وفكره يدور فيما يمكن أن يحـدث إن لـم يقف هذا السعال.. وقلبه يدق بعنف وأنفاسه تكاد تتوقف فـي توجس وخشية وحذر!!

(١٦)

"عبد الحي" مشغول هذه الأيام بأشياء لا يعرفهـا أحـد.. يزوره طلبة لم يرهم الشارع من قبل، ويخرجون من عنـده في ساعات متأخرة من الليل، ولا يسمع أحد لهم صوتا غير ضحكات قليلة ترتفع في فترات متباعدة..

وهو يتردد على "عبد المعبود" أكثر من المألوف ويـذهب إليه أحيانا في مطبعته الصغيرة بدرب الجماميز.

و "عبد العزيز" يتهم "عبد الحي" بأنه جامد القلب، لا يفكر أبدا في السؤال عن جارتـه المريضـة "رجـاء صـدقي"، ولا يكف عن إبداء الاشمئزاز كلما جاءت سيرتها أمامه.. مع أنها برقبته ورقبة عشرة من صنفه!!

و "أمين " يتهم "عبد الحي" بأنه لم يكترث لما حصل له.. وهو يعتقد أن "عبد الحي" يشمت فيه! فهو لم يثر ضد الإنذار بنزع ملكية بيت "أمين أفندي".. مع أن "عبد اللطيف" شـقيق الدكتور "عبد العزيز" هاج حين قرأ الإنذار وقال إنه لم يسمع بشيء مثل هذا أبدا، وإن مثل هذا لا يمكن أن يحـدث فـي

التاريخ، وفي الدنيا قانون!.. وقال كلمات أخرى عظيمة كأنه يخطب، و "أمين أفندي" يشكر هـذا لعبـد اللطيـف. أمـا "عبد الحي" الذي حبس ذات يوم لأنه ألقى خطبة ثائرة، فلـم يقل أبدا في هذا الموضوع كلاما يشفي الغليل، وإنمـا نظـر إلى "أمين أفندي" مبتسما وهز رأسه قائلا:

- اصبر وما صبرك إلا با ... بكره تتعدل! ما يهمكـش لا الدايرة ولا غيرها ولا حتى نسيم باشا رئـيس الحكومـة نفسه...

ولم يقل شيئا آخر غير هذا... وحتى هـذا الكـلام قالـه بصوت منخفض كأنه غير مكترث!

و "شـوقي" أيضـا لـم يعـد يعـرف مـاذا جـرى لـ "عبد الحي"... طالما حدثه عن تصرفات الناظر، فلم يزد شيئا عن هزة الرأس والنظرة الثابتة المبتسمة وقوله:

- تتعدل.. بكره الطقم ده كله يغور!!

وحين جاءه "شوقي" مرة يشتم له "شوكت المغربي" الـذي كان محبوسا معه، ويحكي له كيف ضبطه بعد الانصـراف من المدرسة بساعة واقفا على زاوية شارع ضيق في الحلمية يكلم أخت "سعد داود" فانقض عليهما بـلا وعـي وضـرب

"شوكت" ونهر أخت "سعد"،.. حين حكى له أن أخت "سـعد" رمقته بغضب وانصرفت مهمهمة: "سم؟!" ...

حين حكى "شوقي" هذا كله لـ "عبد الحي"، انتظر منه أن يقول كلاما كثيرا، ولكن "عبد الحي" لم يزد علـى أن قـال باقتضاب:

- يا أخي دع الخلق للخالق...

وحتى الحديث عن "عبد العزيز" و "رجاء" لم يعد يـروق لـ "عبد الحي"!. هو مشغول دائمـا مـع ثلاثـة أو أربعـة يترددون عليه في بيته، منهم طالب في كلية الحقوق يعرفـه "عبد اللطيف" ويقول عنه إنه عضو في اتحاد الجامعة...

هكذا كان "عبد الحي" يبدو للآخرين في الأيام الأخيرة!

ولكن "عبد الحي" نفسه، لم يكن كما حسبه الآخرون.. فهو يشارك "شوقي" حنقه على "شوكت المغربـي"، ويتمنـى أن يصفعه كل من يراه... وهو مغيظ لأن أخت "سـعد" تتـرك الذباب يهش عليها...

وهو لا يرتاح للتغير الذي طـرأ علـى "عبـد العزيـز" ولا يحب انشغاله بـ "رجاء"، ومع ذلك فقلبه يرثي لها، ويود

لو أنه أصبح فوجدها بعافية... بعيدا عـن "عبـد العزيـز"، والشارع كله!

ومسألة نزع ملكية بيت "أمين أفندي" تشغله لا لأنه هـو نفسه سيجبر على ترك البيت والشارع الـذي ألـف ناسـه وحفظهم وحفظوه ولكن لأنه يعرف فداحـة أن ينتـزع منـا الشيء نملكه نحن... هو يعرف الهوان الذي يحني الرءوس إذ ذاك ويملأ الـنفس بـالهموم!... ولكـن "أمـين أفنـدي" لا يفهم! ...

لا أحد في الشارع يفهمك الآن يا عبد الحي... والرجـل الوحيد الذي كان يمكن أن يفهمك يا عبد الحي ويفهـم كـل شيء.. هذا الرجل مشغول القلب والعقل بحب "رجاء"!..

أما "شكري عبد العال"... فهذه هـي المصـيبة!... منـذ أسابيع، ولا أحد يستطيع أن يحرك اهتمامه بشيء مما يجري في الشارع! ...

- أتراه لم يهتم بموضوع نزع ملكية بيت "أمين أفندي" لأنه يعرف هو الآخر – كما يعرف عبد الحي – أن المهم الآن هو الحصول على الدستور، وأنه عندما يسود حكم الدستور فلن يستطيع أحـد فـي دائـرة

البرنس عزيز ولا البرنس عزيز نفسه أن يتعرض لبيت "أمين أفندي" ولا أن ينتزع حقا من بين يـدي صاحبه؟!

من فيكم يا أهل الشارع يمكن أن يفهم هـذا غيـرك يـا "عبـد العزيـز" أنـت وحضـرة السـيد السـند "شـكري عبد العال"؟!..

"عبده" وحده آمن بهذه الحقيقـة عنـدما قلتهـا لـه يـا "عبد الحي" ودعا ا أن ينجح المقاصد، وفهم بشكل غامض أن الطلبة الغرباء يجتمعون عندك يا "عبد الحي" مـن أجـل هذا، فبدأ كلما أحس بوجودهم يأتي متطوعا ليعد لهم الشـاي بحماس!... وهو أيضا يحرس الطريق.. في كل مرة قبل أن يجيئوا تتأكد منه أنه لا يوجد على أية ناصية للشارع رجـل غريب يراقب!!

أما أنت يا "أمين" – خيبك ا – فلم تفهم أبدا شـيئا مـن هذا. وعندما حدثتك عن الدستور أطلقت لسانك في، وأسـأت الأدب وأخذت تعرض بي وتقـول "بـلاش فقهنـة وفلسـفة كدابة!".

كل ما تملكه من وسيلة لدفع الخطر عن نفسك يا "أمـين" هو أن تضغط على زوجتك "ميمي" وترسلها إلى "أدهم بـك" باشكاتب الدائرة مع أنهـا استصـرختك مائـة مـرة لأنـه يغازلها!... هذا المفتون المأفون المصبوغ الشعر!.. مازالت تعارض فاحتشم... حسبها أن تذهب إلى "عديلة هانم" لترجو زوجها "داود أفندي" وتوسطها هي لدى قريبها هذا الماجن!.

ومع ذلك فأنتم تحسبونني لا أفكر فيكم يا أهل الشارع!

آه لو نجحت الحركة التي نعدها للإطاحة بحكومة "نسـيم" وإعادة الدستور!.

ولكن من فيكم يقدر كيف يحميه الدستور ويلقي الطمأنينة في قلبه ويؤمن له الحقوق!

آه... لو تعرفون يا أهل شارع عزيز!!

لا تخف هكذا يا "أمين أفندي"... أمامنا شهر كامل علـى موعد نزع الملكية.. شهر كامل يصنع فيه ا ما يريد.. وا فعال لما يريد أيها الجبان الرعديد!!.. كل ما أنت فالح فيـه يا أمين هو أن تقول لي "بلاش فقهنة!".. أنت غبي!

ستنفجر المظاهرات بعد أيام تطالب بالدسـتور والحريـة والاستقلال.

يا أخي اسأل "عبد المعبود"... وتأمل الضحكة الدائرة على وجهه. أنت بطل يا "عبد المعبود"!... تطبع لنا المنشـورات بنفسك بعد أن تغلق المطبعة... وعندما تفـرغ مـن طبـع المنشورات تكومها. الكومة إلى جوار الكومة، وتخبئها فـي بيتك، وترفض أن تتناول منا أجرا عن كل هذا... حتى ثمن الورق ترفض أن تأخذه! كوم عندك.! ففي اليـوم الموعـود تغمر المنشورات القاهرة والدنيا كلها، ولن يعرف أحد مـن أين جاءت... لن يعرف أحد... ولن يكتشفوا أبدا مطبعتـك.. حانت الساعة يا أسطى "عبد المعبود" ولكل أجل كتاب!

وعندما يعود الدستور ونحصل على الاستقلال سـيذكرك التاريخ يا "عبد المعبود"، وتصبح من أبطال هذه الثـورة... هكذا شارك إخوان لك في ثورة سنة ١٩١٩ وكانوا عصـبها الحي يا رجل! ...

وأفاق "عبد الحي" من خواطره على خبط يتوالى على باب شقته في صبر نافد.

من الطارق الساعة!؟

لا أحد من الصحاب يأتي في مثل هذه الساعة المبكرة من الليل. صلاة العشاء لم تؤذن بعد. انتظر يا أخـي لا تطـرق هكذا... أأفتح لك حافيا؟ أين القبقاب؟

لا يمكن أن يكون "عبد المعبود"... قلت لك حاضر! مـن هو هذا اللحوح العجول المستعجل؟!..

واتجه نحو الباب بسرعة بعد أن فشل في العثـور علـى القبقاب، ولم يكد يفتح حتى ندت منه آهة استغراب، ولكنـه قال مرحبا:

- أهلا أهلا "شكري بيه"! اتفضل... أهـلا وسـهلا. أشرقت الأنوار.

وهرول أمام "شكري" الذي دخل وراءه في بدلـة أنيقـة يفوح منه العطر.

وقدم له "عبد الحي" كرسيا في الصالة امتحنـه بعنايـة، واستأذن ليعد له كوبا من الشاي أو القهوة، ولكـن "شـكري" استوقفه شاكرا.

وقعد "عبد الحي" قبالته يرحب بـه بابتسـامة عريضـة، ويرفع كلتا يديه إلى جبهته محييا:

- أهلا وسهلا ومرحبا.. طيبون.

وأجابه "شكري" في اقتضاب وأدب:

- أهلا.

وأخذ "عبد الحي" ينظر إلى "شكري" متعجبـا مـن هـذه الزيارة!... هذه أول مرة يدخل فيها "شكري" بيته بعد زيارة التهنئة يوم الإفراج عنه، وهو نفسه لم يدخل بيت "شـكري" أبدا!... خيرا... أجاء "شكري" يحدثه بشكل ما عـن "سـعاد هانم"؟!

لن يسمح "عبد الحي" الآن بمثل هذا الحديث، فهذا عهـد مضى وانقضى، وهو منذ عاد من السـجن لـم يحـاول أن يختلس نظرة إلى "سعاد هانم"... وحتى "عبد العزيز" المهذار لم يعد يهزل كما كان من قبل، ولم يعد يقـول لـه "الشـيخ سعا"...

خيرا يا "شكري بيه". تكلم يا أخي، ولا تطل الزيارة، فبعد نصف ساعة على الأكثر يجب أن أخرج لأصلي العشاء فـي مسجد السيدة وأعود إلى هنا بصديق لا يعرف البيت..

تكلم يا حضرة!.. مـاذا بعـد السـؤال عـن الصـحة والأحوال!..

شعبنا من التحيات.. وماذا بعد؟ خيرا!؟ قل لماذا تزورني هنا؟ وقال "شكري" فجأة:

- ما تعرفش "عبد العزيز" راح فين؟ اخواته بيقولـوا انه خرج يذاكر بره مع أنه عارف أن عندنا مشوار مهم!

إلى أين يا "شكري بيه"؟ إلى أين تذهب بـ "عبد العزيز"؟ كفى ما كان! "عبد العزيز" كان في حاله يسـتعد للامتحـان، فأخذته يا "شكري بك" إلى سهرة عند امرأة في الحلمية مـن قريبات "عديلة هانم"، وعاد بعدها مثقل القلب، في يده فتـاة تبصق دما، لم يكن يلتفت إليها من قبل!.. كفى يا "شـكري" فالحكاية شاعت وذاعت... وعيب عليك أن تفسد شابا مثـل "عبد العزيز" وتحمله إلى بيت غانية كقريبة "عديلة هانم"!!

وعاد "عبد الحي" يرفع يديه إلى جبينـه مرحبـا ليقطـع الصمت.. وهمهمت كلمات التحية المتبادلة من جديد، ومـن جديد ساد الصمت!

وأخذ "شكري" يلقي على "عبد الحي" نظرات فاحصة من عين نصف مغلقة.. وأحس "عبد الحـي" بهـذه النظـرات..

فمالت ذقنه على صدره، ورفع رأسه بعد قليل فوجد "شكري" ما زال ينظر إليه.

وسأله "شكري" بلا مقدمات:

- انت يعني ما تعرفش "عبد العزيز" راح فين؟..

واستطرد بسرعة قبل أن يعطي "عبد الحي" وقتا للرد:

- ايه حكاية الطلبة اللي بيسهروا عنك دول؟

واختلج "عبد الحي"... ولم يتكلم.. وداري اضطرابه في نحنحة.. ودق قلبه بسرعة.

فاستمر "شكري":

- ليه مش بترد عليه.. أنا فاهم.. انت يا "عبد الحي" ما بقتش تثق فيه؟... أنا شاعر ان فيه حاجة كده بيني وبينك! حاجة كده واقفه بينا. أنا لا أستطيع اني أتبينها ولكني شاعر بيها!

وخاف "عبد الحي" أن يكون "شكري" يعني بهذا التعريض نكتة "عبد العزيز" التي ذاعت عنه هو و "سعاد هانم" فعبد العزيز يسمى عبد الحي "الشيخ سعا".. وعبد الحي يعرف من

كلام سريع قاله "عبد المعبود" أن "شكري عبد العال" يفكـر أحيانا في الزواج من "سعاد هانم".

واضطرب صوت "شكري" وهـو يتأمـل "عبـد الحـي" الصامت الشارد:

- ا ... انت ساكت ليه؟... فيه إيه بيني وبينك!

ثم استدرك قائلا:

- انت زي ابني... كلكم أولادي.. اتكلم يا اخي.. أنا مش متصور أن ممكن تكون فيه حاجة بيني وبينك على الأقل لأنك زي ابني.

ونظر "عبد الحي" – ربمـا لأول مـرة – فـي عينـي "شكري"، وأخذ يتأمل اهتمامه الجديد بأن يتعطر ويبالغ فـي تأنقه...

وسحب الكرسي، واقترب من "شكري" في ثبـات وهـو يمتلئ شيئا فشـيئا بإحسـاس خـارق بالمقـدرة والجـرأة والمسئولية.

وقال "عبد الحي" بصوت بطيء مرتفع وقور:

- يا شكري بيه.. أنا ما فيش بيني وبينك إلا كل خير... لكن الحق يقال.. أنا غير مستريح من ناحية حاجات كتير... أولا مسألة "أمين أفندي" أنت لم تولها الاهتمام الواجب.. كان مفروض وأنت أفضالك سابقة وسابغة أيضا أنك تهتم بها أكثر من كده!

وضاق "شكري عبد العال" بكلمات "عبد الحي".. وأحس بها كالوخز! ولم تعجبه أيضا الطريقة التي اختارها "عبد الحي" للكلام... "شكري" نفسه يؤنب الناس بهذا الأسلوب، ولا يجب أن يبدو أحد لبقا على حسابه، وبصفة خاصة: الذين هم أصغر منه سنا وشأنا..!

وقال بصراحة:

- وانت مالك يا أخي ومال الحكاية دي؟!.. هو انت يعني مهما بلغ اهتمامك بأهل الشارع حايكون زي اهتمامي أنا بمشاكلهم ومشاكل غيرهم.. أنا فاهم واجبي.. تفتكر انت يعني..

وأخذ يلوح بيديه ويهز رأسه، ولم يكمل ما يريد أن يقول، وإنما ألقى على "عبد الحي" نظرات حادة لاذعة أكثر عنفـا من الكلمات!

واستفزت نظراته غضب "عبد الحي" وضيقة منه، فأوشك أن يصرخ في وجهه أنه رجل مغرور يفرض على الآخرين هيبة زائفة.. وهو في نفس الوقت يأخذ شابا في مثل سن ابنه ويرميه في الأوكار التي يتردد عليها ليعود من هناك بحـب غريب يهدد مستقبله!

ولكن "عبد الحي" أمسك نفسه بصعوبة، ولـم يجـد مـن المناسب أن يقول لرجل في الخمسين يزوره في بيته كلامـا يمكن أن يحرجه...

وظل "شكري" يتأمل وجه "عبد الحـي" الـذي تـتقاص عضلاته .... ولم يعد يتردد فـي الصـمت تحـت ضـوء المصباح الكهربائي الخافت في الصالة العارية غير أنفـاس "عبد الحي"..!

وفجأة أطلق "شكري" ضحكة جعلت "عبد الحي" ينظر إليه مفتوح الفم.. محملق العينين.. وارتفعت قهقهة "شكري" وهو يفحص "عبد الحي" في جلبابه الكستور المخطـط والطاقيـة

على رأسه.. وفي إحدى قدميه فردة قبقاب والأخرى حافية... ماذا لو دعاه فلبس بدلة وأخذه ليسهر معـه عنـد "شـويكار هانم"؟!؟

ولكن "شكري" هز رأسه ومصمص شفتيه، وقـام وهـو يخبط كتف "عبد الحي" قائلا:

- إن شاء ا ربنا يوفقنا جميعا إلى ما فيه الخير...

وسلم "شكري"، وخرج و "عبد الحي" لا يفهم من هذا كله شيئا... لماذا زاره؟! ماذا يقلقه؟!.. وما الذي أضحكه آخـر الأمر؟ يا عبد الحي سبحان الذي أضحك وأبكى!.

ثم أي شيء هذا الذي شعر به "شكري" قائما بينه وبينـك يا عبد الحي؟ ولماذا استاء حين كلمته عن مشكلة نزع ملكية بيت "أمين أفندي"؟! ثم ماذا يقصد بحديثه عن الطلبة الـذين يزورونك؟! وبعد، فلماذا ضحك فجأة وكان طـوال الوقـت يجلس مقطب الوجه!!؟.. نعم لماذا ضـحك فجـأة.. شـيء يحير!..

لم يفلح "عبد الحي" في أن يجد جوابا واحدا لكل الأسـئلة التي ثارت في نفسه.. وتوقف قليلا يفكر في اهتمام "شـكري عبد العال" بالطلبة الذين يزورونه.. ولكنه لـم يكـد يشـعر

بخطوات "شكري" تبعد غائصة في صمت الليل، حتـى قـام ليلبس مهرولا... إلى مسجد السيدة زينب... ليلحق بصـديقه على موعد صلاة العشاء بجوار منبر المسجد..

أما "شكري" فكان ينطلق متجها إلى مقهـى فـي العتبـة الخضراء حتى يحين موعد السهرة عند "شـويكار"... وهـو يمني نفسه بمتاع باهر.

(١٧)

قعد "شكري عبد العال" يمضغ أوراق النعناع، وكوب الشاي على شفته، وهو ينظر إلى "عبد المعبود" في ضيق بالغ، وضجيج آلة المطبعة يرج المكان ويضغط على أعصاب "شكري".

ماله الأسطى "عبد المعبود" هو الآخر؟ لا يكاد يستقر على مكتبه الخشبي الصغير الوسخ في مدخل المطبعة حتى يقوم ويغيب طويلا في الداخل وراء الحاجز الخشبي؟!..

لماذا حشرت نفسك هنا يا "شكري" في هذا المكان المزعج على كرسي يكاد يقع عليك ويمكن أن تمزق مساميره بدلتك!

"عبد المعبود" غير مهتم بك! ليتك ما حكيت له!.

أف! قديما كان "عبد المعبود" يترك كل شيء ويسمع لك، ولكنه اليوم وأنت في مطبعته لا يشغل نفسه بك!.. امرأته هي التي تقوي بنتك "سميرة" عليك، و "درية" مسكينة لا تقول شيئا من عندها، وإنما تردد دائما ما تسمعه من أختها الكبيرة.. وكلهم يكرهون "سعاد هانم"!.. لا أحد منكم جميعا

يعرف هذه المرأة... لا أحد منكم يستطيع أن يقبل فكرة زواجي بها، كأنما هي ستنتزع منكم شيئا تملكونه!.. كأنني أنا ملك لكم يا كلاب!..

اقعد يا "عبد المعبود" وثبت عيونك الزائغة، وقل لي ما رأيك يا أخي في هذه المصيبة، أنا يا أخي أريد أن أتزوج على سنة ا ورسوله، ولكن "سميرة" تهددني بالانتحار إذا أنا جئت بامرأة أخرى مكان أمها!.. وأنا أشعر بملل فارغ. وشيء رهيب كالندم يفغر فاه ليلتهمني في صباح كل ليلة أقضيها ساهرا عند "شويكار" وعندما يتحرك لساني ثقيلا بخدر خمر ليلة البارحة وأنا أشرب قهوة الصباح، أحس بشيء كريه كالقيح يملأ صدري... فأكاد أبكي يا رجل!!..

ماذا تظن يا "عبد المعبود"؟.. تكلم.. تعال واقعد ودبرني. كلكم يتهامس بأنني أتردد على منزل "شويكار هانم"!.. و "عبد الحي" يجد في نفسه الشجاعة لينظر إلي باحتقار!.. أنا مع ذلك لا أريد أن أذهب مرة أخرى إلى هناك. ولكني أندفع إليها كل ليلة معصوب العينين كالذي يسير وهو نائم، وهناك أظل أضحك وأضحك، وتفتح أمامي الخمر آفاقا حلوة فإذا كل شكل بديع: الكلمة العابرة تثير القلب، وهزة القوام

تلهب الأعصاب، والأغنية القديمة الممجوجة تصدح على وهج الخمر وتعمر الدماغ وتصبح شيئا تتلهف إليه.. وحتى الدخان الأزرق الذي تنفثه "شويكار" من أنفها لم يعد يرهقني.. أصبح يغريني بتأمل هذا العنفوان الظامئ، ولكن "شويكار" لا تعطيك نفسها أبدا.. كل ما تمنحه لك هو الدلال والبسمات ولهب الرغبة!!.

ولكنكم لا تعرفون الضحك ولا الأنس يا أهل شارع عزيز!.. لا أحد بعد يعرف الضيق الذي يطبق على الصدر في الصباح من بعد هذا كله! ...

اقعد يا "عبد المعبود" واسمعني واحمد ربك أن رجلا في مثل مقامي يزور مطبعتك.. ماذا جرى في الدنيا يا ناس؟ أضاعت المقامات! ...

ولكني أنا أستاهل كل ما يحصل!

هيه!! لن أتحدث مع أحد منكم بعد، سأضع نفسي في مكانها يا أهل شارع عزيز...

إنكم تنسون أني من جيل كله اليوم ضباط كبار، وأتعسهم حظا يحمل رتبة البكوية!..

وهم "شكري" بالقيام فوجد يد "عبد المعبود" تمسكه بقـوة، وتشده إلى الكرسي.

وقال "عبد المعبود" في عجلة وهو يتهيأ للعودة إلى داخل المطبعة:

- صبرك علي بس يا شكري بيه قيمة خمس دقايق.. بس قيمة ما تخلص الشاي بتاعك.

والأشعة الحمراء من شمس الأصيل تستلقي على الحاجز الخشبي الذي يفصل آلة الطباعة عن مكتب "عبـد المعبـود" القائم في مدخل المطبعة.

وأخذ "شكري" يتأمل في صمت شحوب آخر شعاع مـن الشمس الغاربة وسماء الخريف مـن وراء بـاب المطبعـة تزحف عليها زرقة الليل الداكنة، والضياء يغيب و "شـكري" وحيد ينتظر أن يفرغ له "عبد المعبود"، وشيء كالظمأ يثقـل لسانه.. ظمأ غريب يخدر لسانه وشـدقيه، ويـذكره بطعـم الكونياك.. لا لا!!. لا تضعف الليلة أيضا يـا شـكري!!... ولكنك هكذا في كـل ليلـة، تقـرر فـي مهـبط المغـرب ألا تذهب... ثم ما يكاد يتقدم بك الليل حتى تقودك خطواتـك

إلى "شويكار"!!... وعند "شويكار" تحلم بالزواج من "سـعاد هانم!".

وانطلق من شارع درب الجماميز نـداء باعـة الجرائـد يجرون وراء بعضهم صائحين:

- ملحق البلاغ الليلة. تصريح جديد للمسـتر هـور يا جدع..

وأقبل "عبد المعبود" من الداخل مندفعا إلى الشارع ينادي بائع الجرائد ويزيح مقعد "شكري" بيده دون أن يشعر، وهـو يقول متعجبا:

- ا هو المسـتر هـور ده حيسـتلمنا تصـريحات والا إيه؟! ...

وأمسك الصحيفة بيده وهو واقف أمام باب المطبعة يقـرأ بلهفة ولكنه طواها ودخل إلى مكتبه وأدار مفتاح الكهرباء من وراء ظهره وهو يمد يده بالصحيفة إلى "شكري" قائلا:

- دا تأكيد للتصريح اياه اللي نشروه في جرايد امبارح الصبح!.. قال حكومـة مصـر بتستشـيرهم فـي الدستور، وجنابه مش عاجبه أن الدستور يرجع!.. ياما قلنا من زمان ان نسيم باشا عمره ما يتعـدل،

قالوا لنا اطلعوا من البلد! آهو مستر هـور بنفسـه فضح الشغلة كلها!.

وبان على وجـه "شـكري" ضـيق شـديد مـن كـلام "عبد المعبود" وكأنه يستكثر عليه أن يتكلم في مسائل سياسية مثل هذه... إن "شكري" نفسه لم يهتم كثيرا بهذا التصـريح، غاظه أول الأمر عندما قرأه بالأمس وهو في مكتبه، ولكنه لم يكد يعود إلى بيته وينادي ابنته "سميرة" بعد الغداء ليحـدثها عن تصميمه على أن يتزوج "سعاد هانم" حتى أنساه صـراخ بنته كل شيء.. ثم أخذ الغضب يستبد به حين كلمتـه ابنتـه بطريقة لم يألفها مـن قبـل، وعـاد اليـوم ليجـد امـرأة "عبد المعبود" مع ابنتيه وهما تشتمان "سعاد هانم" المرأة التي ستكون شريكة حياته.. عندها فكـر فـي أن يطلـب مـن "عبد المعبود" أن يمنع امرأته من زيـارة ابنتيـه وأصـبح ما يشغله حقا هو تـدخلها فـي شـئونه الخاصـة. ولكـن "عبد المعبود" الذي لا يعرف من القراءة أكثر ممـا تتطلبـه مهنته مشغول هو الآخر بمستر هور!!..

وهو يلقي على "شكري" منذ بدأ يحكي له.. نظرة غريبة.. نظرة مثل هذه النظرة التي يختلج أمامها المذنب ويشعر بأنه

ضعيف، والتي لا يلقيها أبدا إلا رجال أقوياء مطهرون على الذين تغلبهم رذائلهم!

حتى "عبد الحي" ألقى عليه هذه النظرة منذ يومين عنـدما زاره ليسأله عن "عبد العزيز".. و "شوقي" الصـغير أيضـا يقتحمه بهذه النظرة نفسها!..

أنت يا "شكري" هنت على الأولاد كلهـم... كـل الأولاد الذين رأوا في حياتك دائما سيرة خارقة من البطولة، ورأيت نظرات الإكبار تتطلع إليك مـن عيـونهم الصـغيرة وهـم يدرجون مع الأيام عاما بعد عام... هؤلاء الأولاد الذين ليس فيهم كلهم واحد يساوي ابنك المرحوم، أصبحوا ينظرون إليك بإهمال واشمئزاز واستصغار!

وأوشك "شكري" أن يختنق بالدموع، فاختلج فجأة وأخـذ منديله الحريري من جيبه ومسح به وجهه وجبينه ثم دسه في جيبه بسرعة.. وشد نفسه علـى الكرسـي، وألقـى علـى "عبد المعبود" نظرة من زاوية عينـه دون أن يحـرك إليـه وجهه... ثم زعق بطريقة باغتت "عبد المعبود":

- يا أسطى انت فاهم إيه؟ أنا جاي أكلمك في المصيبة اللي عاملاها مراتك، تقوم تكلمني في السياسة؟! هو أنت يا أخي حتعلمني السياسة؟!... هو انت ...

فاسترد "عبد المعبود" هدوءه بسرعة وقاطعـه والسـكينة تغمر وجهه:

- ا ا ! زعلان ليه كده يا شكري بيه؟ يا سيدي انت الخيـر والبركـة. أعلمـك ازاي؟ روق بـس!. ما تحملش هم حاجات فاضية! جواز إيه اللي مغير دمك كده؟ لما انت بتقـول علـى حكايـة زي دي مصيبة، أمال "أمين" المسكين اللي الـدايرة عـايزة تاخد منه بيته يعمل إيه؟!

فانفجر "شكري" وحنقه يتزايد:

- أما أمرك غريب قوي يا أسطى..! انـت بتـأنبني والا ايه!... أنا مالي ومال "أمين"؟ أنا غلطان اللـي فت عليك! لكن اسمع... أنا مش عايز مراتـك دي تاني مرة...

واستدرك "شكري" وهو فـي أوج غضـبه.. وارتجـف صوته وهو يكمل:

- يعني أنا بأقول لك... أنـا يعنـي.. مـش عـايز جماعتك... يعني من فضلك نبـه علـى السـت، انها.... ما فيش داعي انها تكلم الأولاد تـاني فـي موضوع سعاد هانم.

وأجاب "عبد المعبود" وهو يلحظ رجفته:

- كده يا شكري بيه؟ وهو ده كلام يتقال بره البيت!؟ ده انت أبو الأصول... يعني لو واحد زبون سمعك بتتكلم كده يبقى إيه بس؟! يبقـى إيـه بـس؟ لا لا يا "شكري بيه" الحمد ان محدش شافك في الحالة دي! هو ده كلام يا راجل؟ هيه النـاس فـي إيـه والا في ايه!؟..

- ولم يستطع "شكري" أن يقول شيئا.

وفكر لحظة فـي أن يقـوم فيقلـب الـدنيا علـى رأس "عبد المعبود" الذي يقابل ثورتـه وهياجـه بهـذا الهـدوء المستخف، وآلمه أن يشعر أمام هدوء "عبد المعبود" أنه أحمق شاذ!..

وبدأ يلح عليه إحساس بالوحدة، وعاد يشعر فـي حلقـه بطعم الدموع، وفي رأسه تختلط صور غريبـة يـرن فيهـا

صوت "سعاد هانم" الدافئ، وطلقات الرصاص في مظاهرات سنة ١٩١٩ وصراخ زوجته حين سمعت بمقتل ابنه، ورنين ضحكات "شويكار هانم"، ونشيج ابنتيه بعد ظهـر الأمـس، وصيحته المنتصرة حين ضرب الضابط الإنجليزي بالكرسي منذ عشرة أعوام، وصدى زعيقه الآن وهو يحاول أن يجرح "عبد المعبود"!

ووقف "عبد المعبود" أمامه يبتسم، وومضة حانية مشـفقة تبرق في عينيه، وشعر "شكري" بيد "عبد المعبـود" تضـغط على كتفه وهو يقول في صوته الهادئ:

- وكمان يا "شكري بك" إيه حكاية يا أسطى دي!؟ هو ده اللي بينا؟ يا أسطى؟؟.. يعني كأنك واحد زبـون غريب.. كأن مفيش عشرة ولا عيش وملح!!..

هذه النبرة نفسها هي التي مسحت آلام "شكري عبد العال" ذات يوم حين ماتت زوجته! ...

واضطربت الصـور فـي رأس "شـكري" واختلطـت الأصوات في أعماقه.. ووجد نفسه يقف.. ويهمهم:

- أنا تعبان يا "عبد المعبود"!.. إوعى تزعل منـي... أنا تعبان.. سلامو عليكم.

وانفلت بسرعة إلى الخارج.

وتنهد "عبد المعبود" وهو يتابعه بنظراته... ورآه يمضـي بشارع درب الجماميز.. يرتعش ظله على أضواء المصابيح الخافتة.

وعاد "عبد المعبود" إلى المطبعة.. ودخل وراء الحـاجز الخشبي فأغلق بابه، وأخذ يفحص المنشـورات التـي كـان منهمكا في طبعا ثم حزمها بسرعة... في حـزم صـغيرة، ووضعها على الأرض، وألقى عليها بضعة أوراق.

وأوقف آلة الطباعة، وفتح باب الحاجز الخشبي... فوجـد رجلا يجلس على الكرسي الذي يواجه مكتبه يقـرأ صـحيفة تغطي وجهه!!

وتتابعت دقات قلب "عبد المعبود" وكتم أنفاسه، وفكر فـي أن يعود مسرعا إلى الداخل!

ولكنه تقدم خطوة في اتجاه الرجل الجالس.. ثـم صـاح مرحبا:

- أهلا!.. يا شيخ!! خضتني. ازيك يا دكتور! أهلا.. إيه؟.. مش عوايدك!.

وكان "عبد العزيز" مستغرقا في القـراءة، فالتفـت إلـى "عبد المعبود" بسرعة وسأله:

- خلصت؟ خلصوا..

وأجابه "عبد المعبود" بدهشة:

- هم إيه اللي خلصوا؟

واكفهر وجه "عبد العزيز" وقال وهو يغالب ارتفاع صوته:

- المنشورات يا أخي!.. يعني عايزني أقولـك انـي جاي من طرف "عبد الحي"؟!.. اسمع.. فيه واحـد غريب في الشارع بتاعنا رايح جاي يكلم واحد تاني على ناصية الشارع! يظهر انه بيراقب "عبد الحي" وجايز يقبضوا عليـه الليلـة... أنـا خـدت كـل المنشورات اللي عنده وأخفيتها.

وتوقف "عبد العزيز" قبل أن يكمل. واختلج صوته قلـيلا وهو يقاوم خجلا مفاجئا يدهمه:

- أنا أخفيت كل حاجة.. عند "رجاء".. و "ميمي هانم" كمان صممت تاخد شوية.. لكن.. على كـل حـال يا "عبد المعبود".. على كل حال احنا قدرنا نـزوغ "عبد الحي" ربنا يلطف لحد يوم ١٣ نوفمبر. هانت

خلاص يا عم!. كلها يوم والتاني!. "عبد الحي" آهو زاغ. والمهم ان ما حدش يقع، ولا المنشورات تقع.

كان يتكلم بخطورة، وبطريقة لم يألفها أحد فيه من قبل.

ووقف "عبد المعبود" يحملق في "عبد العزيـز" بدهشـة، والفرح يزحف إلى نفسه كأنه يسترد شيئا فقـده، ومشـاعره تضطرم بكل ما يقوله "عبد العزيز": الفرج بعد يومين! هـذا الرجل الغريب يروح ويجيء في الشارع يكلم رجلا غريبـا آخر على الناصية!. "عبد الحي" إذن كان يمكـن أن يقـبض عليه والمنشورات في بيته!.. أي شيء كان يمكن أن يحدث لو أن "عبد العزيز" لم يجئ الآن لينبهه هو؟! ثم هذه الفتـاة المصدورة "رجاء"؟!. كيف تقبل المنشورات في بيتها؟ طبعا يا عم! كله يهون من أجل "عبد العزيـز" و "ميمـي هـانم" أيضا؟!.. حتى الست "ميمي" هي الأخرى تخفي منشورات؟! وما حال "أمين"؟!

وقال "عبد المعبود" بتؤدة دون مقدمات:

- اسمع يا دكتور.. أنا عندي كلمتين عايز أقولهم لك من مدة، بس ما تخـدش علـى خـاطرك منـي. ما تشوف لك طريقة في "رجاء" دي. مـا تـدخلها

المستشفى بدل الخيلة الكدابة دي! وعلى كل حـال برضه المستشفى أحسن من علاج البيت!

فاصفر وجه "عبد العزيز" وهم بأن يزعـق فـي وجهـه "عبد المعبود" ألا يتدخل في شيء كهذا.. ولكنه أمسك لسانه.

ووقف ومد قامته الطويلة، وتطلع إلى داخل المطبعة وهو يقول بصوت يداري به امتعاضه وضيقه:

- بس هات انت المنشورات. أنـا حاوصـلهم "لعبـد الحي" في البيت اللي راح يبات فيه.

وتحرك "عبد المعبود" إلى داخل المطبعة وهو يهمهم:

- طيب ولو اتقفشت بالحاجة؟

وبهت "عبد العزيز" لحظة.. إنه لم يفكر في هذا من قبل..

وقبل أن يجمع شتات فكره عاد إليه "عبد المعبود" قائلا:

- اسمع. اديني العنـوان وانـا حاوصـلهم بنفسـي. والا أقول لك.. ما نشيل الحاجة عند "شكري بيـه"! والا أقولك؟ بلاش. اديني العنوان بس يـا دكتـور ومالكشي دعوة انت.

ودخل الأسطى "عبد المعبود" بخطوات وئيدة إلى ما وراء الحاجز الخشبي، بينما وقف "عبـد العزيـز" حـائرا.. إنـه لا يستريح إلى ما يقوله الأسطى "عبد المعبود"!. جاء يحدثـه عن المنشورات فتجاهله "عبد المعبود" وأخفى عنـه الأمـر. وعندما حدثه عن الخطر الذي يهدد "عبـد الحـي" ويهـدد الشارع كله، حدثه "عبد المعبود" عن "رجاء" وطالبـه بـأن يتخلص منها، ويخلص منها الشارع، ويرميها في المستشفى! وهو الآن لا يريد أن يعطيـه المنشـورات ليحملهـا إلـى "عبد الحي"، ويلوح له بأن البوليس يمكن أن يقبض عليه!

إنه على أية حال لا يستريح إلى سلوك "عبد المعبود" معه ويستشعر فيه نوعا من الاستخفاف وعدم الثقة!

لماذا يحدثه عن "رجاء" الآن بالذات؟!

ومع ذلك فهي تخفي منشورات أخرى تحت سـريرها... بالضبط تحت رأسها! ولكن هذا لا يغير شيئا من رأيهم فيها! إنهم يرونه يدخل ويخرج من عند "رجاء" ولهذا تقوم الـدنيا عليه حتى في لحظة حرجة كالتي يعيشونها الآن!

مم يخافون؟.. "رجاء" لن تعطله عن الامتحان.. والمشكلة الآن هي تصريح المستر "هور"! وهم لم يروا كيف كـان

حاله في الكلية حين قرأ كغيره من الطلبة تصريح المستر "هور"! "عبد المعبود" أيضا لا يصـدق إلا مـا يـراه.. إلا ما يمسكه بيده!

وهو لم يرك يا "عبد العزيز" تجتمع مع الطلبـة صـباح اليوم في بوفيه كلية الطب.. ولن يراكم في اجتماع الليلة!

هو لم ير إلا ترددك علـى "رجـاء"! وهـو يثـق فـي "عبد الحي" أكثر مما يثق فيك! ربما لأنه رآه يسجن، وعرف بنفسه كيف قاوم وهو في السجن، وليست له سقطة!. حتـى مغازلته القديمة لـ "سعاد هانم" والرغبة القديمة في السخرية به، ذابت تماما منذ خرج من السجن راسـخ القـدم شـامخ الرأس.

ولكنك يا "عبد المعبود" تبالغ!

لماذا يجب أن تذهب أنت بالمنشورات؟!.. ربما كان يجب ألا تعرف البيت يا أخي!. بل أنت يا أخي يجب ألا تعـرف البيت!.

وارتعش "عبد العزيز" على هذا الخاطر.. وبان الاشمئزاز على وجهه، وشعر بالخجل بينه وبين نفسه!.

يجب ألا يفكر هكذا في "عبد المعبود"!

لا يكفي أن يعرض "عبد المعبود" لعلاقته بـ ـ "رجـاء" أو أن يمتنع عن إعطائه المنشورات ليطلق هو فيـه لسـانه ويتحيز ضده، ويفكر في اتهامه على هذا النحو الشائن..!

لا لا.. معذرة يا "عبد المعبود".. الحمد أن اللسان لـم يسبق بهذه الكلمات الكريهة!.

لو أنني قلتها لعذبني شعور زري بالدناءة!. انت على حق يا "عبد المعبود".. يجب ألا يحمل المنشورات أحد غيرك!.. أنت تخاف علي، وهذا كل ما في الأمر!.. أنت لـك خبـرة قديمة في هذه الأمور.. ولك حـق يـا "عبـد المعبـود"!.. صحيح!.. من الخير أن تذهب "رجاء" إلى مستشفى.. فهناك تظفر بعناية أكثر، ونفرغ نحن لما يلقيه علينا مستر "هـور"، وللمعركة التي ستجعل هذه الأيام من نـوفمبر سـنة ١٩٣٥ أياما حاسمة!

المستشفى..؟.. ولكن لا. لا. أنا أدرى بمـا يحـدث فـي المستشفيات!! ستتحول هناك إلى حالة يفحصها الأطباء الجدد ويتعلم عليها الطلبة، وتسعل وحدها في الليل، وتنسل منهـا حياتها شيئا فشيئا بلا رعاية ولا دواء، وتدق الجرس المعلق إلى سريرها فلا يجيبها أحد!.. أنا أدرى بمـا يحـدث فـي

المستشفيات!. ستموت هناك!.. ثم.. كيف يمكن أن أحتمـل الحياة لو أنني أفقت ذات صباح فلم أجد "رجاء" في مكانها!.

ولكنها تتحسن على كل حال.. ولن يحتـاج الأمـر إلـى مستشفى.. فلنفكر في هذا فيما بعد!!..

لا تشغل نفسك بهذا الآن، فقد كنت منذ لحظة تلعن "أمين أفندي" لأن الإنذار الذي تلقاه من الدائرة بنزع ملكية البيـت ألهاه عن تصريح المستر "هور" فلم يجد في نفسه حتى مجرد الاستعداد لأن يقرأه ويسمع من يتكلم فيه!..

كنت تلوم "أمين"!.. و "أمين" مسكين له حق في كل هـذا الجزع.. له الحق في أن يطوف كل يوم على المحامين يسمع من كل محام ذات الكلام، ويسعد بأن يستعيد كلماتهم لنفسـه. أن الدائرة لا تملك الحق في نزع ملكية بيته الخاص!

"أمين" معذور.. فهو مهدد بضياع البيت الذي وضع فيـه كل شيء، كل تعبه، وكل حياته، ومستقبله.. وحتى شرفه!!

إن "أمين" يعزي نفسه بأن يسمع كلمة أن الدائرة لا حـق لها، وهو لا يستطيع أن يفهم أنه لا قيمـة للحـق والباطـل ما دامت البلد بلا دستور!!

ولكنه شتم "عبد الحي" حين حدثه في هذا.. ولمتـه أنـت يا "عبد العزيز" وسخرت به! ثم تعود بعد هذا وتشغل نفسـك بنقل "رجاء" إلى المستشفى!!.. مـن غيـرك تشـغله هـذه المشكلة؟!

على كل حال، لسنا في حاجة إلى قلق جديد يـا أخـي.. ستبقى "رجاء" كما هي..

لا!.. بل المستشفى أفضل، ما دمت أنا أستطيع أن أوصي عليها الأطباء، وأن أمنح الممرضين بعض المال!..

ا يسامحك يا "عبد المعبود"!.. لماذا فتحت علـي هـذه الفتحة السوداء؟!..

"رجاء" ستبقى في بيتها وتشفى وتسمن!!..

***

وانتبه "عبد العزيز" من أفكاره فوجد "عبد المعبود" مازال في الداخل يربط حزم المنشورات الصغيرة العديدة في حزمة كبيرة واحدة.

وعندما عاد "عبد المعبود" من الداخل كان "عبد العزيـز" يقف في باب المطبعة، والشارع مـن أمامـه تخـف فيـه الخطوات..

ورأى "عبده" يلهث في مواجهته، كأنمـا انشـقت عنـه الأرض، ومن ورائه "شوقي" يسرع في خطوة مقـبلا مـن بعد..

وقال "عبده" مروعا:

- الحق يا دكتور.. الضابط صاحبك بتاع المرة اللي فاتت جه مع قوة يسألوا على "عبد الحي". عاوزين يباخدوه تاني.

وذهل "عبد العزيز"..

ثم بدأ يغلي بالحنق، بينما أسرع "عبد المعبود" إلى داخـل المطبعة وحمل الحزمة الكبيرة.. واندفع إلى خارج المطبعـة وهو يقول:

- طيب تعال معاي يا دكتور وريني البيت اللي فيـه "عبد الحي".

ورمى الحزمة الكبيرة لـ "عبده" وانشغل بـإغلاق بـاب المطبعة ثم استعادها منـه وتقـدم مـع "عبـد العزيـز".. و "عبد العزيز" ما زال يهمهم لنفسه:

- البوليس؟!.

ولقيهم "شوقي" فهمس في أذن "عبد العزيز":

- البوليس جه و..

وأجاب "عبد العزيز" باقتضاب:

- عارف.. روح انت!.

ولكن "شوقي أكمل:

وأم رجاء بتصوت.. أنا سايبهم بيرشوا ميـه علـى وش رجاء!

وتوقف "عبد العزيز"، وشعر بقلبه يغوص بين ضلوعه.. ولم يعرف ماذا يقول.

وساد الصمت لحظة..

ثم تحرك "عبد المعبود" وهم يتحركون وراءه في بـطء، تحت أضواء المصابيح الشاحبة وظلالهم الطويلـة تـنعكس على أرض شارع درب الجماميز كالأشباح..!

وبان الشارع في الضوء الخافت أمام "عبد العزيز" كأنـه طريق طويل بارد إلى العدم، والحيطان المتهالكة تقوم علـى جانبيه بلا نهاية، وكل شيء فيه ممض، معذب صدئ ومثقل بالآثام ورائحة الموت!

ومال "عبد المعبود" يهمس في أذن شوقي:

- انت عارف البيت اللي راح فيه عبد الحي!

فهمس "شوقي" بزهو خفيف:

- طبعا.

ومالت يد "عبـد المعبـود" حانيـة قويـة علـى كتـف "عبد العزيز" كأنه يحاول أن ينشله من الضياع القاتم الـذي ينحدر إليه بإذعان وكآبة واستسلام!.

وعندما أحس "عبد العزيز" بيد "عبـد المعبـود" فـوجئ، وأوشك أن يبتعد، ولكن "عبد المعبود" قال لـه مـن خـلال ابتسامة واثقة مضيئة:

- طيب ارجع لها أنت يا دكتور. لازم ترجع الشارع تسعف رجاء.. أنا حاوصل مع شوقي.. ربنا يجعل في إيدك الشفا!.

واندفع "عبد العزيز" في طريقـه إلـى شـارع عزيـز، وأصوات رهيبة كالعواء تزمجر في أغوار قلبه، والطريـق أمامه غائم مظلم لا يكاد ينتهي..

(١٨)

لم ينزل "سعد داود" من منزله بعد، على الرغم من أنـه يعرف أن "شوقي خليفة" ينتظره في الشارع أمام باب البيـت منذ ربع ساعة!.

ولكن "سعد" ليس نائما، فصوته يرتفع منذ لحظات مختلطا بصياح أمه وأبيه وجدته.

لو لم تكن "عديلة هانم" عصبية لا تبالي بما تقول، لطلـع "شوقي" إليه وأخذه من يده إلى المدرسة لـيخلص.. ولكنهـا أهانته ليلة البارحة حين رأته عند ابنهـا "سـعد" وكلاهمـا مبحوح الصوت بعد يوم عاصف من المظاهرات.. واتهمتـه بأنه يسحب ابنها ويدور به في الشارع، وهو ابن بيوت وليس كغيره من الفلاحين أو أولاد الحواري!!

لو كانت امرأة أخرى غير أم "سعد" هي التي قالت له هذا لعرفها مقامها، ولكنه بلع كلامها وسكت، ثـم خـرج وهـو يحلف ألا يزور بيت "سعد" مرة أخرى.. غير أن "سعد" رجاه ألا يهتم بكلامها، وأن يمر عليه في الصباح ليأخذ كل واحـد

دوره أمام باب المدرسة مع الذين تعهدوا بأن ينبهوا الطلبة أن ينصرفوا إلى الجامعة في صمت، للاشتراك في المؤتمر الوطني الكبير الذي سيزحف من حرم الجامعة إلى بيت "نسيم باشا" بالحلمية الجديدة.

يجب أن ينزل "سعد" الآن! يجب أن ينهي هذه المشاجرة مع أمه. ونادى "شوقي" مرة أخرى متعجلا.. فلم يرد "سعد" وظلات شبابيك بيته مغلقة على الضجيج الصاخب الذي يتميز فيه صوت أمه الحاد!

وأخذ "شوقي" يتمشى في شارع "عزيز"، ووجهه مرفوع إلى الشبابيك المغلقة، والهواء البارد يلحس وجهه وينفذ إلى بدنه.

وأوشك أن يصطدم وهو يتمشى ببنت صغيرة تنقر الأرض بقدميها الحافيتين، وتوحوح منكمشة على نفسها، وبين يديها طبق من الفول.

ومد "شوقي" يديه بسرعة، فأمسك بالبنت الصغيرة من كتفيها ودفعها برفق في طريقها كأنه يسترضيها..

وتابعت البنت سيرها وهي تغرس رأسها بين كتفيها كأنها كتكوتة مبتلة..

ولو أن خادمتك هذه وقعت الآن بطبق الفول يـا "أمـين أفندي" لكان نهارها أغبر، وربمـا نهـارك أنـت أيضـا!. لو ضاع هذا الفول على الأرض لما شـبعت مـن ضـرب البنت، ولقعدت طول النهار تتشاتم أنت وزوجتـك "ميمـي هانم"!!. كل يا "أمين أفندي" كـل، وامـلأ بطنـك وتمتـع بـ "ميمي هانم" طبق القشدة كما كان يسميها "عبد الحي"!!.. كل وتمتع قبل أن ينزعوا منك ملكية البيت!.. لو كنت تفهـم يا أخي، لعرفت انهم يهددونك بنزع ملكية بيتـك لأن الـبلاد بلا قانون. ولأن الدستور ليس هو الذي يحكم الآن علاقـات الناس!. عندما ننجح يا "أمين أفندي" ويعود الدسـتور فلـن ينزع أحد منك شيئا تملكه!

غير أنك لا تفهم، سخرت من "عبد الحي" حين قال لـك هذا، وبدأت تشك في آراء "عبد اللطيف" أيضا حـين شـرح الأمر بكلام حلو بعد ما أتعبت قلبه بالأسئلة.. ولـم يعجـبكم كلامي حين حكيت ما حدث طوال نهار أمس!.

نحن يا "أمين أفندي" نعرف الكثير، ونعمل لك، ونتعرض لرصاص الإنجليز، وأنت همك في بطنك وفي القشدة التـي تملكها!!.

لم يعد الأمر محتاجا إلى ذكاء خارق يا "أمين أفنـدي".. فالحكومة التي تستعين بها الدائرة لاغتصاب ما تملكه أنـت، وجهت إلينا بالأمس عساكرها جنبا إلى جنب مع الكونستبلات الإنجليز.. كلهم فتحوا علينا أفواه البنادق بالنار يا "أمين".

أتعرف ما صنعه طلبة مدرسة دار العلوم بالأمس يا "أمين أفندي"؟ حكى لنا الدكتور "عبد العزيز" بزهو، وتألقت عينـاه لأول مرة منذ شغلته "رجاء" بسعالها وشحوبها والـدم الـذي تبصقه.. تحدث "عبد العزيز" أيضا عن الدم!. عن الحصـار الذي فرضه البوليس بقيادة الضباط الإنجليز على مدرسة دار العلوم وكلية الطب.. عن الاقتحامة الجسور التي حطمت هذا الحصار، فإذا بـ "عبد الحي" مع كل طلبة مدرسة دار العلوم وطلبة مدارس السيدة زينب يدخلون إلى كلية الطب، وهنـاك ينفجر "عبد الحي" يقول كلاما كالصواعق.

"عبد الحي" الذي لا يعجبك يا "أمين أفندي".

لو كنت تركتني أحكي لك عما صنعناه نحـن بالمدرسـة الخديوية اسأل "عبد المعبود".. كان يقف ساعتها على بـاب مطبعته والمظاهرات تمـر فـي شـارع درب الجمـاميز.. وهبطت المنشورات على رءوسنا فجأة، فتلقفناها، بشـغف،

ووقف عبد الرافع يقرؤها.. ثم اندفعنا في طريقنا إلى ميـدان السيدة زينب: الأيدي الملوحة تهز صـمت الفضـاء، وفـي أعماقنا إحساس خارق بالقدرة المذهلة على اقتحام أي خطر، و "عبد المعبود" على المكتب الخشبي في مـدخل مطبعتـه ينظر إلينا في ثبات وهو يبتسم فـي ثقـة ورضـا.. ولكـن البوليس استطاع أن يفرقنا.. كان يجب أن نصل إلى مدرسة دار العلوم وكلية الطب..!

على أية حال لن تستطيع أية قوة أن تفرقنا اليـوم.. كـل شيء أعد، وسنصل إلى حرم الجامعة ونعود منـه طوفانـا لا يقاوم لنصفعك بقراراتنا يا "نسيم باشا"!

لا انتظار بعد، فموقفك منا بالأمس وضح كل شيء!.. لن تستطيع أن تخدع أحدا بأنك تريد الدستور!.. نحن لن نفصل بين الدستور والاستقلال.. الاستقلال والدستور مطلب واحـد يا "نسيم باشا"!.

و "سعد" لم ينزل! هذه المصيبة.. لا يريد أن يتحرك مـن حضن أمه!. ليس هذه وقت المشاجرة مع أمك يا "سـعد" ... انزل.. انزل يا أخي!.

ماذا يقول عنا الطلبة إذا وصلنا متأخرين؟

سيقولون إننا جبناء، و "شوكت عبد الرحيم المغربي" هـو سيد من يذيع عنا إشاعة كهذه.. ونحن نعطيه الفرصة بهـذا التأخير!

ونادى "شوقي" يستحث نـزول "سـعد" للمـرة الأخيـرة بعصبية، مقررا بينه وبين نفسه أن ينصرف وحـده إن لـم ينزل "سعد" من فوره. ونبهه وقع خطوات متتابعة ثابتة على بلاط مدخل باب البيت، فاستدار متجها إلى الباب المغلق وهو يلقي في وجه القادم بقوله:

- انت فاهم يا سي سعد اني أنا خدام أبوك؟.. وكمان جاي تتمخطر لي زي البنوتـة؟!. اجـري شـوية يا أخي..

وانفتح الباب ولكنه لم يكن "سعد".

وتراجع "شوقي" مشمئزا، ونظراته ترتد بامتعـاض عـن أخت "سعد".. إنها "ميرفت" اللعينة بقامتها الفارعة المتـأودة وصدرها النافر الوقح، وخطواتها المتحدية ووجهها الذي لـم ترسم عليه بعد آثار جرائمها!.. اللعينـة عشـيقة "شـوكت عبد الرحيم المغربي"!.. رفيقته بلا ريب!..

لو أن كل نظرة منها ألقتها عليـه تسـتل شـعاعا مـن عينيها!.. لو أن كل قبلة تترك على وجهها علامة كـالبرص لا تمحى تصرخ بالعار والذنب!

كل قبلة؟!.. لا لا!..

ولكن "شوكت عبد الرحيم المغربي" يقبلهـا بـلا شـك، وصدرها هذا يتلقى ضغط يديه.. ليت هذه الأشياء الفـاجرة تترك في جسدها آثارا كالحفر الشائهة التي يصـنعها الكـي بالنار! ... ليت أنفاسه التي تتلقاها وتختلط بأنفاسها تخنقهـا كالدخان المسموم!!.. المعلونة تجرى، وكأنهـا لا ترانـي، ولا تكلف نفسها حتى أن تقول لي إن كان أخوها سـينزل أم أنه قاعد طوال النهار يتشاجر مع أمه!.. "عديلـة هـانم"!!.. أختك يا "سعد" لم تجلبه من الخارج.. فالبنت لأمها!. الملعونة تلتفت وراءها وتقلب شفتها وتمضـي. كأنهـا تقـول لـي يا "سم"!.. حولي عني عينيك فأنا لا أريد أن أتلقى نظرة من العين التي تسطع فيها الرغبـة الحالمـة بالولـد "شـوكت المغربي".. "شوكت المغربي"!؟.. هو نفسه مائع له فضـيحة منذ عامين مع طالب كبير فـي حجـرة الملابـس بملعـب التنس!.. هو من صنفك تماما..!

أنت ذاهبة إليه الآن طبعا، فموعد مدرستك لم يحن بعد.. ليتنا نراكما الآن معا في الشارع ونكسر رقبتكما ونستريح!.

أين كنت معه بالأمس ونحن في المظاهرة؟!..

بالأمس ونحن في شارع درب الجماميز تسال "شـوكت" أمام حارة السادات حيث يقع الباب الخلفي لمدرسـة "سـان فنسان دي بول" ولم تفتني أبدا نظراته الساخرة إلـي وإلـى "سعد".. ا   يلعنه ويلعنك!.

***

ودفعته يد قوية، وهو واقف يغلي ويحتدم، والتفت فوجـد "سعد" في الشارع يقتحم الهواء البارد ويشده قائلا في حنق:

- يا للا.. وا   العظيم ما أنا قاعد في البيت ده! وديني ما أنا راجع لهم تاني.

ولم يكد يمشي خطوتين في الشارع، و "شوقي" يلم نفسـه ويزدرد ضيقه، حتى كانت "ألطاف" وراءه تلهث من الجري وبدنها السمين يترجرج وهي تقول متلجلجة:

- والنبي يا سيدي. بس اسمع يا سيدي.. تعال انـت يا سي شوقي أفندي! ستي بتقول لك..

وانفجر "سعد" قبل أن تكمل:

- روحي كده.

ووقف "شوقي" حائرا ممتعضا و "ألطاف" تكلمه كأنها لـم تسمع شيئا من "سعد":

- تعالى بس!.. والنبي يا سي "شوقي" تيجـي تكلـم الست.. انت كبير وعاقل وتعرف برضه.. هـدي سي سعد رجعه تاني أحسن ويمين النبي ستي قربت تتشنج.. يا سي شوقي انتم ما لكوش نزول في وسط الضرب والإنجليز.. والنبي يا سي شـوقي تهديـه وترجعه تاني ربنا يهدي لك نفسك..

ولم يجب "شوقي".

واندفع "سعد" في طريقه يهمهم بالشتائم، ولكن "ألطـاف" اعترضته، فاتحة ذراعيها أمامه لتقاوم اندفاعه، فانبثق مـن أغوار نفسه على الفور إحساس قديم بالعجز والمهانة حـين كان ينطلق في الشارع وهو طفل منذ ثلاثة أو أربعة أعوام، فتأتي "ألطاف" نفسها وتحمله إلى أمه غصبا عنه. وأحس أنها تحاول أن تصنع معه اليوم نفس الشيء بعد أن أصـبح هـو

أطول منها بشكل ملحوظ: خشن الصـوت، مليئـا بـالفتوة والعنفوان، وهي أمامه لحم أنثوي!!

ودوت في رأس "سعد" أصوات غريبة مختلطة، وأحـس بصفرة كريهة تتماوج أمام عينيه وتتشـابك فيهـا عـروق سوداء. وغلى بدنه، ومد ذراعه بكل طاقته فأزاح "ألطـاف" من طريقه فأوشكت أن تقع إلى جانبه.

واندفع محمر الوجه والأذنين، وهو يرتعد في أعماقه من الغضب، والإحساس بالخجل من "شوقي" يلفحـه بـوخزات كالإبر المحماة. وزحفت "ألطاف"، ثم انتصبت واقفة مروعة الوجه، و "شوقي" يقلب نظراته بينها وبين سعد فـي حيـرة وهو يتمتم:

- روحي انت يا "ألطاف" قولي للست ما تخافش...

والتفت "سعد" إلى شـوقي يسـتعجله، ثـم لـوح بيـده لـ "ألطاف" منذرا:

- وحياة ديني ان مشيتي ورايا تاني لاكسرك! وديني لاكسر أي واحد منكم يمشي ورايا! ا !. أنا مـش عيل.. وديني لأوريكم.

ثم تابع سيره وإلى جواره "شوقي".

وعندما كان يختفي من الشارع، كانت أمه "عديلة هـانم" تقف في الشرفة بالشال على كتفها وهي تناديه فـي جـزع، وتعالت نبرات صوتها المتهدج تملأ الفضاء كاحتجاج صارخ يائس في وجه كارثة يزحف بها المجهول.

ولكن "سعد" لم يحاول أن يلتفـت إلـى وراء، وتعثـرت خطواته قليلا ثم نشطت، تحت سماء كالرصاص المصبوب، في الطريق إلى الحلمية الجديدة.

ونظر إلى "شوقي" فوجده واجما كأنما هو الآخر يغالـب زحف انقباض مفاجئ وخوف غريب مبهم.

وسأله "سعد":

- احنا ماشيين من هنا ليه.

فقال "شوقي":

- حنقت قدام باب المدرسـة اللـي ناحيـة الحلميـة الجديدة. وسكت "سعد".

ثم عاد يسأل:

- وليه مش باب الجماميز اللي احنا متعودين نـدخل منه؟

وأجاب شوقي:

- الترتيب كده أحسن. بعدين أقول لك.

وعندما اقتربا من المدرسة، لمحا في كل الشوارع المؤدية إلى بيت "نسيم باشا" عددا كبيرا من الجنـود فـي العربـات وعلى ظهور الخيل... والسنكي يلمع في ضـباب الصـباح بأيدي الجنود.

ومرا ببيت "شويكار هانم"، فقال "سعد" لـ "شوقي" بصوت جاف غريب وهو يشير برأسه في عصبية:

- بيت "شويكار هانم".

كان واضحا أنه يريد أن يقول أي كلام، كأنما يهرب من الصمت الذي يلقي به وجها لوجه أمام أغوار نفسه!

وأحس "شوقي" بقلبه هو الآخر يدق في خفوت وتهافـت، وكأنه خيط من الماء يغيض في الرمال.

وحاول أن ينظر إلى وجه "سعد" وهو يشعر بحاجة خارقة إلى أن يرى في عينيه ومض الشعاع الهادئ الـذي ترسـله عين الصديق فيملأ القلب بالسكينة، ولكن نظراته لم تسـتطع أن تلتقي بنظرات "سعد".

وفجأة قال "سعد" بنفس الصوت الجاف الغريب المرتعش:

- كام واحد ماتوا في مظاهرة امبـارح بتاعـت دار العلوم؟

واختلج "شوقي" ولم يجب.

واقتربا من بيت "نسيم باشا" خطوات أخرى... صـفوف العساكر هنا أكثر مما في الشارع الآخر.. السـونكي يلمـع والبنادق منتصبة في الأيدي.. فوهات البنادق يراها كل مـن يمر.. من هنا من هذه الفوهات يخرج الرصاص!!.. الخيـل تروح وتجيء وعليها رجال حمر الوجوه.. تحت هذه السنابك سقط بالأمس عشرة طلاب.. اختلطت دماؤهم بالأسفلت.. في شوارع كالتي نمشي عليها الآن، ووقع طلاب آخرون علـى حافة الرصيف وتهشمت رءوسهم ثم جاءت الخيل فغرسـت حوافرها في صدورهم واليوم؟ كم من الطلاب؟!..

وأمسك "سعد" بكتف "شوقي" بغتة:

- انت خايف يا "شوقي"؟

وفتح "شوقي" عينيه وانتفض، وأخذ يحملق في "سعد" ثـم تابعا السير حتى وصلا إلى باب المدرسة فقال "سعد":

- يظهر احنا اتأخرنا خالص...

ولقيا أمامهما طلبة ينصـرفون عـن بـاب المدرسـة، و"عبد الرافع" يقف نافد الصـبر، وإلـى جـواره "شـوكت المغربي" و "عطا ا " ..

وصاح "شوكت المغربي":

- أهم شرفوا!. قلت لك يا "عبد الرافع" لازم يكونـوا في السكة. تلاقي العساكر تعبوهم وهم جايين. دا أنا قعدت ألف من شارع لشارع وكل ما أمشـي فـي شارع آلاقيه مليان عساكر..

- على كل حال حانروح احنا بقى عنـد بـاب درب الجماميز.

فقال "عبد الرافع" بحدة:

- أنت تقف هنا مع سعد وشوقي وأنا حاخد عطـا ا معايا ونقف على باب درب الجماميز ونبعت لكـم اللي واقفين هناك توقفوهم بعيد شـوية عـن بـاب المدرسة.. وكفاية الشـيخ "حمـزة" هنـاك قـايم بالواجب.

وتدخل "عطا ا " قائلا باستعلاء وخطورة:

- أنا ما حدش أخطرني بهذه الترتيبات. أنا لم أعلم بها إلا الآن.. أنا مش فاهم! يعني تقولوا خطتكم للشيخ حمزة بتاع الكتب ويقوم هو بالدور الـوطني وأنـا قاعد في المدرسة ما ليش قيمة ولا كلمة؟ ثم انـي معترض على الخطة دي! يعني إيه الطلبة يتسربوا واحد ورا واحد إلى الجامعة؟ ليه ما نخرجش كلنـا بمظاهرة كاملة؟! ثم اننا لازم نقدر ظروف الناس. افرض طالب ما عندوش فلوس يركب لحد الجامعة لازم نحتشد كلنا ونحتل عربات الترام معا ونـذهب في موكب يليق بناء وأوشك "سعد" أن يتكلم.

لأول مرة يجد في كلام "عطا ا " شيئا يوافقه..

صحيح يجب أن يحتلـوا كلهـم عربـات التـرام إلـى الجامعة...

ولكن "عبد الرافع" اندفع يقول بضيق وهو يشد يد "عطـا ا ":

- يا عطا ا بلاش تضـيع الوقـت فـي مناقشـات فارغة!.. دي مسائل ناقشناها امبارح واتفقنا عليهـا

وانتهينا!.. فيه مدارس رايحة بمظاهرات ومدارس رايحة على طريقتنا. ياللا بس.

وتوقف "عطا ا " وهو يسحب يده مـن "عبـد الرافـع" محتجا:

- ا ا !! ناقشتم واتفقتم وأنا ولا كأني هنا. قول لي ازاي أنا لا أدعى إلى مثل هـذا الاجتمـاع!؟ دي مسألة كرامة؟ أنا لا أقبلها!.. هو انتم فاكرين انـي الشيخ حمزة بتبلغوه القرارات وخلاص وما عليـا إلا التنفيذ؟!. ثم تعال هنا قل لي. اجتمعت مع مـين وفين؟ مع "سعد داود" و "شوقي خليفة"؟؟ والا انـت عاوزني أفهم من كلامك انك اجتمعت فـي اللجنـة التنفيذية العليا؟.. اتكلم. مين انتخبك تمثل الخديويـة في هذه اللجنة وبأي حق تتكلم باسمنا؟؟ أنا لا أقبـل هذه القرارات.. أنـا سـأدخل المدرسـة واحـتكم للطلبة.. انت فاكر نفسك زعيم!! هو علشان يعنـي ما بقيت رئيس جمعية الخطابة في غفلة من الزمان؟ ثم.. أنا كمان لا أعترف برئاستك لجمعية الخطابة. لا بد من استفتاء الطلبة. أمال عاوزين نستفتي الأمة

ازاي!؟. أنت عاوز تعمل دكتاتور يا عبد الرافـع؟
أنا سأقاومك. أنا سأحطمك!

وبهت "عبد الرافع" ووقف حائرا لا يدري ماذا يقول.

وتحركت في نفسه فكرة أن يصـفع "عطـا ا " بـالكف ويركله برجله ويقول له أمام الطلبة كل ما سمعه عنه. كـل ما همس به ضابط المباحث للدكتور "عبد العزيز" ذات يـوم ورده "شوقي"!

ولكن "عبد الرافع" وقف ينظر إليه في صمت ثم تنهد وهو يقول بهدوء وحسم:

- أنت لن تدخل المدرسة! ما حـدش فينـا حيـدخل المدرسة. كلنا حنروح على الجامعة حسب الترتيب الموضوع، إن ما كنـتش مقتنـع أو خـايف فأنـا أنصحك انك تروح بيتك أحسـن لـك.. واسـكت خالص أحسن لك.

وقفز "عطا ا " ولكز "عبد الرافع" في صدره متحديا:

- إيه اللي أحسن لك.. أحسن لك؟! أحسن لي يعني إيـه انت بتهددني؟ ازاي تكلمني أنا بالطريقة دي يا ولد؟

ووجد "عطا ا " نفسه في يد "سعد" وهو يزعق فيه:

- أنت يا واد يا بلية عـايز تتخـانق مـع الأسـتاذ عبد الرافع كمان.. تعرف تقول له يا ولد؟!. هيـه حصلت انك تقـل أدبـك وتسـوق جنانـك علـى عبد الرافع نفسه؟

فاضطرب "عطا ا "، وفوجئ، ولم يحاول أن يلتفت إلـى "سعد" وهو في قبضته، ولم يحاول أن يدافع عن نفسه، وإنما التفت إلى "عبد الرافع" قائلا بأنفه:

- حوش عني الغلام بتاعك ده يا ولد.

فرنت صفعة قوية على وجه "عطا ا " من يد "سعد"، ثـم انهال عليه بالكلمات، وتدخل "شـوكت المغربـي" يخلـص بينهما، وسحب "عبد الرافع" يد عطا ا بقوة وجذبـه إليـه و "عطا ا " مصفر يشتم "سعد":

- ولد شوارعي! هوه فاكرني بتاع بوكس؟ طيب أنـا رايح أربيه!..

ومشى "عبد الرافع" بـ "عطا ا " قائلا:

- يعني لازم تعطلنا وتشوه كل حاجة؟ سعد ده أرجل منك.

وعندما كان يبتعد بعطا ا صاح "شوقي":

- ما تسيبه يا عبد الرافع لسعد خليه يؤدبه.. تحب تعرف انت إيه يا سي عطا الله وبتعمل كده ليه وعايز تفسد ترتيبات المؤتمر ليه؟. وحياة النبي لو عملت لنا راجل تاني مرة لاخشعك! ما اللي كانوا معاك في الحبس عارفين كل حاجة يا سي عطا الله.. يا بلية الكلاب!

وحاول عطا الله أن يلتفت ليرد، ولكن "عبد الرافع" كان يسير به ويكاد يجره.

ولم يكد "عبد الرافع" يمضي بـ "عطا الله" حتى قال "شوكت المغربي" لـ "سعد":

- هو ده يوم خناق؟.. انتم ما لكوش حق أبدا.

وانقض "شوقي" على "شوكت" بحنق مفاجئ فأمسك بخناقه، وهزه قليلا ثم تركه قائلا:

- اسمع يا ولد يا شوكت انت كمان! ما تعملشي حفلوط علينا!. انجر على باب درب الجماميز والا أمشي روح على بيتك!

واستنجد "شوكت" بـ "سعد" قائلا:

- شايف يا "سعد"؟! كده يعني نـدور الضـرب فـي بعض؟

فاحتد "شوقي":

- مالكش دعوة بسعد! أنا اللي باكلمك. ابعد خـالص عن سعد وسكة سعد واللي يمت لسعد!. فاهم؟ يعني والا لأ. افهمني كويس قوي!

واعترض أحد الطلبة الواقفين:

- ا ؟!. ما توفروا قوتكم للعساكر. التلامذة بتفلت منا وتدخل المدرسة واحنا مش واخدين بالنا...

- ورد "سعد":

- لا. دول الصـغيرين بـس. أنـا واخـد بـالي. ما تخافوش.

وبدأت الشمس تخترق جنبات الصباح، وفتيات "مدرسـة سان فانسان دي بول" يقبلن من بعيد، ويدخلن بسـرعة إلـى مدرستهن، وتنبه "سعد" متسائلا:

- ا !؟ هيه الساعة كام؟

وأجابه "شوكت":

-     سبعة ونص.. يعني الوقت خلاص. فاضل ربع ساعة على ضرب الجرس.. معظم التلامذة بييجو دلوقت.

وأخذوا ينشطون في استقبال كل طالب كبير يجيء. ويهمس له أحدهم فينصرف الطالب.

وجاء تلميذ متأنق شاحب الوجه فقال "شوكت" ضاحكا:

-     الشاعر جه أهه.. أهلا بالشعرور!

وضحك "سعد"، فقال "شوقي" بغيظ:

-     بلاش تتمسخر على اللي أحسن منك يا سي شوكت!.. احنا مش واقفين هنا تتريق على خلق ا !

وسكت "شوكت" ممتعضا..

وأقبل الشيخ "علي" مدرس اللغة العربية فاستقبله "شوكت المغربي" وهمس له، فتقدم الشيخ "علي" إلى باب المدرسة بوقار ونظر إليهم في ابتسامة مشجعة وهو يهمهم:

-     ربنا ينصركم.

وقال "سعد" وهو يتابع قامة الشيخ "علي" المهيبة تختفـي داخل فناء المدرسة:

- يا بخت اللي واقفين علـى بـاب درب الجمـاميز. تلاقيهم بيدردشوا دلوقت مع "ميخائيل أفندي"!..

ودق جرس الدخول بالمدرسة الخديوية، وليس فيها غيـر التلاميذ الصغار، وتحرك "شوقي" يمشي إلى جـوار "سـعد" وعيناه على "شوكت عبد الرحيم المغربي" وهو يتقدمهم مـع طلبة آخرين ليركبوا جميعا إلى الجامعة. وفي الطريق مروا بمدرسة بنبا قادن الثانوية فوجدوا الطلبة مجتمعـين داخـل المدرسة يستمعون إلى طالب يخطب والتفت "شوكت" قائلا:

- دول مش حـايعرفوا يطلعـوا. دلوقـت البـوليس يحاصرهم!

وقبل أن يجيبه أحد ممن معه.. تسـلق "شـوقي" سـور المدرسة وصاح بصوت مرتفع كأنه يخطب:

- إلى حرم الجامعة. إلى المؤتمر الوطني في الجامعة فورا قبل أن يحاصرنا البوليس. لنذهب متفرقين.

وانفتح باب المدرسة تحت ضـغط الطلبـة. وذاب فـيهم "شوقي" و "سعد" والآخرون.

واندفعت أمواج زاخرة منهم إلى شارع محمد علي تهتف "الحرية.. الحرية".. فتوقف الترام وردد السائق هتافهم.

وبدأ البوليس يزحف من جهات متفرقة ليحمي بيت " نسيم باشا".. بينما كانت عربات الترام تندفع بلا توقف في الطريق إلى الجامعة تدوي منهـا الهتافـات بالحريـة والاسـتقلال والدستور.

(١٩)

خرج "شكري عبد العال" من القهوة مصدع الرأس.

لم تكن الكئوس الثلاث من البراندي الرخيص هي التـي قلبت دماغه، ولكن كلام "أدهم بك" باشكاتب دائرة البـرنس عزيز الذي ظل ساعتين كاملتين يشـرب البرانـدي ويفتـل شاربه القصير المصبوغ ويحكي عن النساء.. لا توجد امرأة على ذلك يمكن أن يطمئن إليها الإنسان!.. مصيبة!.. كانـت ليلة سوداء حقا ليلة قابله عند "شويكار هـانم" فـي منزلهـا الأنيق بالحلمية الجديدة، فمن هناك نشأت صداقة سريعة بينه وبين هذا الباشكاتب.

وتعودا بعد ذلك أن يتقابلا في بار قهوة "ماتاتيا" في العتبة الخضراء. وهناك رفض "شكري" أن يشـرب الخمـر لأول مرة في مكان عام، ثم شرب كأسه الأولى وهو يغالب نفسه، ثم أخذ يتردد في أن يطلب بنفسه كأس الخمر. وبعد ذلك بـدأ يشرب بسهولة كأسا وكأسين وثلاثة، ويسمع حكايات طويلـة

عن النساء وعن مغامرات الرجل البـدين الملمـع النظيـف الثوب ذي الياقة المنشاة التي يتدلى عليها ذقن كبير.

ظل هذا الرجل يحدثه عن فضائح النساء ببسـاطة، ودون أن يختلج منه شيء كما لو كان يتحدث عن الجو!

ولم يكن "شكري" في حاجة لأن يسمع منـه شـيئا عـن "شويكار هانم" فهو بتجربته الخاصة يعرف أنها تلقـي فـي روع أي رجل أن الطريق إليها مفتوح، فما يكاد يتقدم حتـى تصدمه بشكل ما! قبل يدها مرة فمالت إلى الـوراء بـدلال ملحوظ، وحين أمسك بذقنها مداعبا، أدرك من التماعة عينيها وغمزاتها أن الطريق إليها مفتوح، ولكنه لم يستطيع أن ينالها أبدا!.. إنها من هذا النوع من النساء الذي يلهب فـي البـدن نارا لا تنطفئ، ولكنه يعرف أيضا متى وأين يقف! إن لـديها كفايتها من العجائز، وهي تبحث عن شاب جميـل، كانـت توشك أن تلتهم "عبد العزيز" ولو أنه أمرها لجرت إليه، غير أنه المغفل صرف هواه إلى المريضة المسـكينة.. "رجـاء صدقي". وعلى أية حال فلا يمكن أن تكون لشويكار مغامرة مع أدهم!.

وعلى الرغم من أن "شكري" كان يعرف أن "أدهم" يبـالغ ويتصور أشياء لا أصل لها! وعلى الرغم من أن رأي "أدهم" في النساء لم يثر في "شكري" من قبل غير الابتسـام، علـى الرغم من هذا كله فكلام "أدهم" الليلة جعل "شكري" يعاني في أعماقه شيئا كنبش الأظفار.

كان يشرب كأسه الثانية حين فاجأه الباشكاتب بعد صمت قليل بقوله:

- دانا يا مبارك شفت كتير وجربت كتير.. كل واحدة ولها تمن! كل حاجة ولها طريقها! خد عنـدك أي واحدة من اللي حواليك. أصلك انت يا مبارك لسـه سنانك لبن. خد الولية عديلـة والا البنـت ميمـي والا أي واحدة تعجبك في الشارع بتاعكم. الحكايـة كلها حكاية تكتيك! كده. ا ! أمـال انـت راجـل عسكري ازاي؟! أنا أنا أقول لك، آهو انت عـايش في شارع عزيز وعامل انك انت عـارف وانـت مانتش عارف حاجة أبدا. تعرف الواد عبد اللطيف تلميذ الحقوق اللي ساكن جنب البنت ميمـي؟ أهـم غرقانين لشوشتهم ولا حد منكم هنا!

لم يكد "شكري عبد العال" يسمع هذا حتى أحـس بشـيء يزلزله، أممكن هذا؟ "ميمي" و "عبد اللطيـف"؟ ربمـا كـان لـ "عديلة هانم" علاقات أيضا! و "سعاد" ما حكايتهـا هـي الأخرى؟ مع من الرجال؟!. والبنات أليست لهـن حكايـات. لمن يخفق قلب "سميرة" الوديعة الطيبة، "درية" التي تحكي له منذ يومين عن الإضرابات في مدرستها، وتروي له الأخبار التي تسمعها من "سعد" ابن "عديلة هانم"؟ لماذا تروح البيـت دائما عند بنت "عديلة هانم"؟ كانت بنت "عديلة هـانم" تـأتي إليها لتساعدها في اللغة الفرنسية، ولكن "درية" تعودت فـي الأيام الأخيرة أن تذهب بنفسها إلى هناك لتذاكر الفرنسـية، وهي تعود لتحكي أخبار المظاهرات! كل هـذا.. مـذاكرة؟! أهي لا تدرس في المدرسة السنية شيئا عن اللغة الفرنسـية لتضيع فيها كل هذا الوقت؟!

إن هذا الباشكاتب يعرف عن الآباء المستغفلين أكثر ممـا يعرفه عن الأزواج المغفلين، ولكنه ينظر دائما بعد كل حكاية ويضيق جفونه المتغضنة علـى عينيـه المنطفئتـين قـائلا بخطورة:

- أقول لك إيه والا إيه يا مبارك؟ غيرشي ربنا أمـر بالستر!

إنه سعيد هذا الباشكاتب: زوج بناته، وهـو يعـيش الآن وحيدا في البيت على حل شعره.. المصبوغ!

غريبة! كيف يتحدث هكذا عن قريباتـه؟! المفـروض أن "شويكار هانم" قريبته. إنها وثيقة القرابة به، ربما كانت بنت خالته أو بنت خاله، ولا أحد يعرف عنها سوءا! وهو نفسـه لا يحكي فضيحة محددة عنها، ولكنه يتكلم عنها كما لو كانت بضاعة في السوق لها ثمن يمكن أن يدفعه الراغبـون! مـن يا ترى هذا الثمن!؟ لا أحد بالطبع، فهي ما تزال في شـارع عزيز!.

لعنة ا على هذا الرجل بكرشه الذي تتدلى عليه السلسلة الذهبية وأفكاره الفظيعة!. كلامه فارغ! كل كلامه فارغ..!!

من قال له إن "ميمي" عشيقة لعبد اللطيف؟!

آه!! ولكن "أدهم" هذا معذور! إنه يشـتهي "ميمـي" منـذ زمن، وهو ينظر إليها حين يقابلها فـي أي مكـان – فـي اضطراب وتوسل – كالكلاب الجائع الشريد يلهث تحت أقدام مائدة عامرة!

هذه هي الحكاية إذن!! ومنذ وصل إلـى "أمـين أفنـدي" خطاب الإنذار بنزع ملكية البيت وأدهم هـذا يحـوم حـول البيت!

***

وأمس الأول ذهب "أدهم" الباشكاتب بنفسه إلـى البيـت، واستقبله الحمار "أمين أفندي" بترحاب كبير، وبدأ الباشكاتب يتكلم كأنه المخاص المنقذ، فعرض على "أمين" أن يبيع البيت لصاحبة بار "ألفي" وهي زوجة لجارسون بقهـوة "ماتانيـا" ويأخذ عليها ورقة ضده، لأنهـا فرنسـية الجنسـية تتمتـع بالامتيازات الأجنبية.. وهكذا ينجو البيت من نزع ملكيتـه، فالمحاكم المختلطة هي التي ستختص بالموضوع، ولن تجرؤ الدائرة على اتخاذ أي إجراء فيه عدوان علـى ملكيـة هـذه الفرنسية!!.. وزاط "أمين" وهاص وجري إلى امرأته "ميمي" يهنئها بالخلاص، وطالبها بأن تأتي إلـى حجـرة الصـالون لتشكر سعادة الباشكاتب "أدهم بك" ولكن "ميمي" التي أحست دائما بلفح النظرات الوقحة من عيني الباشكاتب، والتـي لـم يفارقها أبدا شعورها كلما تقابلا بأنه يفحص لحمها نفسه بعد أن يجردها بعينيه من ملابسها. ولكن "ميمي" ثارت فجأة في

وجه زوجها، وتساءلت مستريبة عن هذه المـرأة الأجنبيـة، التي يعرض الباشكاتب "أدهم بيه" خدماتها، وعن سر تطوعه لإنقاذ البيت وهو الذي وقع بنفسه الإنذار بنزع الملكية!! ثـم اتهمت زوجها بالخيبة، وتركته يعـود إلـى ضـيفه، بينمـا أسرعت هي تقرع باب جارها الدكتور "عبد العزيز" وحـين فتح لها أخوه "عبد اللطيف" حكت له مـا حصـل بسـرعة ورجته أن يحضر ليفتي في الأمر.. ولم تدخل إلى الباشكاتب إلا مع "عبد اللطيف".. ودار الحديث قصيرا خاطفـا، هـاج بعده الباشكاتب في وجه "عبد اللطيف"، فهو صـغير السـن لا يعرف.. وحاول أن يهينه، ونصحه بأن يهتم بالدراسة بدلا من التدخل فيما لا يعنيه.. فرد عليه "عبد اللطيـف" متحـديا وأعلن أن "أمين" يرفض هذا الأسلوب، و "ميمي" ترفض أن تتعامل مع سيدة أجنبية تقوم بأعمال مشوهة وتشرف علـى بار سيئ السمعة في شارع "ألفي"، وأنه لا توجد قـوة فـي الأرض تستطيع أن تنتزع البيت من مالكه!!. ووقفت "ميمي" متحمسة بإعجاب تؤيد كلام "عبد اللطيف"، و "أمين" صامت، فانسحب الباشكاتب وهو يلعن الجميع في سره!!

هذه حكاية زيارة الباشكاتب لبيت "أمين أفندي"! سـمعها "شكري" ثلاث مرات من "عبده" ليلة الأمس، وسـمعها مـن "عبد المعبود" ظهر اليوم، ثم سمع ابنتـه "سـميرة" ترويهـا لـ "درية"، قبل أن يخرج من بيته بعد العصر!

الشيء الذي لم يتبينه الجميع فيما حدث هو أن الباشكاتب كان يريد أن يستخدم المرأة الأجنبية لتسحب له "ميمي"، وهي امرأة حاذقة في هذا اللون من الأعمال، تجر النسـاء بادئـة بحل المشاكل المالية. قرض بربا ثم التنازل عـن الفائـدة، أو تهريب ملكية منزل أو أرض للخلاص من الحجز أو من أية إجراءات قانونية أخرى، محتمية بامتيازاتها الأجنبيـة!.. ولها مع "أدهم بك" معاملات سابقا!!.

"شكري" يعرف هذا الصنف من النساء، ويعرف أسـواق الرقيق المرتبطة بكل الأعمال غير المشروعة.. وهو يعرف هذه الحياة الرهيبة التي تحياها الشوارع الأمامية الكبرى في قلب القاهرة أكثر مما يعرفها الباشكاتب ذو الشعر المصبوغ الملمع.. ولكن الباشكاتب يتصور نفسه خبيـرا بكـل شـيء لمجرد أنه يعرف سر المرأة التي رقصت عارية أمام "الملك فؤاد"، ولأنه استطاع أن يجد طريقه إلى بعض نساء من هذا

الصنف ولأن "شويكار" تغرس عينيها فـي عينيـه وتنفـث الدخان الأزرق في وجهه!!

لعنة ا عليه هذا الباشـكاتب "أدهـم".. إنـه لا يعـرف "ميمي"! وهو لـن ينالهـا، ولـن يفيـده أن يتهمهـا مـع "عبد اللطيف"!.. أيعرف هو أي نوع من النساء هـذا الـذي يتكلم عنه؟! أيمكن أن يفهم هذا الباشكاتب أية اهتمامات تشغل "عبد اللطيـف" الآن وتمتلكـه؟! إن "أدهـم" يتحـدث عـن المظاهرات بلا اهتمام وبخفة مذهلة تماما كما يتحـدث عـن النساء!!. وهو يرى كل شيء لعب أطفال وبـاطلا.. وهـو لا يمكن أن يفهم كيف تلتهب أعصاب الطلبة كلما اقترب يوم ١٣ نوفمبر من كل عام، وبدءوا يستعدون للاحتفـال بعيـد الجهاد الوطني!.. منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٩ عندما ذهـب سعد وصحبه إلى دار المعتمد البريطاني إلى أيامنا هذه مـن سنة ١٩٣٥، والطلبة يحتفلون بعيد الجهاد الوطني، ويقبلـون عليه بتضحية وجسارة واستعداد لبذل الدم، ولكـن أدهـم لا يمكن أن يفهم هذا! مات ابنك يا "شـكري" فـي مثـل هـذه المظاهرات منذ عشرة أعوام.

***

ووجد "شكري" نفسه يدخل شارع عزيز في صمت الليل.. وشعاع خافت يمد لسانه الشاحب من دكان بعيد في الشـارع الرئيسي.. وتوقف على الشعاع ينظر فـي سـاعته.. إنهـا العاشرة والنصف.

ثم تابع سيره وامتلأت خياشيمه من الرائحة المألوفة التي تعطي شارع عزيز طابعه الخاص. وأحس بالراحة تملأ نفسه وحمد ا ، لأنه الليلة لم يذهب إلى "شويكار هانم" كما تعـود في الليالي الأخيرة..!

ووثبت من أعماقه فكرة زادت رضاه عن نفسه، إنه حتى لم يحاول أن يمر بالحلمية الجديدة، ولم يناقش نفسه، وإنمـا ترك الباشكاتب يذهب وحده، وخـاض هـو زحـام العتبـة الخضراء دون أن يشعر بما حوله، فلم يلتفت إلى واحد مـن الأولاد البيض الذين تحرشوا به، ونسي اشمئزازه المعهـود منهم، لم تلتقط أذنه همسة الرجل ذي الأسنان الذهبية الـذي يعرض بضاعته من الصغيرات سن ستة عشر!

... ولم تعلق عينه وهو يمضي في طول شـارع محمـد علي بردف امرأة، ولم تتق نفسه إلى سهرة عند إحدى العوالم

كما كان يحدث في ليال سابقة، بل تابع السير في صمت وهو لا يكاد يشعر بشيء مما حوله!

ومسح شاربه باطمئنان وهو يقرع أرض الشارع بثبـات، ولاح النور متقطعا من شيش شباك في بيـت "داود أفنـدي" فنظر إليه وهز رأسه ولعن "أدهم بك"، وأحس بإشفاق غريب يغمره بالحنان الحزين، وهو يتأمل في الظلمات خيالات مـن وجه "داود أفندي" الطيب، ومن "عديلة هانم" وهي تبكي خوفا على ابنها "سعد" الذي ما زال مصمما على الرغم مـن كـل شيء أن يخرج كل صباح ليشترك في المظـاهرات ويعـود مبحوح الصوت!!. ورن في أذنه صدى قـديم مـن عويـل امرأته.. وتخايلت أمامه نظرات زوجته الجزعة الهالعة حين سقط ابنه في مظاهرات سنة ١٩٢٥.

وأوشك أن يختنق بالدموع!..

وتقدم في الصمت المظلم إلى باب بيتـه، ولكـن رائحـة الخمر التي شربها ملأت أنفه فجأة، وأحس بالخجل يدهمه أن يدخل إلى بيته وهو مخمور! لا أحد يمكـن أن يلقـاه فـي الشارع ويغفر له رائحة الخمر غير "عبد العزيز"!!.

ومال إلى بيت "عبد العزيز" ... لم ير شعاعا. أغلقت شبابيك "عبد الحي" على الظلمة منذ هجر البيت ليختبئ بعيدا عن عين البوليس قبل يوم ١٣ نوفمبر، وشقة "أمين" مظلمة.. هو نائم بلا ريب، ولا أحد في شقة "عبد العزيز"، لا ضوء ولا حس. لا شيء في البيت كله غير همهمة خافتة في شقة الممثلة "رجاء صدقي"، وضوء خافت في حجرة داخلية..

وتقدم "شكري" قليلا، ولكنه تراجع، ربما كان "عبد العزيز" يهمس لـ "رجاء" بكلمات حب. ولا يصح أن يطرق هو باب "رجاء" على أية حال!!.

واستدار يعبر الشارع إلى بيته ولكنه فوجئ بباب شقة "رجاء" يفتح ويغلق بحرص كبير، وتسلل إلى الشارع شبحان تبين منهما امرأة فارعة مكسمة البدن تمسك بيدها حقيبة وإلى جوارها رجل طويل.

من؟ من؟ مصيبة!! الباشكاتب له حق! انها "ميمي" مع "عبد اللطيف"!؟. "ميمي" معها حقيبة!؟. أصحيح إذن أن لكل امرأة ثمنها، وهذه البنت كما قال الباشكاتب لي يوما مثل أختها المتزوجة في المنصورة تحب المحامين ووكلاء النيابة، فإن لم تجد فتلاميذ الحقوق!! وها هي تتعلق بشاب أصغر

منها ما زال تلميذا في كلية الحقوق وتهرب بـه فـي الليـل والزوج المسكين المغفل نائم!

وتقدم "شكري" مندفعا إليهما في الظلام المطبق السـاكن، واضطربت خطوات "ميمي" وهي تسرع لتخرج من الشارع وإلى جوارها "عبد اللطيف".

وهمس لها "عبد اللطيف" فانطلقت بالحقيبة الكبيـرة ثـم توقف هو ليواجه في الظلمة هذا الرجل الـذي يطاردهمـا.. وواجهه فعلا متحديا بكل القوة التي يمنحها اليأس:

- عاوز إيه يا أفندي انت؟

ورد عليه "شكري":

- ا !!.

وضحك "عبد اللطيف" وتوقفت "ميمي" تهمس مطمئنة:

- عم شكري بيه.. الحمد ا !!

وبوغت "شكري" من الطمأنينة التـي غمرتهمـا عنـدما عرفاه.. ووقف صامتا، مفتوح الفم!.

وبادره عبد اللطيف قائلا وهو يتنهد بارتياح:

- احنا افتكرناك مخبر مستخبي في الشارع وطلع لنـا فجأة! خفنا صحيح كنا رحنا في داهيـة!. أنـا قلـت استبيع معاه وخلاص! يا قاتل يا مقتول!

وقبل أن يفرغ "شكري" من دهشته قالت له "ميمي":

- والنبي يا عمي شكري بيك تطلع انت كده على ناصية الشارع تشوف لنا السكة نضيفه والا فيـه حـد فـي الشارع البراني.. والنبي من غير تكليـف.. دا انـت جيت لنا نجدة من السما.

وبدأ "شكري" يفهم.

ولكنه لم يستطع أن يفسر لنفسه لماذا تهتم "ميمي" بـالأمر إلى هذا الحد..

وسأل بخطورة:

- دي منشورات؟

فأجاب "عبد اللطيف" بتردد:

- ده أكل لعبد العزيز وزملائه، كتـر خيرهـا ميمـي طبخته بنفسها في بيت رجاء.. فيه عشرة طلبة بايتين في الكلية يحرسوا جثث الشهداء والبـوليس فـاكرهم

ألف!.. الحكومة عاوزة تسلم جثث الشـهداء لأهلهـم يدفنوهم من غير احتفال!!. لكن ده مستحيل.. مستحيل تماما..

طلبة الطب سرقوا الجثث وأخفوهـا وبكـره الاحتفـال يا شكري بيه. مصر كلها بكره حتمشـي وراء الشـهداء.. مصر كلها.

وكان "عبد اللطيف" يتكلم بطريقة لم يألفها "شكري" مـن قبل، ووجه "ميمي" يتخذ هيئة صارمة متحدية مليئة بالكبرياء والرغبة في اقتحام الخطر..

إنه لم ير "ميمي" هكذا من قبل حتى عنـدما رفضـت أن تسلم مفتاح شقة "عبد الحي" لضابط المباحث منذ أسابيع!

وأحس "شكري" بخجل يطحنه.. وزعقت رائحة الخمر في خياشيمه. ولم يستطع أن يقول كلمة!

حتى "ميمي" منشغلة بالأمر، بينمـا هـو قاعـد يشـرب البراندي ويسمع مغامرات الباشكاتب!!.

حتى "ميمي" على الرغم مـن جسـدها الفـائر المكسـم ونهودها الثائرة تحت المعطف الثقيل!!

ومرت لحظة غريبة غامضة شعر خلالها أنه يكره نفسه!.

وود لو شتم "ميمي" لأنها تخرج في هذه الساعة من الليل مع رجل غريب ومعها حقيبة سفر!..

ما معنى كل هذا؟! أيعرف "أمـين" أن امرأتـه تختـرق الظلمات إلى جوار شاب غريب!؟ أيعرف ما يقـول عنهمـا الباشـكاتب؟.. لمـاذا تهـتم هـي بـأن تحمـل طعامـا لـ "عبد العزيز" ولزملائه من كلية الطب؟! ثم ما هذا الـذي يقول "عبد اللطيف" عن الشهداء؟.. الشـهداء؟. الشـهداء؟! أسقط شهداء في هذه المظاهرات، أمات الطلبة الذين جرحوا أول أمس في ذكرى ١٣ نوفمبر وهو لا يدري؟!.

ماذا يحدث في الدنيا الآن وهو موزع النفسي بين ليـالي "شويكار هانم" وأحلامه بالسكينة في بيـت تعمـره السـت "سعاد"؟

أيكون "عبد الحي" هو الآخر بين الجرحى أو الشهداء؟.

وسأله فجأة:

- وازي أخبار الأستاذ عبد الحي؟

فأجابه "عبد اللطيف" مسرعا وهو ينقل قدمه ليخطو:

- كويس. بخير. الأستاذ عبد الحي لم يقبض عليه ولـم يصب في مظاهرة ١٣ نوفمبر.. بس وا من غيـر

تكليف يا سي شكري بيه تطلع تشوف السكة فاضـية والا فيه مخبرين بره الشارع.. الأكـل لازم يوصـل أحسن دول طول النهار ما كلوش، والمنشـورات دي لازم تتوزع الليلة وإلا باظت كل الترتيبات.

وقاوم "شكري" الغضاضة والخجل واندفع إلـى خـارج الشارع يضرب في سواد الليل وحده وهو يقـرض أسـنانه، وأنفاسه تتلاحق وفي أعماقه هاوية بأسـرها تغـوص فيهـا الأفكار. امرأة فيها فتنة ألف غانية وشاب ملـيء بـالفتوة، يواجهان وحدهما الخطر والليل والموت والفاجعة! والنتيجة؟! ولكن! لا لا!!.

وغاب قليلا ثم عاد بعربة حنطور ووقـف علـى بـاب الشارع، وقفز هو متجها إلى "ميمي" فأخذ منها الحقيبة قـائلا بصرامة:

- روحي انتي لجوزك وأولادك يا بنتي ...

ولكن "عبد اللطيف" همس معترضا:

- لا لا يا شكري بيه. الترتيب كده لازم واحده ست هي اللي تخش بالشـنطة، لأن الحصـار هنـاك قـوي ولا يمكن السماح لأي راجل بالدخول. المفروض انها

قريبة واحدة من الحكيمات المقيمات في المستشـفي..
لا لا يا شكري بيه. ميمي هي اللـي ممكـن تـدخل الأكل.

فصمت "شكري" قليلا ثم قال كالشارد:

- طيب روح انت يا بني أنا هاروح معاها.

ولكن "عبد اللطيف" تابع همسه مبتسما:

- لا يا عـم شـكري بيـه.. لازم أنـا أروح علشـان المنشـورات متشـكرين.. احنـا عـارفين همتـك ووطنيتك..

وانطلقت العربة بهما، و "شكري" يعود إلى بيته متثاقلا.. وأدار المفتاح في الباب ببطء ودخل، إلى حجرته وهو يحيي ابنتيه برأسه، وارتمى في الفراش بملابسه..

وكان صوت "درية" يصل إليه وهي تحكي لأختها بانفعال كل ما سمعته الليلة من "سعد" حين كانت تذاكر مع أخته.

المظاهرات التي لم تهدأ اليوم. بعـض رجـال البـوليس لا يطيق أن يضـرب الطلبـة بالعصـي فيضـرب الأرض ويصرخ.. صوت في المدرسة الخديوية ارتفع من تلميذ اسمه "عطا ا " يطالب بـأن تقتصـر الهتافـات علـى المنـاداة

بالدستور.. وتلميذ آخر اسمه "شـوكت المغربـي" يتحـرش بـ "عطا ا " ويطالب بأن تكون الهتافات بالاستقلال وحده.. والطلبة ينقسمون حول هذا، ويرفض بعضهم أن يجمع فـي الهتافات بين الدستور والاستقلال.. وبعضـهم يقـول بـأن الدستور خديعة، وآخرون يقولون إن الاستقلال دسيسة، ثـم ترتفع أصوات تهتف بوحدة الطلبة والجبهة الوطنية من أجل الدستور والاستقلال.. ويندفع "سعد داود" و "شـوقي خليفـة" وطالب اسمه "عبد الرافع" يقنعـون الطلبـة بـأن الدسيسـة والخديعة هي هذه الخلافات التي يبذرها بين الطلبة عمـلاء محترفون.. وفي مدرسة السنية أيضـا تهتـف مظـاهرات بالجبهة الوطنية والدستور والاستقلال وتتعرض لها مدرسـة إنجليزية متأنقة فتقذفها تلميذة بالحبر على فستانها.!

وتقلب "شكري" وهو يسمع لابنته تتحدث عن أشياء غريبة عنها تماما. وتذكر أسماء غرباء عنها بلا حرج!

وأحس بأنه يواجه فجأة عالما جديدا لا يعرفه.. ولكنه عالم يتبين ملامحه بصعوبة بعد طول اغتراب!. هيه.. أكنت فـي رحلة إلى عالم آخر يا شـكري؟!.. نعـم أول أمـس كـان الاحتفال السنوي بذكرى ١٣ نوفمبر، وقامت مظاهرة الطلبة

كالمعتاد، ولكن أعنف من أي عام مضي. وأنت لا تشـعر.!
وابنك مع ذلك مات في مثل هذه المظاهرات!

ودعك عينيه وقام يخلع بذلته في بـطء شـيد، ومـا زال حديث ابنته "درية" يرن في أذنيه آتيا من حجرتها. مـا كـل هذا؟ ماذا يجري في عالمه هو الضيق!. حديث ابنته بكل هذه الحرارة.. وهذا الأكل الذي أعدته "ميمي" بنفسها فـي بيـت "رجاء" ومضت فحملته إلى طلبة كلية الطب الذين قرروا أن يحرسوا جثث الشهداء ويشيعوها باحتفال كبير؟!

الحياة تمضي بدونك يا شكري أعنف مما كانت تمضي!.

والأرض لن تتوقف عن الدوران في انتظار رأيك بالطبع!

وأطفأ "شكري" النور وهو يشعر بشيء كالغصـة تمـلأ حلقه، وظل سمعه يسري في الصمت إلى حجرة ابنته فالتقط صوت "سميرة" تقول لأختها "درية" في صوت منخفض:

- بقى مانتش عارفة؟! هو أنا لسه صغيرة؟ بابا متغيـر من يوم حكاية مقصوفة الرقبة سعاد هانم. مـن يـوم ماجه يقول لي انه عايز يجوزهـا، واتخـانق معايـا علشان ما ريحتوش.. وبابا ما بقاش بابا.

واهتز "شكري" في فراشه كأن شيئا قاسيا يضـغط علـى صدره وبطحنه! الأولاد يشعرون ويفكرون إلى المدى الـذي لا نتخيله نحن الآباء!. كل شيء يتغير وهو لا يدري..!

وسمع صوت "درية خافتا"

- طيب ما يتجوزها. وايه يعني؟ هو احنا نفهم اكتر من بابا؟.

ورفت على وجهه نسمة رطبة، وشعر بنفسه ترتاح، وتتنهـد، وابتسم. وعاد يسمع همهمة لم يتبينها، ثم ارتفع صوت "درية":

- اسمعي يا "سميرة" اسمعي الجواب اللي بعته واحد من الشهداء للإنجليز كده.

ثم شاع في صوت "درية" رنة كالنحيـب وهـي تقـرأ، وشكري ينصت من حجرته بأعصاب مرهفة:

"خطاب مفتوح إلى رئيس وزراء انجلترا.. روح الشـر: أطلق على واحد من بني جلدتك النار.. وهاأنذا أزحف نحـو الموت، ولكني سعيد جدا لأن أبذل روحي وأضحي بدمي في سبيل مصر... الموت شيء تافه... وآلام الموت عذبة مـن أجل مصرنا.. تحيا مصر.. مصر فـوق الجميـع.. تحيـا التضحية.. يسقط الاستعمار.. تسقط إنجلترا.. سيعاقبكم ا . تحيا التضحية..

عبد الحكم الجراحي

أحد الشهداء المصريين

واختنق صوت "درية" وهي تقرأ، وارتفع عويـل أختهـا "سميرة"

وقفز "شكري" من على فراشه، وهرول إليهما، وضربات قلبه تتوالى، والدموع تخنقه مختلطة بحرارة تأججت في بدنه فجأة.

ووجد "درية" على مكتبها ورأسـها منكفـئ علـى أحـد المنشورات وهي تنتفض من البكاء، والى جوارها "سـميرة" واقفة تبكي وتحاول مع ذلك أن تسكت "درية"

وأخذ "شكري" ابنته "درية" بين ذراعيه وأنهضها، وربـت على كتفها ونظر إلى "سميرة" بعينيه المغرورقتين، وخانتـه الكلمات. وخرجت "سميرة" منكسة الـرأس فألقـت "دريـة" رأسها على كتف أبيها وظلت تنتحب!..

وعادت "سميرة" بكوب من الماء، فشرب أبوها جرعـة، وشربت "درية" ثم سحبتها أختها فغسلت وجهها.

والتقط "شكري" من فوق مكتبها الورقة التي كانت تقرؤها وأخذ يتأمل فيها صورة شاب في إطار أسود غليظ، ويعيـد قراءة رسالة "عبد الحكم الجراحي". ولـم يبـرح "شـكري"

الحجرة حتى نامت "درية" و "سميرة". ثـم سـحب عليهمـا الغطاء، وقبلهما، وانصرف إلى حجرته..

***

وفي الصباح عندما كان "شكري" يتهيـأ للخـروج وهـو يداعب ابنتيه كما لو كانتا طفلتين، سمع دقات غريبة متلاحقة على باب بيته!

وذهب بنفسه يفتح، فلقـي أمامـه أحـد عسـاكر وزارة الحربية، يحييه ويقدم له ورقة. وصرفه "شكري"، واختلجت عضلات وجهه واستدار يقبل ابنته وخرج والدم يكاد يغيض منه!

مرة أخرى يدعونه إلى مقاومة المظاهرات!!

واندفع في الشارع فوجد أمامه "سعد" و "شوقي"، وحياهما بسرعة. ربما كانوا في وزارة الحربية يدعونه إلى أن يقتـل واحدا من هذين. أو ربما كـانوا يريـدون منـه أن يـذبح "عبد الحي" أو "عبد العزيز" أو "عبد اللطيف"!

المجانين!! ما يحسبون؟!.

مرة أخرى يجب أن يتعـرض للاسـتيداع والمصـائب والمعاش القليل بعد ما بدأت الدنيا تحلو..

ولاحظ على طول الطريق جماعات من الطلبـة تمضـي مسرعة متدافعة أكثر من أي يوم آخر.

وتلقى نظرات العداء والريبة تلقيها الوجوه الغضة علـى بدلته العسكرية، وشعر بالزراير النحاسية والنجـوم والتـاج كأثقال من حديد ساخن فوق جسده.. والعربات تروح وتجيء تنقل العساكر.. والخيل في ميدان السيدة زينب فـي حركـة لا تهدأ ولمح بين جنود البوليس بعض وحدات من الجـيش.. وبدأ يشعر في أغواره كأنما ضلوعه تسقط واحدا بعد الآخر وتبتلعها دوامة بلا قرار!

وتهافتت نفسه، ولكنه ظل يسير مشدود القامة.

واقتحم مكتبه بوزارة الحربية، فلم يجد أحـدا فيـه مـن زملائه. وأخذ يطوف على المكاتب الأخرى، فوجـد بعـض ضباط في مثل رتبته وكلهم يتحدثون عن الأوامـر الجديـدة بمنع الاحتفال بتشييع جنازة الشهداء مهما يكن الثمن!

وطلع ونزل في وزارة الحربية، ودخل مكاتب من لقيـه من الرؤساء، وسمع كثيرا..

وخرج من وزارة الحربية والكلمات التي سمعها ترن في أذنه: "اسكت بقى وخليك تاكل عيش" "دي أوامر السـراي".

"أوامر قصر الدوبارة". "دي أوامر لاظوغلي" الجـيش كلـه نزل الشوارع.. اسفنكس باشا القائد الإنجليزي بنفسه موجود على رأس قوة بتحـرس قصـر عابـدين. أولادك كبـروا يا شكري. اعقل بقى. بلاش طيش زمان. مركز القوة بتاعتك قدام باب القصر العيني. يجب منع المظاهرة بأي ثمن. كفاية المدة اللي اتبهدلتها في المعاش. شوف زملاءك بقوا في إيـه وانت في إيه. حكمدار العاصمة راسل باشـا وكـل ضـباط الجيش الإنجليزي موجودين في الشوارع النهارده!.. اعقـل بقى ونفذ الأوامر. بلاش طيش!!

واتجه "شكري" ومعه بعض ضباط يصغرونه في الرتبـة إلى شارع القصر العيني، وكلما اقتربت بهـم العربـة مـن المكان المخصص للقوة أحس كأنما روحه تنسل مع أنفاسـه المتتابعة.

ووصلت الهتافات إلى أذنيه "نموت وتحيا مصر" "رفعـت العلم يا عبد الحكم". "الدستور والاسـتقلال"، "تحيـا الجبهـة الوطنية".

ودق قلبه بسرعة، وغاض ريقه، وبدأت رأسه تدور!

وتحركت المظاهرة، وخرجت من وراء سور القصر العيني إلى الشارع.

ولاحت له النعوش في الأعلام الخضراء، ملفوفة بالزهر وعليها صور الشباب الذين سقطوا. ومن وراء النعوش يتدافع سيل من الشباب كلهم في عمر الورد، ومن بينهم مئات على أكتاف زملائهم يهتفون. ودمعت عيناه وهو لا يشعر.

ورن في أذنه نحيب امرأته حين قتل ابنه منذ عشرة أعوام، وتخايلت أمامه صورة ابنه ووجهه الباسم حين قبله في ذلك الصباح البعيد، ليعود إليه بعد ذلك شهيدا!..

وتحركت القوة واستعدت. وهمس في أذنه أحد ضباطه الذين يعاونونه أن الأوامر تقضي بإطلاق الرصاص في صدور الذين يهتفون! أحدهم يقبل محمولا على أكتاف زملائه!. أيجب إذن أن يطلق الرصاص عليه ليصبح هو الآخر في غد نعشا يلفه علم الوطن؟!

وتأمل "شكري" في الفراغ، والمظاهرة تتقدم، ولم يجب..

والتفت إلى الجنود وقال لهم: "انتظروا أوامري. أنا شخصيا اللي أصدر الأوامر".

وأخذ يحملق في وجوه الذين يهتفون.

ولاح من بينهم وجـه "عبـد العزيـز" ووجـه "سـعد" و "شوقي".. و "عبد الحي" و "عبد اللطيف" وآلاف الوجـوه المتشابهة!

لا.. لا!. هذا هو وجه ابنه.. دائما وجه ابنه الذي مات في مظاهرة منذ عشرة أعوام، وهذا هو صوته بالضبط!.. ابنـه هو هذا الذي يهتف ويمر من أمامه!.. وابنه أيضا هو هـذا الآخر الذي يقبل ملوحا بيديه، وهو هذا الثالث الذي يحمـل صورة الشهيد!..

وتأمل في صورة الشهيد. هي أيضا صورة ابنه.. العـين الباسمة في ثقة بالحياة.. والوجه الغـض المتفائـل البـديع المطمئن المشرق بالكبرياء!

ولم يعد "شكري عبد العال" يرى من كل ما أمامه شـيئا، ولم يعد يسمع شيئا: وهزه أحد الضباط قائلا بخوف ولهفة:

- يا أفندم احنا سيبنا المظاهر تمر على خلاف الأوامر. إيه خطتـك؟! أنـا مـش فـاهم!. نمشـي وراهـا ونحاصرها؟! إيه تعليماتك يا أفندم.. ده سفنكس باشا قائد الجيش بنفسه هو المشرف النهارده.. سـكرتيره

العسكري واقف هناك على حصانه.. يا أفندم نعمـل إيه؟!.. المظاهرة حاتفلت منا؟!

وأخذ "شكري" منديله فمسح به دموعه.. ووقف الضـابط ينظر إليه مذهولا وهو يرى بدنه يرتعد كأنه يتهشـم ونـداء الطلبة يرج الآفاق.. نموت وتحيا مصـر!! وعنـدما رفـع "شكري" رأسه كان يبتسم من خلال الدموع:

- نموت وتحيا مصر؟!

(٢٠)

كاد "سعد" يسمع دقات قلبه، وهو في الشارع ينتظر مقدم صديقه "شوقي، وأشياء تتزايل في نفسه كأنه ينتظر انفجـار حدث عظيم رهيب!. وصفرة العصر تغيض فـي احمـرار داكن حزين، والأصوات تهدأ في شارع عزيـز، ونسـمات وانية مترعة بالبرد تمسح الوجوه، والبيوت، وتمـلأ شـارع عزيز بالهمسات.

و "شوقي" لم يجئ بعد!.

وأخذ "سعد" يتمشى في الشارع..

ورأى "درية" تقبل من بعيد بقامتهـا الطويلـة الفارغـة، مسرعة الخطوات منحنية قليلا إلى أمام بجـذعها، ومسـحة جليلة من ألم غامض تغمر وجهها الذي يبتسم دائمـا علـى الرغم من كل شيء!.

واهتز إلى أعماق نفسه، وتوقف في مكانه، ولم يعرف إن كان يندفع إليها فيسلم عليها، أم يتظاهر بأنـه لـم يلحظهـا. وخيل إليه من توه أنها تتأمله، فنكس رأسه، وسـيطر عليـه

الخجل مما صنعه معها بخياله ليلة أمس خلف باب مغلـق، بعد أن انصرفت من عند أخته ميرفت!.. كان وقتها يتـذكر بكاءها واهتزاز بدنها بين يدي أخته، وبرزت له فجأة – وهو وحيد – صورة نهديها يرتعشان.. إن نظراته لم تتوقف عنـد نهديها عندما كانت تبكي.. فهو نفسه أوشك أن يبكـي حـين رآها تقرض شفتيها بأسنانها ويتقلص وجهها، ثم تهز رأسها، وتنهار فتعول بصوت مرتفع.. كانوا يتحدثون ساعتها عـن الاحتفال بتشييع ذكرى الشهداء.. وقرءوا مقالا كتبته إحـدى الصحف تصف الاحتفال، وتمجد موقف الضـابط "شـكري عبد العال"، وتحتج لأن الحكومة أحالته مـرة أخـرى إلـى الاستيداع.. إن "درية" لم تكن تبكي لأن أباهـا أحيـل إلـى الاستيداع، فهي كانت تفخر بما حدث، والكلمات التي مدحت بطولة أبيها ملأتها بالزهو، فانفسح صدرها وبدا على وجهها كل ما يمكن أن تثيره الكبرياء في وجه فتاة طيبة.. ولكنهـا التقطت الصحيفة وأعادت قراءة وصـف تشـييع الجنـازة، وأخذت تتأمل الصور، وبعدها شردت فجأة.. ربما تـذكرت أخاها الذي استشهد أيضا منذ عشرة أعـوام، ثـم أجهشـت وظلت تنتحب!.

ولم يكد يخلو إلى نفسه حين نام الجميع في بيتـه، حتـى برزت أمامه صورة "درية" وهي تبكي ونهدها يخفق، وتمنى لو أنه كان احتضنها وهي تبكي، ومسح دموعها بشفتيه، ثـم تخايلت أمامه بعد ذلك صورتها عارية.. عارية تماما ونهداها أيضا عاريان!. وعندما بدأ ينام كان يعاني اشمئزازا رهيبـا من نفسه ومن خيالاته ومن كل ما صنعه!!

وهي الآن أمامه في الشارع.. لو أنها عرفت كيف فكـر فيها ليلة البارحة! لبصقت في وجهه!

ولكن "درية" دخلت بيتها، و "سعد" يقف متخشـبا مـنكس الرأس يلتهب الدم في وجهه وأطـراف أذنيـه، وسـحابات المغرب تزحف إلى السماء!

وحين لمح الشارع خاليا منها بدأ يمشي من جديد، وهـو يحس كأن الهواء يستحيل إلى شيء مصبوب ثقيـل يضـغط على صدره! لم يجئ "شوقي" بعد!. لعلهم لا يجتمعون الليلة!! أو لعلهم قرروا ألا يدعوه هو للاشتراك في هذا الاجتماع!.

لو كان يعرف على الأقل أين يجتمعون، لذهب وحده بدلا من وقفته الممضة ينتظر "شـوقي"، ويـداري خجلـه مـن "درية"!!..

لو كان يستطيع أن يذهب إلى "درية" فيعتذر ويقسم لها إنه لم يفكر فيها من قبل أبدا بهذه الطريقة، وإنـه لـن يفعلهـا، وسيظل على الدوام يحمل لها الإعجاب والاحترام والإكبار، فتنظر هي إليه مبتسمة وتلوح بيدها فـي وجهـه مسـتخفة، وتؤكد له أنها هي أيضا معجبة به!!.. ولكن "درية" لا تعرف إلى أي مدى ذهبت أفكاره.. وما دام هو لم يبادرها بما يمكن أن تنكره، فما الذي يجعلها تغضب منه، وكيف تعـرف أنـه تخيلها عارية في فراشه ذات ليلة؟!

ووجد نفسه يقف في مواجهة بيتها تماما، ونور غرفتهـا يضيء خلف شيش الشباك المغلق، وهو يستند إلـى البـاب الخارجي لبيت "ميمي هانم"، حيث يسكن "شوقي"!..

ومر به "عبده" مسرعا فاستوقفه "سعد" يسأله عن "شوقي"، ولكن "عبده" لم يتوقف، بل أجابه وهو يكاد يجري:

- لسه ماجاش.. لكن اسمع، اوعوا تتحركـوا إلا لمـا ارجع.. أنا باقول لك أهه.. اوعوا تتزحزحوا كده والا كده الا أما آجي سامع؟ آه!

وتابعه "سعد" بنظرة استغراب، وأحس بضيق من لهجـة "عبده" التي تحمل – بشكل غير مهذب – نوعا من التهديد.. وقال لنفسه وعبده يبتعد:

- يا أخي ما تتكلموا كويس!!..

***

ولم يكد ينقل قدمه من جديد في الشارع حتى ارتفعت من ورائه صيحات مختلطة منهكة.. كان واضـحا أن "ميمـي" و "أمين" يستأنفان حديثا انقطع. صـوتهما يقـتحم الجـدران والشبابيك ليصبح مسموعا لكل من يمر في الشارع، وكـان صوت "ميمي" متهدجا متحرجا يبـدو فيـه الضـغط علـى أعصابها أمام إهانات جارحة. ولكن "أمين" كان يخور كالثور يهتاجه إصرار "ميمي" على أن تنهي المناقشة..

ورنت في أذن "سعد" صرخة "أمين":

- انتي كذابة وغشاشة!.. انتي ماكنتيش سـهرانة عنـد رجاء صدقي ولا رجاء زفت! انتي مجرمة. انتي من ليلتين كنتي في عربية حانطور مـع عبـد اللطيـف ودايرين مع بضع في انصاص الليـالي! هـه؟ أنـا عارف كل حاجة! أنا مش مغفل. عامله لـي شـريفة

وشاطرة تطردي لي الباشكاتب اللي جاي يسـاعدني، وتقولي عليه انه بيعاكسك، وانت دايره من ورايه مع مع حتة ولد تلميذ فلاح! أنا حاشرب من دمكـم انـتم الاتنين!

لم يسمع "سعد" من قبل مثل هذه النبـرات الفزعـة فـي صوت إنسان وخيل إليه أن "أمين" يمكن أن يشرب مـن دم "ميمي" و "عبد اللطيف" بالفعل.. "ميمي" و "عبد اللطيـف"؟! لا أحد يمكن أن يتصور أن علاقة تنشأ بينهما؟! إنه سمع من أمه يوما تعريضا بـ "ميمي" وعلاقتها مع "عبد العزيز" ثـم سمع من أمه أيضا اليوم تعريضا جديـدا بعلاقـة "ميمـي" و "عبد اللطيف" فاشمأز من هذا الكلام وأوشك أن يتشـاجر مع أمه. إنه هو يعرف أن هذا الكلام لم يثر إلا منذ استنجدت "ميمي" بجارها "عبد اللطيف" ليناقش الباشكاتب يـوم جـاء يعرض على زوجها أن يرهن البيت لامرأة أجنبية كطريقـة للتهرب من إنذار الدائرة بنزع الملكيـة!. وهـو متأكـد أن الباشكاتب نفسه هو الذي بدأ يطلق هذه الإشاعة عن "ميمـي" و "عبد اللطيف".. هذا الباشكاتب قريب أمه، الـذي يحـس "سعد" كلما رآه في بيته كأن يدا شائهة ملوثة الأظفار تـنهش

رقبته!!.. إنه لا يحب تأنقه ولا شعره المصبوغ ولا نظراتـه ولا الطريقة التي يتعامل بها مع أمه!!.. وهو يعجب دائمـا لماذا لا يطرده أبوه؟!

و "سعد" يعرف أيضا أن "ميمي" ذهبت مع "عبد اللطيف" إلى مستشفى قصر العيني حيث كان يعتصم بعـض طلبـة السنة النهائية بكلية الطب لحراسة جثث الشهداء، وحملت لهم الطعام والمنشورات.. ولكنه لم يفكر من قبل كيف حدث هذا. في أية ساعة من الليل أو النهار؟. ذهبت في منتصف الليـل حقا في عربة مع "عبد اللطيـف" ولكـن مـاذا يهـم؟! إن "عبد اللطيف" بوجهه الوديع وهدوئه ونظراته النبيلة يملك في أعماقه طهارة ملاك.. "عبد اللطيف" لا يصنع هذا أبـدا! إن "عبد اللطيف" يجعل الإنسان يتمنى لو أنه كان أخاه!. ولكن.. في الليل عندما تكون امرأة مثل "ميمي" وحدها ببدنها الساخن الذي ينفض اللهب، ونهديها البارزين ولحمها الأبيض الشهي، وفمها المليء؟!. أن الإنسان لا يكاد يتخيلها إلا عارية.. ألـم تلتصق بـ "عبد اللطيف" والعربة تميل؟.. لا يمكن أن تريح رأسها على كتفه فتنفذ أنفاسها إلى أعماقه حتى تشعل نخاعه؟ أيمكن أن يصنع "عبد اللطيف" شيئا كهذا.. ومع امـرأة مـن

جيرانه يعرف زوجها ويقابله ويضحك معه، وفـي سـاعات تعصر القلب، أمام أحداث الشهداء؟! ولكن "شوقي" حكى لـه أنه سمع "عبد اللطيف" يقول لـ "عبد العزيز" إنه أمسك بيـد "ميمي" مرة وغلبته لحظة وجد مباغته فوجدها ترتعش بكـل بدنها كالقطة الصغيرة الشـريدة فـي المطـر، وأوشـك أن يحتضنها فوجد شفتيها تختلجان، وهمست والدموع في وجهها المروع: حرام يا عبد اللطيف.. حرام نعمل كده في أمين، ثم تخاذلت أمامه متهالكة، فابتعد هو عنها والخجل يكاد يخنقـه، وقبل يدها الباردة معتذرا ولقيها بعد ذلك فأحس بعجزه عـن أن ينظر في عينيها وكأن شيئا يقف بينهما!

"سعد" يذكر أنه سمع هذا الحديث مرة من "شوقي".. ولكنه لم يعبأ به، وكل ما أثاره في نفسه هذا الحديث هو مزيد مـن الإعجاب بـ "عبد اللطيف" ولكن متى حدث هذا؟! أكان هذا في بيت "ميمي" قبل أن يذهبا إلى القصـر العينـي، أم فـي العربة بعد منتصف الليل؟ أم قبل ذلك بزمن؟.. متى يجـيء "شوقي"؟!

وسمع "سعد" في الشارع صوت زجاج الشـبابيك يغلـق بعنف، وتناهي إليه صوت "ميمي" كنهنهة البكاء:

- كده يا أمين؟ إذا كنت عاوز تطلقني انت حـر. أنـا والعيال لنا رب يرزقنا. لكن ورحمة بابا أنا عمـري ما غشيتك يا أمين، وعبد اللطيف ده اللي بتقول عليه، هو أشرف واحد دخل بيتنا. وعمر ما حصـل بينـي وبينه حاجة تسيئك. أنا حاقول لك كل حاجة يا أمين! اخص عليك. كده بعد العشرة دي كلها؟!.

واختنق صوتها، ولم يعد "سعد" يسمع غير نشـيج فـاجع زلزله، وشعر كأن دموعه هو نفسه، تنفجر من أغوار بعيدة، وأشعة الأصيل الحمراء تختفي في ظلال المغرب.

كان يتوقع أن تثور "ميمي" وتقذف زوجها بـأي شـيء، ولكن نحيبها ظل يرن بأنين يائس جريح..

***

وفجأة شعر "سعد" بيد "شوقي" تمسكه بلهفة وتشده:

- تعال تعال! والا استنى هنا. أنا جاي لك حالا.

ودخل "شوقي" الى بيته بحقيبة كتب يحملها بحرص، ومن ورائه "عبده"، وهمس "شوقي" من وراء باب البيت فـي اذن "عبده" ثم ترك له الحقيبة، وعاد إلى الشارع مسرعا فأمسـك

بيد "سعد" واندفع به، و "عبده" من ورائها ويداه على الحقيبة في انبساط وفخر، وهو يزعق في خفة:

- مع السلامة. كل سنة وانتو طيبين! يـاللا يـا أهـل الشارع ع الرؤية.. يا للا نشوف هلال رمضان!

ثم رفع "عبده" رأسه إلى شقة "أمين" وأذنه تلتقط صـدى بكاء "ميمي":

- دهدي؟ يا أهل ا ! الليلة مفترجة عند المتجوزين ... لا واحد يتخانق مع مراته.. ولا واحده تتخـانق مـع راجلها... يا سامعين.. هو.. د... ه!

وعاد إليه "شوقي" متضايقا فخبطه في صدره قائلا:

- اسمع يا أخي.. احنا في إيه والا إيه.. انت رايح فين بالشنطة؟ فضيها زي ما قلت لك.. أوعى تروح بيها.. وحاسب.

فهمس "عبده" بثقة:

- ا .. اعتمد.. كله حا يكون هنا في عبي.. والربطـة اللي كانت عند الست ميمي ورجاء ما وصلت كمان. وفيه سيد مين يوزعهـا.. دي زفـة الرؤيـة الليلـة حاتشغي بالمناشير.. اعتمد!.

ووضع "شوقي" يده في ذراع "سعد" وانطلق به مسـرعا واتجه إلى درب الجماميز.. وأدرك "سعد" أنهما يسيران فـي اتجاه المدرسة، فتوقف يتساءل، ولكن شوقي جذبـه ومشـيا حتى وصلا إلى دكان الشيخ "حمزة دبـوس" ومـال عليـه "شوقي"، فأحضر الشيخ حمزة من الـداخل بعـض الكتـب وعرضها أمامه، وعينه على بعض المخبرين الواقفين أمـام سور المدرسة.. وتظاهر الشيخ حمزة بأنه يساوم شوقي على ثمن الكتب وهمس:

- الاجتماع في بيت عبد الرافع.

وانصرف "شوقي" مع "سعد" والشيخ "حمزة" يتظاهر بأنه يريد أن يسترضيه، فينادي عليه أن يعود ويدفع ما يرضاه.. ولكن "شوقي" لم يلتفت إليه.. وتألقت نظرة إعجاب في عـين "سعد"، وهم أن يعلق على ما حدث كله، ولكن "شوقي" جذبه وهما يبتعدان ويميلان إلى حارة ضيقة تكاد أعـالي بيوتهـا المتقابلة تتعانق ملقية رقع ظلال رمادية داكنة علـى الأرض المبلطة.. وقال "شوقي" فجأة:

- تعرف يا "سعد"؟ الحركة أثبتت إن فيه أبطال وطنيين ما نعرفهمش. الشيخ حمزة اللـي بيشـتري الكتـب

المسروقة، وشكري بيه اللي كلنا كنا افتكرناه خسـر خلاص؟ الراجل ده بموقفه الأخير أصبح بطل وطني خالد. وحتى البت رجاء اللي ظلمناهـا. و "ميمـي".. تصور! وشوف "عبده" متحمس ازاي!.

وصاح "سعد" كأنه يهرب إلى صوته من اضطرام أفكاره:

- كلهم أبطال كده يا نيلة!؟.. وشوكت المغربي وعطـا
ا ما تقول عليهم أبطال كمان!

وخرج الاثنان إلى شارع الخليج، وغاصت أصواتهما في ضجة الترام، وتوقفا قليلا قبل أن يعبر الشارع على الضـوء الخافت المنبعث من المصابيح ومن الترام الذي يهز الأرض في انطلاقه المجلجل السريع.

ودخلا مرة أخرى في حارة طويلة ضيقة، يزحمها رجال ونساء وأولاد يروحون ويجيئون أمـام المقـاهي الصـاخبة بكراسي القش والموائد النحاسية، ورائحـة البخـور تمـلأ الطريق..

وفرقهما الزحام عن بعضهما البعض أكثر من مرة، ثـم مال "شوقي" عن زقاق ضيق هادئ. والتفت علـى طلقـات

المدافع، فوجد المآذن تضيء، ورائحة مـاء الـورد تـنعش صدره!..

وهتف دون أن يدري:

- المنشورات اتوزعـت دلوقـت.. يقفلـوا الجامعـة والمدارس على كيفهم بقى.. ولا يهمك.. بكـره أول رمضان "كل سنة وانت طيب يا سعد".

وسار "سعد" خلف "شوقي" وقال بغتة:

- دا أمين أفندي كان بيتخـانق مـع ميمـي دلوقـت.. بيتهمهما في "عبد اللطيف" أخوك..! تصور..

ورد "شوقي" بسرعة مستنكرا:

- إيه السخافة دي؟!. ما أنا حاكي لك كل حاجة..

وأخذ "شوقي" يتحسس بعينيه في الظلمات أبواب البيـوت التي يمر بها. وتتابعت أنفاس "سعد" وعاد يستشـعر تزايـل أشياء في نفسه كأن في داخله بناء ينقص..

وتوقف "شوقي" أمام بيت من طابقين بفناء مترب. ودفـع الباب نصف المغلق وجاوز الفناء، ثم دخل في ممر ضـيق

وصعد درجات السلم ودق الباب ثلاث دقات خفيفة متتابعـة قائلا:

- شوقي!

وهمس لـ "سعد" أن ينطق اسمه بنفسه.

ولمحا نورا يأتي من وراء زجاج باب الشـقة ثـم فـتح الباب. وعندما دخل "شوقي" ومن ورائه "سعد" وجدا أمامهما "عبد الرافع". وقادهما ومصباح الجاز في يده إلى حجرة في الداخل، وأغلق باب الشقة والحجرة. ووضع المصباح علـى المكتب.. وبانت الحجرة أمامهما على نور المصباح عاريـة فيها أربعة كراسي إلى جوار المكتب، وحصيرة يجلس عليها رجل بشارب! من؟ "عبد الحي"؟؟..

وانقض "شوقي" عليه يعانقه، ثم عانقه "سعد". وقعد "سعد إلى جوار "عبد الحي" من الناحية الأخـرى يتأمـل شـاربه الأسود الكثيف الذي رباه وتنكر فيه!.

وقال "عبد الحي":

- ضمنت توزيع المنشورات يا شوقي؟ ازيـك؟ وانـت يا سعد ازاي حالك؟ وازي شكرى بيه. بلغوه تقـدير لجنة الطلبة العليا.. احنا أرسلنا له برقية بتقديرنا على

كل حال.. وازي الشارع كله؟ ازي عبده وميمي هانم وازي رجاء!؟..

وساد الصمت بغتة والبـاب يفـتح بـبطء، ثـم دخـل "عبد المعبود" مبتسما. وسلم وقعد على الحصيرة قائلا بشكل خاطف:

- أنا اسمي في الاجتماع محمود مـن عمـال النقـل.. وعبد الحي اسمه زكي مندوب لجنة الطلبة..

ورنت من بعيد طرقة على البـاب الخـارجي، فهمـس عبد الحي في أذن "شوقي":

- ابقى خلي عبده يجيب لي هدومي. وخد مفتاح الشـقة أهه! وإذا قدر يغسلهم يبقى كتر خيره! ابقـى هاتـه معاك مرة..

ودخل طالب طويل قدم نفسه باسـم "محسـن" منـدوب المدارس المتوسطة والطالب بالفنون والصنايع، ومعه طالب آخر قدم نفسه باسم "علوان" مندوب لجنة مدارس شبرا، ثـم جاء "عطا ا ".. وقعـدوا كلهـم علـى الكراسـي، وقعـد عبد الرافع على كرسي إلى جوار المكتب. وأعلن "عبد الحي" وهو على الحصير افتتاح الجلسة قائلا:

- بمناسبة إغلاق الجامعة والأزهر ودار العلوم ومعظم المدارس الثانوية والمتوسطة، فلجنة الطلبة العليا ترى أن عبء الاستمرار في الحركة الوطنية يقـع علـى المدارس التي اكتفت الحكومة بإبعاد بعض طلبتهـا.. وبنشوف كمان انه يجب البحث عن وسيلة للاستمرار في الحركة عن طريق العمال وأهو معانـا منـدوبهم الأسطى.. "محمود" من عمال النقل.. إن ثورتنا هـذه في سنة ١٩٣٥ يجب ألا تقع فيما وقعت فيه ثورة سنة ١٩١٩، وهكذا سيذكر التاريخ أن الطلبـة والعمـال قادوا بحكمة ثورة سنة ١٩٣٥، ونحن مجتمعون أولا لبحث الاستمرار في الحركة حتـى يعـاد الدسـتور ويتحقق الاستقلال، وثانيا: لبحـث تشـكيل الجبهـة الوطنية من كل زعماء الأحزاب السياسـية وممثلـي الطلبة والعمال.. والأخبار من هذه الناحيـة مطمئنـة جدا.

وفجأة.. اعترض "عطا ا " وهو يتأمـل علـى الضـوء الخافت وجوه الجالسين، ويداري ضيقه لأن "عبد الحي" لـم يحتفل به ولم يقم له ليسلم عليه:

- تسمح يا أستاذ "عبد الحي"..

- فتدخل "عبد الرافع" بسرعة:

- حضرته اسمه الأستاذ "زكي" مندوب لجنـة الطلبـة العليا! وتضايق "عطا ا "، وظل يحدق بعينيه وهـو يتأمل القاعدين على الحصيرة وقال:

- احنا لم نتعرف ببعض يا أساتذة!

- فقال "سعد" بضيق:

مش دا المهم.. المهم اننا نتكلم ونخلص.

واقترح "عبد الرافع" أن يقفوا دقيقة حدادا على الشـهداء قبل بدء الاجتماع.. فوقفوا خاشعين، وحين قعدوا، رفع "عطا ا " صوته، و "عبد الرافع" ينبهه بيده ألا يزعق:

- كلامي أنا مش مهـم ازاي؟ أنـا أولا أحـب أفهـم الحاضرين هنا دول صفتهم ايه؟! وبأي حق يشتركوا في الاجتماع؟

وأشار "عبد الرافع" إلى "شوقي" قائلا بضيق:

- حضرته مندوب الخديوية.

ثم أشار إلى "سعد":

- وحضرته كمان مندوب الخديوية.

وهز "عطا ا " رأسه قائلا باستنكار:

- لما حضرته وحضرته مندوب الخديوية.. أمال أنا هنا بصفة إيه.

وأجاب "عبد الرافع" متكلفا الهدوء:

- مندوب مدارس الحلمية كلهـا. وحضـرته منـدوب مدارس شبرا.. وحضرته مندوب المدارس المتوسطة، ومندوب مدارس العباسية والجيزة اعتذروا وسنبلغهم القرارات.. و..

فقال "عطا ا " قبل أن ينتهي "عبد الرافع":

- طيب فيه مسألة أحب أثيرها قبل البدء في المناقشـة. أنا معترض على وجود بعض الناس هنا..

ثم أشار إلى "شوقي" و "سعد" واستمر:

- أنا لا أوافق على الولدين دول، وأعتقد أن وجـودهم خطر على الاجتماع، لأنهم.. متصلين بالبوليس.. أنا شفتهم امبارح بيضحكوا لضابط المباحث اللي اسـمه كمال الصفطاوي قدام باب المدرسـة وكلمـوه بعـد

خروجهم كمان. ثم إنهم هم اللي تسببوا في نقل الشيخ "علي" إلى مدرسة أولية في قنا، وميخائيل أفندي إلى ابتدائية في أسوان. والمسـألة الثالثـة انهـم رغـم اشتراكهم في كل إضرابات الخديوية بشكل بارز لـم يقبض عليهم أبدا، و.. وحتى لم يبعدوا مـع الطلبـة الذين أبعدوا.. وإنما من باب المداراة وذر الرماد في العيون أبعدهم الناظر امبارح فقط!.. دا كلـه معنـاه إيه؟؟ ثم إننا بقى لازم نبطل نضيع الوقت مـع أولاد صغيرين!.. وإلا فأنا أنسحب.

واستطاع "عبد الحي" بجهد شديد أن يمسك "شوقي " وأن يمنعه من الرد على "عطا ا " ورفع "عبـد الرافـع" رأسـه ليقاطع سعد الذي كان يتهيأ للرد على عطـا ا .. ثـم قـال عبد الرافع في حسم:

- أنا رأيي اننا نناقش هذا الموضوع، وأن تـتكلم فيمـا جئنا من أجله مفيش داعي للاتهامات، وأنا أؤكـد أن الأستاذين شوقي وسعد لم يتحدثا إلى الضابط كمال إلا لأنه صديق لشقيق واحد منهم.. أما مسألة أنهـم لـم يطردوا من المدرسة، ولم يقبض عليهم، فربما كانت

دي مكيدة من الناظر. وهذا كسب على كـل حـال، فليس من الضروري أن يقبض علينـا جميعـا، أمـا مسألة انهم وشوا بالأستاذ ميخائيل والشيخ علي، فأنـا أؤكد أنه لم يأسف طالب على هذا النقل مثل أسـفهم هم، بل إنهم بكوا.. ومعروف أن المسئول عن هـذه الجريمة هو شوكت المغربي اللي تآمر مـع حسـونة أفندي و.. و.. وعلاقتهم ببعض قـذرة ومعروفـة.! "شوكت" هو اللي على صلة بالبوليس يـا "عطـا ا " وكفاية بقى.. كفاية إثارة مشاكل بقى.. كفاية يا عطـا ا ..

واعترض "عبد المعبـود" علـى الاسـتمرار فـي هـذا الموضوع:

- يا جماعة المفروض ان كل اللي هنا موثوق فـيهم.. العمال مالهومش دعوة بالمشاكل اللي بيـنكم وبـين بعض دي.. أنا مش عارفها ومش عـاوز أعرفهـا! عاوزين نتكلم في الجد.. احنـا بنشـوف ان وجـود صدقي في الجبهة الوطنية هو والناس اللي دوخونـا، وكانوا طول عمرهم مع الإنجليز دا خطـر كبيـر..

ياما عملوا جبهات وبيبجوا ساعة الزنقة ويعملوا عملة تهد كل اللي اتبنى وتأخر البلد! وهـم مـش ممكـن يدخلوا في الجبهة مندوب للطلبة ومنـدوب للعمـال! نحط إيدنا في إيدهم ازاي؟!.. احنا بنشوف ان ده غلط كبير قوي حايقعوا فيه التلامذة..

- فالتفت "عطا ا " إلى عبد الرافع ثم إلى "عبد المعبود" قائلا:

- أولاد أنا أحتج على هذا الاتهام ضد شوكت المغربي، وأتهمك يا "عبد الرافع" بحماية الخونة!.. أنا دعيـت شوكت إلى هذا الاجتماع لأنـه أجـدر مـن غيـره بالحضور.. ثانيا أنت يا أسطى بتتكلم باسم مـين؟.. باسم العمال بتوع الوفد أو العمال بتوع عباس حليم.. انتم مين؟! إذا كنت وفدي..

فقاطعه "عبد المعبود" مبتسما:

- باسم العمال وبس.. باسم العمـال بتـوع العمـال.. يا حضرة لفندي.. وحسن ملافظك شوية لو سـمحت يعني.. وبلاش تضييع وقت..

وقام "عطا ا " بتؤدة يهز رأسه مستنكرا:

- أنا مش فاهم إيه الجو ده.. عامل لم أره أبدا يحـاول الانتقاص مني، و "عبد الحي" قاعد متنكـر بشـنبه.. والخونة قاعدين في حماية "عبد الرافع".. لا لا لا..

وقف "سعد" فجأة وهو يقرض أسنانه فأمسك بخناق "عطا ا ":

- مين اللي خونة يا واد انت؟ احنا سـاكتين لـك مـن الصبح وانت عمال تلطش كده يمين وشمال وما حدش مالي عينك!.. إيه يا واد انت يا واد.. انت إيه انـت وشوكت بتاعك دا كمان؟..

وانتفض "عطا ا " وحاول أن يبتعد عن "سـعد" ولكنـه ارتطم بالمكتب وهو يزعق:

- انت يا ولد رايح تتطاول علي هنـا فـي الاجتمـاع الخطير ده كمان؟ انت يا ولد تبعد عني أحسن، واياك انك تستبيح لنفسك شتيمتي أنـا أو شـوكت.. انـت حاتتعود ع التطاول علي والا ايه!؟. إما انك تخـرج والا فأنا أنسحب!

وحين وقف "عطا ا " يصـلح هندامـه وقـف بينهمـا "عبد المعبود" يقول بأسف ودهشة:

- يبقى دا اجتماع دا والا لعبة عيال؟

وتجهم "عبد الرافع" وهو ينظر إلى "عطا ا " و "سعد":

- أنا لا أسمح بمثل هذه المهازل في الاجتماع.. يجـب أن نبدأ في المناقشة فورا واللي مش عاجبه ينسحب.

وقعد "سعد" يداري خجله من اندفاعه، بينما تراجع "عطـا ا " مغمغما.

- ولد كلاب رقيع.. ابقوا روحوا اسألوا اخواتكم البنـات عن شوكت يا كلاب قبل مـا تحضـروا اجتماعـات وتتهجموا على أسيادكم..

وخيم صمت غريب.. وأوشك "سعد" أن يصـرخ ويـده تقرع جبهته.. واستلقت الأنظار على "عطا ا " تكاد تشويه، وكل واحد يكذب أذنيه.. وهب "شوقي" في صمت وهو يغلي وفي أعماقه دوي أصوات كالمجنون، فحمل "عطا ا " بيـده ورماه على الأرض خارج الحجرة، ثـم فـتح لـه البـاب الخارجي ورفسه بعيدا، وأغلق وراءه الباب، وعاد.. والكـل صامت يحملق، والأنفاس تتابع، وضربات القلوب ترتفع!..

وارتعش صوت "عبد الرافع" وسري خافتا جافا:

- متأسفين يا سعد. كلنا بنعتذر لك عن السقطة الفظيعة دي. وأطبق السكون من جديـد، و "سـعد" يغالـب دموعه.

وارتفعت من منـدوب المـدارس الصـناعية زفـرات اشمئزاز... وقال زميله الآخر:

- جو الاجتماع ده غريب.. ومريب كمان.. أنا مكنتش متصور ان "عطا ا " بالشكل ده!

بينما قال عبد المعبود:

- ثم ازاي لفندي ده يقـول علـى الاجتمـاع لواحـد ما اتفقناش على دعوته!؟

وارتفع صوت في استنكار:

- من شوكت ده كمان اللي فشى له بسر الاجتماع؟!

وجاءهم من الشارع صوت "عطا ا " متكسرا:

- وا لأوريكم يا كلاب!.. أنا مندوب مدارس الحلمية، وكل القرارات اللي حاتتخذوها سأعارضها وتعارضها مدارس الحلمية بالإجماع.

وتحرك "سعد"، وتمنى لو نزل إليه ليسحقه في الشـارع، ولكن "شوقي" أمسك به قائلا، وهو ما زال يرتجف:

- الواد ده فاكر نفسه يقدر يخش مدرسة في الحلمية!.. وا ليطردوه بالجزم من أي مدرسة!. أنا باقول لـك من زمان يا عبد الرافع انه جاسوس، تقول لـي لا!.. طيب لما نشوف آخرتها. إيه اللي يخليه يفشـي سـر الاجتماع لواحد زي شوكت المغربي!

ووقف مندوب مدارس شبرا قائلا:

- أقترح فض الاجتماع. يظهر أن الجدع ده عارف ان فيه حاجة.. أنا غير مطمئن أبدا.. من أول مـا جـه وهو عمال يثير إشكالات وعاوز ينسحب. أنـا غيـر مطمئن. خطته كانت انه يطول الاجتمـاع وينسـحب هو.. أنا مش فاهم.. حاجة تخيل!

فقال "عبد الرافع" بثقة:

- لا.. أنا عامل حسابي ومرتب المسألة مـع صـاحب القهوة اللي على الناصية، وهو نفسه صاحب البيـت وساكن تحت!.. بمجرد ظهور أي شـخص غريـب مشتبه فيه مش بس البوليس، الجرسون رايح ييجـي

يصقف من تحت.. في الحالة دي رايحين ننزل كلنـا وندخل شقة صاحب البيت ونتسرب من باب البيـت الوراني قبل ما يلحقوا يحاصروه كمان.. أنا أقتـرح نستمر في الاجتماع ونفرغ منه بأسرع ما يمكن وأنـا المسئول..

وبدأ "عبد المعبود" على الفور يشرح وجهة نظـره فـي الجبهة.. واعترضه "عبد الحـي" وطلـب البـدء بمناقشـة الترتيبات التي تكفل استمرار الحركة رغم إغلاق الجامعـة ومعظم المدارس.. واتفقوا على توجيه منشورات مستمرة إلى الشعب والتجار والعمال لإعلان الإضراب العام بعد أسبوع، والاتجاه إلى الأقاليم أيضا، لتكون هذه الثورة في سنة ١٩٣٥ أروع من ثورة سنة ١٩١٩.

وقال شوقي إن منشورات وزعت اليوم في موكب الرؤية وستوزع غدا. وقرروا متابعة المنشورات يوميـا. وتمنـى "عبد الحي" لو أنهم أصدروا مجلة!!..

ولاحت فكرة المجلة غريبة مفاجئة، ولكن "عبد المعبـود" تحمس للاقتراح، وأيده الجميع دون أن يناقشـوا تفاصـيله..

وفجأة دوت في الشارع تصفيقه من كف مرتعشة، وصـوت كالهمس يوشوش في الصمت:

- كبسه! البوليس!

واختفى الصوت، فوقف "عبد المعبود" يطالـب الجميـع بالهدوء وبالسير وراء "عبد الرافع" وعدم مناقشة أوامـره!.. وأطفأ "عبد الرافع" نور المصباح الجاز وخرج مـن الشـقة يهبط السلم، ومن ورائه كل الحاضـرين وهـم يتحسسـون الأرض، ويحاذرون أن يصدر أي صوت من احتكاك أقدامهم بدرجات السلم.. ووجد باب الدور الأرضي مفتوحا، فـدخل، ودخلوا كلهم وراءه.. وظهرت لهم امرأة بدينة حلوة، أغلقت الباب الخارجي، وأضاءت لهم بمصباح الجاز وهم يعبـرون في ممر ضيق وعلى شفتيها تخفق كلمات هامسة:

- روحوا ربنا يحرس لكم شبابكم.. شيل الحجر يا سـي عبد الرافع ينفتح الباب البراني خالص تلاقي قـدامك في وش عدوك الحارة اللي توصل علـى الحنفـي.. حاسبوا يا سي عبده.. إلهي يحميكم..

واندفعوا واحدا فواحدا.. وسمعوا وهم يمشون في الدهليز الخلفي قرعات شديدة على باب شقة "عبد الرافع".. وصـوت العساكر وهم يصعدون ويتحركون أمام باب الشقة.

وعندما خرجوا كلهم إلى الحارة الخلفية فاجـأهم ضـوء بطارية ورجل يسير يكلم جنودا وراءه.. وتعرف "شوقي" من صوت الرجل على صوت الضابط "كمال".. وفجـأة سـطع ضوء البطارية على وجه "شوقي" فتوقف مرتعدا.. والجنـود يتأهبون ويشرعون البنادق بالسنكي إلى "شـوقي" و "سـعد" بينما التصق زملاؤهم الآخرون بالحائط يمسكون أنفاسهم ...

وابتسم الضابط "كمال" وتابع سيره وهو يهز رأسه صائحا في العساكر:

- مش هم دول.. مش معقـول يهربـوا مـن هنـا!.. حا يطلعوا ازاي من الباب الوراني ده. يظهـر انهـم لسه في الشقة ما لحقوش يهربوا.. وراي يا عسكري انت وهوه على شقة عبد الرافع... فرد مساعده:
- الشقة داهمتها القوة اللي سعادتك بعتهـا تسـتطلع ... وقال الضابط كمال:
- بسرعة ورايا.. بسرعه..

وانطلق "شوقي" ويده في يد "سعد"، وبرد الطريق يمسح حبات العرق، والكلمات تغوص في الأنفاس المتقطعة..

وعندما خرجوا إلى الحنفي.. قال "شوقي" بحنق وهو يمسك بذراع "عبد الرافع":

- شفتم عطا ا ؟! جالكم كلامي.. اقتنعت يا سيدي!!؟

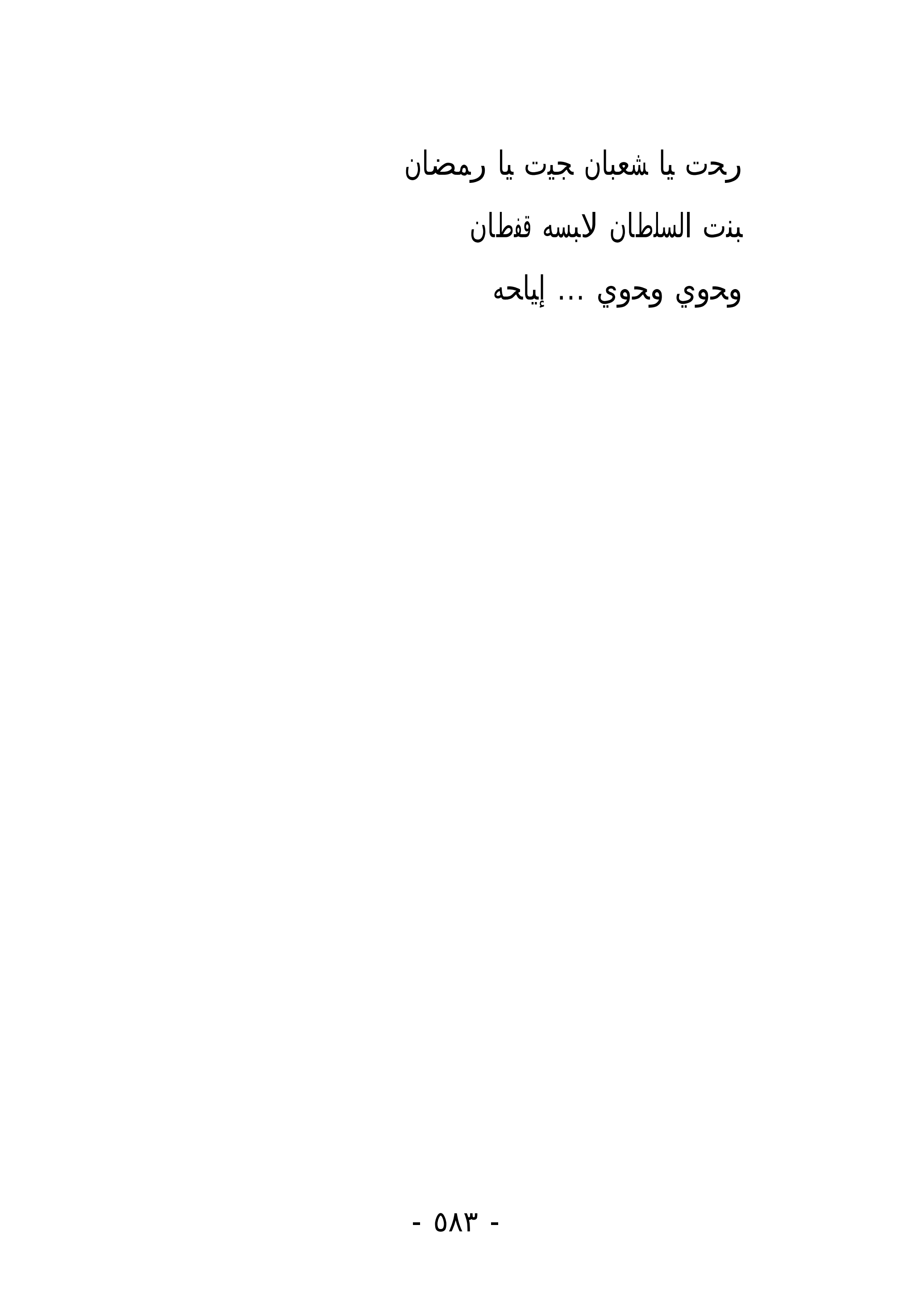
فقال عبد الرافع في وجوم:

- على كل حال هوه مالحقش. لكن اللي حصل ده كله غريب ومش مفهوم!

أولا البوليس لا يعرف محل اقامتي.. ثم.. ثم إن الضابط كمال شافنا وسابنا! و.. الباب ده ما حدش يعرف اننا طالعين منه غير المعلم صاحب البيت والقهوة.. أنا مش فاهم!!

وامتلأت عيونهم بالنور، وهم يتفرقون في الشارع الصاخب المزدحم المليء بالحياة والهواء، وفورة الفرحة بمقدم رمضان.

وتنبه "شوقي" وهو يمشي ويده في ذراع "سعد" – على أطفال في الجلاليب يطوحون بالفوانيس الصغيرة وعيونهم مشرقة بالبهجة وأصواتهم الرفيعة تزقزق بأغنية رمضان:



رحت يا شعبان جيت يا رمضان

بنت السلطان لابسه قفطان

وحوي وحوي ... إياحه

(٢١)

لولا "عبد المعبود" لوقع "عبد الحي" ووقع معه عدد مـن طلبة اللجنة التنفيذية العليا. ولكن "عبـد المعبـود" تصـرف بسرعة وقرر من فوره أن يقتحم الخطر وحده حـين هـاجم البوليس مطبعته ذات صـباح فوجـد فيهـا "عبـد الرافـع" و "عبد اللطيف" ساعتها زعق "عبد المعبود" في الطلبة:

- حل عني يا أفندي انت وهوه! إيه اللي كل شوية ينط لي واحد أفندي عايز يطبع كارت معايدة؟! المطبعـة مش فاضية دلوقتي لطبع الكروت. ابقوا ارجعوا لـي في جمعة العيد والا شوفوا حد غيري! اتفضلوا.

- ونظر إليهم الضابط "كمال الصفطاوي" الذي جاء على رأس القوة وتـركهم ينصـرفون، ثـم اتجـه إلـى "عبد المعبود" يسأله بحزم عن المنشورات التي طبعت عنـده ووزعـت يـوم الإضـراب العـام فأجابـه "عبد المعبود" بإهمال:

- اتفضلوا فتشوا.

وحين ابتعد "عبد الحـي" وزمـيلاه عـن شـارع درب الجماميز، ودخلوا في زحام ميـدان السـيدة زينـب، شـد "عبد الحي" كتف "عبد اللطيف" وتوقف قائلا:

- ا ؟!.. دي المنشورات الجديدة في المطبعـة.. إزاي تسيب عبد المعبود كده..

- وأجابه "عبد اللطيف":

- لازم واحد منا يرجع يقول للضابط إن المنشورات دي بتاعتنا ونخلي مسئولية "عبد المعبود". ما هو الضابط كمال عارفني ولو انه تجاهلني.

- ازاي البوليس عرف ان فيه منشورات جديـدة واننـا رايحين نستلمها النهاردة؟ البوليس عادة لا يهاجم في النهار إيه اللي يخليه يهاجم المطبعة دلوقتي؟

- ووجموا لحظة، ثم قال "عبد الحي":

- يمكن رايحين للمنشورات القديمة يبحثوا عن أصولها.

وتدخل "عبد الرافع":

- شيء محير.. يمكن بيفتشوا كل المطابع اللـي فـي مصر!

فاعترض "عبد الحي":

- لا مش معقول. فيه حد بلغ ضروري. لكن مين اللـي بلغ؟

وقال "عبد اللطيف" بخطورة:

- المهم أن احنا نتصرف دلوقتي، وبعدين نبقى نشـوف مين بيبلغ. لازم نعرف مين اللي بلغ عن الاجتمـاع اللي كان في بيت عبد الرافع، ومين اللي بلـغ عـن عبد المعبود.. ولا رحمة لجاسوس.

وظلوا يتناقشون لبعض الوقت، وفي أعماق كـل مـنهم شكوك لا يستطيع أن يتبينها، وضيق كخيبة الأمـل يزحـف بشيء كاليأس إلى قلب كل واحد من الثلاثة، ولكنـه يسـتمد القوة من زميله لكي لا يرفع يديه – مـذعنا - أمـام هـذا الإحساس المخيف!!..

واتفقوا على أن يذهب "عبـد الرافـع" فيمـر بمطبعـة "عبد المعبود" وهناك يتصرف كما تقضي الظروف.

وعندما اقترب "عبـد الرافـع" مـن المطبعـة، لاح لـه "عبد المعبود" واقفا بثبات أمـام مكتبـة الخشـبي، وعلـى

الرصيف المقابل يتجول عـدد مـن المخبـرين بأحـذيتهم الصفراء، وقاماتهم المديدة، والبالطو، والعصا.

وتقدم "عبد الرافع" إلى باب المطبعة، و "عبـد المعبـود" يفتح فمه مندهشا ويشير إليه بعينيـه وحواجبـه وعضـلات وجهه أن يبتعد. ولكن "عبد الرافع" دخل المطبعة ومـا زال "عبد المعبود" يشير بوجهه وعينيه ويديه في عصبية.

ووقف "عبد الرافع" داخل المطبعة كأنه شهيد من العصور الأولى يقتحم مصيره في ثبات وبطولة، ولم يجد أمامه غيـر "عبد المعبود" متوترا من الحنق، ومن وراء الحاجز الخشبي تتعالى ضجة العساكر وهم يفتشون وصوت لفائف تتمـزق، والضابط يقول من الداخل لأحد العساكر:

- دي مش منشورات يا بهيم؟! دي عقود إيجار. دوروا كويس.

وصرح "عبد المعبود" في "عبد الرافع".

يا أخي ابعدوا عني. قلت لكم ما فيش وقت لاطبع كروت!

ثم همس وهو يخطف الكلام وضجيج التفتيش يتعالى من داخل المطبعة:

- يا أخي ان لقوا المنشورات عنـدي وأنـا صـاحب المطبعة حاروح ست أشهر من غير كلام! وجـودكم مش نافعني، وكل اللي حايزيد على انكم حاتتحبسـوا معايا. زوغوا أحسن، كملوا انتم وشوفوا مين اللي فتن علينا.

ثم رفع صوته وهو يزعق في عصبية.

- يا أخي أنا مش فاضي أطبع كروت!. روح بقى.

وانصرف "عبد الرافع" عائدا إلى زملائه.

ولم يستطع أحد منهم منذ ذلك اليـوم أن يعـرف كيـف اكتشف البوليس أن "عبد المعبود" هو الذي يطبع منشـورات الطلبة، وحتى الذين شكوا فـي أن "عطـا ا " أو "شـوكت المغربي" هو الذي أبلغ يوما عن اجتماع بيت "عبد الرافـع" هؤلاء لم يعرفوا إلى من تتجه ظنونهم الآن!.. فلا "شـوكت" ولا "عطا ا " يعرف شيئا عن حقيقة دور "عبـد المعبـود" أو حتى حقيقة اسمه ومهنته!!

على أن القبض على "عبد المعبود" لم يمر ببساطة، فبعـد القبض عليه بيوم واحد أصدرت لجنة الطلبة العليا منشـورا صغيرا تطالب فيه بالإفراج عن "عبد المعبود"، وتحيي مـن

خلال شخصه تضامن العمال مع الطلبـة، وتـذكر الشـعب بالأيام المجيدة من سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٣٠ حين كان العمال هم أعصاب الثورة ولهب المقاومة، وتؤكد أن هذه الأيام من سنة ١٩٣٥، إنما تؤكد أن تضـامن العمـال والطلبـة هـو الضمان لنجاح الثورة.

وفي شارع عزيز انتشر خبر القـبض وسـط الـذهول والأسف، ولكن أهل الشارع منحوا "عبد المعبـود" احترامـا جديدا خارقا جعل امرأته تخجل من البكـاء، فلـم تفارقهـا "سميرة" ولا "درية"، وزارها "شكري عبد العال" حينما علـم، وكانت إذ ذاك وحيدة تبكي فأكد لها أنها يجب أن تفخر بمـا حدث، وأن الجميع ينحنون إكبارا للرجل الذي ضحى بحريته من أجل الوطن، ثم أقسم عليها أن تقيم معهم وأرسـل ابنتـه "سميرة" إليها فعادت بها، وعدلت تماما عن فكرة السفر إلـى أهلها في الريف كما فعلت مرة حين قبض على زوجها قديما في إضرابات عمال المطبعة الأميرية...

وعرضت عليها "سعاد هانم" أن تقيم معها، وأخذت تتردد عليها وأحسست أن "سعاد هانم" تتسلل إلـى قلبهـا، وتكـاد تملؤه.. وزارتها "ميمي" لأول مرة، وزارها "عبد اللطيـف"

مندوبا عن لجنة الطلبة، ودس في يدها خمسة جنيهات هدية من اللجنة، ودهمها الخجل، وأوشكت أن تبكي، ولكن "عبد اللطيف" ظل يحدثها حتى اقتنعت بأن تقبلها بلا غضاضة، وزايلها الإحساس بالضعف والحاجة.

وتعودت امرأة "عبد المعبود" بعد ذلك أن تسمع كلاما جميلا لم تسمعه من قبل، ولئن لم تستطع أن تفهمه كله، ولكن نفسها امتلأت بالزهو والرضى والطمأنينة، والثقة في أن الناس فيهم الخير.. وعرفت أيضا أن "عبده" يحمل الطعام والنقود إلى زوجها منذ قبض عليه، فجاشت نفسها بحب هؤلاء الطلبة.

***

وكان "عبده" في الأيام الأخيرة قبل القبض على "عبد المعبود" سعيدا لا تطيقه الدنيا من الفرحة من يوم أن أخذه "شوقي" إلى البيت الذي يختبئ فيه "عبد الحي".. وهو من يومها يفر كالنحلة يحمل المنشورات من المطبعة إلى شقة "عبد الرافع" مزهوا بأنه ينطوي على أسرار خطيرة، ويستطيع أن يكتمها.. ولم يكن يسمح لأحد أيا كان بأن ينبش على أسراره، حتى "ميمي هانم" التي تطوعت بأن تغسل

ملابس "عبد الحي" لم يسمح لها "عبده" بأن تسأله عن المكان الذي يختفي فيه "عبد الحي".

و "عبده" منذ أيام يتكلم بلا ملـل عـن بطولـة "شـكري عبد العال" وما حدث منه يوم رفض أن يضـرب مظـاهرة الاحتفال بتشييع الشهداء!.. وحين يغلبه الانفعال يقـف فـي الشارع ليزعق وهو يصفق بإعجاب وفخر:

- بعد غاب عشر سنين في المعـاش رجعونـا، رجعنـا وقعدنا شهرين ورفسناها برجلينا من عزم شهامتنا!.. يحيـا الوطني الجريء شكري بيه عبد العال!.

وظل "عبده" يحكي في كل يوم قصة جديدة عـن بطولـة "شكري".. وامتلأ بالفرحة والأمل حـين سـمع يومـا مـن "عبد المعبود" قبل القبض عليه حديثا عن توسـيع المطبعـة وإصدار مجلة.. والاستعانة بـ "شكري" في كل هذا.. ومنـذ سمع "عبده" هذا الحديث وهو يحلم بأن يترك عمله بعـد أن يفرغ من تعلم القراءة والكتابة، ويقف أمام الحروف يصفها.. وأخذ هو يتردد على مطبعة "عبـد المعبـود" يتأمـل الآلات والحروف ويراقب بشغف ونظراته شاردة في حلم بعيد...

ولكن المطبعة أغلقت منذ قبض على "عبد المعبود"، ولـم يعد "عبده" يستطيع أن يمسك دموعه كلما مر عليها، وخيـل إليه أن "شكري" ربما لم يكن يعرف شـيئا عـن مشـروع "عبد المعبود" في توسيع المطبعة وإصـدار مجلـة يتولاهـا "عبد الحي".

فذهب "عبده" يحدث "شكري" في الأمر! وابتسم "شـكري" ولم يجب فراح "عبده" يتكلم مـع "عبـد العزيـز" ثـم مـع "عبد اللطيف" ولكن أحدا لم يتلفـت إليـه ... وطلـب مـن "عبد العزيز" أن يقنع "شكري" بالاشتراك في المطبعـة مـن أجل خاطر عبد المعبود في غيبته ولكن "عبد العزيز" نهـره قائلا:

- إحنا عارفين مصلحة عبد المعبود أكثر منك. اسـكت أنت.

ولكن "عبده" لم يسكت... وما صدق ذات يـوم أن وجـد "شوقي" و "عبد اللطيف" و "عبد العزيز" يخرجون الواحد بعد الآخر حتى ذهب إلى "ميمي هانم" وهي تقعد في الشمس مع "رجاء" التي تركت فراشها لأول مرة واستلقت على كرسـي في شرفة "ميمي"، كأنها تستخلص من أشعة الشمس الدافئـة

حياة جديدة وقد بدأ اللون الوردي يعود شيئا فشيئا إلى وجهها المصفر... وفي طريقه إلى الشرفة قابل "أمين أفنـدي" فـي صالة البيت يسلي صيامه بإعداد طبق من السلاطة... كـان مقطبا يبدو عليه الدوار من الصيام، وخطر لـ ـ "عبـده" أن يكلمه في الموضوع فانقض عليه:

- رمضان كريم. اسمع يا سي أمين أفندي. بقى صـلي ع النبي. الأسطى "عبد المعبود" والشيخ "عبد الحـي" كانوا بيتكلموا قدامي زمان علـى توسـيع المطبعـة وعمل مجلة، ولولا أن الأسطى عبد المعبود اتمسـك كانوا بدءوا في المشروع. لكن آهـو بكـره يطلـع والمشروع يمشي ... ودي تكسب دهب... أنا دريـت انهم كانوا ناويين يكلموا شكري بيه.. ما اعرفشي بقى ان كانوا كلموه والا ايه.. لكن الشيخ عبد الحي...

ثم توقف "عبده" يعض شفتيه نادما كأنه باح بسر، والتفت إليه "أمين" متيقظا:

- بتقول مين؟ الشيخ عبد الحي؟ هو فين؟!.. هو انـت قابلته؟. قابلته فين؟.. امتى ...

واستدرك "عبده" بصرامة:

- أنا قلت الشيخ عبد الحي؟؟. أنا جبت سـيرة الشـيخ عبد الحـي؟! ... هـو حـد يعـرف فـين الشـيخ عبد الحي؟! ... دهدي!!.. يـا سـيدي!.. رمضـان كريم!.. انت يعني حاتفتح لي محضر غلطة لسـان؟ حاكم الصيام له أحكام!!..

وقاطعه "أمين" كأنما يريد أن يتصيد منه شيئا.

- أيوه. هيه. اتكلم. ماله الشيخ عبد الحي. ما تـزعلش كده. هو مستخبي فين؟

وانفجرت "عبده" يزعق:

- دهدي؟. وبتبرق كده ليـه؟ يعنـي لقيـت لقيـه؟! دا عبد الحي مخفي في سابع أرض ولا الجـن الأزرق يعرف طريقه!. قصر الكلام. قل لي... ما عنـدكش حسبة ميت جنيه كده وتخش شريك في المطبعـة؟!.. يعني ما انكسرلكشي من ماهيتك طول العمر ده كلـه قيمة ميت جنيه؟.

وأجاب "أمين" بضيق وسأم:

- يا أخي اياك تنكسر رقبتك!. ما كفاية البيت اللي بنيته بشقا العمر كله جايه الدايرة عايزه تنزع ملكيتـه! ... واديني داير أعمل اللي ما يعمل علشان أنجى به!

ونادت "ميمي" من الشرفة على "عبده" ضاحكة وأسـرع إليها "عبده" مهمهما. فوجد أمامها طبقا من الجـزر، وإلـى جوارهما عيدان القصب، و "ميمي" تجهد لقطع عـود مـن القصب بسكين، وانتزعه "عبده" بنشاط من يـدها البيضـاء وكسره على ركبته إلى قطع صغيرة تناولتها "ميمي" وأخذت تنزع قشورها بالسكين وتقدمها لـ "رجاء" ... والتفت عبـده إلى "رجاء" مبتسما وهو يرى عافية مقبلة تدب فـي وجههـا وتسطع في عينيها وقال:

- الحمد على السلامة!. آي كده.. والنبـي دكتورنـا إيده كلها بركة!.. هه! ... كلي جزر كتيـر ومصـي قصب ... دا "شكري بك" كل يوم ياكل بقرش صـاغ جزر. بيقول انه بينقي الدم وينشط البدن!

ثم تعثرت الكلمات في فمه... وكتمت "ميمي" ضحكة وهي تنظر إلى "رجاء" فاتجه إلى "ميمي" قائلا:

كنا عاوزين ميت جنيه عشان ما نوسع المطبعة.. لكـن.. قولي لي. أنا كنت باتراود مع أمين أفندي في عبارة المبلغ ده لقيته كده مش زي عوايده! مش قولة صيام.. لا.. هو مالـه أمين أفندي؟ ماله ملحوق كده؟!. لساني وقـع باسـم الشـيخ عبد الحي مسكها لي وفتح لي محضر: (هو فـين؟ وشـفته امته؟!). إيه ده بقى؟!

وغام وجه "ميمي" ... وأطرقت، وبان عليها أنهـا تكـتم انفعالات جائحة، وهزت رأسها، ولعبت في مفـرق شـعرها بأطراف أناملها، بينما قالت "رجاء" مبتسمة وهـي تغمـض عينيها:

- قل لي يا عبده.. الدكتور اليـومين دول دايمـا عنـد شكري بيه ليه؟ هو راح يتجوز درية والا إيه؟ بيقولوا كده!.

وبدا السؤال مفاجئا، ورفعت "ميمـي" رأسـها وهزتهـا فتأرجح شعرها، وشاعت في وجههـا ابتسـامة تتخلـل تكشيرتها، فزعق "عبده" كأنه يلقي بيانا حاسما:

- لا! يا ستي لا!! احنا ما بنتجوزشي دلوقت! وكمـان ما بنتجوزشي من الشارع ده! هه. خلي اللي يقولـوا

يقولوا.. لكن احنا حناخد الشهادة ونغور من هنـا!.. حنروح نفتح عيادة على وش الدنيا!.. وآديني بـاقول لكم بعلو حسي اهه.. ومستعد أكتب الكـلام ده فـي الجـرانين كمـان... والحاضـر يعلـم الغايـب.. ما بنتجوزش من هنا.. هه!..

وتتابعت ضحكات "ميمي" وهي تتابع "عبـده" بنظراتهـا وترفع حاجبها في دهشة.. وكأنما سحبت ضحكاتها فاترة...

ثم استدار "عبده" متجها إلى "ميمي":

- لكن احنا مش كده دلوقت يا ست ميمي. وحياة أيمان النبي يا شيخة تاخدي بالـك مـن كلامـي. دلوقـت المطبعة مقفولة والحال واقف مع إن عبد المعبود ربنا يرد غيبته بالسلامة كان ناوي يوسعها ويشرك فيهـا شكري بيه... يعني دلوقت بدل المطبعـة مـا هـي مسكوكة كده، ويمكن فيها أشغال ناس ومصالح نـاس ويمكن كمان لها فلوس بـره حاتتـدفع لمـا الشـغل المتعطل ينقضي... وكمان يعني الست مرات الأسطى عايشة عالة يعني..

وسرحت "ميمي" قليلا وقالت بتأفف:

- مش فاهمة انت عايز إيه دلوقت.. اتكلم على مهلك وفهمني.

وقال بضيق:

- دهدي؟! ما تنفتح المطبعة ... ونشوف واحد مطبعجي بالأجرة يمشي شغلها، وأهي الفلوس اللي تيجي منها تاخدها الست مرات الأسطى... أنا مستعد أقعد فيها.. أنا مكسوف أكلم الست أنيسة مرات الأسطى. واجب عليكم انتم يا حريم تكلموا بعض.. العبارة مش قوله يعني.. ده رأي الأسطى عبد المعبود نفسه ... أنا مكلمه امبارح من وراء الحديد وهو قال لي افتحوا المطبعة يا عبده.. لا بد عن فتح المطبعة.

وقالت "ميمي":

- فاهمة.. فاهمة.. فهمت..

ولم يكد "عبده" ينصرف، حتى نزلت "ميمي" وتركت "رجاء" في شمس الشرفة وتحدثت مع امرأة "عبد المعبود" فيما قاله "عبده" فاهتزت الفكرة بعد تفكير قليل، وكلمت "شكري"، فاستمهلها.. وذهب "عبده" فكلمها بعد ذلك عما سمعه عن مشروع توسيع المطبعة وأقنعها بأن استمرار

إغلاق المطبعة عمل ضار بمستقبل المشروع، ثم قذف فـي وجهها أن زوجها يريد منها أن تأكل من المطبعـة لا مـن الصدقات!.

***

وفوجئ "شكري" في اليوم التالي وهو واقف في الشـرفة ينتظر انطلاق مدفع المغرب بامرأة "عبد المعبود" راجعة من الخارج قبل أن ينطلق مدفع الإفطار.. ولاحـت لـه جميلـة بشكل لم يلحظه من قبل، مشدودة البدن.. عفية نشطة خفيفة.. ذات نهدين راسخين..

واختلج وهو يراها تقبل عليه لتحكي له أنها كانـت فـي المطبعة طوال النهار ومعها "عبده"، و "شوقي"، وأنها وجدت المطبعة ملأى بأعمال لم تنجز، ولها متأخرات كثيـرة عنـد بعض الزبائن.. ومع أنها هي نفسها لا تعرف القراءة.. فهي تفهم كل ما يقرأ لها شـوقي مـن أوراق فـي المطبعـة!.. وأضافت "أنيسة" أن فتح المطبعة كله خير لأنها اليوم بالذات تلقت أعمالا جديدة، وإذا كانت لا تعرف كيف تتصرف، فإنها طلبت من "عبده" أن يفتش لها عن العامل الذي كان يسـاعد زوجها أو عن أحد غيره إن لم يجده..

ولم يسترح "شكري" لهذا كله... وأدرك أنها بتصرفها هذا تحمل إليه نوعا من التأنيـب، ولـم يحتمـل أن يعرضـها بجاذبيتها ووجهها الطيب الساحر السمرة، وكل ما تملك مـن متاع – اكتشفه هو فجأة – لعيون رجـال غربـاء، وربمـا لأطماعهم أيضا!..

ولاح له كل هذا مرهقا وشاذا: امرأة في مثل جمالها تقعد على مكتب في مطبعة! لسنا في أوربا!.. وهي أيضا.. ليست مثل "ميمي" مثلا!

وقال لها بعنف:

- انتي تقعدي هنا في بيتي. وأنـا اللـي أشـوف كـل حاجة... أنا هنا زي "عبد المعبود" وأكتـر.. اقعـدي انتي وأنا حاشوف مسألة المطبعة...

ولكنها قالت بخجل:

- كتر خيرك يا شـكري أفنـدي.. لكـن أنـا كمـان ما أقعدشي عوالة على حد واحنا عندنا.. لو ما كانشي عندنا اللي يسترنا، كان معلشي. كتر خيرك على كل حال.. وبيتك يعني – ولو فيها كسوف – محتاج لكل قرش في ايدك دلوقت.. ا يعينك! ... وكمان يعنـي

ستنا خديجة مرات سيدنا النبي كانت بتتاجر.. الشغل للستات مش عيب ما دام الواحدة مفتحة لنفسها!

وعلى أن "شكري" تضايق من إصرارها على أن تناديـه بشكري أفندي، فهو لم يظهر ضيقه... وأخـذ يتلاطـف لهـا ويحاورها.

وحاول أن يقنعها أن تقعد هي في البيت، وسـيدبر هـو الأمر، ولكنها خرجت في اليوم التـالي... وسـمعها تحكـي لـ "درية" و "سميرة" تفاصيل ما دار فـي المطبعـة بفـرح ساذج.. كيف جاء إليها "سعد" و "شوقي" وبقيا معها مدة ثـم ذهبا يبحثان لها عن عامل واحد. فعادا ومعهما رجل اسـمه الشيخ "حمزة دبوس"، وأربعة عمـال!!. ولـم تسـتطع أن تستخدم إلا عاملا واحدا، أصر الشيخ "حمزة" على أن يختاره هو بنفسه من بين الأربعة، وذكرت امرأة "عبد المعبود" أنها سمعت الشيخ "حمزة" وهـو ينصـرف يقـول لـ ـ "سـعد" و "شوقي" إنه اختار العامل العجوز ليكون أبعد عن الشبهات والفتنة!..

والتهب "شكري" وهو يسمع هذا الكلام. وسـمعها تسـأل "درية" – ضاحكة – عن معنى الفتنة هذه التي ذكرها الشيخ! ولم يعرف ماذا يصنع!..

وراودته فكرة أن يصفعها ويحبسها. ثم عاد يفكر فـي أن يذهب ليقعد هو في المطبعة بنفسه، ويحـرم عليهـا دخـول المطبعة!

ولكنه استنكر هذا على نفسه.. ورنت في أذنـه صـدى ضحكاتها وهو قاعد وحده في حجرته بعد صـلاة العشـاء، وتذكر كلماتها التي قالتها عن "شوقي" وعن "سعد"!

في كلماتها حرارة أكثر من الإعجاب! ... غريبة! هـذه المرأة في نحو الخامسة والثلاثين، بكـل عنفـوان أنوثتهـا، أتراها أحبت الوادين!!..

وانتفض "شكري" مشمئزا من نفسه، ولاحت له في الفراغ ابتسامة "عبد المعبود" بوجهه الواثق المطمئن!

وقام من فوره!

إنه أصبح يفكر مثل "أدهـم" ذلـك الباشـكاتب اللعـين! الباشكاتب، و "شويكار"! إيه!.. لنا مدة لم نزر "شويكار". أيام طوال لـم نـذق فيهـا طعـم الكونيـاك! لا.. لا.. اقعـد

يا "شكري"!.. يجب أن تفرغ من قراءة كتاب التاريخ السري للاحتلال البريطاني.! أنت وحيد الآن.. لم تعد تطيق أن تقابل أصحاب بار "ماتاتيا" وشلة بيت "شويكار هانم"! ولا أحد فـي الشارع يهتم بك، غير "عبد العزيز"!

قالوا اك كلاما عظيما يوم تشييع جنـازة الشـهداء، ثـم زاروك وحملوا اك التحية من لجنة الطلبة العليا يوم أحلـت إلى الاستيداع، وبعد هذا نسوك تماما، لم يكن أحد يـزورك غير "عبد المعبود" و "عبد العزيز" وكلهم الآن يهتمون بامرأة "عبد المعبود".

أيكون الباشكاتب على حق في نظرتـه إلـى النسـاء؟!. يا شيخ اتق ا !.. ولكنها تتحدث دائما عن "شوقي" و "سـعد" منذ عادا إليها بالعامل العجوز، وفي ليلة البارحـة بالـذات عانقت الولد "سعد" وقبلته في وجهه أمامك وأمام ابنتك وأمام "سعاد هانم"!.. واحمر وجه الولد من الخجل، فقالت له إنهـا تتمنى أن يكون لها ولد مثله!.

لا ... ليست هذه قبلة أم. و"سعد" على أي حال لـم يعـد طفلا! ما أسعده! أعوذ با ! لا يجوز أن تفكر هكذا في امرأة "عبد المعبود" المرأة فاضلة، وأنت نفسك لم تجد ساعتها فيما

حدث شيئا تأباه، أو يجرح حياء ابنتيك، بل اهتززت إشـفاقا عليها ودعوت لها ولـ "عبد المعبود" أن يرزقا بالولد...!

ولكنها امرأة جامدة الدماغ، تخرج إلى المطبعة منذ أربعة أيام ولا تسمع الكلام...!

الليلة سيأمرها ألا تصنع هذا!.

وقام يصلي العشاء، وعندما فرغ من صلاته دخل حجرة ابنته "درية"، فوجدها تقرأ لـ "سميرة"، ولـم يجـد امـرأة "عبد المعبود"، وسأل عنها وأوشك أن يطلب من "سميرة" أن تذهب فتناديها.. ولكن عينه وقعت على الكتاب الذي تقرأ فيه "درية". مرة أخرى تاريخ نابليون والثورة الفرنسية!! ...

واندفع نحو الكتاب وقلبه، ثم رماه ناظرا إلى ابنته "درية" بشدة:

- يا بنتي اقرئي تاريخ بطل مصري أحسـن. نـابليون ايه؟.. اسمعي يا بنتي. اقرئي تـاريخ اللـي قـاوموا نابليون في مصر.. تاريخ الناس اللي... أقـول لـك إيه.. اقرئي تاريخ "عرابـي" تـاريخ السـيد "عمـر مكرم".. شوفي "عمر مكرم" عمل إيه في نابليون ... هزمه ازاي هنا في مصر!!.. اقرئي تاريخ إبـراهيم

باشا اللي دوخ أوروبا واللي فتح عكا بعد مـا عجـز نابليون عن فتحها!

وهز يديه وخرج بالجلباب، و "درية" تتابعـه بنظراتهـا، وقلبها يدق لما سمعته من أبيها.. وهمست "سميرة":

- ا ! دا باب خارج بالجلابية!! أنادي له أفكره؟

فقالت "درية":

- سيبيه.. يعني هو مش دريان بنفسه؟!..

ووجد "شكري" نفسه يدق باب امرأة "عبد المعبود"..

كان محنقا.. ثائرا على "أنيسة" يريد أن يكلمها بصراحة، ويأمرها بألا تذهب إلى المطبعة، وأن تترك له هـو تـدبير الأمور وصمم على أن يهددها بأن يؤدبها إذا عصت أمره!..

وفتحت له الباب، وحين وجدته أمامها لم تخف دهشـتها، وتحرجت وفكرت ماذا تصنع، ولكنها تركته يدخل..

وتحسست رأسها العارية، وحاولت أن تجـري لتغطـي رأسها بأي شيء..

ولاحظ هو ارتباكها، فسألها بحزم وضيق:

- انت مالك ملخبطة ليه كده...؟!

- ودقت على صدرها منزعجـة ... كـأن غريزتهـا استشعرت الاتهام الذي تحملـه كلماتـه ولهجتـه.. ومضت تدير مفتاح النور في كل حجرة وتفتحها وهي تقول:

- يا نصيبتي!! بتقول ملخبطة ليه؟ اتفضل.. تحب تقعد في أنهي أوده؟ ملخبطة ليه؟! كفى ا الشر!! هو احنا يا سي شكري أفندي لا سمح ا !؟ بقى كمان؟! هـو يعني علشان ما جوزي غايب وانكسفت أدخلك عندي تقوم..

وخنقها البكاء وهما أمام باب حجرة النوم التي أضـاءتها "أنيسة"..

ودخل "شكري" ...

لم يكن يتوقع أن تثير كلماته كل هذا!.

وتقدم إليها وهي واقفة في مدخل الباب، فتأخرت هي ... ووجد "شكري" أمامه كنبة طويلة وسريرا كبيرا من النحـاس الأصفر...

وشعر بخجل أن يدخل مخدع "عبـد المعبـود"، فتراجـع خطوة.. ولكنها ظلت تبكي، وسمعت صوت نحيبها يدوي من

أذنيها، فانهارت في بكاء جديد، وكأنما تسـتنزف بـ دموعها مزيدا من الدموع!

ورآها "شكري" تختلع أمامه معولة، فوقف لا يعرف كيف يتصرف: أيتقدم إليها فيمسكها بين ذراعيه ويسكتها!؟

غير انه فزع من هذه الفكرة، وغاض صـوته وجـف، وحاول أن يتكلم... وفكر في أن يعود ليستنجد بـ ـ"سـميرة" أو ينادي "سعاد هانم"..

وتقدم إلى المطـبخ فحمـل كـوب مـاء إلـى امـرأة "عبد المعبود" وقدمه قائلا:

- أنا مش قصدي حاجة يا بنتي لا سـمح ا .. بـس.. بس... اشربي!

ورفعت رأسها متنبهة، وتناولت منه كوب الماء، قائلة:

- يا خبر!.. العفو يا شكري أفندي.

وذهبت مسـرعة إلـى دورة الميـاه فغسـلت وجههـا، وعادت... وأحس شكري، وهي تـذهب وتعـود، برائحـة الصابون تفوح من جسدها.. يبدو أنها كانت تستحم قبـل أن يطرق الباب! وقعدت أمامه تتردد أنفاسها في أنفها بقـوة... وأطبقت شفتيها الدسمتين، وغضت من عينيهـا الواسـعتين

وشعرها يلمع بقطرات من الماء، وفي جسمها كل النضـارة التي يضيء بها جسد المرأة بعد الاستحمام...

وارتجف "شكري" وهو يراها أمامه منكسة الرأس..

وبدأ يقول باحثا عن الكلمات:

- أنا جاي لك يا بنتي علشان أكلمك بصراحة... أنا مش موافق على انك تروحي المطبعة وانتي واحدة ست!.. أنا أصلي.. وأنا كمان ما أقدرش أقعد في المطبعـة، لكن أنا حاشوف أي طريقة. أنا حاشوف طريقة بـأي شكل بحيث ان المطبعة لازم تمشـي وانـت كمـان ما تتعرضيشي لحاجات مش كويسـة.. انتـي.. أنـا ما أقدرش أكلمك بصراحة قدام أولادي.. انـت أولا شابة .... و. وجذابة.. و.. يعني مغريـة.. قصـدي جميلة. ووجودك لوحدك هناك في المطبعة واختلاطك مع رجال أغراب. دا مش كـويس. يعنـي يطمعـوا فيك.. في جمالك. لا سمح ا .. لكن. يا بنتي.. انـت شابة جميلة.. خسارة.. حلاوتك دي.

ورفعت عينيها إلى "شكري".

كانت نظراتها تسطع ببريق رهيب.. وعلى وجهها البديع السمرة حيرة حزينة، وشرود ...

ولم يستطع "شكري" أن يكمل... ولا أن يواجه نظراتهـا. وتقدم منها خطوة، ورآها تقف وتتأخر وخيل إليه أن نهـديها الراسخين وكل بدنها يتفجر من بعيـد بالنـداءات ورائحـة صابون معطر تفوح من جسدها، وقطرات ماء تلمـع علـى شعرها الأسود الكثيف الممشط.. وأحس بسـخونة تلفحـه، وبمثل لذيذ يدب في كل جسده.. وفتحت ثغرها الدسم الشهي، فلاحت أجمل من أية امرأة عرفها ... ضعيفة متهالكـة فـي حاجة إلى أن يبسط عليها بدنه القوى ليحميهـا مـن قـوى مجهولة تروعها!..

واقترب منها وهو يمتلئ برائحة لحمها، رائحـة منعشـة ثقيلة في نفس الوقت... ولم يعد يشعر بغير أنفاسـها تتـردد على بعد خطوة منه وهو يكاد يشربها في رئتيـه ونخاعـه وأعصابه!

واستدارت هي في حركة سريعة، وانكمشت على نفسـها وهي تئن.. ثم قفزت كأنما تنتزع نفسها من لحظـة انهيـار، وأسندت ظهرها إلى باب الحجرة المفتوح علـى مصـراعيه

وأمامها تتخايل صور عديدة لزوجها، في دوامة تلوح هـي فيها أمام نفسها كامرأة من الفواحش، وكان زوجهـا يبصـق على وجهها الذي امتلأ فجأة بالأصباغ.. وأحسـت بنفسـها لبعض اللحظات كأنما هي كلبة إلى جـوار حـائط خرابـة، تشمها كلاب جربة منتنة غريبة، وتتابعت أمامهـا بسـرعة مذهلة صور زوجها خلال العشرين سنة التي عاشتها معـه في ضحك وبكاء واضطرام وملل وثقة في أيام أسعد، وخيل إليها كأنها تسمع من بعيد نشيج زوجها وهو يصرخ مجروح القلب... وهالها أن تسقط لمجرد أن زوجها تغيب عنها بعـد هذا العمر كله!..

وامتلأت أذناها بأصوات كالعواء والفحيح تـردد كلمـات العار والسقوط والخيانة والفحش والغش، وأحست في رقبتها بما لا نهاية له من الأصابع تشير إليها وتضغط على حلقهـا باستهزاء!..

وفتحت عينيها كالمجنونة فوجدت شيئا كاللهب يضـطرم في وجه "شكري" وهو يتقدم منها بإصرار... هـذا الرجـل الذي أحبه زوجها أكثر من أي رجل آخر!.. لم يكن شـكري

يقول شيئا... ولكن نظراته تريد أن تنتزع ثيابها على الرغم منها... وزعقت فجأة كأنها تستغيث:

- هو عبد المعبود طالع إمتى؟.. هو عبد المعبود حايقعد العمر كله في السـجن يـا شـكري أفنـدي!؟؟. دا عبد المعبود أخوك...

واهتز "شكري" كأنما تلقى على دماغه ضـربة مفاجئـة لا قبل له بها... وترنح لحظة وهو يراها متشنجة اليـدين على باب الحجرة، وصوتها ينطق باسم زوجها متشبثة به كغريق يمسك بالأعشاب في فزع وأمل، وفـي وجهـا تحفز النمرة أمام الخطر..

وانحط هو على الكنبة منبهر الأنفاس، يمسح وجهه بظهر كفه لاهثا.. وهو لا يرى أمامه فـي الحجـرة غيـر وجـه "عبد المعبود" يملأ الفراغ بنظرته الباسمة الطيبة الواثقة.

ولم يستطع "شكري" أن يطيق نفسه.

وعندما خرج من شقة "عبد المعبود" كان يشد نفسه علـى السلم قبل أن يدخل على ابنتيه، وهو يحمد ا لأنه لـم يقـل شيئا لامرأة "عبد المعبود".. لم يقل كلمة غزل، ولم تبدر منه إشارة واحدة تعبر عما احتدم في نفسه...

وتقزز وهو يذكر ما حدث، وحاول الهرب إلى الشـارع لكيلا يواجه ابنتيه ولكنه أدرك أنه بالجلباب...!

ودخل البيت ...

ولم يلحظ وجود "ميمي هانم" و "سعاد هانم" ... ومشى صامتا إلى حجرته، فسمع "ميمي هانم" تناديه، وهي تكاد تختنق بالدموع، وتوقف في الصالة وصوت الراديو يتصاعد خافتا معلنا بدء قراءة الشيخ "رفعت" ... وقالت "ميمي" مندفعة:

- أنا مش حاطول عليك يا عم شـكري بيـه.. الحـق أمين... دار عليه الضابط اللي اسمه كمال صـاحب عبد العزيز ده.

واستمرت "ميمي" وهي تغالب اندفاعها:

- دا عاوز يشغل أمين جاسوس يا عمي شكري بيـه... الحقني.. تصور انه فهمه انه يقدر يخلي الدايرة تسيب له البيت لو كتب له تقارير عن تلامذة الشارع.

فأجابها "شكري" وهو يدخل حجرته:

- جوزك طول عمره حمار.. فين هوه من راجل بطـل زي عبد المعبود؟..

وارتفع صوت الشيخ "رفعت"، وقعدت "ميمي" و "سـعاد" و "درية" و "سميرة" حول الراديو في خشـوع، بينمـا كـان "شكري" يلبس.

وخرج إلى الشارع مسرعا لا يعرف إلى أين يمضـي.. ومشى في طرقات الحلمية الجديدة يبهره الضوء الذي يمـلأ واجهات بعض البيوت، ويعمر قلبـه بالأصـوات المتعانقـة ترتفع من البيوت المتقابلة بالقرآن والتواشيح.. ولقي نفسـه أمام بيت "شويكار" وصوت مقرئ يرتفـع منـه.. وابتسـم لنفسه.. هي أيضا تحتفل بشهر رمضان!! ...

ثم استدار وهو يشعر بنهم خارق إلى التهام بقيـة كتـاب أسرار الاحتلال البريطاني.

وفي الصباح غادر بيته وهو مقتنع بأن يقعد في المطبعـة طوال النهار...

وسمع صوت امرأة "عبد المعبود" يأتي من حجرة ابنتـه "سميرة" وهي تقول لها ضاحكة:

- لا يا أختي.. أبوك ده مالوش قعاد من غيـر جـواز أبدا.! والنبي دا الست سعاد ما جرتشي.. ما نجوزها له يا سميرة!...

وأغلق باب الشقة وراءه، ورنين خافت من ضحكة "سعاد" يملأ أذنيه!..

(٢٢)

قام "عبد العزيز" من نومه متأخرا فلم يجد "عبده"... وظل يناديه ولكنه تذكر أن "عبده" مثل هذه الساعات من الضـحى يشتغل في المطبعة ولا يرجع منها إلا قبل مـدفع الإفطـار بثلاث ساعات بالضبط ليبدأ في إعداد الطعام...

وتناول "عبد العزيز" فوطة ومشى إلى دورة المياه، فوجد "عبد اللطيف" في الصالة يقرأ خطابا وهو يخفـي ابتسـامة ويهمس لـ "شوقي" مداعبا:

- قم يا واد يا نجس البس هدومك وسافر ع البلد.

وسمع "عبد العزيز" أخاه "شوقي" يقول في تحد خفيف:

- طب ما هي الأوامر صدرت لك انت كمان.

وسأل "عبد العزيز" متثائبا:

- صباح الخير. إيه الحكاية؟

وقال "عبد اللطيف" دون أن يرفع رأسه عن الخطاب:

- جواب من ابوك... بيسلم عليك بشدة!.

ودب نشاط مفاجئ في "عبد العزيز" ورفع رأسه المثقلـة من كثرة السهر، ومد يده فأخذ الخطاب من "عبـد اللطيـف" وبدأ يقرأ لنفسه بصوت غير واضح، ثم ارتفع صوته متابعـا قراءة خطاب والده وعينه تقع على "عبد اللطيف": "وعرفنـا أن الجامعة أقفلت، فلماذا يبقى "عبد اللطيف" في مصر، وإذا كنت أنت مضطرا للبقاء لأن امتحانك على الأبـواب فهـل تحتفظ بإخوتك معك لتسليتك؟."

ورفع رأسه عن الخطاب، ثم عاود القراءة "كنت أظنـك أكثر حرصا على مستقبلهم وأكثر تقديرا للمسئولية، ولكنـك تركتهم وهم بلا عمل، يعرضون أنفسـهم للرصـاص مـن ناحية، وللفساد من ناحية أخرى، فأنت تعرف القول المأثور: الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة" ...

وقاطعه "عبد اللطيف":

- جدة إيه؟.. وهو احنا واجدين حاجـة؟!.. فـين هـي الفلوس دي؟.. هو أبوك فاكر ان الفلوس اللي بيبعتها لنا دي اسمها جدة؟!

واطمأن "شوقي" قليلا وابتسم على الرغم منه، وكان في تلك اللحظة يفكر في معنى كلمة "جدة" ويقاوم حاجته إلى السؤال عن معناها...

واستمر "عبد العزيز" يقرأ: "هذا وأخبرك أن المدرسة الخديوية أفادتني أن شوقي مبعد عن المدرسة مع التلامذة المشاغبين ... فلماذا يقعد هذا الولد المنجوس في مصر وهو لا يذهب إلى المدرسة؟.. وأنا أقول لك في الختام أرسل إخوتك بمجرد وصول البريد وحذار من التأخير.. ولا تقولوا سننتظر حتى نسافر في إجازة العيد. هذا وأفيدكم أن الست والدتكم بخير ولكنها مشغولة عليكم فلا تتأخر في إرسال إخوتك وخصوصا الولد الصغير النجس، وأفدنا بسرعة عن موعد وصولهم، وربنا ينجح مقاصدك، وينصرك في الامتحان بنصر من عنده، ويحفظكم جميعا ويرعاكم بفضله تعالى، إنه سميع مجيب"..

ووضع "عبد العزيز" الخطاب في جيب البيجامة، والتقط الجريدة الملقاة على الأرض بجوار "شوقي" وهو يقول مغالبا ضحكة:

- اعملوا حسابكم تسافروا النهـارده.. وأولكـم الـواد النجس شوقي دهه!

وزعق "شوقي" مستنكرا:

- النهارده؟

بينما قال "عبد اللطيف" بهدوء:

- قول بكره والا بعده ...

وسكت "عبد العزيز" قليلا وهو يتثاءب ثم قال:

- طيب.. سافروا بكره أحسن.

فقال "شوقي":

- مش أبوي بيقول لك ترد عليه بموعد وصولنا.. لـو كتبت له دلوقت الجواب حايوصل بكـره. قـل بقـى نسافر بعد بكره..

- ونظر اليه "عبد العزيز" بدهشة:

- انت طول عمرك ما بتصدق تيجـي أجـازة وتـنط ع البلد اشمعنى المرة دي بقى مش عـايز تسـافر؟! لازم تسافروا بكره. مالكش دعوة انت بالرد وميعـاد

وصول الرد. وراك إيه؟ مواعيد؟! وراك راندفو بعد بكره؟!

وقال عبد اللطيف:

- أوعى يا واد تكون واخد راندفو من أخت سعد؟

واشمأز شوقي من المزاح في أمر كهذا، وأوشك أن يسأل "عبد اللطيف" هل معه هو موعد مع "ميمي هانم" ولكنه أمسك لسانه ولم يسترح للتفكير في هذا أيضا. وقال فجأة:

- اسكت أحسن "سعد" جاي دلوقت!!.

فقال "عبد اللطيف" وهو يتمطى ويزعق بحرية:

- أما الواد ده عليه حتة أخت وأم، وحتة خالة.. يا قـوة ا ! مش شويكار دي تبقى خالته يا واد يـا شـوقي والا بنت خالة أمه؟!. يا سلام على الحلاوة البيضة!.. ا يخيبكم..

ورنت ضحكاته في الصالة، فارتفع صوت "عبد العزيـز" من دورة المياه:

- ايه يا عبد اللطيف الكلام اللي عمال تفتح عليه عـين شوقي ده؟! انت يعني صابح غزالتك رايقة قوي كده يا أخي! كنت سهران فين امباح يا وله؟..

فقال "عبد اللطيف" بلا تحرج:

- كنا في "رتيبة وأنصاف رشدي". أمـا هنـاك حتـة استعراض بيغنوا فيه: "يا قميص اليوم يا محلينـي".. تقولشي جايبين له بنات من الجنة؟! إلا البنت الجديدة اللي اسمها تحية كاريوكا دي! مش تقول لي "رجـاء صدقي"؟..

وانتفض "شوقي" قائلا:

- يبقى أبوك له حق بقى؟. أمال مش عاجبك ليه بقى ان أبوك بيقول الفراغ والجدة.. يعني وجدت فلوس تروح صالة؟ بس شـاطر تقـول علـي نجـس!. وأبويـا ما يكتبشي اسمي إلا لما يقول المنجوس.. كأنه لقب!

وضحك "عبد اللطيف" بقوة، وهو ينظر إلى غضب أخيـه "شوقي" وحماسه... صحيح!! انك يا شوقي دوننـا كلنـا تحظى من أبيك وأمك بأكثر مما عرفنـاه مـن الشـتائم، والحنان والحب أيضا!. انت يا ولد آخر العنقود!! أبـوك

دايما يسميك النجس أو المنجوس، وأمك تسميك المخفـي، لكن انك انت ولأكبرنا أحمد مكانة خاصة عند أبي وأمـي لا أعرفها أنا ولا عبد العزيز!..

ورنت ضحكة "عبد اللطيف" مرة أخرى وهو ينظر إلـى غضب أخيه الصـغير، وهـزه أن يـتكلم "شـوقي" هكـذا كالرجال!.. وتشجع "شوقي" فقال:

- أصل بكره بالليل افتتاح الفرقة القومية الجديدة علـى مسرح دار الأوبرا الملكية حيمثلوا "أهل الكهف" وأنا و "سعد" قاطعين تذاكر.. لو كنت يا "عبـد اللطيـف" تكلم الدكتور "عبد العزيز" علشان يخلينا نقعـد بكـره ونسافر بعد بكره...

ثم توقف قليلا قبل أن يكمل بفرح ملحوظ:

- احنا شفنا البروفات.. اشتغلنا فيها امبارح كومبارس.. يا سلام!!

وسبحت نظراته قليلا، ثم قال بلهجة تمثيلية مسترجعا من الرواية بعض الكلمات التي بهرته...

- العقل ... آلة الأبعاد والمقاييس المحدودة!!.. الزمن؟!

وبهت "عبد اللطيف" وقاطعه بصرامة:

- كومبارس؟. دانت لازم تسافر من النهـارده! طـب دخلت فرقة التمثيل في المدرسة سكتنا، لكن تشـتغل كومبارس في فرقة وما نخلصشـي فـي سـنتنا!؟.. يا نهارك أسود ومنيل بنيلـة يـا واد يـا شـوقي.. كومبارس؟! انت مش بتقول قاطع تذاكر؟

هي حصلت تشتغل كومبارس!؟.

واضطرب "شوقي" عندما وجد سـحنة "عبـد اللطيـف" تنقلب، والحالة المرحة التي استولت عليه منذ الصباح تغيض في حنق مفاجئ.

عجيبة!!..

ولكن الساعات التي تسلل فيها هو و "سعد" إلى المسـرح ملأتهما بالخفقات الرائعة، وشعر كل منهما بسعادة لم يعرفها من قبل، وهو يتأمل في الرجال والنساء الذين تثير أسماؤهم نوعا من الشغف الغامض: "عزيز عيد" و "جـورج أبـيض" و "عزيزة أمير"!.. لم يشعر "شوقي" وقدماه تقرعان خشـبة مسرح الأوبرا بأنه يرتكب ما يشين... كان علـى العكـس يحس بفرح هائل، وتتفتح نفسه على آفاق غريبة، ويود لـو احتضن كل الناس، وتمرغ في الأرض والخشـب والظـلال

الزرقاء والأوراق التي رسمت عليها غابات وجبال وأبـواب قصور وأحراش.. لم يتصور أبدا أن هذا الشـيء يمكـن أن يغضب "عبد اللطيف"!... بل إن "شوقي" بالعكس خرج مـن المسرح يقول! "سعد" إنه يتمنى أن يكتب ويخرج مسـرحية مثل "أهل الكهف"... فقال له "سعد" بفرح: إنه يتمنى أن يدخل الحقوق ويكتب المسرحيات!

إن السهر عند "رتيبة وأنصاف رشدي" هو الشيء الشائن حقا لو تدري يا "عبد اللطيف"!.. وقميص النـوم والفتيـات اللاتي تتحدث عنهن!

وأوشك "شوقي" أن يطلق في وجه "عبد اللطيف" صـرخة احتجاج، ورفض كل ما يسمعه، ولكن "عبد اللطيـف" قـال بنبرة حزينة:

- كده؟!.. دا أنا كنت فاكرك يا شوقي بتروح اجتماعات سياسية وكنت فرحان بك!! دا لـو أمـك ولا أبـوك عرفوا انك بتنغرز في وسط الممثلين دول كانوا يقعوا من طولهم ميتين!

وتأثر "شوقي" ولم يستطع أن يتكلم، وواصل "عبد اللطيف" كلامه:

- مين اللي جرك هناك؟! لازم الواد "سعد"؟...

أيصنع "عبد اللطيف" مع "سعد" مثلما تصنع أم "سعد" مع "شوقي"؟! هي أيضا تظن أن "شوقي" هو الذي يجر ابنها إلى المظاهرات وإلى أماكن لا تعرفها...

ألا يعرف "عبد اللطيف" أن "سعد" مفتون به، وأنه يتمنى أن يدخل كلية الحقوق ليكون مثله!؟

وقال "شوقي" بضيق:

- أنا ما حدش يجرني أبدا. أنا اللي خدت سعد...

وعاد "عبد العزيز" من دورة المياه يقول لـ "عبد اللطيف":

- وا عال!.. يعني حضرتكم تروحوا تسهروا في الصالات، واحنا مغروزين في القصر العيني!.. يا سلام على الجهاد الوطني بتاع لجنة كلية الحقوق.

- ولم يعد "عبد اللطيف" في حالة تمكنه من متابعة المزا، فقال بضيق وهو ينظر إلى "شوقي" الذي راح يلبس بدلته:

- يا "عبد العزيز". دي ليلة وعدت يا أخي!

وسمع "شـوقي" نـداء "سـعد" مـن الشـارع... فقـال "عبد اللطيف" وهو لا يكاد يرفع صوته:

- أوعوا تكونوا رايحين تشتغلوا كومبارس دلوقت!

وأجابه "شوقي":

- لا ... دلوقت احنا فعلا رايحين اجتمـاع سياسـي... رايحين قهوة في باب الخلق نقابـل "عبـد الرافـع" وياخدنا على بيت واحد صاحبه. فيه اجتماع لمندوبي المدارس الثانوية والفنية! تحب تحضر معانا علشـان تصدق؟

ولم تعجب "عبد اللطيف" اللهجة المتحدية التي يتكلم بهـا "شوقي" فنهره قائلا:

- طب يا أخي خلاص... غور!

ثم تمتم:

- ما انت ان فلحت لنفسك.. ما فلحتش لنفسك.

وفتح "شوقي" باب الشقة مسرعا، ولكن "عبـد العزيـز" ناداه:

- خد هنا يا واد يا شوقي! انت رايـح فـين؟ ... هيـه وكالة من غير بواب؟ مش تقول لي رايح فين؟ إيـه اللي يسهر لي في صالة من غير ما يقـول، واللـي ينزل من غير حد ما يدرى به! إيه الحكاية؟ ما تروح كمان عند ميمي هـانم تسـهر معاهـا، والا تسـلوا صيامكم سوا زي جماعة.

وتضايق "عبد اللطيف" من هذا التعريض، فتدخل نـاظرا إلى "شوقي":

- انزل انت يا شوقي.. جرى إيه يا "عبد العزيز".؟ إيه الكلام ده؟ أصلك انت أول ما تتلم على شـكري بيـه ما حدش يسلم من لسانكم... انزل انت يـا شـوقي، واقف كده ليه؟...

فاحتد "عبد العزيز":

- ينزل ازاي؟ هو أنا طرطور فـي البيـت ده؟ مـش أعرف هو رايح فين... افرض أبوك طـب دلوقـت حا أقول له وا الواد خد الإذن من سعادتك!

فقال "عبد اللطيف" باستغراب:

- ما هو كل يوم بينزل يا عبد العزيز؟ اشمعنى النهارده يعني؟. يا سيدي عنده ميعاد! عندهم اجتماع دلوقـت. لسه البوليس لم يلتفت للاجتماعات النهارية!

وعاود "عبد العزيز" الرغبة في السخرية فقال:

- يا سلام يا سيدي على الاجتماعـات النهاريـة دي؟ يا سلام على فلسفتك؟ ما تبقى تتفلسـف كـده قـدام أبوك!.. طب روح يا سـي "شـوقي" الاجتماعـات النهارية. وكفاية عليك انت يا سـي "عبـد اللطيـف" الاجتماعات الليلية.. فـي صـالة رتيبـة وأنصـاف رشدي!

وتحرك "شوقي" متحرجا و "سعد" فـي الشـارع مـازال ينادي عليه، فقال له "عبد العزيز" وهو يسمعه يفتح الباب:

- ابقى فوت على المطبعة ابعت لي الواد عبده.

واندفع "شوقي" إلى الشارع، وأخذ "سعد" وأسرع بـه ... ولم يلاحظ ضيق "سعد" بالانتظار، ولا شروده، ومال به في اتجاه المطبعة فقال "سعد" محتجا:

- الميعاد في ميدان باب الخلق.

فهمهم "شوقي" بلهوجة:

- بس دقيقة واحدة حانفوت على المطبعة أنادي عبده.

وظل "سعد" واجما لا يتكلم...

وقبل أن يصلا إلى المطبعة، مص شفتيه بأسـف قـائلا بشرود:

- الواد عبده ده... قصدي صنف الخدامين ده كلـه! ... على كل حال!

وتنهد ... ولم يكمل.

والتفت اليه "شوقي" باستغراب، ثم تقدم وحده مسرعا إلى المطبعة فوجد "شكري" يقف أمام المكتـب، تغمـر وجهـه ابتسامة رضا والآلة تدور من وراء الحاجز الخشبي.

وسلم عليه ودخل ينادي "عبده" فأجابه "عبده" بإهمال:

- استنى دلوقت. مش فاضي.. أنا مشغول لشوشـتي!.. دهدي!

وقال شوقي محتدا:

- روح كلم الدكتور عبد العزيز يا واد يا عبـده.. هـو عاوزك ضروري..

فانفجر "عبده":

- طب وما له؟!. ما يعوزني!! دهدي.. طب وأنا أعمل إيه يعني؟ احنا في إيه والا هو في إيه دلوقت! احنا مش فاضيين لكده.. احنا دلوقت داخلين على جمعة العيد والشغل مغرقنا، انتو لكم عندي اني أجي قبل المغرب بتلات ساعات أعمل لكم لقمة الفطار.. احنا متفقين على كده من بدري.. ما دخلناش بقى في قولة كلم الدكتور.. والدكتور عايزك والحاجات دي؟! يعني نوقف المطبعة يا خواتي؟! روح انت بقى مع السلامة وأنا والدكتور لنا محدت مع بعض!

وضحك "شكري" من قدام الحاجز الخشبي قائلا:

- بلاش مهيصة يا واد يا عبده.. وتعال الناحية دي خلي الأسطى اللي قدام الماكينة يعرف يشتغل.

فرد "عبده" من الداخل:

- ما احنا بنشتغل أهه! دا أنا ايده اليمين. هو أنا أقدر أمشي من هنا؟ دي كانت المطبعة تقف.

وكان "عبده" يقف إلى جوار العامل العجوز يكلمه ويسأله عن كل حركة يقوم بها، وعن الحروف وتكوين الكلمات..

وأخذ "شوقي" يتأمله، وأعاد عليه أن "عبد العزيز" ينتظره في البيت، فقال "شكري" بصوت مرتفع ثابت مطمـئن فـي نبراته رنة ضحك.

- طب معلهش يا أسطى عبده، روح انت كلم الـ دكتور عبد العزيز بس ما تغيبش.

وخرج "شوقي" مسرعا، ووضع يده في يد "سعد" متجها به إلى "ميدان باب الخلق" قائلا:

- الواد عبده فاهم انه هو اللي بيدير المطبعة..

ولم يعلق "سعد". استطرد "شوقي":

- عمك شكري واقف جوه نافش كده ومبسوط ومزهزه كأنه يعني..

ولم يكمل "شوقي"، وصدمه تأفف "سعد"، وكثرة تنهداته..

مالك يا سعد؟!.. أنت أحيانا تشرد هكـذا.. ولكنـك فـي النهاية ما تكاد تلتقط شيئا يمكن أن تضحك له حتى تضـرب الأرض بقدمك وتظل تلوك الكلمات وتقهقه وتسـتدير فـي الشارع وتنط وتصخب!. ما لك؟! كأنك تحمل على رأسـك فاجعة!.. أهي أمك أيضا؟ أتشاجرت معـك اليـوم؟! آه لـو سمعت ما قاله عنها "عبد اللطيف"!!

وزفر "سعد" فجأة قائلا:

- أنتم يا أخي بتعاملوا عبده كده ليه؟ دا صنف الخدامين ده يستاهل الحرق!.. أنا وا العظـيم امبـارح بعـد السحور كنت حاخنق البنت ألطاف؟!

ألطاف؟..

ما هي الحكاية؟!

تكلم يا "سعد".

وانتظر "شوقي".. فأمسك "سعد".

وسأله "شوقي":

- ما لها ألطاف؟!

وأطبق "سعد" فمه تماما، واتسعت عيناه، واحمر وجهـه، وبانت في قسماته تعاسة مخيفة.. وأحس "شوقي" أن صـديقه يريد أن يبكي.. ونظر في عينيه فوجـدها منتفخـين، وفـي الجفون حمرة واحتقان.

أنت بكيت كثيرا يا "سعد"!.. ما هي الحكاية؟! يـا أخـي تكلم!

واقتربا من المدرسة الخديوية فقال "شوقي":

- تعال نبعد عن المدرسة أحسن الضابط كمال الصفطاوي قاعد وأول ما حيشوفنا حينادي لنا وحد يشوفنا. ما حدش متصور انه بيقعد يكلمنا عن ذكرياته في الخديوية ومسرح الخديوية وفي الأدب! أول ما بنقعد معاه يا عم بتبقى مصيبة!!.. على فكرة.. أنا ملاحظ أن كمال بيسهر كتير عند أمين أفندي اليومين دول! أنا ما قلتلكشي يا سعد.

ولم يجب "سعد"، ومال إلى شارع الخليج، ومال معه "شوقي" وتابعا سيرهما على الرصيف الضيق بلا كلمة.

يا أخي لا تكن متعبا هكذا.. كنت تلعن "ألطاف" فأكمل اذن!

ماذا؟ أحملت "ألطاف" رسالة من أحد إلى أختك يا سعد؟! ماذا يا سعد؟! تكلم يا أخي!.. ربما لو انفجرت بالكلام أو حتى بالبكاء لأرحت نفسك.. ولكنك لا تريد!.. لا شيء غير التنهدات.. أنت لا ترى وجهك المتقلص الذي يبدو لمن يراه كالحسرة المتحجرة!

وفجأة، وهما يقتربان من المقهى، قال "سعد":

- تعرف يا "شوقي"؟ ماما دي؟! أنا عمري ما حبتها قد النهارده!.. النهارده الصبح قعدت أبوسـها.. و.. و.. كنت حاقول لها.. لكن.. ما قدرتش.. لقيت الـدموع نازلة وصوتي مخنوق..

وعجب "شوقي".. وتوقف يتأمل "سعد" في ذهـول وهـو واقف على شريط الترام، ولكن الترام أقبل مسـرعا، فقفـز "شوقي" وشد يد "سعد" بكل قوة الذعر المفاجئ، وقفزا إلـى الناحية الأخرى قبل أن يدهسهما الترام فـي ميـدان "بـاب الخلق".

وقال له شوقي:

- إيه يا سعد؟.. انت عـاوز تنتحـر تحـت الترمـاي والا إيه!

فابتسم سعد بمرارة، ولم يتكلم!

وعلى باب المقهى.. وقف "سعد" يمسـح أنفـه ووجهـه بمنديله وأدرك "شوقي" أنه يمسح دموعه..

ولم يفهم شيئا.. وحاول أن يسأله.. ولكنه كان يطبق فمـه بإصرار، ويفتح صدره، وهما يدخلان المقهى.. حيث كـان

"عبد الرافع" ينتظرهما بصبر نافد.. واتجه بهما إلـى مكـان الاجتماع على الفور!

***

وبعد المغرب، لم يكد "شوقي" يفرغ من طعام الإفطـار، وليل رمضان يزحف وانيا على السماء، والمآذن ترتفع مـن بعيد بالأنوار الساطعة حتى سمع طرقات مضـطربة علـى الباب.

وأسرع "شوقي" يفتح قبل أن يقوم "عبده" عن طعامـه... فوجد أمامه "سعد" مضطربا..

وقال له "سعد" باختصار:

- أنا عمال أنادي لك م الصبح. إذا كنت كلات انزل. أنا مستني تحت.

ونزل "شوقي" بعد قليل، وهو يتساءل بينه وبين نفسه عن هذا الوجوم الشديد الذي استبد بـ "سعد".. إنه لم يتكلم اليـوم حتى في الاجتماع، وعندما رجعا معا لم يفلح "شوقي" أيضـا في إخراجه من صمته. لم يستطع أن ينتزع من أعماق "سعد" سر الشيء الذي يضنيه! إنه يقول كلمات سريعة عصبية عن الخدم.. وعن "ألطاف" بالذات.. ثم يغيض صـوته، وتنقلـب

الكلمات في حلقه إلى أنين حزين ليتحدث عـن أمـه بنـدم وإشفاق!

لم تتحدث يا "سعد" عن أمك من قبل بمثل هذا الصوت؟!. ما هي الحكاية؟ ليتك تقول وتـريح نفسـك وتريحنـي أنـا أيضا!.. أنت لم تعرف أنني مسافر غدا!.. ولكنك عرفـت.. أنا قلت لك حين رجعنا من الاجتماع، فبان على وجهك ضيق شديد وشيء مذهل كالرعب، ولم تقل كلمة!.. يا أخـي أرح نفسك وأرحني!.

ولكن "سعد" ظل يسير صامتا مع "شوقي" فـي شـوارع الحلمية الجديدة. واقتربا من المدرسة، وملأ "سـعد" نظـره منها، وتابع سيره، ثم صاح فجأة:

- يا للا نروح مكان زحمة! مكان كله ناس.. وزعيق!

وتوقف "شوقي" وقال بضيق:

- اسمع يا سعد. انت حيرتني!.. طول النهار مكتـوم، وما انتش عاوز تتكلم، وأطوارك غريبة جـدا. احنـا بكره حانشترك في أخطر مظاهرة! مش تفهمني إيـه الحكاية؟..

ولم يقل "سعد" شيئا.

ولكنه بعد قليل سأل "شوقي":

- تيجي نروح الأوبرا؟! دلوقت فيـه بروفـة جنـرال لمسرحية أهل الكهف.

فأجابه "شوقي":

- لا!.. ما تقول لي يا أخي إيه اللي مضايقك؟

ثم تسللت لهجة تمثيلية إلى صوت شوقي وهو يسأل سعد ببيت من مسرحية "مجنون ليلى".

- فيم أنت مطرق مفكر!

وعلى الرغم من أن سعد كان عادة يتهلل بالفرحة لمثـل هذه الجمل المسرحية التي تفتح أمامه لتوها آفاقا من الأحلام، إلا أنه أطرق.. وظل واجما.

وظلا يمشيان، ودخلا شارع محمد علي، وتاه صوتهما في ضجة المقاهي والترام.. وفجأة قال "سعد":

- إيه رأيك يا شوقي لما تعرف ان أبوك.. يعني.. إيـه رأيك في أبويا؟!..

وقال "شوقي" باستخفاف في محاولة لإضحاك سعد:

- أبوك؟!. يعني أبو زيد الهلالي يا سـي سـعد؟.. ا يلعن.

ولكن شرود "سعد" صدمه فلم يكمل..

وأخذ "شوقي" يتأمل وجه "سعد" الحزين المعـذب الـذي ارتسمت عليه التعاسة، وتخلت عنه كل رغبة في الضحك!.

وبدأ شوقي يتنهد وخفت صوته وهو يستجمع خيوط كـل ما سمعه من "سعد".

وقال بحنان مفاجئ:

- لكن إيه يا سعد!؟ ماله أبوك..؟

فانتفض "سعد" بذعر كأنه يمسك نفسه قبل أن يقع من على حافة هاوية فظيعة:

- ما فيش حاجة.. ما فيش حاجة أبدا! بعـدين بعـدين يا شوقي!.. أنا لازم حاقولك طبعا. بكره أقول لك..

ثم أطبق على شفتيه وشد عليهما كأنه يمنـع نفسـه مـن الكلام بالقوة..

وشعر كل منهما أن اللحظات تمضي بطيئة ثقيلـة وأنـه لا شيء يجمع بينهم الساعة ولا حديث يمكن أن يدور!

وقال "شوقي" بملل:

- مش نروح أحسن؟

واختلج "سعد" بغتة، وأطرق، ثم استدار في صمت، ومشى مع "شوقي" راجعين إلى شارع عزيز..

وقال له "شوقي" وهو يودعه:

- على كل حال يا سعد انت لازم تتشجع!. اجمد.. نام كويس علشان نعرف نشترك في مظاهرة بكره..

***

وفي ظهر اليوم التالي لم يستطع "شوقي" أن يعثر على "سعد" حين تفرقت المظاهرة.. كانوا يطوفون على بيوت الزعماء واحدا بعد واحد.. يهتفون بالجبهة الوطنية لتحقيق الاستقلال والدستور بلا شروط، ووعدهم الزعماء بأن يعلنوا تشكيل الجبهة فانصرفوا سعداء مزهوين لأن المظاهرات حققت الغرض منها ... وقرروا أن يذهبوا إلى الملك يطالبونه بتشكيل حكومة من الجبهة الوطنية.. ثم تقدموا في الطريق إلى القصر الملكي.

وفجأة هجم البوليس والجيش بالرصاص.

ووجد الطلبة من أمامهم ومن حولهم ومن ورائهم جنـودا كثيرين على ظهر الخيل.. ورأى "شوقي" طلبـة يسـقطون تحت سنابك الخيل الزاحفة، وسمع صـرخات فزعـة بعـد انطلاق الرصاص!.

ومن كل مكان، كان الرصاص أيضا ينطلق!..

وهرب "شوقي" من شارع جانبي هو وبعـض الطلبـة.. وبحث عن "سعد" وعن "عبد الرافع" فلم يجد أحدا منهما!..

وذهب إلى قهوة باب الخلق التي تعودوا أن يلتقوا فيهـا، وانتظر هناك طويلا، ولكن أحدا لم يجئ.. وقعد يسلي صيامه بمراقبة الذين يسلون صيامهم..

ولكن! يجب أن يقوم الآن ليعود إلى بيته، فهـو مسـافر اليوم.. اليوم؟ لا يمكن! فالليلة تقدم الفرقة القومية مسـرحية "أهل الكهف"! يجب أن يذهب مع "سعد" لمشاهدة المسرحية.. أيكون "سعد" الآن؟!. غير معقول!.. لا بد أن يجـيء إلـى القهوة!.. يا ترى يا "سعد" ما الذي كان يعذبك طـول نهـار الأمس!

وأخيرا.. غادر "شوقي" القهوة، ومشى متثاقلا إلى شارع عزيز!..

كانت الشمس إذ ذاك رائعة في زرقة السـماء، ورائحـة الشواء تملأ صدره.. كل الناس يستعدون للإفطار..

وتقدم في الطريق إلى شارع عزيز، يعبر الحواري التـي تقوم عليها البيوت القديمة المتهالكة.. لا أحد هنا يشعر بمـا حدث هناك: بالحصاد الوحشي الذي كان يقتلع حياة عشرات من الطلاب.. ومن يدري كم منهم سقط؟!

وفجأة.. سمع "شوقي" رنينا يملأ أذنيه.. رنينـا مفزعـا.. رنين صراخ هائل من ناحية شارع عزيز!..

ودق قلبه بسرعة! ما الخبر؟!

طالما شعر بخوف مبهم وهو يقبل إلى الشارع.. وطالمـا تخيل انه سيدخل البيت فيجد خطابا من البلد يحمـل أخبـارا مفزعة!!.. أهي أمه.؟ أيكون أبوه هو الذي مات فجـأة فـي البلد!!

وجرى وهو يحس في أعماقه بأشياء تتداعى، وبرعب!

وتخاذلت قدمه والصراخ يرتفع..

ولكنه اندفع، ودخل الشارع، فوجد زحاما أمام بيت "سعد"، والصراخ الفاجع يملأ الدنيا!..

ما هذا كله؟!.. أماتت جدة "سعد"؟.. ما هذه الكراسي أمام بيته؟! و "داود أفندي" هناك يحيطه "شكري" و "أمين".. وكلهم يبكون! وتقدم "شوقي" كأنه يمشي إلى النار؟!.. ما الخبر؟!.. "عبد اللطيف" أيضا يبكي!.. وأين "عبد العزيز"؟ هو يـروح ويجيء ويقول إنه ذاهب لإحضار الجثة قبل أن يشرحوها في القصر العيني!.. و " داود أفندي" يقوم ويمشي معه!.. كـان "سعد" هذا الصباح يريد أن يقول كلاما عنك يا "داود أفندي"!

وأقبل "شوقي" على الجالسـين، فوجـد "عبـد الرافـع" و "عطا ا "، و "شوكت المغربي"!.. كلهم يبكون!.. أنتم هنا كلكم، فأين "سعد"؟!

وتساءل "شوقي" ما الخبر؟.. وبحثت عينـاه فـي فـزع غريزي عن وجه "سعد" بين القاعدين!!.. أين "سعد"؟! سعد؟!

ولم يصدق ما سمعه أول الأمر!.

ماذا؟!..

كان "عبده" أمامه يلطم...

مات سعد!!.. قتل سعد!!.

مات سعد!؟.. مستحيل!

ووقع "شوقي" على الأرض.. وشعر بيد تنتزعـه وهـو يزحف على رجليه وصوته يختنق.. مات "سـعد"!.. ولكـن لماذا لم تتوقف الدنيا بعد عن الدوران؟ وأمسكوه.. وأقعـدوه على كرسي!.. وسمع "شكري" يقول:

- دي سنة الحياة يا ابني!.. لا إله إلا ا !.. يا رب!

وغاض صوت "شكري" فـي دموعـه، وأمسـك شـفته بأسنانه.. والصراخ المروع يرتفع من داخل شقة "سعد"..

مات سعد؟!..

كيف؟! مستحيل!.. ولكن الشمس ما زالت تشرق وبيـوت شارع عزيز كما هي لم تنهد على من فيها، ومن بعيد مازال يقف أطفال، وما زال يروح الناس ويجيئون.. والى جـوار "شوقي" رجل يسأل جاره.. ما زال يستطيع أن يسأل جاره:

- فاضل كام على مدفع الفطار؟..

الناس أيضا يفكرون في الطعام!.. وصوت "عديلة هـانم" يرتفع مذبوحا.. "اسم ا عليك يا ابني"!.. وشيء كـالجنون يصفر في أعماق "شوقي"!.. هذا كلـه غريـب!.. فظيـع.. ومذنب، ومضحك أيضا، وبشع!.. ومستحيل!.

وامتدت يد "شكري" تمسك بكتفه:

- اصبر يا شوقي يا ابني! بعدين تتجنن! دي سنة الحياة يا ابني.

الحياة؟! لا.. ليست هذه الحياة!.. إنهم قتلوه.. هناك تحت سنابك الخيل! هرسوا دماغه على حافة الرصيف!!..

ووجد "شوقي" نفسه يكاد يعض الأرض وهو يصـرخ: آه يا خوي: آه يا سعد.. يا خوي!

ومن حوله بكاء خافت تقطعه الهمهمة:

- دنيا!..

دنيا؟!؟ ما هذه الدنيا؟!

(٢٣)

نعم يا "شوقي" يجب أن تعيش، وما دمت تحيا فيجـب أن تحيا بحق!..

هكذا قال ذلك أخوك "عبد العزيز"، و "عبـد اللطيـف".. هكذا قال لك "عبد الحي" و "العم شكري".

و "شكري عبد العال" يحاول أن يقنعك بأن الحياة تجـري وتبتلع في جريانها كل شيء: المآسي الضخمة، والمضايقات الصغيرة.. الدموع والضحكات التي تـنعش البـدن فجـأة.. الضيق، والندم، والإحساس بالفاجعة، وكل شيء.. كل شيء تلتهمه الأيام والليالي!

صحيح يا عم "شكري"!

إن ستة عشر عاما سن صغيرة جدا للكآبـة والشـرود.. ولكنها أيضا أنسب سن!..

أنت يا "شوقي" لم تختر لنفسك هذه الفاجعة في سنك هذه! آه.. ستصبح يا "شوقي" ذات يوم في الثامنة عشرة، وتشـعر كما يقول "العم شكري" أن كل شيء ممكن حتى النسيان، وأن

الحياة كلها لعبة صغيرة في الحبيب!.. وعندما تصـبح فـي الأربعين يا شوقي سيمر بك خاطر حزين من الأيام الذاهبة، وتبتسم وأنت تذكر دموعك التي تذرفها هذه الأيام!. ثم تتذكر اللحظات الضاحكة التي عشتها مع "سعد" ذات يوم فلا تبكي، وإنما تضحك! ماذا يقول هذا "العم شكري"! وسيكون لك ابن، وربما نسيت أن تطلق عليه اسم صديقك الـذي تمنيـت أن تصحبه تحت التراب! ودافعت اللحادين وهم ينحدرون به إلى حفرة القبر!!

ولكن لا.. لن تبتسم أبدا يا "شوقي"!

وستظل تذكر هذه الدموع، ولو مر عليها مائة عام!..

لن تنسى أبدا اسم "سعد"..!

ولن تنسى أبدا يومه الأخير في هذه الدنيا.. ولا حيرتـه واضطرابه وقلقه وهو يحدثك عن "ألطاف" وعن أبيه، ويغلق فمه على السر الذي رحل به!!..

ليتك ألححت عليه!

ليتك لم تتركه في تلك الليلة من رمضان بعد مـا سـرت معه في شوارع الحلمية، وألقى بنفسه في ضـجيج شـارع محمد علي!..

كان يمكن أن يقول لك سره. ولكنك ضقت به!.

لماذا ضقت به؟!. لماذا تركته يمضي بآلامه وعذابه؟!

أيكون "سعد" هو الذي.. لا.. "يا شوقي"! لا يجب أن تشوه جلال بطولة الصديق!.. "سعد" لم ينتحر.. ولكنه استشـهد.. هم الذين قتلوه!.. سحقوه تحت سنابك الخيـل وهـو يهتـف بالحرية والدستور والاستقلال والجبهة الوطنية!..

ومع ذلك فما كان يجب أن يموت.. إن موته لم يخلق شيئا جديدا في حياة الوطن!

ولكن ماذا تقول؟ اسكت! يوم مات "سعد" أعلنت الجبهـة الوطنية.. كان هو آخر الشهداء.. وبعد موته بأيـام أعلنـت عودة الدستور!

ولكنك لن تنساه يا "شوقي" أبدا أبدا!! والذين يقولون لـك إن الحي أبقى من الميت، هم حمقى!.. كلهـم بـلا قلـب!.. الموتى أيضا – قبل الأحياء – يجب أن يعيشوا فـي قلوبنـا وذكرياتنا!

نعم. إن الحياة لا تقف لأننا نفقد الذين نحبهم، ولكن هـذا ليس سببا كافيا للجمود أمام الموت..!

مات "سعد" وهو بطل، وستحيا ذكراه كبطل. لم تكن هذه الكلمات التي قالها "عطا ا " في حفل تأبينه مجرد كلمات!

لكم بكى "عطا ا " واختنق صوت "عبد الرافـع". حتـى "شوكت المغربي" لم يستطع أن يرفع رأسه من ثقل الفاجعة!

"شوكت" دائما يحوم حولك في انكسار يريد أن يقول لـك أشياء، ولكنه لا يجرؤ. وهو على أية حال يعاملـك بحنـان غريب، ويبحث عنك في فسحة الغداء ويلازمك. لم يعد كما كان من قبل يرمي نفسه في ملعب التنس مع أولاد الذوات!.

و "عطا ا " أيضا ينظر إليك وشيء كالدموع والدم فـي عينيه لم تك العلاقات طيبة دائما بينه وبين "سعد"، ولكنه حين يذكره لا يجرؤ على أن ينطق باسمه من فرط الإجلال. إنـه يقول عنه "الشهيد" أو "الفقيد". "البطل الراحل".

عجبا.. أكان يجب أن يموت "سعد" ليظفـر بكـل هـذا الاحترام.

حتى ناظر المدرسة الذي اضطهده دائما، وقف في حفـل تأبينه ليتحدث عن الخسارة الفادحة. وكأن الموت يخلق مـن "سعد" كائنا جديدا يكتشفه فجأة كل الذين جهلوه.!

ولكنه أروع من كل هذا أيها الناس!

أروع من كلماتكم، ومن دموعكم. وأروع من هذه الحيـاة التي استمرت من بعده، كما كانت من قبل، كأنه لم يمت!

***

وعادت المدرسة ففتحت أبوابها، وأعيد الطلبة المبعـدون، واتخذ كل مكانه إلا "سعد"!.. لم يعد منه غير نصب تذكاري في مدخل المدرسة يضع عليه التلاميذ أزهارا نضـرة كـل يوم.. ومن يدري ماذا سيحدث بعد عشرين أو ثلاثين عاما؟! أتظل تتألق عليه الزهور؟!

وأعيد أيضا الشيخ "علي" و "ميخائيل أفندي" من الصعيد. كل شيء يعود إلا "سـعد" فمـا زال تحـت التـراب! وإلا "عبد المعبود"، فهو لم يعد بعد من سجنه.. وكان في عودتـه بعض العزاء!.. و "شكري عبد العال" يقول إنهم أفرجوا عن كل الطلبة المقبوض عليهم، ولكنهم لن يفرجـوا الآن عـن "عبد المعبود" فليس العمال كالطلبة.. إنهم يخافون العمـال، ويعاملونهم بطريقة خاصة ... بوحشية خاصة!..

ولكن لماذا قتلوا "سعدا" وحده؟! لكم تذكر يا "شوقي" فـي هذه الأيام تلك الكلمات الحزينة التي أبكتك وأنت صغير حين قرأتها في كتاب مدرسي قديم كان عند "عبد اللطيف".. وكان

ذلك وأنت صغير جدا.. كلمات رجل يرثي "علي بـن أبـي طالب" فيبكي معاوية عدوه على كلمـات الرثـاء، ويسـأل الرجل: "وكيف حزنك عليه يا ضرار" فيقول الرجل: "حـزن من قتل وحيدها في حجرها"!!

وأنت أيضا يا "شوقي"!.. تشعر بمثل هذا الحـزن علـى "سعد"!. ولا أحد غيـر "عبـد الحـي" يشـعر بمأسـاتك.. و "عبد الحي" يعيد عليك ما يحفظه من المراثي، فهـو يقـرأ الكتب وينشغل بها، ويعود من مدرسة دار العلوم كـل يـوم فيشغل نفسه بما أخذ في المدرسة، ويقول دائما إن الطلبة أدوا واجبهم ونجحوا وإن عليهم أن يعوضوا الأيام الأربعين التي أغلقت خلالها قاعات الدرس!

كل إنسان في الشارع مشغول، له ما يشغله!.. لا أحد يقعد معك في هبوط المغرب يبكي.. أم "سعد" وحدها تبكي هنـاك و "عبده" أحيانا يعود من المطبعة فينظر إليك ويـدعو لـك بالصبر!.. ثم يبكي هو الآخر!.. ثم يتمتم بالآيـات القرآنيـة التي حفظها عن "عبد الحي" تمجيدا للشهداء. **ولاَ تَحسـبن الذِين قُتِلُوا فِي سبِيلِ ا ِ أَمواتًا بـلْ أَحيـاء عِنْـد ربهـم يرزقُون * فَرِحِين بِما آتَاهم ا ُ مِن فَضلِهِ** .

كلهم يدعون لك بالصبر!.

"رجاء صدقي" هي الأخرى كلما رأتك طلبت منك أن تتشجع ودعت لك بالصبر!.. وهي الآن تسترد صحتها وتتردد على "عبد الحي" لتأخذ عنده دروسا في اللغة العربية لتتقدم.. لم يعد "عبد الحي" يأنف منها. وهو بالعكس يرحب بزيارتها ويمنحها الكثير من وقته ويشرح لها الشعر القديم والنحو والصرف.. ومسرحيات شوقي والمسرحيات العالمية المترجمة..

وهي تأمل – بشيء كالثقة – أن يعينوها في الفرقة القومية. فهي تعرف الآن من اللغة أكثر مما تعرف ممثلات كبيرات! وهي تلح على العم "شكري" أن يسعى لها عند أحد معارفه.

وهو متحرج بعض الشيء، ولكنه يرق لها يوما بعد يوم!

وحتى "أمين أفندي" يدعو لك بالصبر.. هو الآن مطمئن للمستقبل منذ أعلنت عودة الدستور، واستقر في ذهنه كل ما ظل "عبد اللطيف" يقنعه به من قبل.. لن يجرؤ أحد على انتزاع ملكية بيته!!.. وهو؟.. لم يعد يشك في "عبد اللطيف".

كل الناس مشغولون في شارع عزيز.. وكل الناس لديهم أسرار! يجب ألا يموتوا بأسرارهم كما مات "سعد"!.. قولـوا أسراركم لإخوانكم وأصدقائكم أيها الحمقى، فأنتم لا تعرفون متى تلفظون آخر أنفاسكم!.. لم يكن "سعد" يحسب أنه ذاهب إلى الموت.. كنا نحسب أننا سنعود ونحكي، ولكنه لم يعـد، ولن يعود إلى آخر الزمان!

قولوا أسراركم على الأقل للرجل الذي يرعاكم جميعـا.. للعم "شكري عبد العال"!..

ولكن العم "شكري عبد العال" هذا.. غريـب!.. عنـدما حكيت له يا "شوقي" ما قاله "سعد" عن أبيه وأمه و "ألطـاف" قبل موته بيوم واحد، طلب منك ألا تبحث عن سر "سـعد".. وقال بثبات ورسوخ: إن سر "سعد" مات معه، فلا يجـب أن يقلقه أحد في قبره بالبحث عن هذا السر!!..

لماذا غضب عليك ابنك "سعد" إلى هـذا الحـد يـا "داود أفندي"!

إنك لا تعرف يا "شوقي" كيف يمكن أن تلقى "داود أفندي" بعد اليوم!!

انتهى كل شيء؟.. لن ترى "داود أفندي" ولا "عديلة هانم".. ولا أخت "سعد". أنت ترى "درية" أحيانا عائدة من بيت "داود أفندي" بصحبة "سعاد هانم" أو امرأة "عبد المعبود" أو أختها "سميرة" فتحس بلفح الدموع في الجفون!..

انتهى كل شيء.. لن تدخل هذا البيت مرة أخرى!

***

ولكن "شوقي" دخل بيت "سعد" وتعود بعد ذلك أن يدخله!؟ كان الأمر صعبا أول الأمر..

شعر وهو يخطو عتبة الشقة لأول مرة أن "سعد" يموت مرة أخرى!.. ولكنه تعود. وأضاعت العادة حدة الانفعالات الأولى.. ثم زايله الإحساس الرهيب مرة بعد مرة.

قابلته "ميرفت" أخت "سعد" في الشارع، فاستوقفته وطلبت منه أن يجيء لزيارتهم.. وكانت منكسرة، في ثوب أسود رهيب.. وتبدو مطيعة، مستعدة لأن تسمع أي كلام يقوله "شوقي"!

ولم يجرؤ "شوقي" على أن يرفع إليها عينيه، كان يقف في الشارع، وهي تمر أمامه بعد أسابيع طوال لاستشهاد "سعد"..

أسابيع طوال لم يجرؤ خلالها على مجرد المرور من أمـام بيت "سعد".

وألحت عليه أخت "سعد" بجرأة يلهبها الحزن، وقالت لـه إن أمها تسأل عليه باستمرار، وتريد أن تراه..!

وهكذا دخل البيت الأول مرة بعـد "سـعد". ثـم أخـذت "ألطاف" تتردد عليه فتناديه ليكلم الست، وكلما استقبلته "عديلة هانم".. كتمت دموعها وأخذته بين ذراعيها وبـدأت تكلمـه كأنما هو "سعد" نفسه!.. وطلبت منه مرة وهو ينصـرف أن يأتي كل يوم، دون أن ترسل إليه.. لأنها تحس وهـي تـراه أنها ترى ابنها من جديد!.. وقبلته في شعره كما كانت تقبـل "سعد" في ساعات الصفاء.!

وكانت تفتح له حجرة الصالون التي علقت فيها صـورة كبيرة لـ "سعد" مجللة بالسواد..

وفي أول أيام زيارته كانت "عديلة هانم" تقف فجأة لـتكلم الصورة وتبكي.. فإذا انهار "شوقي" في البكاء. أخذت تسكنه بحنان بالغ!.

ولكن "عديلة هانم" لم تعد تفعل ذلـك.. وأخـذت تقبـل "شوقي" في الصالة، وتجلسه إلى جوارها على الكنبة، وتنادي

كبرى بناتها "ميرفت" أن تأتي بالطعـام لأخيهـا "شـوقي". أو تأتي لتقعد معه!. وكانت أحيانا تناديهـا "ميرفـت" وهـو اسمها المألوف، ثم تعود فتستدرك وتناديها "صفية" والـدموع تسطع في عينيها، وفمها مع ذلك يبتسم:

- الغالي كان في الآخر محكم رأيه يقول لها يا صفية.. وهو اسمها في شهادة الميلاد وفي المدرسـة! كـان يضحك ويقول أنا اسمي سعد زغلول، وهيه اسـمها صفية زغلول.

وعرف "شوقي" لأول مرة أن أخت "سعد" الكبرى اسـمها صفية.. وناداها باسمها لأول مرة.. ويوما بعد يوم أخذ يشعر بأن "صفية" هي أخته، وبأنه لم يكرهها أبدا.. آه.. إنه كـان يكره "ميرفت".. يحتقرها ولا يطيقها، أما صفية هـذه فلكـم تبدو رقيقة طيبة طاهرة، ونبيلة أيضا!!

"سعد" و "صفية"؟!. كيف اخترت هذين الاسمين يـا "داود أفندي"!!

***

وتمنى "شـوقي" ذات يـوم لـو أن أمـه هـي "عديلـة هانم"!..وبدأ يحكي لها عن المدرسة كما لم يحك لأمـه مـن

قبل!.. وكانت هي تسأله عن المدرسة والذين أحبهم "سـعد". وروى لها مرة كيف اعترف له "شوكت المغربي" وهو يبكي بأنه اتصل بالبوليس.. وأنه هو الذي وشى بالشـيخ "علـي" و "ميخائيل أفندي".. وأنه تقاضي نظيـر هـذا كلـه ثلاثـة جنيهات، وأقسم له أنه لن يعود.. وحكى لها "شـوقي" عـن "شوكت" ما لم يستطع أن يقوله لـ "سعد". حكى عن تعرضه لـ "ميرفت"!.. فأمرت "عديلة هانم" ابنتها "صفية" أن تسـمع كلام "شوقي"، فهو أخوها الآن.. ووافقت "صـفية" بإذعـان حزين!..

وفي الحق أن "صفية" لم تعد منذ مات "سعد" تسـتطيع أن تبتسم لأحد في الطريق!!..

أتراها يا شوقي لم تعد تحب اسمها البيتي القديم "ميرفت" لأنها خانت عندما كانت تحمل هذا الاسم ثقة "سعد" فيها!

إنها لراحة غريبة هذه التي تشعر بها يا شوقي وأنت هنـا في بيت "عديلة هانم" حيث كان سعد يمـلأ الـدنيا بأحلامـه وضجيجه وضحكاته وغضبه وصراخه ومرحه ودموعه..!

ولكن ما بال "داود أفندي"!؟. هو دائما صـامت لا يكـاد يتكلم!.. وهو لا يقعد معك أبدا يا شوقي! إنه دائما يسـتقبلك بترحاب كبير، ثم ينصرف ليجلس وحيدا!...

ولم يكن "داود أفندي" يقعد مع أحد من أقارب "عديلة هانم" الذين كانوا يترددون عليها.. حتى الباشكاتب "أدهـم" الـذي ما كان "داود أفندي" من قبل يتركه وحده أبدا مـع امرأتـه "عديلة هانم"!.. إنه الآن يستقبله بفتور، ثم يستأذن منه، ليخلو إلى نفسه!

***

وفي الحق أن "شوقي" لم يكن يضيق بشيء مثلما يضـيق بهذا الباشكاتب "أدهم بك".

"سعد" أيضا كان يكره هذا الرجل. وكان كلمـا زارهـم الباشكاتب استبدت الأزمة بنفس "سعد"!..

وأدرك "شوقي" لماذا كان "سعد" يتأزم. فالرجـل يعامـل "عديلة هانم" بلا حرج، وبجرأة سخيفة. وهو أحيانا يمد يـده عليها ببساطة.. قطعت يده!..

وهو يضيق بوجودك يا "شوقي"!. أخوك "عبـد العزيـز" أيضا يضيق بوجودك يا "شوقي" فـي بيـت "سـعد" دائمـا

ولا يفهم له معنى!.. ولكنه لا يكلمك في هذا الأمر!.. مـرة واحدة سمعته يكلم "عبد اللطيف" متخوفا على وقتك ومستقبلك وحتى صحتك من هذا الجو الحزين.. ولكن "عبد اللطيـف" قال له إن لكـل شـيء نهايـة. فلـم يعلـق علـى كـلام "عبد اللطيف"، ولم يشأ أن يكلمك أنت!

أما هذا الباشكاتب "أدهم بك" فهو كلما رآك عند "عديلـة هانم" تجاهلك، فإذا تكلمت أنت قاطعك ولم يترك لك فرصـة لتقول شيئا!!.. وهو ينظر إليك كولد صغير متطفل!

وفي كل مرة يسأل عليك من أنت؟! من تكون؟

وهو يحاول أن يضحك "عديلة هانم" ويتظارف أيضا مـع "صفية".. و "عديلة هانم" تداري ابتسامتها كلمـا تظـارف، وتتنهد!

عجيبة!.. لماذا لا يأتي "داود أفندي" ليقعد معه؟!

ولماذا كان "سعد" يكره هذا الرجل إلى حد مخيف؟! كـان يحمل له كراهية تملأ مائة قلب!.. أيكون هناك سر آخر مات معه؟

***

وذات مساء. أتى هذا الباشكاتب "أدهم بك".

كان هذا بعد ذكرى الأربعين.. وفبراير يزحف بدفء مبكر.. أتى لامع الشعر والشارب من الصبغة، وعلى ذقنه آثار البودرة والكريم، والخاتم الماس يلمع في إصبعه، ودبوس الياقة يسطع على رقبته، وفص لؤلؤ يلمع على رباط العنق ذي اللون الفاتح، والسلسلة الذهبية تشع على بطنه المتكرش..

وقعد في الصالون.. وبدأ يضحك ضحكات عالية بلا وقار وأمامه بالضبط على الحائط المقابل صورة "سعد" وهو يخطف إليها نظرات غريبة! كأنه استراح لموت "سعد" ...!!

وهكذا خيل لـ "شوقي"! كأنه سعيد لأن البيت خلا من "سعد"!

ونظراته إليك يا "شوقي" غريبة أيضا!. كأنها تأمرك بأن ترحل.. وبألا تدخل هذا البيت مرة أخرى!.

ماذا يريد منك هذا الرجل "يا شوقي"؟! وماذا يريد من السيدة المسكينة أم "سعد"..؟!

إنه يستل الضحكات منها بكلمات بلهاء، وهو ينظر إليها بطريقة مخيفة كأنه يراها أمامه عارية!. ونظراته لا ترحم حتى "صفية"!.. كلما دخلت أو خرجت تابع مشيتها بنظرة

خبيثة من تحت جفنيه المتكسرين.. أيها العجوز الأحمـق.. إنها لم تعد "ميرفت".. إنها كائن جديـد مـن نـور وأنـين ومأساة.. اسمها "صفية"!.. ولكنه يضحك دائما!! فمن يظـن نفسه؟!. إنه ليس في حانة ليطلق هذه الضحكات العاليـة!.. ألا يحترم الصورة التي تقعد تحتها "عديلة هانم"؟ تكاد روحك يا شوقي تزهق من سخافة كلماته.. ونظراته نفسها تتجه إليك كأنها صفعات!. إنه يراك ثقيلا وتشعر أمامه أن الناس ليسوا في حاجة إليك، وأنك زائد على الحياة!.

متى يقوم؟. أكان هذا الرجل "أدهم بك" في شبابه رجـلا حقا!؟ إنه مائع أكثر مما ينبغي لرجل!. متى ينصرف!. قـم من هنا قم!.

ولكنه ينتظر منك أن تقوم أنت!. هذا اللعين الذي أوشكت "ميمي هانم" أن تصفعه منذ شهرين لولا أن "عبـد اللطيـف" طرده!. ماذا أعد في ذهنه؟. أيحلم بأن يأخذ "عديلة هانم" بين ذراعيه!. أم لعله يفكر في "صفية"!..

اثبت يا "شوقي" ولا تخفض عنه عينيك، فربمـا تحـرج، وقام هو، ولكنه عاد مرة أخرى يشرع نظراته إلـى "عديلـة

هانم" ويطلق نكتة سـخيفة، وهـو يبـرم شـاربه القصـير المصبوغ.

وفي ذلك المساء لم تكن "عديلة هانم" تزم شفتيها لتخفـي ابتسامتها كما تعودت حين يحاول "أدهم بـك" أن يضـحكها، وإنما كانت تجاهد في حبس دموعها..

ولمح الباشكاتب انسكاب الدموع على خديها فقال بخفة:

- شوفي نفسك بقى يا ديدي!.. سعد ما بقى تراب بياكله الدود! استعوضيه عند ربنا وشوفي نفسك انتي!

ماذا يقول؟!. تراب وأمه الجليلـة المجروحـة أصـبحت عندك "ديدي"، وهو بكل شبابه وانطلاقه وحلاوة أيامه أصبح ترابا.. ترابا يأكله الدود!؟..

نشجت "عديلة هانم" بعنف وانهيار.. واهتز كل بدنها.

واختلج "شوقي" وشعر بأن هذا الرجل شيء كريه يهـين كل ما يقدسه "شوقي" ويسخر بدموعه وبـالموت والبطولـة، ويقتحم هذا المكان هذا المكان متحديا الذكرى العزيزة!.

كأنما هو شامت في موت "سعد"!..

وقام الباشكاتب وانحنى على "عديلة هانم"، وأخذ كتفيهـا بين يديه، وتسللت أصابعه تعبث علـى كتفيهـا وذراعيهـا وتهبطان إلى ما تحت كتفي السيدة المستغرقة فـي البكـاء، وعيناه تتأملان نحرها وصدرها وجسمها المتهشم المنـتفض تحت السواد، وهو واقف على رأسها!..

ورأى "شوقي" هذا كله.. وأحس بالاشـمئزاز والإهانـة والغثيان.

ودون أن يفكر وجد نفسه ينتزع يدي الباشكاتب من على ذراع "عديلة هانم" ويرميها بعيدا عن كتفها بعنـف وضـيق وازدراء.

وتأخر الباشكاتب مأخوذا من المفاجأة.. فتقدم "شوقي" إليه خطوة ودفعه بقوة وغيظ وهو يصرخ في وجهه:

- اطلع بره.. بره.. بره.

ولم يجب "أدهم بك".. ووقف حـائرا يرتعـد. ثـم قـال متلعثما:

- إيه ده يا ديدي ده؟! إيه الولـد ده؟ مـين الولـد ده؟ حوشي يا ديدي!!

وتقدم منها كأنه يستنجد بها، وشوقي يدفعه فـي غضـب هائل..

ولكن "عديلة هانم" انتفضت واقفة وكل بـدنها يـرتعش، وأشارت إليه أن يخرج وهي تنوح.

- بره!.. اخرس.. ما تقولش عليه ولـد! مـا تقـوليش يا ديدي؟! أخرج بره!. كلب! كلاب! كلاب!

وخرج "أدهم بك" بلا كلمة ووجهه المحـتقن تشـع فيـه صفرة باردة كالموت.. و "داود أفندي" يقبـل مـن الـداخل شاحبا.. وهو يهمهم:

- صحيح.. كلاب.. كلاب.!!

وكفت "عديلة هانم" عن البكاء.. وقعدت تنظر إلى "شوقي" بإكبار، بينما وقف "شوقي" يغالب دموعه!.

وعندما خرج "شوقي" إلى الشارع وجد "شكري عبد العال" مقبلا إلى منزل "داود أفندي"..

واستوقفه "شوقي" وروى له ما حدث في منزل "داود أفنـدي" فابتسم "شكري" وهز رأسه.. ثم قال وهو يترك "شوقي":

- على كل حال كويس. لكن خد بالك يا ابني شوية من عمك "داود أفندي" دا مسكين! مش طايق يكلم حد ولا يشـوف

حد.. الوحدة حاتجننه.. اضرب له مثل بي أنا. أنا كمان فقدت ابني الوحيد! وأديني عايش عادي أهه!

وانصرف "شوقي". وهو يفكر في "داود أفندي" الذي يهرب من كل الناس.. ومن الكلام!.. وفي أعماقه زهو بما حدث مع "أدهم بك".. زهو غمر كل اشمئزاز من الرجل وكلماته والطريقة التي يداعب بها "عديلة هانم".. ولكن "شوقي" عاد يفكر في آخر ما قاله "سعد".. في الكلمات الغريبة التي قالها عن "ألطاف" وعن أبيه داود أفندي..

هذا السر الذي دفن مع سعد!.

ولكن.. لم يعد من حق أحد أن ينبش على هذا السر كما قال العم "شكري عبد العال" ذات يوم!

وعندما عاد شوقي إلى بيته وجد في البيت ضجة فرح يجهد الكل في كتمانها، وعبد العزيز مع بعض أصدقائه يضحكون بحذر.

- ماذا؟!

ظهرت نتيجة بكالوريوس الطب، ونجح عبد العزيز بتفوق! ما زالت الحياة قادرة على أن تقدم الأشياء السارة!

(٢٤)

أحس "شوقي" بكثير من الزهو وهو يتطلـع إلـى أخيـه الدكتور "عبد العزيز" يروح ويجيء بالبالطو الأبيض الناصع في الحجرة الفسيحة المليئة بالأدوات الطبيـة، ومـن حولـه فتيات في مرايل بيضاء يسألنه، وهو يصدر الأوامر ببساطة.

لكأنك يا "شوقي" تملك مستشفى قصر العيني.. هذا الـذي يعمل فيه أخوك!.. الكل تحت أمره هنا، وتحت أمرك أنـت طبعا.. والفتاة الطويلة الممتلئة المسترخية الأهداب، بشعرها الفاحم، تحت غطاء الرأس الأبيض الـذي يحـيط بوجههـا الهادئ الباسم، تنظر إليك كأنما أنت أخوها الصغير.. وهـي تقف إلى جانب أخيك تساعده وتصدر عنه بعض الأوامـر، والفتيات يرحن ويجئن يقلن لها "الست الحكيمة".. وهي تترك مكانها أحيانا لتشرف على نظام طابور طويل من الرجـال، وتعري هي صدر كل من يـدخل وتقدمـه إلـى الـدكتور "عبد العزيز" فيخبط على الصدر بأصابعه ويتحسس الظهـر

والصدر والقلب بالسماعة الطبية ثم يكتـب كلمـات علـى ورقة.. ويسلم الورقة للمريض.. قائلا بخفة "غيره!".

ما أروع هذا كله.. ليتها كانت هنا لتشاهد "عبد العزيز".. ليتك كنت هنا يا صفية!.

ليت "صفية داود" كانت معك الآن يـا "شـوقي" مكـان "عبد الحي" الذي يجلس إلى جوارك محملقا في "عبد العزيز"! وتنبه "شوقي" على صوت يرتفع مرحبا به:

- ازيك يا شوقي أفندي.. سلامات كده!.. دا انت باسـم ا   ما شاء ا   فحلت وبقيت فلق أهـه!. جـرم زي حضرة العمدة..!

وأقبل رجل يلم جلبابه ويرخيه على صدره العاري بعد أن فرغ من الكشف.. وسلم على "شوقي" وهـز يـده بشـوق.. وبحث عن كرسي ليقعد فناداه "عبد العزيز":

- ا .. هيه مضيفة!؟ اطلع هات الدوا وانجر ع البلـد على طول.. ا ! مش كفايـة مشـغلين المستشـفى لحساب أهل البلد.. حاتعملوه قهوة كمان!

ورنت ضحكة الحكيمة وقالت:

- دا الأسبوع ده حملته خفيفة!.. ما جاش من بلادكم غير عشرة بس يا دكتور!

وأسرع الرجل يسلم على "شوقي" و "عبد العزيز" وخرج وهو يقول متباطئا:

- الدوا حانصرفه منين بقى؟!.. وحاندفع فيـه فلـوس يعني؟!

فزعق فيه "عبد العزيز":

- التمرجي اللي ع الباب حايوريـك تصـرفه منـين.. وحاتصرفه بلاش.. انبسطت؟ عاوز فلوس كمان!؟ قل بصراحه!

وتكسرت ضحكة الرجل وهو ينصرف:

- مستورة والحمـد ا . برضـه العشـم فيـك كـده يا أبو خليفة!

وعندما خرج التفت "عبد العزيز" إلى "شوقي" ضاحكا:

- كل يوم والتاني ينط واحد من أهل البلـد يقـول لـي حضرة العمدة باعتني.. أمال قبل ما اتخـرج كـانوا

بيعملوا ايه؟.. أبويا بس عمال يبعت. فاتحين القصـر العيني لحساب بلدنا..!

وتنحنح "عبد الحي" الذي كان يجلس صامتا وقال بتأنق:

- ما هم أهل الريف كلهم مرضى وفي حاجة إلى رعاية طبية.. يجب يا دكتور بعد أن زالت حكومة الأقليـة ونحن الآن في عهد حكومة الإصلاح.. يجب وأنـت سيد العارفين توفير العلاج لكل مريض، والخبز لكل جائع، والعمل لكل عاطل، ويجب أن..

وقاطعه "عبد العزيز" ضاحكا:

- ا ! انت في مظاهرة يا "عبد الحي"! وفر الخطب دي للانتخابات!.. حاتشبع فيها خطب!

وضحكت الحكيمة.. وعاد "عبد العزيز" يفحـص صـدر المريض الذي كان يقف أمامه ويتحسس ظهـره بسـماعته الطبية وهو يشخط:

- يا أخي كح.. كح بعزم ما فيك.. كح يا شـيخ الغفـر زي ما تكون ماشي في البلد وعاوز كحتك تصـحي الغفر!!

وعندما فرغ طابور الرجال التفت "عبد العزيز" إلى أخيه "شوقي" قائلا:

- هه يا شوقي؟ تطلع دكتور بقى!؟. والا برضه عـاوز تخش الآداب..

فقالت الحكيمة وهي تنظر إلى "شوقي" وتفحصه:

- دا أصغركم بقى يا دكتور؟ دا شكلك بالضبط.. سبحان الخالق الناطق.. دا الدكتور عبد العزيز الصغير!.

وارتاح "شوقي" وهي تتأمله بنظراتهـا الحانيـة.. بينمـا استمر "عبد العزيز" يقول لـ" شوقي":

- والا تخش دار العلوم أحسن!؟

وانفلتت ضحكة من بـين شـفتي الحكيمـة، وتضـايق "عبد الحي" وهمهم:

- ومالها دار العلوم بقى؟.. هيه يعني بقت مهـزأة؟!.. حانرجع للهزل يا دكتور؟

وتقدم "عبد العزيز" إلى "عبد الحي" مسترضيا وهو يقـول للحكيمة:

- حضرته الأستاذ عبد الحي.. واحد مـن زعمـاء دار العلوم.. نار على علم.. والا علم على رأسـه نـار؟ جارنا واخونا ومن زعماء الشباب الوطني، وفيلسوف الغبرا زي ما هو باين.

وهزت الحكيمة رأسها مبتسمة، وخرجت خفيفة نشـيطة كنسمة تمر! و "شوقي" مأخوذ بقامتهـا ونظراتهـا وجمـال وجهها في الإطار الأبيض الذي تلبسه الحكيمات.. له حـق من أسماهن ملائكة الرحمة!

وجلس "عبد العزيز" إلى المكتب الأبـيض فـي أقصـى الحجرة وأمامه "شوقي" و "عبد الحي".. وقال لـ "شوقي":

- ا ! على فكرة. دي الساعة اتناشـر ونـص. انـت مارحتش مدرستك النهارده ليه يا "شوقي" انت..

فقاطعه "عبد الحي":

- جرى إيه يا دكتور؟ انت ناسي ان النهـارده أجـازة للمدارس بقرار من لجنة الطلبة.. نسيت أن النهـارده ١٥ مارس عيد الدستور؟

ورد "عبد العزيز" بشيء كالضيق:

- ياه.. وا الواحد من يوم ما اشتغل في القصر العيني ما هو حاسس بأجـازات.. العيـادة الخارجيـة فـي الصبح... ونبطشية السهر بالليل.! الواحد نفسه يشوف شارع عزيز! على كل حال آهي هانت.. كلهـا كـام شهر، والواحد يا إما يشتغل نايب في القصر العينـي ويشبك في بعثة.. يا إما بقى يرمونا في أي بلد فـي مستشفيات وزارة الصحة أو وحدات البلهارسيا!

وسكتوا جميعا.

وشرد "عبد العزيز" بعض الشيء.. وتشابكت يداه علـى المكتب، وهو يضغط على أصابعه ويتسمع ما تحدثـه مـن طرقعة..

ثم عاد ينظر إلى "شوقي" بحنان ويفحصه بنظراتـه فـي صمت؟

وسأله:

- أمال فين أخوك عبد اللطيف؟ ما جـاش معـاك ليـه ما دام النهاردة أجازة؟

وأكمل بابتسامة ماكرة:

- وازي أمين أفندي وازي أحواله؟ وازي عبد المعبود؟ وا الشارع واحشني خالص.. دا عم شـكري كـان عندي امبارح هو وكمال الصفطاوي.. أنا سمعت أن الواد عبده زعلان. خدو بالكم منه يا شـوقي أحسـن انتم عارفين أن زعله بيزعل أبوك.

وأجاب "شوقي":

- احنا بنعامله كويس جدا زي العادة..

فتدخل "عبد الحي" وجر كرسيه واقترب من عبد العزيـز قائلا بخطورة:

- عبده مقهور ومهزوم من مسألة تانية. أنا أقـول لـك يا دكتور.. حاكم حكاية البنت ألطاف دي...

ولم يتركه "عبد العزيز" يكمل، وضحك، وخبط بيده على كتف عبد الحي قائلا:

- وانت يا عبد الحي حاسب على نفسك اليومين دول.. أحسن تستهوى تاني وترجع تبعت عبده لميمي..

فقاطعه "عبد الحي" ضاحكا:

- دا ميمي وأمين أفندي ما حدش طايقهم من الفرحة اليومين دو.. مش ممكن يتخانقوا مع حد أو يزعلوا من حاجة!. البيت قعد لهم، والدايرة انكتمت ومش قادرة تهوب ناحيتهم، وأمين كل يوم والتاني يقول أنا لو كنت فاهم ان عودة الدستور حاتحفظ لي بيتي وحقي كده كنت وزعت منشورات بنفسي ومشيت في المظاهرات إن شاء الله حتى انضرب بالسونكي.. تقولشي يعني النائب الجريء سينوت بك حنا..

وارتفعت الضحكات.. و "عبد الحي" يكمل:

- والا الواد يعني كان محطم السلاسل ويصلا بك واصف!

وعندما هدأت الضحكات مال "عبد الحي" على "عبد العزيز" وهو ينظر إلى ساعة على حائط الحجرة في مواجهته، وهمس:

أنا كنت عاوزك في موضوع كده يا دكتور قبل ما تروح... لا أحب طبعا أني أتكلم فيه قدام شوقي لأنه محرج شوية!..

وعندما مال "عبد الحي" ليهمس لمح "عبد العزيز" منـديلا يلاف رقبة "عبد الحي" تحت ياقة القميص.. فقاطعه!

- ايه ده.. رابط المنديل الوسخ ده ليه على رقبتك كده؟

فأجاب عبد الحي بسرعة ليعود إلى ما يريد أن يتحـدث فيه:

- لا لا.. دا طلوع بسيط كده في رقبتي.. الشـاهد أنـا عاوز أكلمك في موضوع هام وخطير وسري للغاية..

ولكن عبد العزيز استمهله حتى يرى ما في رقبته..

وفك "عبد العزيز" المنـديل عـن رقبـة "عبـد الحـي" و "عبد الحـي" يحـاول أن يمنعـه متضـررا.. وفحـص "عبد العزيز" الرقبة فشهق ورمـى المنـديل علـى الأرض صائحا:

- طلوع؟ دا خراج يطلع روحك! انت ماشي بالخراج ده ازاي؟ ده يوقع جمل!. إيه اللي انت مدهولة في نفسك ده؟. ا يخيبك! انت عاوز تتسمم.. انت حاطط قشرة بصلة!

وأسرع عبد العزيز إلى الباب ينادي ويصفق.. وعـادت الحكيمة فدفع اليها "عبد الحي" قائلا:

- خديه على قسم الجراحة بسرعة وا يا ست..

وقال "عبد الحي" وهو يخرج متباطئا:

- مش ده القصد! هو أنا فاضي؟ أنا عاوزك في موضوع آخر مش ده المعنى! أنا جاي أكلمك في مسألة خاصة بشخص آخر.

ولكن "عبد العزيز" دفعه فخرج مع الحكيمة وذهب "عبد العزيز" يغسل يديه بمطهر ثم عاد يجلس إلى مكتبه وأمامه "شوقي".

وشعر "شوقي" بفراغ في الحجرة.. وأحس بغتة بالحاجة إلى وجود أخيه "عبد اللطيف"!.. تعود على هذا الشعور دائما كلما وجد نفسه وحيدا مع "عبد العزيز" أو مع أخيهم الأكبر أحمد أو مع أبيهم!..

وجود "عبد اللطيف" هو الذي يزيل الحرج الذي يقوم فجأة بينه وبين أبيه، أو واحد من إخوته الكبار!.

وأدرك "عبد العزيز" حرج أخيه الأصغر "شوقي"، وإحساسه بالفراغ فقال في حنان:

- ازاي أحوالك؟ إيه رأيك بقى في حكاية دخولك الطب..!

ثم استطرد وهو يلاحظ تحرج "شوقي":

- انت عامل إيه في المذاكرة؟

فرد "شوقي":

- كويس.

وغمرهما صمت يفيض بالحنان الساكن.

ودس "عبد العزيز" يده في جيب البنطلون وأخرج قطعـة فضية من ذات العشرين قرشا وقال لـ "شوقي":

- طب خد. نزه نفسك. اتفسح كويس أحسـن دا انـت وشك أصفر وحالتك عبرة!

وقال "شوقي" بحرج:

- ما أنا خدت منك في أول الشهر.

ولكن "عبد العزيز" ألح ضاحكا:

- خد بس.. يعني حالف عليهم يا أخي.. بـس اوعـى تدور بالفلوس دي كده والا كده!

وتناول "شوقي" الريال ضاحكا، ودسه في جيبه بارتيـاح ونظراته تلتقي بنظرات أخيه الساطعة.

وانفتح الباب ببطء، وأطل منه وجه نسائي ممتلئ أسـمر يقول في همسة مداعبة:

- فاضي؟.. بونجور يا دكتور.. ازيك يا عبد العزيز..

ودخلت فتاة تملأ الحجرة بعطر هادئ.. وفوجئ شـوقي بدخولها ولكنه تعرف عليها.

كانت هي رجاء صدقي، يتورد وجهها، وقوامها ممتلـئ، وفي عينيها لعب لم يعرفه من قبل!.

لكم تغيرت!!. انه لم يرها منذ شهور! لماذا تدخل هكـذا بكل هذا الدلال؟!.

وقالت "رجاء" وهي تلوح بورقة سوداء لامعة في يدها:

- الأشعة أهه يا عبد العزيز.. شوفها انـت يـا أخويـا بقى؟.

واختلط الضيق بالحرج في صدر "شوقي".. لماذا لا تنادي أخاه كما يناديه الآخرون: "يا دكتور"؟!..

واحمر وجهه وأحس أنه يجب أن ينصرف، ولكنه لم يشأ.

واستمرت "رجاء" تقول بنفس الخفة:

- بيقولوا الأشعة هايلة خالص.

وتناول "عبد العزيز" منها صورة الأشعة وأخذ يعرضـها على ضوء الشمس في فتحة شباك الحجرة، وهمهم:

- ما بتسلميش على شوقي ليه؟ انتم مخاصمين بعض؟

والتفتت هي إلى "شوقي" وهي تـدق صـدرها متلطفـة بكلمات منغمة شائعة من منولوج فكاهي للمنولوجست سـيد سليمان:

- أنا لا أتـذكر! آسـفة قـوي يـا شـوقي.. دا أنـا ما عرفتكش! انت خاسس قوي كده ليه؟! انت كفى ا الشر يا أخويا بتحب!؟

وضحكت ونظرت إلى "عبد العزيز" فوجدته مستغرقا في تأمل صورة الأشعة. ولم يضحك شوقي.

وقال بعناد وضيق:

- أنا برضه ما عرفتكيش أول ما دخلتي.

وضحكت بخفة.. ثم مطت صوتها:

- وماله؟.. طب ود.. ما.. له!

ولوحت بكلتا يديها ساخرة كأنها تحدد في الهواء مسـاحة جسم ضخم:

- ما انا عقبال أملتك عماله اتخن واتخن! أنـا عارفـة واحدة زيي تقدر ازاي تمثل غادة الكاميليا؟!.. دا أنـا ناقص لي شوية وأمثل أم أحمد!..

ورنت ضحكتها:

- دا أنا حابقى أتخن شنب!

واتجهت إلى "عبد العزيز " قائلة:

- اسمع.. أنا لازم أعمل رجيم! مش معقول كده! شايف أنا تخنت قد إيه يا عبد العزيز؟

وصاح "عبد العزيز" بارتياح دون أن يلتفت إلى ما قالته:

- عال! كويس! الأشعة فعلا كويسة جدا. دا انت تقدري دلوقت تجري وترمحي وتخشي سبق كمـان. مـش تمثلي بس!

- وتقدمت تجلس على الكرسي الذي كان يجلس عليـه "عبد الحي" ولاحظ عبد العزيز أنها تجلـس بحـذر.. الفستان يكاد ينفتق من على خصرها الذي امتلأ، ومن على صدرها الذي اكتنز بشكل لافت.

وعاد "عبد العزيز" يجلس على مكتبه ويضع أمامه صورة الأشعة قائلا:

- بس برضه أنا رأيي تسكني في بيت فيه شمس وهـوا متجدد. شارع عزيز ما ينفعكيش.

وقالت بسخرية تخفي المرارة:

- لما ربنا يعدلها أبقى اسكن في شقة فيها شـمس.. ان شاء ا حتى تكون في هليوبوليس! دي ماما لا يمكن تفرط في شقة بالأجرة اللي احنا بندفعها! الحقيقة انها لقطة!

وشردت نظراتها... وهب عبد العزيز كأنما تـذكر شـيئا هاما:

- على فكرة يا رجاء.. أنا عندي لك حتة مفاجأة. خبـر سار جدا. تحذري إيه؟

ودق قلبها واتسعت عيناها وتطلعت بلهفـة إلـى وجـه "عبد العزيز" الذي بان عليه الجد.. بينمـا اخـتلج "شـوقي" وأحس بريقه يجف..

خبر سار!.. أممكن هذا؟.. أية مفاجأة أيضا؟. إننـا فـي عصر المفاجآت الغريبة التي تهبط بلا منطق!.. هكذا مـات

"سعد"! وهكذا يتحدث شارع عزيز عن خطبة غريبة تمـت منذ أسبوع .... خطبة لم يكن يتوقعها أحد علـى الإطـلاق ولا يدري أحد كيف تمت: الضـابط "كمـال الصـفطاوي" و "سميرة" بنـت عـم "شـكري عبـد العـال "!.. أيريـد "عبد العزيز" أن يعلن أمامك الآن مثلا خطبته لـ ـ "رجـاء صدقي"!.. ولم تستطع "رجاء" أن تسيطر علـى أعصـابها بعد!..

ووقفت في قلق.. وتقدمت من "عبد العزيز" وهو جـالس على مكتبه الصاج الأبيض ينقر بأطراف أنامله، وانهـارت فجأة:

- اتكلم يا عبد العزيز.. قول لي إيه المفاجأة السارة جدا دي.. ما فيش ألطف منك لما تقول جدا؟!

- خير لك أن تنسحب الآن يـا شـوقي!.. إن "رجـاء" توشك أن تلقي رأسها على كتف "عبد العزيز"، وتقبله أمامك!. لا تشهد هذا أيضا! وارحمتا لأمك وأبيك في البلد؟ ليتك يـا "عبـد العزيـز" فكـرت فـي فتـاة كـ "صفية".. أنا منذ لحظات تخيلت أن الحكيمة التي كانت تقف هنا معك، يمكن أن تصبح زوجة لـك!..

ليتك تفكر فيها هي بدلا من "رجاء"!.. لو أن "رجـاء" وقفت إلى جوارها لما شعر أحد بوجود رجاء!..

واندفع "شوقي" إلى باب الحجرة، فاستوقفه "عبد العزيـز" ثم قال لـ "رجاء" بنفس الخطورة:

- أنا باقول لك حلمك تحقق! طيب اسمعي يا ستـي ... استعدي يا رجاء.. امسكي أعصابك كـويس.. انـت خلاص اتعينت ممثلة في الفرقة القومية! شكري بيـه قال لي النهاردة الصبح ان صديقه وكيل الحربية بلغه أن وزير المعـارف أمـر بتعيينـك فـي الفرقـة.. وحاتستلمي من أول أبريل.. دي مش كذبة أبريل؟

ووقف "عبد العزيز" يضحك بطلاقة، بينما انحطت "رجاء" على الكرسي، عاجزة عن مواجهة الموقف، وكل نبضة فيها تهتز وفي عينيها يختلط الغيظ بالراحة والدموع بالابتسامة.. ولم تعد تعرف أتشكر "عبد العزيز" وتقبله، أم تهجـم عليـه فتنشب أظافرها في عنقه وتنتزع لسانه من فمه!..

لماذا يلعب بأعصابها إلى هذا الحد!؟ الخبـر سـار حقـا ولكنه لم يكن هو الخبر السار الذي تنتظره من "عبد العزيز" بالذات! إنها حلمت دائما بأن تمثل وأن تعين فـي الفرقـة..

ولكن عندما يحدثها "عبد العزيز" بالذات عـن الحلـم الـذي يتحقق.. فهذا شيء آخر!!

أكان يخدعك يا "رجاء".. أكانت خديعة كل هذه الساعات الطويلة من الحب، ولهفته عليـك وأنـت راقـدة تبصـقين الدم؟! ... ودموعه؟!.. واختلاط أنفاسه بأنفاسك يا "رجـاء" وعرقك الذي امتزج بعرقه.. أكان كل هذا خديعة أيضا!؟..

أتسللت الخديعة إلى فراشك وأعماق بدنك وإلى الرعشـة الحلوة في أعصابك، والى السخرية الدافئة اللذيذة التي منحك "عبد العزيز" من خلالها أجمل ساعات العمر!! ...

ربما كان يحسب أنك منحت هذا لرجال غيره!..

المجرم!.. الخادع!..

ولكن.. ولكنه لم يقل لك أبدا إنه يريد أن يتزوجك!. أنـت التي أعطيته أكثر مما توقع. كان يحنو عليك وأنت مريضة، وهو الذي حمل الدواء وسهر إلى جوارك وأخذك إلى أساتذته في القصر العيني ليعالجوك! وكان يقبلك حين تتحدثين عـن الموت ويتحدى العدوى ببهجة!.. ومع ذلك فلم يهمس لك في أذنك يوما بأنه يحبك!.. كنت ترين شبح القبر البارد عنـدما

تختنق أنفاسك في طوفان الدم، فيحدثك عن الحياة والمستقبل، ولم يحدثك عن الحب أبدا!..

أنت التي منحته فوق ما يريد وما يتوقع عنـدما توهمـت ذات ليلة وأنت ترين "ميمي" تخرج معه بلا حرج، أن "ميمي" يمكن أن تسيطر عليه، وهي تملـك مـن الفتنـة واحتـرام الآخرين ما لا تملكين!.. هو لم يخدعك يـا بنـت!.. أنـت تستأهلين!..

أنت وحدك حلمت بأن تعمري له بيته، وأن يكون لك منه أولاد وأن تقفي إلى جواره في ثوب أبـيض وهـو يجـري العمليات!

وحلمت كثيرا يا "رجاء".

تفكرين في البيت والأطفال، وهو لا يفكر إلا في "رجـاء" المرأة التي ينتفض جسدها بلهب الحب!.. الممثلة التي يحب صوتها وحركتها ويتمنى أن يراها في دور مرجريت غـادة الكاميليا!!.. أما رجاء الزوجة التي تتخيل أن لها الحـق أن تمتلك بيتا ومستقبلا وأطفالا، وأن لها الحق فـي أن تحظـى باحترام الناس.. فهذا شيء لم يفكر فيه عبد العزيز أبدا!.

أنت كنت تحلمين بلا حدود...

على كل حال. من يدري؟ ربما كانت الأيام القادمة تحمل خفايا كثيرة..

أنت إذن عينت ممثلة في الفرقة؟.. ممثلـة لا فتـاة فـي الكمبارس.. هذا هو أملك فعلا.. المرتب الذي يسد حاجـات البيت كلها ويبقى منه بعد ذلك ثمن فستان.. فستان جديد في كل شهر.. ويرتفع هذا المرتب بعد قليل، وتصبحين نجمـة يا "رجاء". وتمثلين أدوار ليلى وكليوباترا ومارجريت وتوسكا وجان دارك وأندروماك وأوفيليا ودوناسول وتـاييس، وكـل الأدوار التي حلمت بها!..

أما "عبد العزيز"!. لماذا ينظر إلي هكذا؟!.. آه. عينـاك الطيبتان يا "عبد العزيز" اللتان يلمع فيهما في بعض اللحظات شيء أقوى من الدمع، وأقوى من الحب، وأقوى من الألم!.. هكذا كنت تنظر إلي وأنـا راقـدة أبصـق دمـا!.. كنـت يا عبد العزيز أيامها تبدو مسـتعدا لأن تمـوت مـن أجـل "رجاء"!.. تعودت على آلامك إذ ذاك وأحببتهـا مـن أجـل "عبد العزيز"! ولكنه منذ اشتغل هنا وهو لا يستطيع أن يخرج من المستشفى للقياك!.. كلما اندفعت إلى صدره بكل شـغفك إليه، ألقى عليك نظرة مؤنبة، وابتعد قلـيلا عنـك وأوقفـك

بإشارة حاسمة من يده، كأنك طفلة صـغيرة ترتكـب ذنبـا كبيرا!.. حدث هذا عشرات المرات في هذه الغرفة بالـذات، وأنتما وحيدان والباب مغلق ولا أحد في كل المستشفى يمكن أن يدخل!

أكان لا يريد أن يقبلك في مكان عمله كمـا كـان يبـدو عليه؟! أم تراه كان يتلقى شغفك وحنينك وهـو يفكـر فـي الأخرى!

إن "شكري بك" معجب بعبد العزيز، وأنت يـا "رجـاء" تعرفين.. وتعرفين النظرة المفعمة الحالمة التي تلقيها عليـه "درية" بنت "شكري" أحيانا..

ربما لم تفكر أنت في "درية" من قبل يا "عبـد العزيـز" ولكن صديقك "كمال الصفطاوي" خطب أختها "سميرة" وربما جرك هو إليها.

اسحب نظراتك عني فأنا لست في حاجة إلى هذا الحنـان بعد، ففي أعماق نظراتك تتحايل صورة الأخرى!!..

إنك فظيع كالمرأة التي عذبت الشاعر في ليلة أكتوبر.. لم ترني وأنا مثل إلهة الشعر يا "عبد العزيز" في العام الماضي في الحلقة التي أقامتها مدرسة التجارة العليا.

ايه.. "ميمي" هي التي جرت صديقك "كمال الصـفطاوي" إلى "سميرة" ولكنك أنت.. من يدري؟!.. ربما كنت تقضـي كل أوقات فراغك مع "درية".. فهي تلميذة تخرج من بيتهـا بحرية.. وأنا رأيتها عشرات المرات تخرج بعد العصر فـي زينتها الكاملة!.. تخرج لتلقاك؟!.. أكانت اللعينة تحمل حقيبة كتبها دائما وهي خارجة بعد العصر لتخدع أباها إذن؟. أمـا أنا.. فكما قالت كليوباترا: "الحرب فنك يا أوروس والسياسة فني!"! أنا لا يستطيع أحد أن يخدعني.. كلكم كلاب خادعون!

وأنت أيضا يا ولد يا "شوقي"!.. لا تفـتح فمـك الواسـع الغليظ بالابتسامة الكبيرة.. ابعـد عنـي بوجهـك الطـافح بالشماتة، وحب الشباب، وأنفك المحمر!..

أنا لن أخطف منك أخاك يا ولد! أنا احتملت من نظراتـك أكثر مما أطيق، اسمع أنت يا ولد..

أنا لن أخطف منك "عبد العزيز.. " بله واشربه!..

لن أخطفه!. لن أخطفه!. فإن لم يجئ "عبد العزيز" إلـى أمي ويخطبني منها فلن أقبله. إن لم يجئ أبوكم الحاج "خليفة" نفسه بكل هيبته ويحضر هو العقد ويقم فرحـا كبيـرا فـي الشارع، فلن أتزوج من "عبد العزيز" هذا!

أنا أحسن من أية واحدة في الشارع.. أنا " رجاء صدقي"، وغدا تعرفون!. عميد كلية الطب الـذي لا يسـتطيع "عبـد العزيز" أن ينطق أمامه، ينحنـي الآن ليقبـل يـد مطربـة لا هي هنا ولا هناك وتنشر الجرائد صوره معهـا!.. غـدا يصنع لي الرجال أكثر من هذا!.. ملعون أبوكم كلكم!.

وهبت "رجاء" بغتة وقالت بسخرية ملحوظة:

- حقيقي صاحبك ضابط المباحث اللـي اسـمه كمـال خطب سميرة بت عم شكري؟..

وأجابها "عبد العزيز" ببساطة:

- أيوه.. بس هم عملوا الخطوبة فـي السـر علشـان ما يجرحوش شعور بيت داود أفندي.

ولوت شفتها وكتفها، ولمعت في عينيها سخرية تداري بها المرارة وهي تتحرك إلى الباب قائلة:

- وانت بسلامتك كده خاطب بسلامتها "درية" في السر برضه؟

وفوجئ.. فمشى وراءها وهي تخرج وأمسـك بـذراعها قائلا:

- يا ستي هو أنا بافكر في جواز دلوقـت!؟ لسـه لمـا نشوف حكاية البعثة.. يمكن الواحد يسـافر انجلتـرا يبقى فيها على الأقل خمس سنين!.. وان الواحد راح الأرياف لسه بقى على ما..

ولكن رجاء لم تقف لتسمع بقية كلامه، بل سحبت ذراعها منه بجفاء وفتحت الباب وخرجت مندفعة..

وبقي هو ينظر إلى الفراغ في دهشة.. ولمح وجه أخيـه "شوقي" يبتسم في طمأنينة وراحة، فسأله بضيق:

- فاشخ بقك كده على إيه يا وله؟

وضحك "شوقي"، ولم يقل شيئا..

وتحرك "عبد العزيز" في الحجرة حائرا بعـض الشـيء، وعيناه على الباب الذي تركته رجـاء مفتوحـا وراءهـا.. وامتعاض خفيف يلفح وجهه.

وقال "شوقي":

- هو عبد الحي لسه بيعمل العملية في رقبته!

واستدرك "عبد العزيز" نفسه.. وأسرع إلى الباب قائلا:

- تعال!.. تعال نشوف جرى له إيه!

وأسرع في ممر طويل بخطوات متلاحقـة ممسـكا بيـد "شوقي" وعند تقاطع الممر الطويل بممر آخر هلت الحكيمـة مع "عبد الحي".

وابتسم "عبد العزيز" والحكيمة تنظر إليه قائلة وهي تداري ضحكها:

- الحمد ! ده ما كانش حتى عاوز البنج الموضعي!

وقال "عبد الحي" بخيلاء:

- بقى احنا كنا بنواجه الرصاص امبارح! أقوم أصـبح أتوجع من مبضع جراح!. بنج ايه!

وعاودت "عبد العزيز" خفته، فقال وهو يستدير عائدا إلى حجرته:

- لا. مش لازم تتوجع!.. بس على الأقـل كنـت لازم تقول آه بمعنى أتوجع! ... ا يلعنك يا "عبد الحـي". مبضع جراح ايه؟ يا عبد الحي دا انت لو انضـربت بالفاس في رأسك مش حاتتوجع برضه!

- وتركتهم الحكيمة ضاحكة، وهي تخطف نظرة سريعة ساحرة.. اختلج لها "شوقي".

وعاد "عبد العزيز" يذرع الممر الطويـل إلـى حجرتـه، ووراءه "شوقي" و "عبد الحي" يتحسس الشاش الـذي يلـف رقبته. وزجره "عبد العزيز":

- إوعى إيدك خالص.. إوعى تحط إيدك.

فقال "عبد الحي" وهو يتقدم وراءه:

- الحقيقة انت عملت فيه حتة فصل – كانت العملية دي لزومها إيه؟! القصدا بحضه فتحه كده أريح. اسـمع بقى يا عبد العزيز.. أنا حاسس بدوخـة كـده ولازم أروح أرقد.. لكن أنا كنت جايلك في حكايـة مهمـة. اسمع بس. أنا مش قادر أجري وراك كده يا أخي..

وتوقف "عبد العزيز".. وهمس "عبد الحـي" فـي أذنـه و "شوقي" يتابع مشيه ببطء شديد في اتجاه الحجرة وعينـاه تتدحرجان إلى الحكيمة التي تختفي الآن في الممر الطويل.. وأوشك أن يسأل أخاه "عبد العزيـز" إن كـان يحـب هـذه الحكيمة وهل ينوي الزواج بها!!. إنها تحرك النفس بطريقة غريبة!.. فيها ما يجذب إليها القلب!..

ولكن "عبد العزيز" كان يقول وهو يستأنف مشيه بخطوات ثقيلة:

- لا!.. مسألة متعلقة بشرف المهنة يا عبد الحي!.. دي جريمة!.. ا ؟! ما هو كان عندي امبـارح الصـبح بدري جابها وجالي وأنا فهمته. الحكاية مؤسفة جـدا. لكن إيه الحل؟.. البنت صعبانة عليـه جـدا. لكـن ما فيش طريقة. شوفوا لها واحد من اللـي بيعملـوا الحاجات دي.. لكن يا عم لا تدخلوني أنا في مسـألة زي دي!! فيه بعض دكاتره معـروف عـنهم انهـم بيعملوا الحكاية دي وأنا أقدر أدلكم على واحد منهم.

وهز "عبد الحي" يده.. في أسف وإذعان.. وعاد يهمس:

- لكن من يا ترى اللي عمل فيها كده؟ المرحوم..

وكأنما لسع "شوقي" وتقدم يرمق "عبد الحي" من ظهـره بنظرات كارهة مستنكرة.

"يا عبد الحي" لا تقل هذا!.. يا ناس حرام!.. لا تظلمـوا المرحوم "سعد"! لا تشوهوا ذكـرى الشـهيد "سـعد داود".. لا تبحثوا عن الذي فعلها ولكن ابحثوا عن إنقاذ ألطاف! ومع ذلك فهل تريدون أن تعرفوا من الذي صنعها!؟.. المرحـوم "سعد" أوشك أن يحكي لي كل التفاصيل قبل أن يموت بليلـة واحدة.. قال كلمات لن أنساها، ووعدني أن يحكي كل شيء

بصراحة فيما بعد.. وفيما بعد.. كان رمـادا فـي القبـر!!.
زواجها من "عبده" هو الحل!!.. إنه يبكي كلما حدثه أحد في الموضوع! وعندما ضغط عليه "عبد المعبـود" ورجـاه أن يتزوجها ليسترها بكى "عبده" وصـرخ. وهـو انـا اللـي فضحتها؟! أنا ذنبي إيه بس؟ ... يا ريت بإيدي! ...

استروها انتم قبل أن تنفضح بحملها وتعرف "عديلة هانم" وتفجع مرتين!.. استروها قبل أن تعرف "صفية داود"! فكيف يمكن أن تواجه "صفية" أمرا كهـذا.. اسـتروها يـا نـاس ولا تسألوا عن السبب. ولا تتهامسوا أمامي هكذا فأنا أعرف كل شيء. أنا لست صغيرا كما تتوهمون. فأنا أعرف أكثـر مما تعرفون أيها الكبار! البنت بطنها تكبر أسبوعا بعد أسبوع وهي لا تعرف ما العمل و "عديلة هانم" تحسب أن ما بها هو انتفاخ في البطن!.. هكذا قالت لها البنت، ولكن المسألة كلها يمكن أن تنكشف تماما بعد شهر والتاني..

المسكينة لا تكاد ترفع عينيها في أحد، وهي تقـف أمـام وابور الجاز وتتمنى أن ينفجر فيها، وهي تحمل كل الأشياء الثقيلة على ظهرها بلا فائدة، وفي مرة فكـرت أن ترمـي نفسها من فوق السطح.. فكرت في الانتحار، فصعب عليها،

ولم تفعل! وهي تبكي على الدوام. هي نفسها حكت لي كـل شيء.. ليتني أستطيع أن أنقذها أنا ... لو كنت أملك نفسـي لتزوجتها!!. المسكينة تعيش ذاهلة كأنما فقدت رشدها!.. هي نفسها حكت لي عندما صارحتها بما كنت سمعته من "سـعد" ليلة استشهاده... وحسبتني أعرف، فانفجرت تبكي، وقالت لي إن "داود أفندي" جاءها ذات ليلة قبل موت "سعد" بشهر، وهو أيامها دائم الشجار مع زوجته "عديلة هانم" لم يقربهـا منـذ أربعين يوما.. ودخل المطبخ في الليل، وأحست به يقف أمام الحوض ويشرب، وشعرت بفخذها عارية، فسحبت الغطـاء خفية، ولمت نفسها تحته، وأحست بنظرات "داود أفندي" على فخذها وكل بدنها ولكنها رأته يطفئ نور المطبخ ويخـرج!.. وبعد لحظات شعرت على وجهها بأنفاسه ساخنة. وقاومتـه لبعض الوقت، ثم استسلمت له دون أن تدري!. ومر هذا كله كأنما هي في حلم غريب.. وفي اليوم التالي نامت في حجرة البنات، ولكن "صفية" لم تحتملها أكثر من ليلتين لأن شخيرها مزعج!!..

وعادت تنام في المطبخ وحدها، فهاجمها "داود أفندي" مرة أخرى، ولكنها لم تستسلم له أبـدا.. بـل انتفضـت واقفـة وخرجت من المطبخ، وهي تهدد بأن تصرخ..

وقبل أن يموت "سعد" بليلتين.. هاجمها في المطبخ.. وفي تلك الليلة دخل "سعد" المطبخ وفتح النور، فاسـتكانت هـي تماما إلى صدر "داود أفندي"..

ولكن "سعد" خرج فجأة وعلى وجهه رعب هائل..

وفي تلك الليلة شعرت أنها تحب "داود أفندي"!!.

وبعد أن مات "سعد" أحست " ألطاف" بندم كبير وبإشـفاق على "داود أفندي" وعلى "عديلة هانم".. وكانت تبكي وحـدها كل ليلة!.. وتعودت أن تسكت "عديلة هـانم" وتبكـي معهـا وتصنع نفس الشيء مع "داود أفندي"!!

هل تريدون المزيد؟!.. ما أغباك يا "عبـد الحـي"! أنـا أعرف أكثر مما تعرفون.. هي نفسها حكت لـي! أتعـرف يا "عبد الحي" أن داود أفندي" لم يعد يطيق أن ينام حيث كان ينام من قبل، أتعرف أنه اقتحم حجرة "سعد" التي ظل الجميع يشعرون بالوجل والتهيب لمجرد المـرور مـن أمامهـا؟.. اقتحمه "داود أفندي" وأصبح ينام في فراش ابنـه الميـت!..

وهو لا يسمح لأحد بأن يدخل عليه، ويظل يتمرغ في فراش ابنه ويبكي بصوت مختنق حتى يفقد الوعي، فإذا شعرت بـه "ألطاف" دخلت تحمل إليه الماء والكولونيا ومن حولها بناتـه باكيات!!.. وذات يوم شعرت بأعراض غريبة وأحست يوما بعد يوم بحياة جديدة تتمدد داخل كيانها. ولم تعد تعرف إلـى من تبوح بسرها! على حين هجرت "عديلـة هـانم" زينتهـا تماما، وتغضن وجهها الجميل!.. امتص الحزن كل نضارتها وتألقها القديم، واعتصرت المحنة كل ما كانت تملكه الأنثـى فيها، ونبتت الشعرات في تجاويف خدودها وعلى شـفتها.. وعاد "داود أفندي" يزور ألطاف فـي المطـبخ.. ذات ليلـة سمعت "ألطاف" بكاءه في هدأة الليل، وذهبت إليه في حجرته كأنها معصوبة العينين، واعترفت لـه بالحمـل الـذي فـي أحشائها!. أتريدون أكثر ما هذا أيهـا النـاس؟!.. "ألطـاف" تحكي لي باستمرار وتسألني ما العمل. ليلة الأمـس بالـذات قال لها "داود أفندي" إنه يفكر فـي أن يمسـك حملهـا فـي بطنها.. فربما كان ولدا ذكرا يعوضه به ا !!.. وليلة الأمس بالذات قال لها إنه سيتزوجها.. ولكن "ألطاف" تذكرت "عديلة هانم" وفاجعتها فبكت.. وما زالت تشعر بالذعر مـن رنـين

كلمات "داود أفندي"!. إنها لا تصدق على الإطـلاق. وهـي لا تعرف أهذه هي الحياة حقا أم أنه كـابوس مخيـف دائـم تعيش فيه!..

كل هذا فظيع وغريب، ولكنه يحدث في شارع عزيز!.

أتصدق يا "عبد الحي"؟!. أنا أيضا لا أصدق، ولا أعرف إن كنت أبكي مع "داود أفندي" أم أبصق عليه؟!.

أنا لا أريد أن أحكي لكم كل شيء، فهذا سري أنا، وهـو سر لا يعرفه غيري!.. حتى الذين صنعوه لا يعرفون منـه كما أعرف! لا تتشـطروا علـي إذن أيهـا النـاس وأنـتم لا تعرفون!..

وضاق "شوقي" فجأة بهمسات "عبد العزيز" و "عبد الحي" وهو يقف وحده بعيدا في ركن من حجـرة "عبـد العزيـز" بالمستشفى.. والتقطت أذناه اسم "سعد" فانفجر:

- يا عبد الحي يا أخي.. أنا متأكد انه مش سـعد! ا .. سعد حكى لي ليلة ما استشهد! وألطاف حكت لي!.

وفوجئ عبد العزيز، وقطع همساته، ونظر إلى "شـوقي" متحرجا أن يعرف أخوه موضوعا كهذا ويشارك برأي فيه.. واستدار إلى مكتبه واستند إلى طرفه وأطرق!

ثم رفع رأسه ونظر إلى "عبد الحي" قائلا كأنه يحاول أن ينتزع أفكار "شوقي" من الموضوع كله:

- أخبار السياسة إيه! الواحد مش مالك يقرأ جرائد..

ونشط عبد الحي للإجابة:

- الوزارة الجديدة تعد جـداول للانتخابـات وسـتحدد موعدها حسب ما جاء في الدسـتور تمـام.. وأهـي ماشية في الإصلاح على قـدم وسـاق نصـرها ا يا سيدي.. وا إنها في شهر واحد أصلحت ما أفسده غيرها في سنوات.. ولسه.. ثم إن الجبهـة الوطنيـة قررت الدخول في مفاوضات مع الإنجليـز لتنظـيم الجلاء ولإلغاء الامتيازات الأجنبية.. ومشروع المجلة بتاعتنا ماشي وستشرف عليها جبهـة وطنيـة مـن الشباب وربما بعض النواب وسنصدرها في الصيف.

وتدخل "عبد العزيز" كأنه يريد أن يطيل موضوع المناقشة ليغير الجو تماما:

- شوف! الجبهة الوطنية اتألفت من غير مندوبين عـن الطلبة والعمال..

فرد عبد الحي:

- زي بعضه يا سيدي! لسه لم يئن الأوان لكـي يمثـل فيها الطلبة والعمال.. الحمد على كده.. هـو حـد كان طايل!.

واستطرد عبد العزيز يسأل:

- والحزب الوطني كمان داخل في وفد المفاوضة!

وأكمل "عبد الحي".

- طبعا الحزب الـوطني رأيـه ألا مفاوضـة إلا بعـد الجلاء، لكن انسحاب الحزب الوطني لا يعتبر تصدعا في الجبهة أبدا.

وقال "شوقي":

- على كل حال وجود معارضة متشددة أحسن ويخلـي الإنجليز يحاسبوا والمفاوضين يتشددوا أيضا في أخذ حقوقنا كاملة.

وابتسم عبد العزيز ناظرا إلى شوقي بإكبار وزهو:

- دانت يا واد بقيت تفهم في السياسة كويس أهه!.

وقطع كلامه ليداعبه:

- تناقشني في السياسة!

ثم استطرد وهو يكلم "عبد الحي" في رضى عن أخيه:

- كان زمان وهو في أولى ابتدائي أول ما يـروح فـي وسط العيال ويقول لكل واحد فـيهم: تناقشـني فـي السياسة؟!

وضحكوا.. وقام "عبد الحي" يسلم علـى "عبـد العزيـز" مستأذنا في الانصراف، وأخذ شوقي من يـده وسـارا فـي صمت تحت شمس مارس وفي الجو غبار يمـلأ الحلـق.. وحاول "عبد الحي" أن يعرف من "شوقي" سر "ألطاف" وألمح له بأنه معجب بوفائه لذكرى صديقه "سعد". ولكن "شـوقي" قال في حنق:

- يا أخي إذا كان داود أفندي نفسه قال لها انـه عـاوز يتجوزها يمكن اللي في بطنها يطلع ولد يعوضه عـن سعد.

وفوجئ "عبد الحي" بينما دوت في أعماق "شوقي" صيحة استنكار ورعب ومضض! كل شيء ممض، كـالتراب فـي الحلق...

كل شيء ممض ومعذب ومثير! كيف يحدث هذا كله في الدنيا؟.. في عمر واحد!!..

وتابع سيره بلا كلمة!..

وبعد قليل همهم "عبد الحي" وهو يتنهد:

- بقى يا ناس بعد الدنيا ما راقت وجهادنا كلـه تـوج بالنجاح، والإنسان منا نفسه طابت، والبلـد تولاهـا رئيس حكومة مصلح، ووفد المفاوضات اتألف.. بعد ما امتلأنا بالتفاؤل والثقة في ا .. بعد هذا كله نفاجـأ بحاجة زي دي؟ ده شارعنا دا متعوس!.. المتعـوس متعوس!

وكانا وقتها يدخلان الشارع وشمس الظهيرة تلفـح كـل شيء بحرارة مبكرة، وتراب الخماسين يزهق الأنفاس..

وعلى باب البيت لقيا "عبده" قاعدا في ظل الجدار، يمـد رجله في فتحة الباب، وصوته يتهدج بموال من بلده:

ابكي علـى اللـي صـبح فـي الحـي وحـداني

وغلبـــه البـــين فـــي الأول وفـــي التـــاني

حتـــى جعلنـــي غريـــب والغربـــة كايـــداني

لا باقعد ارتـاح ولا بـانعس يجـي لـي النـوم

وحاول عبد الحي أن يكلمه، ولكنه استمر يترنم بكلمـات الموال في نغم فاجع:

والقلـب مليـان جـراح والـدمع سـايل عـوم
امتـى يجينـي السـماح والـدهر يسـمح يـوم
وتعـود ليـالي الهنـا والفـرح مـن تـاني...

ووقف أمامه "عبد الحي" و "شوقي". ورجله مازالت فـي فتحه الباب وهو يهز رأسه المنكس وزفراته تتصاعد..

- يا ولداه يا ألطاف! تعملي في روحك كده ليه بس؟..

وصرخ "شوقي":

- آه؟.. عملت ايه؟

ورفع "عبده" رأسه في يأس:

- هربت! ألطاف هربت النهارده؟ سابت هدومها وحالها وهجت من الشارع! يا ترى غرقت نفسها والا رمت روحها قدام ترماي؟ حاتروح فين بس يا اخـواتي؟!. حاتروح بلدها بالمصيبة اللـي جابتهـا!؟ دي حتـى مالهاش حد خالص! يا ولداه.. الشارع كله شاع فيها.. مش طايقها! وحياة النبي دي امبارح كانـت خايفـة ترفع راسها في وش أصغر عيل في الشارع! تقولش هيه اللي عملت في روحها اللي انعمل! حتى شـكري بيه رحت أترجاه يبلغ عنها الأقسام قام كرشني. بيقول

غور وأنا حاعمل لها ايه؟! والأسطى عبـد المعبـود بيقول أهي انزاحت وخلاص من الشـارع!!.. علـى ايه؟ يا خسارة ع الرجالة!.. يا ألطـاف.. والأسـتاذ "عبد اللطيف" واخد الحكاية دحكة! يا ريتـك قعـدت يا ألطاف.. لو كنت عارف انك رايحة تنخفـي مـن الدنيا كده كنت اتجوزتك وسترتك، وا حليم سـتار! ما حدش باكي عليك في الشارع كله!!. ليه بس: هيه كانت عملت فيهم ايه! حاكم الفقير ريحته وحشـه!!.. لا إله إلا ا !.

ووجم "شوقي" و "عبد الحي".. وتبـادلا النظـرات فـي صمت، بينما ارتفع أنين "عبده".

- كده يا "ألطاف"!! يا ولداه! ... حتـى "داود أفنـدي" ما صدق انك انخفيت! ما حدش بـاكي عليـك فـي الشارع كله غير "عديلة هانم"!!..

ولمعت في رأس "شوقي" فكرة.. ربما كـان "داود" هـو الذي هربها، ورتب لها مكانا بعيدا تقيم فيه ليتزوجها هناك!..

ولكن شوقي استبعد الفكرة سريعا.. وأخذ يتنفس بعمق.

وفجأة شد يد "عبد الحي" قائلا:

- تعال احنا نبلغ المحافظة.. تعال ندور عليهـا احنـا يا أستاذ عبد الحي.

ولكن "عبد الحي" تباطأ قائلا:

- وحايلاقوها فين دلوقت؟!؟ اذا كان صاحب الشأن لـم يبلغ يا أخي.. يمكن ربنا عاوز كده لحكمة لا يعلمهـا غيره!.

وانتفض "عبده" واقفا:

- حكمة إيه بس يا شيخ! إيه الحكمة في دي كمان؟!.

يا للا يا سي "شوقي". أنا وراك!..

وانطلق "شوقي" وحيدا.. و "عبده" يـركض وراءه وهـو يتنهد.. وفي نفسه سخط هائل على الحياة والشارع.. وكـل من فيه!

(٢٥)

لماذا يحدث أحيانا عندما نفرح أن تثير الفرحة في أعماقنا كل الذكريات الحزينة؟ لماذا تنبع الدموع في بعض اللحظات من حيث ينفجر الضحك؟! كل ما تقرئين من كتب يا "دريـة" لا تفسر لك هذه اللوعة التي تتسرب إلى بهجتنا خفية حـين تغمرنا المسرات، فإذا نحن نذكر الأعزاء من موتانا.. أيكون هذا لأننا نتمنى لهم أن يشاركونا الابتسام والخفقات المتطلعة والأمل ومتاع الحياة؟! أم لأننا نتذكر حرمانهم من هذا كله إذ هم حطام فاجع تحت شواهد صماء!؟

أم أن هذا يحدث لأننا نخشى في اللحظات الكبـرى مـن حياتنا أن نحرم من كل الأشياء الحلوة التي تعطـي لأيامنـا مذاقها الخاص!..

لا تتفلسفي يا "درية".. لا تثقلي رأسك بكل هذه الأفكـار، فمدرس التاريخ الذي تحترمينه ينظر إليك بطريقـة غريبـة كأنه يتهمك بالجنون حين تسألينه في أشياء كهذه.. وهو دائما يطلب منك ألا تفكري في هذا الآن فهذه أفكـار لا تناسـب

سنك؟!.. ما هي الأفكار التي تناسب فتاة في السابعة عشـرة إذن؟!..

ما أسعد الذين يدرسون علم النفس ويفهمون ببساطة لماذا يتصرف الناس!! أنت يا "درية" في حاجة إلى كثير من مثـل هذه الدراسة لتفهمي تصرفات أختك "سـميرة".. إن سـلوك "سميرة" هو الذي يفرض عليك مثل هذا التفكير!.. كل شيء مبتهج، والضحكات ترتفع، والقماش الجديـد منثـور علـى الأرض في كل مكان من حجرتك يا "درية" والبيت كله على رجل من أجل زفاف "سميرة".. ولكـن.. "سـميرة" نفسـها لا تضحك، ولا يشغلها شيء، وفي عينيها تسطع دمعة أقوى من كل المشاغل والضحكات وثرثرة النساء!

شمس أبريل تملأ الدنيا بالدفء، وبرد متخلف من الشتاء يقتحم جو الخماسين ويكاد يدغدغ الهواء الساخن، والهـواء نفسه مرطب بشذى الفل والياسمين الذي تعبق بـه الحديقـة الصغيرة أمام شقة "عبد المعبود"، والقلب تدق فيه الحاجة إلى اجتناء السعادة فيتفتح، والدنيا تحلو.. ولكن "سميرة" تبكي.

هي دائما تذكر الغالية أمنا والغالي أخانـا، وكلمـا رأت "ميمي" أمام ماكينة الخياطة التي حملتها معهـا مـن بيتهـا،

أو كلما تحسست "أنيسة" حرير قمصان ليلة الزفاف، سـالت دموع "سميرة" في صمت!. أنت تنظرين يا "سـميرة" إلـى "سعاد هانم" التي تقص القماش، نظرات جامـدة بـلا حـب ولا كراهية، ولا غيظ ولا اندفاع، وإنمـا بأسـى غريـب، وتمسكين شفتك السفلى بأسنانك يا "سميرة" ويتقاص وجهـك وتهمهمين منادية من البعد أمنا، ثم تنهارين في نشيج!

كان للقماش الجديد فرحة خاصة، وكنت أود أن أتمـرغ عليه وهو يملأ أرض غرفتنا.. وكنت أجد لذة فـي مناقشـة أشكال التفصيل، ولكن القلب يمتلئ بالـدموع منـذ رأينـاك تنسحبين وتقفين أمام صورة الأخ الذي رحـل منـذ عشـرة أعوام وتنوحين عليه وعلى أمك كأنهما ماتا بالأمس فقـط!.. أين تعلمت كل هذا الكلام الذي يستنزف الـدمع مـن حبـة القلب!؟

يا "سميرة" ارحمينا.. فأنا أيضا أبكي في كل يوم منذ بدأنا تفصيل قماش الزفاف لك! لا شيء يمكن أن ينقذنا من هـذا البكاء إلا وجود أبيك!.. ليتك يا أبي لا تبرح البيـت طيلـة النهار والليل!.. ولكنك تسعى من أجل مسـتقبلك.. تسـعى وراء الوعد بإعادتك إلى الخدمة في وظيفة بمصلحة الحدود

بعيدا عن وجع الدماغ ... ووزير الحربية صديق لك من أيام السودان!.. تعال يا أبي وانظر إلى سميرة كيف تقلب البيـت إلى مأتم دائم!

لا يا "سميرة" أنا لم أعد أحب هذه الدموع. نحن لم نبـك أبدا بمثل هذا الإحساس الفاجع عندما ماتت أمنـا وأخونـا.. ولا حتى عندما فصل أبونا بعد أن رفض أن يضرب جنـازة الشهداء!!.

أبوك يا "سميرة" يستدين ليشتري لك كل هذا القماش مـن أجل أن يرى وجهـك مضـيئا بالضـحك.. أنـا أعـرف يا "سميرة".. أنا بأذني سمعته يحدث نفسه في ضـيق وهـو يدير في حجرته حساب مصاريف الزفاف!..

وهو يسعى من أجل وظيفة.. أتعرفين؟. إنه هـو يرجـو ويتشفع لنفسه، يصنع هذا الشيء الذي لم يصنعه أبـدا، مـن أجل إلقاء الفرحة في قلبك!..

ارحمي أباك وارحمينا يا شيخة وارحمي خطيبك أيضا!..

أتزفين إلى بيت المستقبل دامعة العين؟!..

ماذا يظن خطيبك؟..

"كمال" الطيب يشعر بانقباض كلما رآك باكية..

وأمه المقعدة أيضا سألتني عندما زرتها مع أبي..

سألتني عن شكلك، وهي تتعجل يوم الزفاف لتراك.. وهي تسألني كلما زرتها عن سر بكائك فابنها يحكي لها.. وهـي تؤكد لي أنك ستجدين فيها أما أخرى.. أما بحـق!.. وهـذا صحيح يا "سميرة".. إنها طيبة حانية كما لا تتخيلين، وهـي تطلب مني كلما زرتها أن أنصحك ألا تحملي معك الغم إلـى بيت العدل!!.. لا يا "سميرة".

ابتسمي في وجه خطيبك.. ما ذنبه هـو يقضـي فتـرة الخطوبة وهي أحلى أيام العمر في دموع وذكريات الموت!؟ "كمال الصفطاوي" الطيب الضاحك أبدا لا يستحق منك كـل هذا، فهو يحبك كما لا يمكن أن يحبك أي شاب آخر!..

اذكري أنه كان يستطيع أن يتزوج ستك!.. كم مـن فتـاة أجمل منك ألف مرة وأوفر غنى وأكثـر مرحـا تتمنـى أن تتزوجه! ... وأنت أيضا عجفاء، في وجهك صفرة!..

احمدي ا وقبلي قدميه فأنت لا تستحقينه!.. إنه ينظر إلي في توسل متخيلا انك منقبضة. ويقسم لـي إنـك ستعيشـين مكرمة، وتكون لك خادم خاصة ولأمه خادم أخرى، فقـدمك عليه قدم خير إذ حصل على ترقية استثنائية قبل دوره بعـد

أن خطبك بقليل!!... وهو يعرض يا "سميرة" أن يؤجر لـك شقة خاصة بجوار شقة أمه ليظل على مقربة من أمه وإخوته الصغار، فهو كبير الأسرة والمسئول عن حياتها، ولكن أباك هو الذي أقسم أن تعيشي معهم لتخدمي أمه بعد أن تزوجـت أخته وتركت أولادها! إنه يفكر أحيانا فـي أن يرمـي أولاد أخته لها إن كان هذا يسعدك! أترين؟.. إنك تشـغلين قلـب كمال الرائع الطيبة بأشياء سخيفة تفسد عليه بهجته. جففـي هذا النبع من الدموع الذي يتفجر من صدرك واحمدي ا فلم يكن من الممكن ولا في المنـام أن تحلمـي بمثـل "كمـال الصفطاوي"!.. واذكري أيضا أن "كمال" يظن أحيانـا أنـك ربما كنت تعيشين في خيبة أمل، وأنك ربما كنت تحبين أحد الجيران وتنتظرين أن يتقدم إليك!.. حاسـبي علـى نفسـك يا مجنونة! إنه يعني "عبد العزيز" بلا شك!..

"عبد العزيز"!؟.. تصوري!.. "عبد العزيز"؟! وهو يقـيم طول النهار والليل في مستشفى القصر العيني لا يشعر بأحد منا لا بك، ولا حتى بي أنا!.. لم يشعر بنا أحد يا سميرة! لم يشعر عبد العزيز طـوال السـنوات الماضـية بنظراتـي واضطراب أنفاسي كلما لاح من الشرفة.. ومنذ تخرج وأنـا

أنتظر كلمة منه يقولها لأبـي!.. ولكنـه مشـغول! لمـاذا لا يخطبني ويأخذني معه الى آخر الـدنيا وسأمضـي وراءه سعيدة!؟.

لم يشغل قلبه إلا "رجاء صدقي".. شغلت حياته فترة ثـم رماها ووسط أبي لتعيينها ممثلة في فرقة الحكومة!. ولكـن ربما كان يفكر في أن يتزوجها!.. من يـدري؟ أف!.. لكـم تبدو هذه الشمس حارة خانقة! كان الجو بديعا لطيفا صـافيا منذ لحظات، ولكن هذه الشرفة تمتلئ الآن بأنفاس اللهب مع أننا في ساعة العصر.. شيء جاف ساخن يقف في الحلق!..

أكاد أبكي..

ووضعت "درية" رأسها بين يديها، وأسندت مرفقيها إلـى خشب الشرفة ومن تحتها... من الحديقة الصـغيرة التابعـة لشقة "عبد المعبود" يرتفع صوت "عبده":

- بقى ما فيش فاس؟. ما تستقضى لنا فاس كده من هنا والا من هنا يا أسطى "عبد المعبود" من نواحي الجيزة والا شبرا.. دي حتة الأرض دي لو انعزقت كـويس وانزرعت خضار حاتغنيك وتغني الشارع كله عـن شرا الخضار!. دي طينتها حلوة قوي.. متهملـة دي

ليه يا أخويا؟!. طيب هات لي انـت التقـاوي وأنـا أزرعها لك.

وأجابه صوت "عبد المعبود":

- زي بعضه بقى؟ يعني هيه العزبة يا خي؟. ما تطلـع كده تشوف الست "سعاد" كانت بتنادي عليك ليه؟..

وتقدم "عبده" ليغسل يديه من الحنفية وهو يقول:

- والست عاوزه إيه بقى؟ الواد وطاهرناه لهـا، وهيـه وعالجناها وشفيناها من جميع الأوجاع!.. مـن يـوم الدكتور ما اشتغل في القصر والقصر شـغال شـوط على أهل البلد وشوط على أهل البلد وشوط على أهل الشارع!.. ما حد خاب فيهم غير ألطاف يا حول ا .. ربنا يسعدها ان كانت عايشة والا يرحمهـا بقـى ان كانت ماتت يا سلام.

وزام "عبد المعبود":

- بقى كل سيرة عندك تقلبها على "ألطاف"؟! ما تفضـنا من دي سيرة بقى.. اسمع.. اطلع شوف الست "سعاد" عاوزه إيه وخد معاك شوية فل وياسـمين واعملهـم صحبة حلوة وطلعهم للعروسة اللي فوق!!.. يـا واد

اتعلم ان الموجود أبقى من اللي راح! الحي أبقى مـن الميت!

ورنت الضحكات في داخل شقة "شكري عبد العال" فهمهم "عبده":

- خد يا عم!.. أهو الدحك بيرن ولا حد على باله!! .... حتى الست رجاء لقيتها بتعيط افتكرتها بتعيط علـى ألطاف، أتاريها بتبكي على حالها!. هيه كانت فـاكرة ايه!.. ليلة امبارح سمعتها لك بتغني وتنوح (هو القمر في السما وايش نزله على الحيط. طالل عليه الحليوة من طاقات البيت). قلت لها ما القمر خـلاص بقـى ييات في المستشفى! ...

ورد عليه عبد المعبود:

- اطلع بقى بلا وجع قلب شوف عاوزينك ليه فوق!

وبانت ضحكة "سميرة" بوضوح مـن بـين الضـحكات، فتحركت "درية" من الشرفة مأخوذة بالضجة المرحـة التـي انفجرت من الداخل ولكن "عبده" استوقفها:

- أجيب لكيش صحبة فل يا ست "درية".

ودخلت "درية" مسرعة دون أن تجيب..

لا أريد شيئا منكم يا أولاد الحاج "خليفة" لا منكم ولا مـن ريحكم!..

ودخلت حجرتها و "أنيسة" زوجة عبد المعبود جالسة على الأرض وسط القماش المبعثر تضحك قائلة:

- والنبي لنفصل لك انتي وسميرة هدوم الفـرح سـوا يا سعاد هانم.. والنبي لنخليها ليلـة دخلـة واحـدة! يا خبر.. يا أخي ما دام سميرة قلبها انفتح لـك!؟ دي كلها يومين وسميرة ماشية و "دريـة" مشـغولة فـي مدرستها ومين حا يخدمه يا عيني!؟ ربنا يـا ختـي يكملك بعقلك يا سميرة ويهنيكي ويمتعك بجوزك.

وكانت "ميمي" تكركع:

- يا جماله!.. الراجل وبنته ينزفوا سوا!..

ولم تفهم "درية" شيئا. وجدت "سعاد هانم" تبتسم في خجل: "سميرة" تنظر الى وجه "سعاد هانم" ووجهها يعكس انفعالات مختلطة غير واضحة.. ورفعت "سعاد هانم" رأسها فاستقلت نظراتها على "درية" الواقفة في مدخل الباب في حيرة تكـاد تبكي..

وقامت "سعاد" تفتح ذراعيها لـ "درية" في حنان.. متسائلة في لهفة:

- ما اك يا بنتي؟.. ما اك يا درية؟

وشعرت "درية" بين ذراعي "سعاد هانم" براحـة حزينـة مباغتة واستعذاب للبكاء، فالتصقت بحضنها وأجهشت..

وقامت لها "سميرة" تطبطب على كتفها متماسكة:

- بس يا أختي بس.. بس يا درية.. درية مـن ريحـة الغالية.. دي الغالية ما كانتش تعز حد قدك يـا سـت سعاد.

ورفعت "درية" رأسها، وابتعدت قائلة:

- أنا مش على كده.

وتدخلت "ميمي" بحسم:

- يا درية دي سعاد هانم لمـا تعاشـرك أحسـن مـن الغريبة.. دي زي مامتك تمام..

وعادت "درية" تعانق "سعاد هانم". وفاضت دموع "سعاد" وهي تحتضن "درية" وتقبلها.. ودرية تؤكد:

- أنا مش على كده!

وهبت "أنيسة" تقذف كومه القماش من على فخذها قائلة:

- يا أختي بلا كتره بقى! احنا حانقلبها محزنه! دلوقـت والنبي لانزل لعبد المعبود أخليه يكلم سـي شـكري أفندي ان شا ا حتى يدور عليه في أيها قهـوة.. ان كان على سي شكري أفندي ده منى عينـه.. أبـوكي كان لايد ع الجواز من زمان ما حـد كـان حايشـه غيرك انتي يا سميرة.. هو اللي زي ده كان له قعـدة من غير جواز!..

وضحكت "سميرة" في خجل قائلة:

- طب بس اقعدي.. كلها ساعتين تلاته وبابا ييجي مـن نفسه ويبقى الأسطى "عبد المعبود" يطلع له.

وقعدت "أنيسة" وانغرست "درية" إلى جوارها على أرض الحجرة، وسط أكوام القماش المقصوصة؟ وامتلأت رئتاهـا برائحة القماش الجديد..

"سعاد هانم" هي التي اشترت هذا القماش.. اختارته بذوقها هي نفسها، ولم تسمع كـلام أحـد.. لا "ميمـي" ولا حتـى "سميرة"!!..

و "سميرة" تسلم لسعاد هانم الآن في كل شيء، وحتى في اختيار شكل التفصيل، أصبحت "سميرة" تقتنع في الغالب بما تقترحه "سعاد هانم" وتقف في صفها ضد "ميمي" ومع ذلـك فـ "سميرة" لم تتحدث إليك يا "درية" من قبـل فـي مسـألة زواج "سعاد هانم" بأبيك!. كانت سميرة هي التي تقلب الأمر إلى محزنة. ولكنها الآن ترحب بأن يتزوج أبوك من "سعاد" وتراها أولى من أية امـرأة غريبـة لا يعرفونهـا... هـي لا تناقش الآن في مبدأ الزواج..!

وخبط الباب فقامت "سميرة" متباطئة تفتح.. وعادت باسمة تحمل باقة من الفل والياسمين.. وقف "عبـده" فـي الصـالة خارج الغرفة متحرجا. إنه لا يريد أن يدخل فتأمره "سميرة" ألا يدخل حجرة ست "درية" كما حدث مرة..!

ولمحته "أنيسة" يقف في الصالة مترددا فوضـعت علـى رأسها العارية قطعة من القماش المقصوص ومالت برأسـها تزعق فيه:

- ايه ده يا واد يا عبده عمـالين ننـادي عليـك مـن الصبح؟!. روح كده شوف عديلة هانم رجعـت مـن

القرافة والا بايتة هناك؟ النهارده الجمعة لازم نـروح لها..

وأجاب "عبده" وهو واقف في مكانه:

- أنا ما بروحش.. أنا من يوم ما جرى اللـي جـرى لألطاف وأنا ما بروحش هناك! سيبوني فـي حـالي. كفاية البت هجت من الشارع ولا حد فـي الشـارع استعنى يدور عليها!. كفاية بقى.. يكفانا أنـا وسـي شوقي نروح القسم لوحدنا، يدوروا يتمهـزأوا علينـا هناك، ويسألونا: انتم مين، وصفتكم ايه، وهيه تبقـى لكم ايه.

وتقدم "عبده" من باب الحجرة وهو يتكلم.. ولمح "ميمـي هانم" مكشوفة الذراعين والصدر فتمتم:

- يعني لو كانت ألطاف دي لبست زي الهوانم.. يعنـي ألطاف..

وصرخت فيه "أنيسة":

- بس يا واد انت ما تجيبش السيرة الزفرة دي هنا..

ورفعت "ميمي" رأسها عن ماكينة الخياطة وقطعت الخيط بأسنانها قائلة لـ "عبده" بحدة:

- إوعى تاني مرة تجيب سيرة زفته دي في وسط البنات.. دا انت كنت صعبان علي لما رجاء شتمتك.. لكن دا أنت تستاهل أكتر من اللي جرى لك.

وتضايق "عبده" وخرج محنقا وهو يهمهم لنفسه:

- بقى كده؟. طب داري لحمك انتي.. جاتكو شوطة كده.

حتى انت يا "ميمي"؟!. ومع ذلك فـ "ألطاف" لم تكن متزوجة ولم تخن أحدا، وإنما جنى عليها ابن الحرام!.. أما انت فأنت يا امرأة تتقلبت من "عبد العزيز" لـ "عبد اللطيف" ... وا يعلم بالباقين!.. أعوذ بـا ! لا يا عبده.. الظن إثم يا أخي كما يقول القرآن.. من يعرف!؟ متى يتوب عليك ربنا يا عبده من الشارع ومن فيه؟!. لا الدكتور "عبد العزيز" فتح عيادة، ولا الأسطى "عبد المعبود" فتح المجلة لتعمل فيها، ولا الباشمهندس طلبك لتعمل في هندسة الري!

"عبد الحي" هو الذي يمنيك خيرا عندما تفتح المجلة، ويطلب منك دائما أن تصبر للصيف، ثم يضحك قائلا: "الصيف ضيعت اللبن"!. أي لبن يا شيخ "عبد الحي"..

اضحك على راحتك، فكل شيء راق لك وحلا.. راقت الدنيا كلها ونال كل إنسان في الشارع ما طلبه. "عبد المعبود" رجع إلى مطبعته من زمن، وانزاحت الوزارة صـنيعة السياسـة الإنجليزية وجاءت وزارة لتصلح الأحـوال، وبيـت "أمـين أفندي" أنقذ من الهدم وعينت "رجاء صدقي" ممثلة في فرقـة الحكومة، ولم تجد ما تفعله غيـر أن تشـتمني بعـد طـول الخدمة! وحتى "شكري عبد العال" يقولون إنه راجـع إلـى الجيش في وظيفة كبيرة بمصلحة الحدود بعيدا عـن وجـع الدماغ.. و "سميرة" تتزوج الآن، ربما تزوجت بعدها "سعاد هانم" أيضا!

لا أحد في الشارع نكبته الدنيا مثلك أنت "يا عبده"! أنـت و "شوقي" وبيت "داود أفنـدي"!.. مـات "سـعد" واختفـت "ألطاف".

ومن يوم ما مات "سعد" لم يعد أحد يستطيع أن يتكلم إلـى "شوقي" هو دائما هناك في بيت "داود أفندي"! كـان ا فـي عون الكل!..

للدنيا أحوال عجيبة يا عبده.. الليلة البارحة رجع "شوقي" من بيت "داود أفندي"، وقعد على مكتبه وحط رأسه على يده، ولم يذاكر..

وبعدها قام لينام والدموع في عينيه..

وقال لأخيه عبد اللطيف بصوت مخنوق: إيه رأيك أنا عاوز أدخل الحربية أقعد سنة ونص واتخرج واتجوز "صفية أخت "سعد".

ساعتها ضحك "عبد اللطيف" ولكنك أنت يا عبده لم تضحك.

حكم! يفكر في الزواج من أخت "سعد" هو الذي كان يعض الأرض عندما مات!؟. كيف ينام في حضنها؟!. كيف تنام في حضنه وتعطيه نفسها؟ حكم..!.. أحوالها عجيبة وأمرها عجيب هذه الدنيا..

وفي الحق أن "شوقي" أصبح لا يطيق البعد عن بيت "داود أفندي". وعبثا نصحه أخوه "عبد اللطيف" أن يلتفت إلى المذاكرة، ولكن نفسه تضيق بأي كلام، وهو الآن يشعر براحة خفية لأن "عبد العزيز" ينام في مكان عمله، ويقيم هناك على الدوام.

حتى لحظات الحنين الخارق إلى "عبـد العزيـز" كانـت لا تخلو عند "شوقي" من هذا الشعور بالراحة لأنه آمن مـن التأنيب.. فملاحظات "عبد اللطيف" مهما تكن، ليسـت مثـل أوامر "عبد العزيز"، وكلمات الزاجرة.

و "شوقي" الآن متعود كلما رجع من المدرسة أن يرمـي كتبه، ويغسل وجهه ويمشط شعره بعناية، ويذهب إلى بيـت "داود أفندي" وهناك يتحدث مع "عديلة هانم"، و "صفية"..

ولكم كظم غيظه وهو ينظر إلى "داود أفنـدي" فـإذا رآه يخرج من حجرة "سعد" بعينين عكرتين من البكـاء، وامـتلأ بالإشفاق، وأوشك أن يتقدم إليه بندم المغفرة على مشـاعره ضده، ثم يعود مرة أخرى فيسخط عليه، وتختلط في نفسـه الشفقة بالاشمئزاز..!

وتعود "شوقي" أن يرى نظرات "عديلة هانم" تشيع زوجها وهو يخرج بضراعة ودعاء: ا يصبرك ويقويك ويكون في عونك يا داود.

وهي منذ هربت ألطاف توصي ابنتها صـفية أن ترعـى أباها، فما تملك هي القوة بعد؟! نبرات صوتها تحمـل أسـفا لفراق ألطاف ورثاء لزوجها!..

وأوشك "شوقي" أن يحكي لجدة "سعد".. التي لم تعد تقوى على الحركة منذ مات.. ولكنه رآهـا أمامـه تتهشـم هـي الأخرى، وفي بياض وجهها يسري شحوب باهـت متحجـر كرخام القبور!

وذات مساء.. لا يعرف "شوقي" كيف حدث هذا.. في ذلك المساء وجد "صفية" وحيدة والصـغيرات مـع الجـدة فـي الداخل... وسألها عن أمها فدمعت عيناها.. وعرف منها أنها ذهبت لتزور القبر وحيدة بلا مناسبة للزيارة، ودمعت عينـا "صفية"..

وكان هو يشعر في أغوار قلبه بلاعج غريـب وبرغبـة حارة في أن يصرخ في وجه العالم ويقذف بأي شـيء فـي وجه الفضاء!..

كان يتحدى الخواء..

ولكنه تقدم إلى "صفية" يسكتها، وعندما مست يده ذراعها، وجد نفسه يمسك بكتفيها، والتفت يداه حولها، وإذا به يعانقها ويبكي؟ ... يبكي بعنف وبانهيار، وهي في أحضانه تماما..

وعندما رفع رأسه عن كتفها كانت هي تسكته..

والتفت نظراتهما لحظة.. نظرات تغـوص إلـى القلـب وتحكم الإحساس بكل شيء آخر..

واندفعا معا في وقت واحد بلا كلمة يتعانقان.. وتماسـت الشفاه المنداة بالدمع، واختلج بدناهما بغتـة فتعانقـا أكثـر فأكثر!..

وظللتهما سكينة رائعة وهما يحتضنان بعضهما بعضا..

وظلا يشربان الأنفاس المشتركة في صمت.. وشيئا فشيئا بدأ يشعر بنهديها منغرسين في صدره بكل ما تشعله الأنثـى في أعصاب رجل من لذة خارقة... وأحس بغتة بالرجل فـي أعماقه يتمطى، فأوشك أن يعتصر بدنها اللادن البض وتسللت رائحة لحمها إلى النخاع منه، وارتعش..

وفجأة نحاها وتنحى بعيدا عنها.. وانحط على طرف كنبة في الصالون منكمشا يتصبب العرق منه ويكاد يغمر عينيه!..

واقتربت منه "صفية" في رقة بالغة، وأنفاسها تتابع بهدوء:

- مالك يا شوقي؟!

ولم يستطع أن يرفع رأسه ويضع عينيه في عينيها فتمتم:

- أنا آسف.. مكسوف منك ومن نفسي!.. أنا..!

واختنق صوته.

ولكنها قالت له في رقة حانية حزينة:

- احنا ما عملناش حاجـة وحشـة علشـان تنكسـف يا شوقي! أنا كنت شاعرة اني مع سعد أخويا! افتكرته رجع من سفر بعيدا!

وتهدج صوتها وغاض في البكاء..

وارتفع نشيجه هو الآخر، ومال برأسه على طرف الكنبة وكل جسده ينتفض من النحيب، وعلى صوت البكاء أقبلـت جدة "سعد" تمشي بجهد مستندة إلى أخت "صفية" الصـغيرة، وطبطبت بيدها على كتف "شوقي" ... رفع "شوقي " رأسـه وجاشت نفسه، وقامت "صفية" تحمل كوب ماء لشوقي وجدة "سعد" تهمهم:

- ربنا يسوقك يا عديلة يا بنتي!.. لو كانـت "ألطـاف" قعدت.. أهي كانت بتبات معاكي فـي القرافـة كـل ما نفسك تروح على الزيارة يا حبيبتي!.

وأدرك "شوقي" أنه يجب أن يبحث لعديلة هانم فـي بلـده عن فتاة تخدمها، ووعد بهذا ففرحت "صفية"..

وتمنى لو استطاع أن يجلب لها كل بنات البلد.

على أنه عندما بدأ يكتب خطابا مستعجلا لأبيه يطلب منه خادما لعديلة هانم اعترضه "عبد اللطيف" ونصحه بألا يفعل، فلن يجيبه وعدل "شوقي" عن إرسال الخطاب لأبيه، ولكن لم يستطع أبدا أن ينسى صورة "صفية" وهي بين يديه!.

لم يستطع أن ينسى أبدا طعم دموعها في حلقه ولا ملمس شفتيها على شفتيه.. ولا كلماتها.. إنها إنما تعانق فيه أخاهـا "سعد"!

وعندما عاد بعد أيام استقبلته "عديلة هانم" معاتبـة لأنـه انقطع عن الزيارة أياما، وانكب على يدها يقبلهـا، فسـحبت يدها مبتسمة وقبلته في جبينه ورأسه.. وأنسام أبريل تتـدفق من النافذة، و "صفية" أمامه تنظر إليه وأنفاسها تتـابع فـي صمت وعمق..

ولما قامت "عديلة هانم" ترد على أمها في الداخل، وجـد "شوقي" نفسه وحيدا مع "صفية". لأول مرة بعـد انقطاعـه، وصورة "سعد" مجللة بالسواد أمامه على الحائط وليل أبريل يلف كل شيء في الخارج بالسكينة والأحلام والرغبـة فـي اقتحام الحياة!..

وأحس "شوقي" بالحاجة إلى أن يضع بدن "صـفية" فـي صدره ويغرسها في أغوار ضلوعه: ونظر إليها في حنـين ورقة ووجد.. وتلقت هي نظراته في تطلع حزين ولوعة! ولم تجرؤ على أن تتحرك.. كانت هي الأخرى تشعر بالحاجـة الجارفة إلى أن تغرس "شوقي" في أعماقها.

وبقي هو مكانه تحتدم في صدره الانفعالات المختلطـة.. فوقف وألح عليه الإحساس بنفسه.. وبجسمه ووجهه وأنفـه ويديه.. وارتبك.. وبقي في مكانه.. وقامت "صـفية" تسـأله بصوت كالهمسات:

- ايه يا شوقي!؟. مالك!

ولم يجرؤ على أن يجيب، ولم تقل هي شيئا بعد.

ودخلت "عديلة هانم".. فوجدت "صفية" واقفـة وتجاههـا "شوقي"، وهما صامتان.. وسألت مبتسمة!

- إيه يا ولاد!؟ مالك يا شوقي؟

وقعدت على الكنبة الكبيرة و "شوقي" يقف تحت النجفـة المضيئة منحينا باضطرام نفسه!.. وخجل مفـاجئ يعذبـه، ونسمات وانية من ليل أبريل تهف من الشباك المفتوح!..

وهز "شوقي" رأسه بعنف وعصبية كأنما ينفض عن نفسه شباكا علقت به، وقال لعديلة هانم.

- كان فيه عمال الصبح بيهـدوا بيـت الـدايرة اللـي قدامكم.. حضرتك شفتيهم؟. بيقولوا ان الشارع كلـه حاينهد!.. قـال عـاوزين يوسـعوه، ويرصـفوه.. صحيح!!؟

وامتعضت "عديلة هانم" لحظة ثم بان في وجههـا ذعـر يائس.. ولكنها عادت فأرخت أهدابها باستسلام قائلة بصوت مذعن فاجع:

- ما هي نينه كانت بتقولي جـوه!!.. يـاللا!.. يـروح راخر.. هو البيت حايكون أغلى من اللي راح!..

بينما وقفت "صفية" مروعة:

- البيت حاينهد؟!. مش معقول.. ده مش معقول!..

ونظرت اليها أمها باستغراب وحدة ووجيعـة. وتـرددت الزفرات في حجرة الصالون..

وخرج "شوقي" صامتا..

وعندما كان يدخل بيته سمع صوت "عبده" يزعق من شقة "عبد الحي":

- بقى بعد ما ألطاف تهج من الشارع علشان مش قادرة ترفع رأسها فيه يا ولداه.. بقى بعد مـا خافـت مـن الشارع وهربت، تقوم ييجي الشارع ينهد!!.. لا حول ا !..

لم تكن إذن مجرد كلمات قالها العمال الذين يهدون بيـت الدايرة.. فهذا هو "أمين أفندي" يصرخ:

- ا !.. هو ده الدستور؟!

و "ميمي" تبكي.. و "عبد اللطيـف" يقـول إن الحكومـة الإصلاحية ستتولى توسيع الشارع وتوسيع الحـارة الخلفيـة لتمد الشارع عبر الحارة إلى درب الجماميز.. ثـم ترصـفه وتنيره.. وهذا كله سيرفع قيمة أرض الشـارع.. وسيصـبح شارعا أماميا هاما..!

ولكن ميمي تصرخ في جزع ودموعها تنحدر بلا توقف:

- ونعمل إيه؟!.. ونبني تاني منين.. ونسكن بإيه طـول ما الشارع بيتهد!.. هيه فلوس التعويض حاتنفع بإيـه في البناية يا عبد اللطيف؟!.. ما فيش حـد يـرحم!؟.

حتى شكري بيه نفسه مـش سـائل!.. مـن سـاعة ما استلمنا الجواب النهارده الصبح واحنـا بنترجـاه يسعى لنا وهو يقول مافيش فايده.. فرحان يا سـيدي بتوسيع الشارع!.. حايفضل له أرض يبني عليهـا!.. لكن احنا نعمل ايه؟!. نعمل إيه يا عبد اللطيـف؟!.. نستلم الجواب النهارده ويبتهدوا الهد النهارده؟.. نعمل إيه بس؟

وفي الحق أن أحدا لم يكن يعرف ما العمل..

لم يفكر "عبد اللطيف" في هذا من قبل!.

إنه يعرف أن "شكري" يريد أن يبيع أرض بيته بعـد أن يرتفع ثمنها نتيجة لتوسيع الشارع، ويشتري مكانها أرضا في العباسية بجوار مصلحة الحدود التي سيعمل بها..

ولكن "شوقي" أخاه ما له هو الآخر.. لكأنـه يفقـد فـي الشارع شيئا عزيزا يمتلكه!.. كان يبدو عليه أول الأمر أنـه لا يصدق أن بيوت الشارع يمكن أن تنتزع ملكيتها، وتهـدم، ولكنه الآن يحمل على وجهه هذا اليقين المستسـلم، وخيبـة الأمل!..

هزته صرخات "ميمي" ودموع أم "رجاء" التي تعول أسفا على بعثرة الأحبة.. وتتساءل أين يمكن أن تجد شقة رخيصة كالتي تسكنها الآن.. هل اهتز شوقي مـن احتجـاج "أمـين أفندي" في فزعه، وذهوله أمام هذه الأوامر الجديدة؟!..

إن ما يعني شوقي حقا هو: أيـن يـذهب "داود أفنـدي" بأهله؟. أين تذهب "صفية"؟ أيؤجرون بيتا آخر، وتتطلع عليها عيون جيران آخرين؟!.. أم يستضيفهم أقاربهم مـن الـذين كانوا يترددون عليهم من قبل؟! هؤلاء الذين كان يضيق بهم "سعد"!..

ومن يدري.. أيعودون إلى الشارع أم يبيعـون أرضـهم ويشترون أرضا ويبنون في مكان آخر كما قرر "شكري بك" أن يصنع!.. من قال لهذه الحكومة إن أهل الشارع ضـاقوا بشارعهم الخلفي وإنهم يريدونه شارعا أماميا مضيئا؟!

مازال (أمين أفندي) يئن وامرأته (ميمي) تبكـي وتطلـق احتجاجها الرهيب!.. ما العمـل؟.. كيـف يـدبرون المـال للبناء!!.

ولكن "عبد المعبود" لا يبالي.. كيف تظنه سـيبكي معـك يا "شوقي" على الشارع ولكنه قال ببساطة:

- دايما اللي بينهد بينبني بدالـه أحسـن منـه!.. بـس غيرشي العشرة ما تهونش والفرقة صـعبة!.. لكـن بكره برضه يتلم الشمل!

وحتى أخوك "عبد اللطيف" الذي أصبح لا يفارق "ميمـي" أبدا. وأصبح يذهب إليها باستمرار و "أمـين أفنـدي" فـي الخارج، حتى "عبد اللطيف" يبدو أنه مسرور.. هـا هـو ذا يقول يا "شوقي" وأنت بجانبه في البلكونة تحدثه عن حزنـك على الشارع. ما احنا كنا حانسيب الشارع.. ونشوف لنا بقى شقة كبيرة مناسبة في الحلمية، يمكن "عبد العزيز" يفكر ياخد له فيها أودة يعملها عيادة.. وأنا كمان كلها سنتين وأتخرج.. عاوزين حاجة تناسب واحد دكتور وواحد محامي!!.. دلوقت على الأقل نعزل من الشارع ده من غير ما أبوك يعترض!؟

والذين ارتبطت بهم هنا عروقنا نفسها؟!.. والذين يعيشون بكل ذكرياتهم فـي حبـات قلوبنـا!!؟.. ألـيس لـك قلـب يا "عبد اللطيف"؟!.. ما الذي بينك وبين "ميمي" إذن؟!..

ألم يخفق قلبك لـ "درية" مثلا!!.. ألن تشـعر بالوحشـة لشيء هنا.. لأي شيء!!

واختنق صوت "شوقي" في دمعة، وظـل صـامتا أمـام أخيه.. ولكزه "عبد اللطيف" متلطفا وهو يطل من الشرفة:

- شايف.. شايف عمك شكري وكمـال الصـفطاوي؟ عارف هم رايحين فين؟.. شايف "شكري بيه" ماشـي فرحان هايص ازاي يا وله.. دول رايحـين ياخـدوا خاطر "داود أفندي" علشان كتـب الكتـاب.. كمـال حايكتب على سميرة في نفس ليلة كتب كتاب شكري على سعاد، أفراح بالجملة زي الأفـراح فـي آخـر روايات روض الفرج!.. هيص يا عم شكري بالست سعاد..

ماذا؟!.. أتضحك يا عبد اللطيف" ألا يمتلئ سمعك بعويل "أمين أفندي" و "ميمي هانم"؟!.. لكم كان "أمين" سعيدا مـن قبل عندما أعيد الدستور، وحفظ له بيته، وخيـل إليـه أنـه انتصر على دائرة البرنس عزيز!.. ولكنه اليـوم لا يواجـه الدائرة، وإنما يواجه ما تسميه يا "عبد اللطيـف" إجـراءات حكومة الإصلاح!.. كان قانعـا بيتـه وبالشـارع الخلفـي الضيق.. تعود كل ما فيه، تعود رائحته، وترابه وكل ما فيه حتى المآسي!..

خفف عنه أنت يا "عبد اللطيف" بدلا من أن تمتلئ بهـذا الفرح لأننا أخيرا سنترك الشارع!..

ما الذي يضايقك في هذا الشارع؟ ألم تستمتع به دائما؟!.. وأنت أيضا يا "شكري".. ماذا دهاك يا "عم شكري"؟! الشارع نفسه ينهد، وأنت سعيد، تفكر في سكن آخـر، وتفكـر فـي الزواج؟..

إن الخبر وقع على "عديلة هانم" كخبطـة مفاجئـة علـى الرأس، ولكنها بائسة مفزعة لا تبالي بأي شيء بعد ما ضاع منها ابنها نفسه! ألا يوجد شيء يمكن عمله يا "عم شكري"؟..

وأنـت يـا "عبـد اللطيـف"، أنـت و "عبـد المعبـود" و "عبد الحي" ألا تكتب مقالا يا "عبد الحي" في المجلة التـي ستصدر؟! هيهات؟.. ألا يشعر أحدكم بفاجعـة مـن تفـرق الأحباء.. أيها الناس.. أليست لكم قلوب؟..

بلى يا "شوقي".. لي مثلك قلب!!

ولكن الحياة تمضي!..

